مكتبة مصر



بين القصرين

نجيب محفوظ

بين القصرين

تأليف

نجيب محفوظ

يطلب من :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي " الفجالة "

دار الكتاب العربي بمصر

- ١ -

عند منتصف الليل استيقظت . كما اعتادت أن تستيقظ في هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره ، ولكن بايحاء من الرغبة التي تبيت عليها فتواظب على ايقاظها في دقة وأمانة . وظلت لحظات على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الاحساس . حتى بادرها القلق الذي يلم بها قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها ، فهزت رأسها هزة خفيفة وفتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس . لم يكن ثمة علامة تستدل بها على الوقت . فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتى مطلع الفجر ، والأصوات المتقطعة التي تترامى اليها أول الليل من سمار المقاهي وأصحاب الحوانيت هي هي التي تترامى عند منتصفه والى ما قبيل الفجر ، فلا دليل تطمئن اليه الا احساسها الباطني ــ كأنه عقرب ساعة واع ــ وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلمه .

هي العادة التي توقظها في هذه الساعة ، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها ، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية ، أن تستيقظ في منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام . وجلست في الفراش بلا تردد لتتغلب على اغراء النوم الدافىء ، وبسملت ثم انزلقت من تحت الغطاء الى ارض الحجرة ، ومضت تتلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلفة الشباك حتى بلغت الباب ففتحته ، فانساب الى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح قائم على الكونصول في الصالة ، فدلفت منه وحملته وعادت به الى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف بها حاشية من الظلال ، ثم وضعته على خوان قائم بازاء الكنبة . وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتها المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية المتوازية ، الا انها لاحت كريمة الأثاث ببساطها الشيرازي وفراشها الكبير ذي العمد النحاسية الأربعة

والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطاة بسجاد صغير المقطع مختلف النقوش والألوان . واتجهت المرآة الى المرآة وألقت على صورتها نظرة فرأت منديل رأسها البنى منكمشا متراجعا وقد تشعثت خصلات من شعرها الكستنائى فوق الجبين ، فمدت أصابعها الى عقدته فحلتها وسوته على شعرها وعقدت طرفيه فى أناة وعناية ، ومسحت براحتيها على صفحتى وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم . كانت فى الأربعين ، متوسطة القامة ، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتلىء فى حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب ، أما وجهها فمائل الى الطول مرتفع الجبين دقيق القسمات ، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حالمة ، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحتيه ، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب ، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقى . وقد بدت وهى تتلفع بخمارها كالمتعجلة ، واتجهت صوب باب المشربية ففتحته ودخلت ، ثم وقفت فى قفصها المغلق تردد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التى تملأ أضلافها المغلقة الى الطريق .

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين ، ويلتقى تحتها شارعا النحاسين الذى ينحدر الى الجنوب وبين القصرين الذى يصعد الى الشمال ، فبدا الطريق الى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا بظلمة تكثف فى أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت النائمة ، وتخف فى أسافله بما يلقى اليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل السهر حتى مطلع الفجر ، والى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى ، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا ، فلا يلفت النظر به الا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة . منظر ألفته منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنها لم تسأمه ، ولعلها لم تدر ما السأم طوال حياتها على رتابتها ، وعلى العكس وجدت فيه أنيسا لوحشتها وأليفا لوحدتها عهدا طويلا عاشته وكأنه لا أنيس ولا أليف لها . كان ذلك قبل أن يأتى الأبناء الى هذا الوجود ، فلم يكن يحوى هذا البيت الكبير — بفنائه الترب وبئره العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة العالية الأسقف — سواها ، أكثر النهار والليل . وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها ، فسرعان ما وجدت

نفسه ، عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربة للبيت الكبير ، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام فى حجرة الفرن بالفناء تاركة اياها وحيدة فى دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح ، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة .

ولكى يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مادة يدها بالمصباح أمامها فتلقى فى أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها باحكام ، واحدة بعد أخرى ، مبتدئة بالطابق الأول مثنية بالطابق الأعلى ، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين ، ثم تنتهى الى حجرتها فتغلق بابها وتندس فى الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم . ولشد ما كانت تخاف الليل فى عهدها الأول بهذا البيت ، فلم يغب عنها — هى التى عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرف عن عالم الانس — انها لا تعيش وحدها فى البيت الكبير ، وأن الشياطين لا يمكن أن تضل طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية ، ولعلها آوت اليها قبل أن تحمل هى الى البيت ، بل قبل أن ترى نور الدنيا ، فكم دب الى أذنيها من همساتهم وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم ، وما من مغيث الا أن تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع الى المشربية فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها الى أنوار العربات والمقاهى وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها انفاسها .

ثم جاء الأبناء تباعا ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبدد خوفا ولا يطمئن جانبا ، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار فى نفسها المتهافتة من اشفاق عليهم وجزع أن يمسهم سوء ، فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم فى اليقظة والمنام بدرع من السور والأحجبة والرقا والتعاويذ ، أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته . ولم يكن غريبا ، وهى منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، أن تضمه الى صدرها فجأة ثم تتصنت فى وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصا حاضرا : « ابعد عنا ، ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون » ثم تتلو الصمدية فى عجلة ولهوجة . وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيرا واطمأنت لدرجة الى دعاباتهم التى لم تجر عليها سوءا قط ، فكانت اذا ترامى اليها حس طائف منهم قالت له فى نبرات لا تخلو من دالة : « الا

تحترم عباد الرحمن ! .. الله بيننا وبينك فاذهبعنا مكرما » . ولكنها لم تكن تعرف الطمأنينة الحقة حتى يعود الغائب . أجل كان مجرد وجوده بالبيت ـ صاحيا أو نائما ـ كفيلا ببث السلام فى نفسها ، فتحت الأبواب أم أغلقت ، اشتعل المصباح أم خمد . وقد خطر لها مرة ، فى العام الأول من معاشرته ، ان تعلن نوعا من الاعتراض المؤدب علىسهره المتواصل فما كان منه الا أن امسك بأذنها وقال لها بصوته الجهورى فى لهجة حازمة : « أنا رجل ، الآمر الناهى ، لا أقبل علىسلوكى أية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة ، فحاذرى أن تدفعينى الى تأديبك » ، فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به انها تطيق كل شيء ـ حتى معاشرة العفاريت ـ الا أن يحمر لها عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط ، وقد أطاعت ، وتفانت فى الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو فى سرها ، ووقر فى نفسها أن الرجولة الحقة والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد ، ثم انقلبت مع الأيام تباهى بما يصدر عنه سواء ما يسرها أم ما يحزنها ، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبة المطيعة المستسلمة . ولم تأسف يوما على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم ، وانها لتستعيد ذكريات حياتها فى أى وقت تشاء فلا يطالعها الا الخير والغبطة ، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحق الا ابتسامة رثاء ، ألم تعاشر هذا الزوج بعلاته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته أبناء هم قرة عينيها وبيتا مترعا بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة ؟ .. بلى ، أما مخالطة العفاريت فقد مرت كما تمر كل ليلة بسلام ، وما امتدت يد أحدهم اليها أو الى أحد من أبنائها بسوء اللهم الا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه ، فلا وجه للشكوى ، ولكن الحمد كل الحمد لله الذى بكلامه اطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها .

حتى ساعة الانتظار هذه ، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهى بزوال النهار ، أحبتها من أعماق قلبها ، ففضلا عن انها استحالت جزءا لا يتجزأ من حياتها ، ومازجت الوفير من ذكرياتها ، فانها كانت ولم تزل الرمز الحى لحدبها على بعلها وتفانيها فى اسعاده ، واشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفانى وذاك الحدب . لهذا امتلأت ارتياحا وهى واقفة فى المشربية ، وراحت تنقل بصرها خلال ثقوبها مرة الى سبيل بين القصرين ومرة الى منعطف الخرنفش وأخرى

الى بوابة حمام السلطان ورابعة الى المآذن ، أو تسرحه بين البيوت المتكاثفة على جانبي الطريق فى غير انتظام أو تناسق كأنها طابور من الجند فى وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام . وابتسمت للمنظر الذى تحبه ، هذا الطريق الذى تنام الطرق والحوارى والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر ، فكم سلى أرقها وآنس وحشتها وبدد مخاوفها ، لا يغير الليل منه الا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيىء لأصواته جوا تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التى تملأ أركان اللوحة فتضفى على الصورة عمقا وجلاء ، لهذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق فى حجرتها ، ويسمع الكلام العادى فتميزه كلمة كلمة ، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خاتمته التى تشبه الأنين ، ويرتفع صوت النادل وهو ينادى : « تعميرة نادية » كهتاف المؤذن فتقول لنفسها فى سرور : « لله هؤلاء الناس .. حتى هذه الساعة يطلبون مزيدا من التعميرة » ، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول : « ترى أين يكون سيدى الآن ؟ ... وماذا يفعل ... فلتصحبه السلامة فى الحل والترحال » . اجل قيل لها مرة ان رجلا كالسيد احمد عبد الجواد فى يساره وقوته وجماله ـ مع سهره المتواصل ـ لا يمكن أن تخلو حياته من نساء ، يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد ، ولما لم تواتها شجاعتها على مشافهته بما قيل افضت بحزنها الى أمها ، فجعلت الأم تسكن خاطرها بما وسعها من حلو الكلام ، ثم قالت لها : « لقد تزوجك بعد أن طلق زوجته الأولى ، وكان بوسعه أن يستردها لو شاء ، أو أن يتزوج غيرك ثانية وثالثة ورابعة ، وقد كان أبوه مزواجا ، فاحمدى ربنا على أنه أبقاك زوجة وحيدة » . ولو أن حديث أمها لم يجد مع حزنها وقت اشتداده الا أنها مع الأيام سلمت بما فيه من حق ووجاهة ، فليكن ما قيل حقا فلعله من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد ، وشر على أى حال خير من شرور كثيرة ، وليس من الهين ان تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرغد ، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله ان يكون وهما أو كذبا . ووجدت ان موقفها من الغيرة ، شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها ، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد الى وسيلة فى مقاومتها الا أن تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية ، ملاذها الأوحد فى مغالبة ما تكره ،

فانقلبت الغيرة وأسبابها ، كطباع زوجها الأخرى ، وكمعاشرة العفاريت ، مما تحتمل .

جعلت تنظر الى الطريق وتنصت الى السمار حتى ترامى اليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرأت « حنطورا » يقترب وئيدا ومصباحاه يسطعان فى الظلام ، فتنهدت فى ارتياح وغمغمت « أخيرا ... » . ها هو « حنطور » أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة الى باب البيت الكبير ثم يمضى كالعادة الى الخرنفش حاملا صاحبه ونفرا من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحى . ووقف « الحنطور » امام البيت ، وارتفع صوت زوجها وهو يقول فى نبرات ضاحكة :

ــ أستودعكم الله ...

وكانت تنصت الى صوت زوجها وهو يودع اصحابه بشغف ودهشة ، ولولا أنها تسمعه كل ليلة فى مثل هذه الساعة لأنكرته ، فما عهدت منه ــ هى وابناؤها ــ الا الحزم والوقار والتزمت ، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوكة التى تسيل بشاشة ورقة !.. وكأن صاحب «الحنطور» اراد أن يمازحه فقال له :

ــ أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة .. قال انه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كل ليلة الى بيته وهو لايستحق أن يركب الا حمارا ...

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيدحتى عادوا الىالسكون ثم قال يجيبه :

ــ اما سمعت بماذا اجابته نفسه ؟.. قالت اذا لم توصله انت فسيركب البك صاحبنا ..

وضج الرجال ضاحكين مرة اخرى ، ثم قال صاحب العربة :

ــ فلنؤجل الباقى الى سهرة الغد ..

وتحركت العربة الى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو الباب فغادرت المراة المشربية الى الحجرة ، وتناولت المصباح ومضت الى الصالة ، ومنها الى الدهليز الخارجى حتى وقفت فى رأس السلم . وترامت اليها صفقة الباب الخارجى وهو يغلق ، وانزلاج المزلاج ، وتخيلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردا هيبته ووقاره ، خالعا مزاحه

الذى لولا استراق السمع لظنته من مستحيل المستحيلات ، ثم سمعت وقع طرف عصـــاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله ..

- ٢ -

وانتهى الرجل الى موقفها فراحت تتقدمه رافعـــة المصباح ، فتبعها وهو يتمتم :

ـــ مساء الخير يا أمينة

فقالت بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :

ـــ مساء الخير يا سيدى

وفى ثوان احتوتهما الحجرة ، فاتجهت أمينة الى الخوان لتضع المصباح عليه ، فى حين علق السيد عصاه بحافة شباك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التى تتوسط الكنبة ، ثم اقتربت المرأة منه لتنزع عنه ملابسه . وبدا فى وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليهـــا جميعا جبـــة وقفطـــان فى اناقة وبحبحة دلتا على رفاهة ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتى رأسه فى عناية بالغة ، وخاتمة ذو الفص الماسى الكبير ، وساعته الذهبية ، الا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمســـتطيل الهيئـــة مكتنز الأديم قوى التعبير واضح الملامح ، يدل فى جملته على بروز الشخصية والجمـــال بعينيه الزرقاوين الواســـعتين ، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين ، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها . ولما تدانت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبة عنه وأطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكنبة ، وعادت اليه ففكت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرجه بالعنـــاية نفسها لتضعه فوق الجبة ، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طاقيته البيضاء فلبسها ، وتمطى وهو يتثاءب وجلس على الكنبة ومد ساقيه مسندا قذاله الى الحائط . وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه الممدودتين وراحت تخلع حذاءه

وجوربيه ، ولما كشفت قدمه اليمنى بدا اول عيب فى هذا الجسم الهائل الجميل فى خنصره التى تآكلت من توالى الكشط بالموسى فى موضع كالثؤلول مزمن . وغادرت امينة الحجرة فغابت دقائق ثم عادت بطست وابريق . فوضعت الطست عند قدمى الرجل ووقفت والأبريق فى يدها على اهبة الاستعداد ، فاستوى السيد فى جلسته ومد لها يديه فصبت له الماء فغسل وجهه ومسح على راسه وتمضمض طويلا ، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنبة ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به الى الحمام . كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدى من خدمات فى البيت الكبير ، وقد واظبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعتريها الكلال ، بل فى سرور وانشراح ، وبنفس الحماس الذى يستفزها الى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها ، فاستحقت من أجله ان يطلق عليها جاراتها اسم « النحلة » لدابها ونشاطها المتواصلين .

وعادت الى الحجرة فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلتة فوضعتها امام الكنبة وتربعت عليها اذ لم تكن ترى لنفسها الحق فى ان تجلس الى جانبه تأدبا ، ومضى الوقت وهى ملازمة الصمت حتى يدعوها الى الكلام فتتكلم . وتراخى ظهر السيد الى مسند الكنبة ، وبدا عقب سهرته الطويلة متعبا فثقل جفناه اللذان جرى فى اطرافهما احمرار طارىء من أثر الشرب ، وجعل يزفر أنفاسا ثقيلة مخمورة . ومع أنه كان يعاقر الخمر كل ليلة ، الى افراط فى الشرب حتى السكر ، الا انه لم يكن ليقرر العودة الى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على وقاره والمظهر الذى يحب ان يبدو به فى بيته . وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذى يلقاه فى أعقاب سهرته ، ولكنها لم تلمس من آثار الشراب الا رائحته ، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذا مريبا ، الا ما كان يبدر منه اول عهده بزواجها وقد تناسته ، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له فى هذه الساعة اقبالا منه فى الحديث وتبسطا فى فنونه قل ان تظفر بمثله فى اوقات افاقته الكاملة . وانها لتذكر كم ارتعبت يوم ادركت انه يعود من سهرته ثملا . واستدعت الخمر الى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهى الأفظع ، فتقززت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته

كلما عاد آلاما لا قبل له بها . وبمضى الأيام والليالى ثبت لها أنه حين عودته من سهرته يكون ألطف منه فى جميع الأوقات . فيتخفف من صرامته ، وترق ملاحظته ، ويسترسل فى الحديث ، فاستأنست اليه واطمأنت وان لم تنس ان تضرع الى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه . وكم تمنت لو يتطبع بنفس اللين النسبى وهو صاح منتبه ، وكم عجبت لهذه المعصية التى ترقق حواشيه . وتحيرت طويلا بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تجنى منها من راحة وسلام ، ولكنها دفنت أفكارها فى أعماق نفسها ، ودارتها مداراة من لا يطيق ان يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفسه . اما السيد فكان احرص ما يكون على وقاره وحزمه ، وما يصدر عنه من لطف فخلسة يصدر ، وربما جرت على شفتيه ابتسامة عريضة — فى جلسته هذه — لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه الى نفسه ، ويطبق شفتيه ، ويسترق الى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين ، فيطمئن ويعود الى ذكرياته . والحق ان سهرته لم تكن تنتهى بعودته الى بيته ، ولكنها تواصل حياتها فى ذكرياته ، وفى قلبه الذى يجذبها اليه بقوة نهم الى مسرات الحياة لا يروى ، وكأنه لا يزال يرى مجلس الأنس تزينه النخبة المختارة من أصدقائه واصفيائه ، ويتوسطه بدر من البدور التى تطلع فى سماء حياته حينا من بعد حين ، وما برحت تطن فى أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التى تجود قريحته بدررها اذا هزه السكر والطرب ، وهذه الملح خاصة يراجعها فى عناية واهتمام ينضحان بالعجب والزهو ، ويتذكر أثرها فى النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأول لكل نفس ، ولا عجب فانه كثيرا ما يشعر بأن الدور الذى يلعبه فى سهرته من الخطورة كأنه امل الحياة المنشود ، وكأن حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها فى سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه . وبين هذا وذاك تسجع فى باطنه انغام حلوة لطيفة مما تردد فى المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه : « آه .. الله أكبر » ، هذا الغناء الذى يحبه كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور ، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه ، ولا يأبه للشقة البعيدة يقطعها الى أطراف القاهرة ليسمع الحامولى او عثمان او المنيلاوى

حيثما تكون مغانيهم ، حتى آوت انغامهم الى نفسه السخية كما تأوى البلابل الى شجرة مورقة ، فاكتسب دراية بالنغم والمذاهب وتوج حجة فى السماع والطرب . وكان يحب الغناء بروحه وجسمه ، اما روحه فتطرب وتغمرها الأريحية ، واما جسمه فتهتاج حواسه وترقص أطرافه خاصة الراس واليدان ، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى ، مثل : « وليه بقى تلاويعك وهجرك » او : « يا ما بكره نعرف .. وبعده نشوف » او : « اسمع بقى وتعالى اما اقول لك » وكان حسبه أن تهفو اليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كى تهيج موطن السكر من نفسه فيهز رأسه طربا وترف على شفتيه ابتسامة اشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنما اذا كان الى نفسه خاليا . ومع هذا فلم يكن الغناء هوى منفردا يجذبه لذاته فحسب ، ولكنه كان زهرة فى طاقة يحلو بها وتحلو به ، أهلا به ومرحبا بين الصديق الصافى والحبيب الوفى والشراب المعتق والملحة العذبة ، اما ان يصغو له وحده ـ كما يتلقى فى البيوت عن الفونوغراف ـ فهو جميل حبيب بلا شك ، ولكنه غاب عن جوه وبيئته وملابساته ، وهيهات أن يقنع به القلب ، انه يتوق الى ان يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس ، وان يسابق الترديد بالنهل من كاس مترعة ، ويرى اثر التطريب فى وجه الصديق وعين الحبيب ، ثم يتعاونون جميعا على التهليل والتكبير . بيد ان السهرة لم يقتصر اثرها على بعث الذكريات ، فمن مزاياها أيضا أنها تهيئه فى اعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذى تتلهف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدى رجل حلو المعشر يتبسط معها فى الحديث ويفضى اليها بما فى طويته على نحو يشعرها ولو الى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضا . وهكذا راح يحدثها عن شؤون البيت فانبأها بأنه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجبن ، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التى تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام ، وكعادته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون فى المدينة كالجراد ويعيثون فى الأرض الفساد . والحق انه كان يحنق على الأستراليين لسبب خاص به وهو إنهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالى اللهو والطرب

فى الأزبكية فارتد عنها مغلوبا على امره - الا فى القليل النادر من مختلس الفرص - لأنه لم يكن يسعه ان يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهارا ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والاهانة عليهم بغير رادع . ثم مضى يسأل عن حال « الأولاد » كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل اغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى :

- وكمال ؟!.. اياك وان تتسترى على شيطنته !

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذى تتستر عليه حقا فيما لا خطر له من اللعب البرىء ، وان كان السيد لا يعترف ببراءة أى لون من الوان اللعب واللهو ، وقالت بصوتها الخاشع :

- انه يلتزم أوامر أبيه .

وصمت السيد قليلا فبدا كالشارد ، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة ، ثم تراجع مؤشر ذاكرته الى ما سبق سهرته من احداث يومه فتذكر فجأة أنه كان يوما حافلا ، ولما كان فى حال لا يستحب معها كتمان شىء مما يطفو على سطح الوعى فقد قال وكأنه يخاطب نفسه :

- ياله من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين ! اما علمت بما فعل ؟.. أبى أن يعتلى عرش أبيه المتوفى فى ظل الانجليز .

ومع أن المرأة علمت بوفاه السلطان حسين كامل أمس الا أنها كانت تسمع اسم ابنه لأول مرة ، ولم تجد ما تقول ولكنها - مدفوعة بعواطف الاجلال للمتكلم - كانت تخاف الا تعلق على كل كلمة يقولها بما يرضيه فقالت :

- رحم الله السلطان واكرم ابنه .

فاستطرد السيد قائلا :

- وقبل العرش الأمير احمد فؤاد أو السلطان فؤاد كما نسيدعى من الآن فصاعدا ، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل فى موكبه من قصر البستان الى سراى عابدين ... وسبحان من له الدوام .

وصغت أمينة اليه باهتمام وسرور ، اهتمام يستثيره فى نفسها اى نبأ يجىء من العالم الخارجى الذى تكاد لا تعرف عنه شيئا ، وسرور يبعثه ما تجد فى حديث بعلها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفتة عطف تزدهيها ، الى ما فى الحديث نفسه من ثقافة يلذ لها ان تعيدها على مسمع

من ابنائها وخاصة فتاتيها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجى جهلا تاما . ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرا من أن تردد على مسمعيه دعاء تعلم مقدما بمقدار ارتياحه اليه كما ترتاح اليه هى من أعماقها فقالت :

ـ ربنا قادر على أن يعيد الينا أفندينا عباس .

فهز الرجل راسه وتمتم قائلا :

ـ متى ؟.. متى ؟.. علم هذا عند ربى .. ما نقرا فى الجرائد الا عن انتصارات الانجليز ، فهل ينتصرون حقا او ينتصر الألمان والترك فى النهاية؟ اللهم استجب .

واغمض الرجل عينيه اعياء ، وتثاءب ، ثم تمطى وهو يقول :

ـ اخرجى المصباح الى الصالة .

ونهضت المرأة قائمة وذهبت الى الخوان فتناولت المصباح ومضت الى الباب ، وقبل ان تجوز العتبة سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت :

ـ صحة وعافية .

— ٣ —

وفى هدوء الصباح الباكر ، وذيول الفجر لاتزال ناشبة فى اسهم الضياء ، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء فى ضربات متتابعة كدوى الطبل . وكانت امينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة . فتوضأت وصلت ثم نزلت الى حجرة الفرن فأيقظت ام حنفى ـ امرأة فى الأربعين خدمت وهى صبية بالبيت وفارقته للزواج ثم عادت اليه بعد طلاق ـ وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت امينة على اعداد الفطور . وكان للبيت فناء متسع ، فى اقصاه الى اليمين بئر سدت فوهتها بعارض خشبى مذ دبت اقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من ادخال مواسير المياه ، وفى اقصى اليسار على كثب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن فى أحداهما واستعملت بالتالى مطبخا ، واعدت الأخرى مخزنا . وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبها لا تهن ، فلو حسب الزمن الذى قضته بين جدرانها لكان عمرا ، الى ما تتزين به الحجرة من مباهج المواسم عند حلولها حين تتطالع اليها القلوب الهاشة لأفراح الحياة ، وتتحلب الأفواه لألوان الطعام الشهية التى تقدمها موسما بعد موسم كخشاف

رمضان وقطائفه ، وكعك عيد الفطر وفطائره . وخروف عيد الأضحى الذى يسمن ويدلل ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمعة رثاء وسط بهجة شاملة . هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح فى أعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة فى السرائر وكأنها زينة العيد وبشائره. واذا كانت أمينة تشعر بأنها فى أعلى البيت سيدة بالنيابة وممثلة لسلطان لا تملك منه شيئا ، فهى فى هذا المكان ملكة لا شريك لها فى ملكها ، فهذه الفرن تموت وتحيا بأمرها ، وهذا الوقود من فحم وحطب فى الركن الأيمن يتوقف مصيره على كلمة منها . والكانون الذى يحتل الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية ينام أو يزغرد بألسنة اللهب باشارة منها . هى هنا الأم والزوجة والأستاذة والفنانة التى يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدم يداها ، وآية ذلك انها لا تفوز باطراء سيدها اذا تفضل باطرائها الا عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه . وام حنفى كانت اليد اليمنى فى هذه المملكة الصغيرة ، سواء تصدت أمينة للادارة والعمل ام تخلت عن مكانها لاحدى فتاتيها لتتمرس بفنها تحت اشرافها ، وهى امراة بدينة فى غير تنسيق ولا تفصيل ، نما لحمها نموا سخيا فراعى فى نموه السمنة فحسب واهمل اعتبارات الجمال ، بيد انها رضيت عنه كل الرضا لأنها كانت تعد السمنة فى ذاتها الجمال كل الجمال. ولا عجب فقد كان كل عمل لها فى البيت يكاد يعد ثانويا بالقياس الى واجبها الأول وهو تسمين الأسرة ـ أو بالأحرى اناثها ـ بما تعد لهن من «بلابيع» سحرية هى رقية الجمال وسره المكنون ، ومع أن أثر البلابيع لم يكن ناجعا دائما الا انه برهن على جدارته فى اكثر من مرة فاستحق ما يناط به من آمال وأحلام . فليس عجيبا بعد هذا ان تسمن أم حنفى ، على أن سمنتها لم تقلل من نشاطها ، فما ان ايقظتها سيدتها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل ، وخفت الى « ماجور » العجين . وتعالى صوت العجين الذى يؤدى وظيفة جرس المنبه فى هذا البيت ، فترامى الى الأبناء فى الدور الأول ، ثم تصاعد الى الأب فى الدور الأعلى ، منذرا الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد ازف . وتقلب السيد احمد عبد الجواد على جنبيه ثم فتح عينيه ، وسرعان ما قطب حانقا على الصوت الذى ازعج منامه ، ولكنه كظم حنقه لأنه كان يعلم انه يجب أن يستيقظ ، وتلقى أول احساس يتلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة ارادته وجلس فى فراشه

وان كانت تغلبه الرغبة فى معاودة النوم . ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار ، فهو يستيقظ فى هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب الى متجره قبيل الثامنة ، ثم له فى القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاته من نوم ، ويستعيد نشاطه للسهر الجديدة . لهذا كان وقت استيقاظه اسوأ اوقات يومه جميعا ، يغادر الفراش مترنحا من الاعياء والدوار ، ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقا فى الدماغ والجفون .

وتوالت دقات العجين على رءوس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمى . وكان استيقاظه يسيرا على رغم سهره عاكفا على كتب القانون ، فاذا استيقظ فأول احساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلا : « مريم » . ولو اذعن لسلطان الاغراء للبث تحت الغطاء طويلا ، خاليا الى الخيال الزائر الذى جاء يصحبه بألطف الهوى ، فيرنو اليه ما دعاه الشوق ويبادله الحديث ويبوح له بأسرار وأسرار ، ويتدانى اليه بجسارة لا تتأتى فى غير هذا الرقاد الدافىء من مطلع الصباح . ولكنه كعادته اجل نجواه الى صباح الجمعة وجلس فى فراشه ، ثم مد بصره الى أخيه النائم فى الفراش الذى يليه وهتف :

- ياسين .. ياسين .. اصح .

فانقطع شخير الشاب ، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من انفه :

- صاح .. استيقظت قبلك .

فانتظر فهمى مبتسما حتى عاود الآخر شخيره فصاح به :

- اصح ..

فتقلب ياسين فى فراشه متذمرا فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذى يضاهى جسم والده ضخامة وبدانة ، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقهما تقطيبة تنطق بالتذمر « اف .. كيف طلع الصبح بهذه السرعة !.. لماذا لا ننام حتى نشبع .. النظام .. دائما النظام .. كأننا عساكر » ، ونهض معتمدا على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحت منه التفاتة الى الفراش الثالث حيث يغط كمال فى نومه اللذى لن ينتزعه منه احد قبل نصف ساعة فغبطه عليه « ياله من غلام سعيد ! » . ولما افاق قليلا تربع على الفراش واسند رأسه الى يديه ، ورغب فى معابثة الخواطر اللذيذة التى تحلو بها احلام

اليقظة ولكنه كان يستيقظ ــ كأبيه ــ على حال من ثقل الرأس تتعطل معها الأحلام ، ولاحت لمخيلته زنوبة العوادة فلم تترك فى حساسيته اثرا مما تترك فى صحوه وان افترت شفتاه عن ابتسامة ..

وفى الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة الى منبه العجين ، كانت اشبه الأسرة بأمها فى نشاطها ويقظتها ، اما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التى تنبعث فى السرير من نهوض شقيقتها وانزلاقها الى أرض الحجرة فى عنف متعمد يجر وراءه جدلا وملاحاةانقلبا مع التكرار نوعا من الدعابة الفظة ، فاذا استيقظت وفرغت من النقار لم تنهض ، ولكنها تستسلم لحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها

ثم دبت الحياة فشملت الدور الاول كله ، فتحت النوافذ وتدفق النور الى الداخل وعلى اثره هفا الهواء حاملا صلصلة عجلات سوارس واصوات العمال ونداء بائع البليلة ، وتواصلت الحركة ما بين غرفتى النوم والحمام وبدا ياسين فى جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتل ، وفهمى بطوله الفارع وقده النحيف وكان ــ فيما عدا نحافته ــ صورة من ابيه . وهبطت الفتاتان الى الفناء لتلحقا بأمهما فى حجرة الفرن ، وكان فى صورتيهما اختلاف قل ان يوجد مثله فى الاسرة الواحدة ، خديجة سمراء وفى قسمات وجهها تنافر ملحوظ ، وعائشة شقراء تشع هالة من حسن ورواء

ومع ان السيد كان فى الدور الاعلى بمفرده الا ان امينة لم تدعه فى حاجة الى انسان ، وجد على الخوان طبق فنجان مملوءا حلبة ليغير ريقه عليها ، وذهب الى الحمام فتطاير الى أنفه عرف البخور الطيب ، والفى على كرسى ثيابا نظيفة مرتبة فى عناية ، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح عادة لا ينقطع عنها صيفا أو شتاء ــ ثم عاد الى حجرته مستجدا حيوية ونشاطا . ثم جاء بسجادة الصلاة ــ وكانت مطوية على مسند الكنبة ــ فبسطها وادى فريضة الصبح ، صلى بوجه خاشع ، وهو غير الوجه البسام المشرق الذى يلقى به أصحابه ، وغير الوجه الحازم الصارم الذى يواجه به آل بيته ، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التى الانها الترلف والتودد والاستغفار . لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود ، ولكن صلاة عاطفة وشعور واحساس يؤديها بنفس الحماس الذى ينفضه على الوان الحياة

التى ينقلب فيها جميعا ، كما يعمل فيتفانى فى عمله ، ويصادق فيفرط فى مودته ، ويعشق فيذوب فى عشقه ، ويسكر فيغرق فى سكره ، مخلصا صادقا فى كل حال ، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى ، حتى اذا انفتل من صلاته تربع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلأه برعايته ويغفر له ويبارك فى ذريته وتجارته

وفرغت الام من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين اعداد الصينية وطلعت الى حجرة الاخوة حيث وجدت كمالا مازال يغط فى نومه ، فأقبلت عليه باسمة وحطت راحتها على جبينه وتلت الفاتحة ، وجعلت تناديه وتهزه برفق حتى فتح عينيه ، ولم تدعه حتى فارق الفراش . ودخل فهمى الحجرة فلما رآها ابتسم اليها وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تترقرق فى عينيها :

ــ صباح النور يا نور العين ..

وبنفس الرقة صبحت على ياسين «ابن» زوجها فرد عليها بمودة خليقة بالمرأة التى تنزل من نفسه منزلة الأم الجديرة بهذا الاسم . ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهمى وياسين ــ وياسين خاصة ــ بما يغمرانها به عادة من دعابة . وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحاد رغم مالها من نفوذ على الأخوين بما تتعهد من شؤونهما بمهارة فائقة يندر أن تجود بمثلها عائشة التى تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة . وبادرها ياسين قائلا :

ــ كنا نتحدث عنك يا خديجة ، وكنا نقول أنه لو كان النساء جميعا على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب ..

فقالت على البداهة :

ــ ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعا من متاعب الرءوس ..

عند ذلك هتفت الأم قائلة :

ــ أعد الفطور يا سادة ..

— ٤ —

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين ، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس ورابعة خالية الا من بعض أدوات اللعب التى يلهو بها كمال فى أوقات فراغه . وكان السماط قد أعد وصفت حوله الشلت ، ثم جاء السيد فتصدره متربعا ، ودخل الأخوة الثلاثة تباعا فجلس ياسين الى يمين ابيه ، وفهمى الى يساره ، وكمال قبالته . جلس الاخوة فى أدب وخشوع ، خافضى الرءوس كأنهم فى صلاة جامعة ، يستوى فى هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل أغا ، فلم يكن أحد منهم ليجترىء على التحديق فى وجه أبيه . واكثر من هذا كانوا يتجنبون فى محضره تبادل النظر أن يغلب احدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزجرة مخيفة لا قبل له بها . ولم يكن يجمعهم بأبيهم الا مجلس الفطور لأنهم يعودون الى البيت عصرا بعد أن يكون السيد قد غادره الى دكانه عقب تناول الغداء والقيلولة ، ثم لا يعود اليه الا بعد منتصف الليل ، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكرى ، الى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم فى تحاميها ، فضلا عن أن الفطور نفسه يتم فى جو يفسد عليهم تذوقه واستلذاذه . ولم يكن غريبا أن يقطع السيد الفترة القصيرة التى تسبق مجىء الأم بصينية الطعام فى تفحص أبنائه بعين ناقدة حتى اذا عثر على خلل ولو تافه فى هيئة أحدهم أو بقعة فى ثوبه انهال عليه نهرا وتأنيبا ، وربما سأل كمالا بغلظة : « غسلت يديك ؟ » فاذا أجابه بالايجاب قال له آمرا : «أرنيهما» فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا ، وبدلا من أن يشجعه على نظافته يقول له مهددا : « اذا نسيت مرة أن تغسلهما قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منهما » . أو يسأل فهمى قائلا : « أيذاكر ابن الكلب دروسه أم لا ؟ » ويعرف فهمى بالبداهة من يعنى لأن «ابن الكلب» عند السيد كناية عن كمال فيجيب بأنه يحفظ دروسه جيدا ، والحق أن شطارة الغلام — التى استوجب عليها حنق أبيه — لم تقعد به عن الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه ، ولكن السيد كان يطالب أبناءه

بالطاعة العمياء الأمر الذى لايطيقه غلام اللعب أحب اليه من الطعـام ، ولهذا يعلق على اجابة فهمى خائلا بامتعاض : «الأدب مفضل عن العلم» . ثم يلتفت الى كمال ويستطرد بحدة : « سامع يا ابن الكلب ! » . .

وجاءت الأم حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضـعتها فوق السـماط وتقهقرت الى جدار الحجرة على كثب من خوان وضعت عليه « قلة » ، ووقفت متأهبة لتلبية أية اشارة . وكان يتوسط الصينية النحاسـية اللامعة طبق كبير بيضاوى امتلأ بالمدمس المقلى بالسمن والبيض ، وفى أحد طرفيها تراكمت الأرغفة الساخنة ، وفى الطرف الآخر صفت أطباق صغيرة بالجبن ، والليمون والفلفل المخللين ، والشطة والملح والفلفل الأسود ، فهاجت بطون الأخوة بشـهوة الطعام ، ولكنهم حافظوا على جمـودهم متجاهلين المنظر البهيج الذى أنزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكنا ، حتى مد السـيد يده الى رغيف فتناوله ثم شـطره وهو يتمتم « كلوا » ، فامتدت الأيدى الى الأرغفة فى ترتيب يتبع السن ، ياسين ففهمى ثم كمال ، وأقبلوا على الطعام ملتزمين ادبهم وحياءهم . ومع أن السيد كان يلتهم طعامه فى وفرة وعجلة وكأن فكيه شطرا آلة قاطعة تعمل فى سرعة وبلا توقف ، ومع أنه كان يجمع فى لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المقدمة — الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخللين — ثم يأخذ فى طحنها بقوة وسرعة وأصابعه تعد اللقمة التالية ، الا انهم كانوا يأكلون متمهلين فى أناة بالرغم مما يحملهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية ، فلم يكن ليغيب عن أحدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية اذا تهاون أو ضعف فنسى نفسه وغفل بالتالى عما يأخذها به من التأنى والأدب . وكان كمال أشـدهم تبرما لأنه كان أعظمهم تخوفا من أبيه ، واذا كان أكثر ما يتعرض له أحد أخويه نهرة أو زجرة فأقل ما يتعرض له هو ركلة أو لكمة ، فلذلك كان يتنـاول طعـامه فى حذر وضـيق ، مسترقا النظر بين آونة وأخرى الى المتبقى من الطعـام الذى يتناقص سريعا ، وكلما تناقص اشتد قلقه ، وانتظر فى جزع أن يصـدر عن أبيه ما يدل على فراغه من طعـامه فيخلو له الجو ليملأ بطنـه . وعلى رغم سرعة أبيه فى الالتهـام وضخامة لقمته وتشبعها بشتى الأصناف كان يعلم بالتجربة أن ما يتهدد الطعام — وما يتهدده هو بالتالى — من ناحية أخويه أشد وأنكى ، لأن السيد كان سريع الأكل سريع الشبع ، أما أخواه

فكانا يبدءان المعركة حقا عقب جلاء السيد عن السفرة ، ثم لا يتخليان عنها حتى تخلو الأطباق من كل شىء يؤكل ، ولهذا فما كاد السيد ينهض قائما ويفارق الحجرة حتى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلا يديه الاثنتين ، يدا للطبق الكبير ، ويدا للأطباق الصغيرة ، بيد أن اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الأخوين فلجأ الى الحيلة التى يستغيث بها كلما هدد سلامته مهدد فى مثل هذه الحال ، وهى أن يعطس فى الطبق عامدا متعمدا ، وعطس ، فتراجع الأخوان ، ونظرا اليه حانقين ، ثم غادرا المائدة وهما يغرقان فى الضحك ، فتحقق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيدا فى الميدان .

وعاد السيد الى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة وبيدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئة بقليل من اللبن وقدمته له فتجرعه ثم جلس ليحسو قهوة الصبح . وهذا القدح الدسم خاتمة فطوره ، وهو « وصفة » من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها — كزيت السمك ، والجوز واللوز والبندق المسكرة — رعاية لصحة بدنه الضخم ، وتعويضا له عما تستهلكه منه الأهواء ، الى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتى ليعد الأكلة الخفيفة بل والعادية « لعبا » و « تضييع وقت » لا يجملان بمثله . وقد وصف له الحشيش كفاتح للشهية — الى فوائده الأخرى — فجربه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء ميال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء ، فنفر من أعراضه تلك التى تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج فى النفوس ووثبات المزاح والقهقهة . ولكيلا يفقد مزاياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به محمد العجمى بائع الكسكسى عند مطلع الصالحية بالصاغة ، وكان يعده خاصة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان ، ولم يكن السيد من مدمنى المنزول ولكنه كان يلم به بين حين وآخر كلما استقبل هوى جديدا خاصة اذا كانت المعشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم . فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض الى المرآة وراح يرتدى ملابسه التى قدمتها اليه أمينة قطعة قطعة ، وألقى على صورة هندامه نظرة متفحصة ، ومشط شعره الأسود

المرسل على صفحتي رأسه ، ثم سوى شاربه وفتله ، وتفرس فى هيئة وجهه ثم عطفه رويدا الى اليمين ليرى جانبه الأيسر ، ثم الى اليسار ليرى جانبه الأيمن ، حتى اذا ارتاح الى منظره مد يده الى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التى عبأها له عم حسنين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضخ صدر قفطانه ومنديله ، ثم وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفه عرفا طيبا . ذلك العرف المقطر من شتى الأزهار يعرفه أهل البيت جميعا ، واذا تنشقه أحدهم تمثل لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم ، فينبعث فى قلبه ـ مع الحب ـ الاجلال والخوف ، الا أن انتشاره فى هذه الساعة من الصباح كان ايذانا بذهاب السيد ، فالنفوس تتلقاه بارتياح غير منكور على براءته ، كارتياح الأسير الى صليل السلاسل وهى تنفك عن يديه وقدميه ، ويعلم كل بأنه سيسترد حريته عما قليل فى الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر . وكان ياسين وفهمى قد فرغا من ارتداء ملابسهما ، أما كمال فقد هرع الى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته فى محاكاة حركاته التى يختلس النظر اليها من زيق الباب الموارب ، فوقف أمام المرآة ينظر الى صورته بامعان وارتياح ثم قال مخاطبا أمه بلهجة آمرة وهو يغلظ نبرات صوته « زجاجة الكولونيا يا أمينة » ، وكان يعلم أنها لا تلبى هذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وبنطلونه القصير بيديه كأنه يبلها بالكولونيا ، ومع أن أمه كانت تغالب الضحك الا أنه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة ، وراح يستعرض وجهه فى المرآة من جانبه الأيمن الى الأيسر ، ثم مضى يسوى شاربه الوهمى ويفتل طرفيه ، ثم تحول عن المرآة وتجشأ ، ونظر صوب أمه ، ولما لم يجد منها الا الضحك قال لها محتجا : « لماذا لا تقولين لى صحة وعافية ؟ » فغمغمت المرآة الضاحكة : « صحة وعافية يا سيدى » ، هنالك غادر الحجرة مقلدا مشية أبيه محركا يمناه كأنه يتوكأ على عصاه ..

وبادرت الأم والفتاتان الى المشربية ووقفن وراء شباكها المطل على النحاسين ليرين من ثقوبه رجال الأسرة فى الطريق ، وبدا السيد وهو يسير فى تؤدة ووقار يحف به الجلال والجمال رافعا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول

والفولى اللبنان وبيومى الشربتلى » فأتبعته أعينا مترعة بالحب والزهو . وتلاه فهمى فى مشـــيته المتعجلة ، ثم ياسين فى جســـم الثـور وأناقة الطاووس ، وأخيرا ظهر كمـال فلم يكد يخطو خطوتين حتى اســتدار ورفع بصره الى الشباك الذى يعلم أن أمه وشقيقتيه مستخفيات وراءه ، وابتسم ، ثم واصل سيره متأبطا حقيبة كتبه منقبا فى الأرض عن زلطة ليركلها ..

كانت هذه الســاعة من أسعد أوقات الأم ، بيد أن اشفاقها من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد ، فلم تكن تمسك عن تلاوة : « ومن شر حاسد اذا حسد » حتى يغيبوا عن عينيها ..

— ٥ —

وغادرت الأم المشربية ، وتبعتها خديجة ، على حين تلكأت عائشــة حتى خلا لها الجو فانتقلت الى جانب المشربيــة المطل على بين القصرين ومدت بصرها من ثقوب الشباك فى اهتمام ولهفة . بدا من لمعــة عينيها وعضها على شــفتها أنها تنتظر . ولم يطل بها الانتظار فقــد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقبلا متمهلا فى طريقه الى قســم الجمالية ، عنــد ذلك غادرت الفتــاة المشربية فى عجلة الى حجرة الاســتقبال ، واتجهت الى نافذتهــا الجانبية وأدارت أكرتهــا ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا . ولما اقترب الضــابط من البيت رفع عينيه فى حذر دون أن يرفع رأسه — فلم يكن أحد يرفع رأسه فى مصر وقتــذاك — فأضاءت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتــاة اشراقة موردة بالحياء فتنهدت ، ثم أغلقت النــافذة وهى تشــد عليهــا بعصبية — كأنهــا تخفى آثار جريمة دامية — وتراجعت عنها مغمضة العينين من شدة الانفعال » فأسلمت نفسها الى مقعد وأسندت رأسها الى يدها وساحت فى جو مشاعرها اللانهائى . لم تكن سعادة خالصة ، ولم يكن خوفا خالصا ، كأن قلبها موزعا بين هذا وتلك فهما يتجاذبانه بلا رحمة ، اذا استنامت الى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة

الخوف محذرة موعدة فلاندرى أيجمل بها أن تقلع عن مغامرتها أم تتمادى فى مطاوعة قلبها ، كلا الحب والخوف شديد . ولبثت فى تهويمها كثيراً أو قليلا ، فاستكنت هواتف الخوف والتأنيب » ومضت تنعم بسكرة الحلم فى ظل سلام ، وذكرت — كما يلذ لها أن تذكر دائما — كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يوما فلاحت منها نظرة الى الطريق من النافذة التى فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع الى وجهها فى دهشة مقرونة بالاعجاب ، فتراجعت فيما يشبه الذعر ، ولكنه لم يذهب قبل أن يترك فى مخيلتها اثرا باقيا من منظر نجمته الذهبية وشريطه الأحمر ، منظر يخلب اللب ويسرق الخيال » فظل يتخايل لعينيها طويلا . وفى نفس الساعة من اليوم التالى — والأيام التالية — راحت تقف وراء الخصاص دون أن يراها ، ولمست فى فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينيه الى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق ، ثم كيف أخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء البهجة ، وقلبها المشبوب — الذى يتمطى مستيقظا لأول مرة — ينتظر هذه اللحظة فى لهفة ويذوقها فى سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم ، حتى دار الشهر وعاد يوم التنفيض مرة أخرى فانبرت الى الستارة تنفضها وراء النافذة المواربة متعمدة — هذه المرة — أن ترى » وهكذا يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة — جنونية — وفرجت مصراعى النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا ، كأنها تعلن حبها له ، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو سماحق ليتقى نارا مستعرة تحيط به .

***

استكنت هواتف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم فى ظل سلام ، ثم أفاقت من حلمها ، وصممت على أن تتحامى الخوف الذى ينغص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدرارا للطمأنينة : « لم تزلزل الأرض ومر كل شىء بسلام » لم يرنى أحد وان يرانى أحد ، ثم انى لم اقترف اثما ! » ونهضت قائمة ، ولكى توهم نفسها بخلو البال

ترنمت – وهى تغادر الحجرة – بصوت عذب : « يا أبو الشريط الأحمر يا اللى أسرتنى ارحم ذلى » ، ورددتها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهى تزعق فى تهكم :

– يا ست منيرة يا مهدية ، تفضلى ، أعدت لك خادمتك السفرة .

وأثابها صوت أختها الى نفسها تماما فيما يشبه الرجة فهوت من عالم المثـال الى عالم الواقع مرتعبـة بعض الشيء لسـبب غير ظاهر – ما دام كل شيء قد مر بسلام كما قالت لنفسـها – ولكن اعتراض صـوت أختها – بالذات – لغنائها وخواطرها أرعبها ، ربما لأن خديجة كانت تقف منهـا موقف المنتقد ، بيد أنهـا طاردت هذا القلق الطارىء وأجابتها بضحكة مقتضبة ثم جرت الى حجرة الطعام فوجدت السماط معدا حقا وأمها مقبلة بالصينية . وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها :

– تتلكئين بعيدا حتى أعد كل شيء وحدى .. كفاية لنا الغناء .

ومع انها كانت تتلطف معها فى الحديث تفاديا من حـدة لسانها الا أن اصرار الأخرى على قرصـها بلسانها كلمـا سنحت فرصة جعلها تتعلق أحيانا باغاظتها فقالت مصطنعة الجد :

– ألم نتفق على تقسـيم العمل بيننا فى البيت ؟ فعليك هذا الواجب وعلى الغناء ..

فنظرت خديجة الى أمها وقالت متهكمة وهى تعنى الأخرى :

– يمكن ناوية تكون عالمة !

ولم تغضب عائشة ، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضا :

– وماله !.. أنا صوتى كالكروان

ومع أن قولها السابق لم يستثر غيظها لأنه كان بين الدعابة الا أن كلامها الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق ، ولأنها تنفس عليها جمال صـوتها فيما تنفس عليها من مزايا فقالت فى تجهم :

– اسمعى يا ست هانم ، هذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته أن تكون أصواتهن كصوت الحمير ولكن يعيبهن أن يكن كالصورة لا فائدة منهن ولا نفـع

– لو كان صوتك جميلا كصوتى ما قلت هذا !

– طبعا !.. كنت تغنين وأرد عليـك ، تقـولين يابو الشريط الأحمر

يا اللى فاقول لك أسرتنى ارحم ذلى ، ونترك للست « مشيرة الى أمها » الكنس والمسح والطبخ

وكانت الأم — التى ألفت هذا النقار — قد اتخذت مجلسها فقالت برجاء :

— أمسكا بالله واجلسا لنأكل فطورنا بسلام ..

واقبلنا على السماط وجلستا وخديجة تقول :

— انت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد ..

فتمتمت الأم فى هدوء :

— سامحك الله ، سأترك لك أمر التربية على الا تنسى نفسك .. « ثم مدت يدها الى الطبق » .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

كانت خديجة فى العشرين من عمرها ، فهى كبرى اخوتها فيما عدا ياسين — أخاها من الأب — الذى ناهز عامه الواحد والعشرين ، وكانت قوية ممتلئة — والفضل لأم حنفى — مع ميل الى القصر ، أما وجهها فقد قبس من قسمات الوالدين على نهج لم يراع فيه الانسجام ، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين ، وعن أبيها أنفه العظيم ، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس الى القدر الذى يغتفر له ، ومهما يكن من شأن هذا الأنف فى وجه الأب الذى يناسبه ويكسبه جلالا ملحوظا فقد لعب فى وجه الفتاة دورا مختلفا

أما عائشة فكانت فى السادسة عشرة من ربيعها ، صورة من بديع الحسن ، رشيقة القد والقوام — وان عد هذا فى محيط أسرتها من العيوب المتروك علاجها لأم حنفى — ووجه بدرى تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة ، وعينان زرقاوان احسنت اختيارهما من الأب مع انف الأم الصغير ، الى شعر ذهبى دللها به قانون الوراثة فخصها به وحدها من ميراث جدتها لأبيها . وطبيعى لم تدرك خديجة مايقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق ، ولم تكن براعتها الفائقة فى التدبير المنزلى والتطريز ولا نشاطها الدائب الذى لا يكل ولا يمل بمغنيين عنها شيئا ، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراع اخفاءها مما حمل الفتاة الحسناء على البرم بها فى كثير من الأحايين . ولكن من سوء الحظ أن هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء فى النفس ، وكفاها أن تروح عن حدتها بسخرية اللسان وسلاطته . واكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية اما بالفطرة عامرة القلب بالحنو نحو الأسرة التى لا تعفى أفرادها من مرارة تهكمها ، فلم تكن غيرتها

الا نوبات تطول أو تقصر ولكنها لم تنحرف بسجيتها الى الحقد أو البغضاء، بيد أن دأبها على السخرية — الذى اقتصر فى الأسرة على الدعابة — خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الأولى ، لاتقع عيناها من الناس الا على مناقصهم كعقرب البوصلة المنجذب الى القطب أبدا ، واذا توارت المناقص تمحلت فى الكشف عنها وتكبيرها ، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم فى محيط أسرتها ، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرشاش» لتناثر رذاذها أثناء الحديث ، وهـذه الست أم مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها « لله يا أسيادى » لاستعارتها بعض الأدوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر ، كما تدعو شيخ كتاب بين القصرين « شر ما خلق » لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم وظيفته مع قبح وجهه ، وبائع الفول « الأقرع » لصلعه ، واللبان «الأعور» لضعف بصره ، الى تسميات مخففة بعض الشيء خصت بها أسرتها ، فأمها « المؤذن » لتبكيرها فى الاستيقاظ ، وفهمى « عمود السرير » لنحافته ، وعائشة « البوصة » للسبب نفسه ، وياسين « بمبه كشر » لسمنته وأناقته . ولم تكن سلاطة لسانها من وحى السخرية فحسب ، فالحق أنها لم تخل من قسوة على من عدا أهلها من الخلق ، وهكذا اتسم نقدها للناس بالعنف ، وتجافى عن التسامح والعفو ، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التى تلم بالناس يوما بعد يوم ، وتبدت هذه الغلظة فى البيت فى معاملة أم حنفى معاملة لا تلقاها من أحد سواها ، بل فى معاملة الحيوان الأليف كالقطط التى تحظى من عائشة بأعزاز يفوق الوصف . وكانت معاملتها لأم حنفى مثار خلاف بينها وبين أمها ، فالأم تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء ، وكان ظنها بالناس أنهم ملائكة فلم تدر كيف تسىء الظن بأحد ، على حين دأبت خديجة على سوء الظن بالمرأة تمشيا مع طبيعتها التى تسىء الظن بالناس جميعا ، ولم تخف تخوفها من بياتها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها : « من أين تجيئها هـذه السمنة المفرطة ؟!. . من الوصفات التى تصنعها ؟! كلنا نتعاطى وصفاتها فلا تسمن سمنتها ، ولكنه السمن والعسل اللذان تطفح منهما بغير حساب ونحن نيام »

ولكن الأم دافعت عن أم حنفى ما وسعها الدفاع ، ولما ضاقت بالحاح

ابنتها قالت : « فلتأكل ما تشاء ، الخير كثير ، وبطنها له حد لايتعداه فلن نجوع على أى حال » ؛ ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلاليص العسل كل صباح وأم حنفي ترى هذا باسمة لأنها كانت تحب الأسرة كلها اكراما لستها الطيبة . وعلى التقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعا فلم يكن يهدأ لها بال اذا أصابت أحدهم وعكة ، ولما مرض كمال بالحصبة أبت الا أن تشاركه فراشه ، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلم بها أهون سوء ، فلم يكن مثل قلبها لافى بروده ولا فى رحمته

وباتخاذها مجلسها من السماط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال فى الأسرة . وكان للطعام بينهن — الى فائدته الغذائية — غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية السمنة ، فكن يتناولنه فى تؤدة واهتمام ، ويبالغن فى سحقه وطحنه ، فاذا شبعن لم يمسكن ولكن يستزدن منه حتى يمتلئن ، على تفاوت تبعا لطاقاتهن ، فكانت الأم أسرعهن الى الانتهاء ، تليها عائشة ، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها الا وهى أطباق مغسولة . ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها فى الأكل فضلا عن عصيانها لسحر البلابيع ، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بأن المكر السيىء هو الذى يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التى تلقى فيها ، كما كان يطيب لها أن تعلل نحافتها بضعف دينها فتقول لها : « كلنا نصوم رمضان الا انت ، تتظاهرين بالصوم : رتندسين فى حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق ، ثم تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكن الله لا يبارك لك » . وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التى يخلين فيها الى أنفسهن ، فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصة فى الأمور التى يدعو ألى كتمانها عادة الحياء البالغ الذى تتسم به مجالس الأسرة الحاوية للجنسين . وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهماكها فى الأكل فقالت بصوت هادىء يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذى كانت تزعق به منذ حين قصير

— نينة . . حلمت حلما غريبا . .

فقالت الأم قبل أن تزدرد لقمتها مبالغة فى اكرام ابنتها المخيفة :

— خير يا بنتى ان شاء الله . .

فقالت خديجة باهتمام مضاعف :

- رأيت كأنى أمشى على سور سطح ، ربما كان سطح بيتنا او غيره ، واذا بشخص مجهول يدفعنى فأهوى صارخة ..

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها فى اهتمام جدى فلازمت الفتاة الصمت قليلا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى تمتمت الأم :

- اللهم اجعله خيراً

وقالت عائشة وهى تغالب ابتسامة :

- لم أكن أنا الشخص المجهول الذى دفعك .. أليس كذلك !

وخافت خديجة أن يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها :

- أنه حلم وليس لعبا فكفى عن هذرك « ثم مخاطبة أمها » .. هويت صارخة ولكنى لم أرتطم بالأرض كمـا توقعت بل وقعت على جـواد ، حملنى وطار ...

وتنهـدت أمينة فى ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت اليـه ، وعادت الى طعامها مبتسمة ، ثم قالت :

- من يدرى يا خديجة ؟.. لعله العريس ..!

لم يكن يباح الكلام عن « العريس » الا فى هذه الجلسة ، وفى ايجاز بالاشارة أشبه ، ووجب قلب الفتاة الذى لم يكربه شىء كما أكربه أمر الزواج ، وكانت على ايمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سروراً عميقا ، بيد أنها أرادت أن تدارى حياءها بالسخرية كعادتها - ولو من نفسها - فقالت :

- أتظنين الجواد عريسا ؟.. لن يكون عريسى الا حمارا ..

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها ، ثم خافت أن تسىء خديجة فهم ضحكتها فقالت :

- لشد ما تظلمين نفســك يا خديجة !.. ما فيــك من شىء يعاب ..

فحدجتها خديجة بنظرة تنم عن الحذر والشك على حين راحت الأم تقول :

- أنت فتاة نادرة المثال ، من يضارعك فى مهارتك أو نشـاطك ؟.. وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف ؟ ماذا تريدين أكثر من هذا ؟

فمست الفتاة بسبابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة :

- الا يسد هذا طريق الأزواج ؟

فقالت الأم مبتسمة :

ـ كلام فارغ .. مازلت صغيرة يا بنية ..

وتضايقت لذكر الصغر لأنها لم تكن تعد نفسها صغيرة بالقياس الى سن الزواج وخاطبت أمها قائلة :

ـ لقد تزوجت يا نينة وانت دون الرابعة عشرة .

فقالت الأم التى لم تكن فى الحق دون ابنتها قلقا :

ـ لا يتقدم أمر او يتاخر الا باذن الله ..

وقالت عائشة فى صدق

ـ ربنا يفرحنا بك قريبا يا خديجة ..

فلحظتها خديجة بريبة وذكرت كيف طلبت احدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الأب أن يزوج الصغرى قبل الكبرى ، وتساءلت :

ـ أتودين حقا أن أتزوج ام تتمنين ان يخلو لك السبيل فتتزوجى !

فقالت عائشة ضاحكة :

ـ الاثنين معا ..

- ٦ -

ولما فرغن من الفطور قالت الأم :

ـ عليك يا عائشة الغسيل اليوم ، وعلى خديجة تنظيف البيت ، ثم تلحقان بى فى حجرة الفرن ..

كانت أمينة توزع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة ، ومع أنهما يرضيان بحكمها ، وترضى به عائشة عادة بلا مناقشة ، الا أن خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة ، فلهذا قالت :

ـ انزل لك عن التنظيف اذا كنت تستثقلين الغسيل ، أما التمحك بالغسيل للبقاء فى الحمام حتى ينتهى العمل فى المطبخ فعذر مرفوض مقدما ..

وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت الى الحمام وهى تدندن فقالت خديجة متهكمة :

ـ يا بختك بالحمام يرن فيه الصوت كما يرن فى نفير الفونوغراف فغنى وسمعى الجيران ..

وغادرت الأم الحجـرة الى الدهليز ثم الى السلم ورقته الى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل الى حجرة الفرن . لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مألوفة فى غير الأوقات التى يوجد فيها الأب فى البيت ، أو التى يطيب فيها السمر بين افراد الأسرة ، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة ، وهى السياسة الوحيدة التى تنتهجها ازاء أبنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطيق سواها ، أما ما تقتضيه التربية احيانا من الحزم فشىء لم تعرفه ، ربما تمنته دون أن تقدر عليه ، وربما حاولت تجربته فغلبها التأثر والضعف ، وكأنها لاتحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودة والحب،تاركة للأب ــ أو لشخصيته التى تسيطر من بعيد ــ تقويم المعوج والزام كل حدوده .، لهذا لم يضعف النقار السخيف من اعجابها بفتاتيها ورضائها عنهما ، حتى عائشة المولعة لحد الهوس بالغناء والوقوف أمام المرآة ، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرا بالرغم من تكاسلها . وكان هذا حريا بأن يمد لها فى أوقات الراحة لولا ماطبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه، فهى تأبى الا أن تشرف على كل صغيرة وكبيرة بالبيت ، واذا فرغ الفتاتان من عملهما نشطت هى بالمكنسة فى يد والمنفضة فى يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات والدهاليز ، متفحصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية ، واجدة لذة وارتياحا كأنما تزيل قذى من عينيها ، ومن وسوستها تلك انها كانت تفحص الثياب المعدة للغسيل قبل غسلها ، فاذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون ان تتلطف فى تنبيهه الى واجبه ، من كمال الذى يناهز العاشرة الى ياسين الذى كان ذا ذوقين متناقضين فى العناية بنفسه يتجليان فى تأنقه المفرط فى مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء ، واهماله المعيب لثيابه الداخلية ، ومن الطبيعى ألا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج ، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور فيها من أغراض العمل مافيها ، الى ماتجده من فرحة اللهو والمرح ، ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التى لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل انضمامها اليه ، خلقته بروحها خلقا جديدا على حين ظل البيت محافظا على الهيئة التى شيد عليها منذ عهد سحيق . هذه الأقفاص المثبتة فى بعض جدرانه العالية يهدل عليها الحمام من

وضعها ، وهذه الأكواخ الخشبية يقوقىء الدجاج فى مسارحها من تركيبها ، وكم يملكها الفرح وهى ترمى الحب أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق اليها الدجاج وراء ديكها ، وتنهال مناقيرها على الحب فى سرعة وانتظام كابر آلة الخياطة ، مخلفة فى الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ . وكم ينشرح صدرها اذ تنظر فتراها رانية اليها بأعين دقيقة صافية ، مستطلعة متسائلة ، ناقة متوقئة ، فى مودة متبادلة ينزلها قلبها الحنون . أحبت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جميعا، فهى تناغيها مناغاة رقيقة تحسب أنها تفهمها وتتأثر لها ، ذلك أن خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان ، وأحيانا الجماد نفسه ، وعندها بمنزلة اليقين أن هذه الكائنات تسبح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب ، فعالمها بأرضه وسمائه ، حيوانه ونباته ، عالم حى عاقل ، ثم لا تقتصر مزاياه على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة . لم يكن غريبا بعد هذا أن تكثر معاتيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو آخر ، هذه لأنها ممعرة وتلك لأنها بياضة وهذا لأنها تستيقظ على صياحه ، ولعلها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكينها فى رقابها ، واذا دعتها الظروف الى الذبح تخيرت الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق ، ثم تسقيها وتترحم عليها وتبسمل وتستغفر ، وتذبحها وعزاؤها أنها تستمتع بحق منحه الله المنان وأوسع به على عباده . أما أعجب ما فى السطح فكان نصفه الجنوبى المشرف على النحاسين حيث غرست يداها فى الأعوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها فى أسطح الحى كله التى تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن ، بدأت أول ما بدأت بعدد قليل من أصص القرنفل والورد ، وراحت تستكثر منها عاما بعد عام حتى نضدت صفوفا بحذاء أجنحة السور ونمت نموا بهيجا ، وخطر لخيالها أن تقيم فوق حديقتها سقيفة ، فاستدعت نجارا فأقامها ، ثم غرست شجرتى ياسمين ولبلاب ، ثم انشبت سيقانها فى السقيفة وحول قوائمها ، فاستطالت وانتشرت حتى استحال المكان بستانا معروشا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوع فى ارجائها عرف طيب ساحر . هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام ، وبستانه المعروش ، هو دنياها الجميلة المحبوبة ، وملهاها الأثير فى هذا العالم الكبير الذى لا تعرف عنه شيئا ، وكشأنها فى مثل هذه الساعة مضت تتعهده برعايتها فكنسته ، وسقت زرعه ، واطعمت الدجاج والحمام ، ثم تملت

طويلا النظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حالمتين ؛ ثم ذهبت الى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمد بصرها من ثغراتها الى ما يليها من فضاء لا تحده حدود

كم تروعها المآذن التى تنطلق انطلاقا ذا ايحاء عميق . تارة عن قريب حتى لترى مصابيحها وهلالها فى وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق ، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفاصيل كمآذن الحسين والغورى والأزهر ، وثالثة من افق سحيق فتترآءى أطيافا كمآذن القلعة والرفاعى وتقلب وجهها فيها بولاء وافتنان ، وحب وايمان . وشكر ورجاء ، وتحلق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون الى السماء ، ثم تستقر منها العينان على مئذنة الحسين ، أحبها - لحب صاحبها - الى نفسها . فتنفض نظرتها حنانا وأشواقا ، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله وهى على مسير دقائق من متواه . وتنهدت نهدة مسموعة ، استردتها من استغراقها فثابت الى نفسها وراحت تتسلى بالنظر الى الأسطح والطرقات فلم تزايلها الأشواق ، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع الى المجهول ، المجهول بالقياس الى الناس جميعا وهو عالم الغيب ، والمجهول بالقياس اليها وحدها وهو القاهرة ، بل الأحياء المتاخمة التى تترامى اليها أصواتها . ترى ماهذه الدنيا التى لم تر منها الا المآذن والأسطح القريبة ؟ ! ربع قرن من الزمان خلا وهى حبيسة هذا البيت فلا تفارقه الا مرات متباعدات لزيارة أمها بالخرنفش ، وعند كل زيارة يصطحبها السيد فى حانطور لأنه كان لا يحتمل ان تقع عين على حرمه سواء وحدها أم بصحبته ، لم تكن ساخطة ولا متذمرة ، انها أبعد ما تكون عن هذا ؛ بيد أنها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب الى الفضاء والمآذن والأسطح حتى تعلو شفتيها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام . ترى اين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمى فى هذه اللحظة ؟ .. وأين مدرسة خليل اغا التى يؤكد لها كمال أنها على مسير دقيقة من الحسين ؟ .. وقبل أن تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربها قائلة « اللهم أسألك الرعاية لسيدى وابنائى ، وأمى ويس ، والناس جميعا مسلمين ونصارى ، حتى الانجليز يا ربى وأن تخرجهم من ديارنا اكراما لفهمى الذى لا يحبهم ... »

- ٧ -

عند ما بلغ السيد احمد عبد الجواد دكانه الذى يقع امام جامع برقوق بالنحاسين كان جميل الحمزاوى وكيله قد فتحه وهيأه للعمل ، فحياه السيد تحية رقيقة وهو يبتسم ابتسامة وضيئة واتجه الى مكتبه . وكان الحمزاوى فى الخمسين من عمره ، انفق منها ثلاثين عاما فى هذا الدكان ، وكيلا لمنشئه الحاج عبد الجواد ثم وكيلا للسيد بعد وفاة ابيه ، وظل على الوفاء للسيد بداع من العمل والحب معا ، فهو يجله ويحبه كما يجله ويحبه جميع من يتصل به بسبب من اسباب العمل او الصداقة . والحق لم يكن السيد مرهوبا مخوفا الا بين أهله ، أما بين سائر الناس من أصدقاء ومعارف وعملاء فهو شخص آخر ، له حظه الموفور من المهابة والاحترام ، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شيء ، ومحبوبة لظرفها قبل اى من سجاياها الحميدة الكثيرة ، فلا الناس يعرفون السيد الذى يقيم فى بيته ، ولا اهل البيت يعرفون السيد الذى يعيش بين الناس . وكان دكانه متوسط الحجم ، مكدسة رفوفه وجنباته بجوالات البن والأرز والنقل والصابون ، وعند ركنه الأيسر فى قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره وأوراقه وتليفونه ، والى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحى منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المالية ، وفى منتصف الجدار فوق المكتب على اطار من الأبنوس نقشت بداخله البسملة مموهة بالذهب . ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى ، فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمثابرة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة ، على حين وقف الحمزاوى عند المدخل شابكا ذراعيه على صدره مواصلا تلاوة ما تيسر له من الآيات فى صوت باطنى غير مسموع دلت عليه حركة شفتيه المستمرة ، ووسوسة خافتة تند من آن لآن عن أحرف السين والصاد ، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضرير رتبه السيد للقراءة كل صباح . وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر فى فترات متباعدة فيستمع الى التلاوة أو يمد بصره الى الطريق حيث لا ينقطع تيار المارة وعربات اليد والكارو ، وسوارس التى تكاد تترنح من كبرها وثقلها ، والباعة المغنون وهم يترنمون بطقاطيق الطماطم والملوخية والبامية كل على مذهبه ، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعد ما اعتادها والفها أكثر من ثلاثين عاما فاستنام اليها حتى ليزعجه سكوتها . ثم جاء زبون فشغل الحمزاوى به ، واقبل نفر من أصحاب السيد وجيرانه من

التجار ممن يحبون أن يقضوا معه وقتا طيبا ولو لزمن وجيز يتبادلون فيه التحية ويغيرون ريقهم — على حد تعبيرهم — على دعابة من دعاباته او نكتة من نكاته ، الأمر الذى جعله يفاخر بنفسه كمحدث فائق البراعة . لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التى اكتسبها . لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية ، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم — مخالطة الند للند — حضور بديهته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجر موفور الرزق ، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك الممتازون من حب واحترام وتكريم . ولما قال له أحدهم مرة فى صدق واخلاص « لو أتيح لك يا سيد احمد أن تدرس القانون لكنت محاميا مفوها نادر المثال » نفخ قوله فى خيلائه الذى يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته . ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعا ، وتزايدت حركة العمل بالدكان . ثم فجأة دخل رجل مهرولا كأنما دفعته يد قوية ، ووقف فى منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره ، وسددهما صوب مكتب السيد ، ومع أنه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة امتار الا انه أجهده فى معاينته بلا طائل . ثم هتف متسائلا :

— السيد أحمد عبد الجواد موجود ؟

فقال السيد باسما

— أهلا وسهلا بالشيخ متولى عبد الصمد ، تفضل ، حلت البركة . .

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوى منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليده الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوى وهو يخرج منديله وقد التقت فى صفحة وجهه ابتسامة وتقطيبة ؛ واندفع الشيخ الى المكتب وهو يتمتم « الحمد لله رب العالمين » ، ثم رفع طرف عباءته ومسح به على وجهه . وجلس على الكرسى الذى قدمه السيد له وبدا الشيخ فى صحة يحسد عليها على سنه التى جاوزت الخامسة والسبعين ، ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشفار ، وفوه المندثر ، ما وجد مايشكوه ، وكان يتلفع بعباءة بالية ناسلة وان امكنه ان يستبدل بها خيرا منها بما يجود به المحسنون ، ولكنه استمسك بها لأنه — فيمايقول — رأى الحسين فى منامه وهو يباركها فبث فيها خيرا لا يبلى ، وكان الى كراماته فى قراءة الغيب والدعوات الشافية وعمل الأحجبة معروفا بالصراحة والظرف ،

وبه متسع للدعابة والمزاح مما زاد من قدره عند السيد خاصة ، ومع انه كان من سكان الحى الا انه لم يثقل على احد من مريديه بالزيارات ، وربما توالت الأشهر وهو غائب لا يعلم له مكان ، فاذا ألم بزيارة بعد انقطاع لاقى ترحابا واشواقا وهدايا . وقد اشار السيد الى وكيله ليعد للشيخ الهدية المعتادة من الأرز والبن والصابون ، ثم قال الشيخ مرحبا :

ـ اوحشتنا يا شيخ متولى .. منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك ..

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة :

ـ اغيب كما يحلو لى ، واحضر كما يحلو لى ، ولا اسال عن السبب ..

فابتسم السيد الذى ألف اسلوبه وتمتم قائلا :

ـ اذا غبت انت فان بركتك لا تغيب ..

فلم يبد على الشيخ انه تأثر لاطرائه ، وعلى العكس حرك راسه حركة تدل على نفاد الصبر وقال بخشونة :

ـ ألم انبه عليك اكثر من مرة بالا تفاتحنى بالحديث ، وان تلزم الصمت حتى أتكلم أنا ؟ !

فقال السيد وبه رغبة فى التحكك به :

ـ معذرة يا شيخ عبد الصمد ، لئن كنت قد نسيت تنبيهك فعذرى انى انسيته لطول غيابك .

فضرب الرجل كفا بكف وهتف :

ـ عذر اقبح من ذنب .. (ثم منذرا بسبابته) اذا تماديت فى مخالفتى امتنعت عن قبول هديتك !

فأطبق السيد شفتيه باسطا راحتيه استسلاما حاملا نفسه على الصمت هذه المرة ، فتريث الشيخ متولى ليتأكد من دخوله طاعته . وتنحنح ، ثم قال .

ـ ابدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب ..

فقال السيد من الأعماق :

ـ عليه الصلاة والسلام .

ـ واثنى على أبيك بما هو اهله ، رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته ، كانى به متخذا مجلسك هذا ، لا فارق بين الأب وابنه الا ان الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش ..

فتمتم السيد مبتسما :

ـ فليغفر الله لنا ..

فتثاءب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلا :

ـ وأدعو الله أن يمن على أبنائك بالفلاح والتقوى ، ياسين وخديجة وفهمى وعائشة وكمال وامهم آمين ..

ووقع نطق الشيخ باسمى خديجة وعائشة من اذنى السيد موقعا غريبا على الرغم من كونه هو الذى أفضى اليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لهما حجابين ، وليست اول مرة ينطق الشيخ باسميهما ، ولا آخر مرة ، ولكن لم يكن يتردد اسم واحدة من حريمه بعيدا عن الحجرات ـ ولو على لسان الشيخ متولى ـ حتى يقع من نفسه موقعا غريبا ينكره ولو الى حين . بيد انه غمغم قائلا :

ـ آمين يا رب العالمين ..

فتنهد الشيخ قائلا :

ـ ثم أسأل الله المنان ان يعيد الينا افندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة لا يعرف له اول من آخر ..

ـ نسأله وليس شيء عليه بكثير ..

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضبا :

ـ وأن يمنى الانجليز وأعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة .

ـ ربنا يأخذهم جميعا ..

فحرك الشيخ راسه فى اسى وقال بحسرة :

ـ كنت بالأمس سائرا فى الموسكى فاعترض سبيلى جنديان استراليان وطالبانى بما معى فما كان منى الا ان نفضت لهما جيوبى وأخرجت الشيء الوحيد الذى كان معى وهو كوز ذرة فتناوله أحدهما وركله كالكرة وخطف الآخر عمامتى وحل الشال ومزقه ورمى به فى وجهى .

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن داراها بالمبالغة فى اظهار استيائه صائحا فى استنكار :

ـ قاتلهم الله واهلكهم ..

فأتم الرجل حديثه قائلا :

ـ رفعت يدى الى السماء وصحت : يا جبار مزق أمتهم كما مزقوا شال عمامتى ..

ـ دعوة مستجابة باذن الله ..

ومال الشيخ الى الوراء واغمض عينيه ليستريح قليلا ، ولبث على حاله والسيد يتفرس فى وجهه مبتسما ، ثم فتح عينيه وخاطب السيد

بصوت هادىء ونبرات جديدة تنذر بموضوع جديد . قائلا :
ـ يا لك من رجل شهم جميل المروءة يا احمد يا ابن عبد الجواد . .
فابتسم السيد فى رضى وقال بصوت خفيض :
ـ استغفر الله يا شيخ عبد الصمد . .
فبادره الشيخ قائلا :
ـ لا تتعجل ، ان مثلى لا ألقى الثناء الا تمهيدا لقول الحق ، على سبيل التشجيع يا ابن عبد الجواد . . فلاح الاهتمام والحذر فى عينى السيد وتمتم قائلا :
ـ ربنا يلطف بنا . .
فاشار اليه بسبابته العجراء وتساءل فيما يشبه الوعيد :
ـ ماذا تقول ، وانت المؤمن الورع ، فى ولعك بالنساء ؟!
كان السيد معتادا لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه ، وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :
ـ ما على من ذلك ، الا يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حبه للطيب والنساء ؟
فقطب الشيخ ومط بوزه محتجا على منطق السيد الذى لم يعجبه وقال :
ـ الحلال غير الحرام يا ابن عبد الجواد ، والزواج غير الجرى وراء الفاجرات . .
فمد السيد بصره للاشىء وقال بلهجة جدية :
ـ ما ارتضت نفسى يوما أن تعتدى على عرض او كرامة قط ، والحمد لله على ذلك . .
فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة وباستنكار :
ـ عذر ضعيف لا ينتحله الا ضعيف ، والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة ، كان أبوك رحمه الله مولعا بالنساء فتزوج عشرين مرة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكب طريق المعاصى ؟!
فضحك السيد ضحكة عالية وقال :
ـ أأنت ولى من أولياء الله ام مأذون شرعى ؟! كان ابى شبه عقيم فأكثر من التزوج ، وبالرغم من انه لم ينجب سواى الا أن عقاره تبدد بينى وبين زوجات أربع مات عنهن ، الى ما ضاع على النفقات الشرعية فى حياته ، أما انا فأب لثلاثة ذكور وانثيين ، وما يجوز لى أن أنزلق الى

الاكثار من الزوجات فابدد ما يسر الله علينا من رزق . ولا تنس يا شيخ متولى أن غوانى اليوم هن جوارى الأمس واللاتى أحلهن الله بالبيع والشراء ، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم ..

فتأوه الشيخ وقال وهو يهز نصفه الأعلى يمنة ويسرة :

ــ ما ابرعكم يا بنى آدم فى تحسين الشر ، والله يا ابن عبد الجواد لولا حبى لك ما باليت أن تحدثنى وانت قاعد على فاجرة ..

فبسط السيد راحتيه وقال باسما :

ــ اللهم استجب ..

فنفخ الشيخ متبرما وهتف قائلا :

ــ لولا مزاحك لكنت اكمل الناس ..

ــ الكمال لله وحده ..

فالتفت اليه وهو يشير بيده كأنه يقول « فلندع هذا جانبا » ثم سأله بلهجة المحقق الذى ضيق عليه الخناق :

ــ والخمر ؟.. ماذا تقول فيها ؟!

وسرعان ما فترت روح السيد ولاح فى عينيه ألضيق ولزم الصمت مليا ، وآنس الشيخ من صمته تسليما فصاح بظفر :

ــ أليست حراما لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبته ؟

فبادره السيد قائلا فى حماس من يدفع بلاء محققا :

ــ لشد ما أحرص على طاعة الله ومحبته !

ــ باللسان أم بالعمل ؟!

ومع أن الجواب كان حاضرا الا انه تمهل متفكرا قبل أن ينطق به . لم يكن من عادته أن يشغل نفسه بالتفكير الذاتى او التأمل الباطنى ، شأنه فى ذلك شأن الذين لا يكادون يخلون الى انفسهم ، ففكره لا يعمل حتى يبعثه الى العمل شىء خارجى ، رجل أو امرأة أو سبب من أسباب حياته العملية ، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقا فيه بكليته ، فلم ير من نفسه الا صورتها المنعكسة على سطح التيار ، ثم لم يتراخ توثبه للحياة مع تقدم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة لا يتأثر بها الا الشاب اليافع ، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التى تراوح بين العبادة والفساد ، وحازت جميعا رضاه على تناقضها دون أن يدعم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير مما يصطنع الناس من الوان الرياء ، ولكنه

كان يصدر فى سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية واخلاص فى كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة ، وبات قرير العين . وكان ايمانه عميقا ، اجل كان ايمانا موروثا لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشاعره ولطافة وجدانه واخلاصه اضفت عليه احساسا رهيفا ساميا نأى به عن أن يكون تقليدا أعمى ، أو طقوسا مبعثها الرغبة او الرهبة فحسب ، وبالجملة كان أبرز ما يتميز به ايمانه بالحب الخصب النقى . بهذا الايمان الخصب النقى أقبل يؤدى فرائض الله جميعا ، من صلاة وصيام وزكاة فى حب ويسر وسرور ، الى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقا عزيزا يستبق القوم الى الرى من منهله العذب ، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسرات الحياة وللذائذها ، يهش للمأكل الفاخر ، ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعا فى مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضمير باحساس خطيئة أو وسواس قلق ، فهو يمارس حقا منحته اياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر فى ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته ، وآخاه فى السلام . أكان شخصين منفصلين فى شخصية واحدة ؟!.. أم كان اعتقاده فى السماحة الالهية بحيث لا يصدق انها تحرم هاتيك المسرات حقا ، وحتى فى حال تحريمها فهى حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا احدا ؟! الأرجح انه كان يتلقى الحياة بقلبه واحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل ، وجد بنفسه غرائز قوية ، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة ، ويتحفز بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو ، وخلطها بنفسه جميعا آمنا مطمئنا دون أن يشق على نفسه بالتوفيق بينها . لم يكن يضطر الى تبريرها بفكره الا تحت ضغط انتقاد كالذى جابهه الشيخ متولى عبد الصمد ، وفى هذه الحال يجد نفسه أضيق بالتفكير منه بالتهمة نفسها ، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهما أمام الله ، ولكن لأنه لا يصدق أبدا أنه متهم ، او أن الله يغضبه حقا ان يلهو لهوا لا يصيب احدا باذى ، أما التفكير فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن تفاهة علمه بدينه من ناحية أخرى . لذلك تجهم للسؤال الذى القاه الرجل عليه متحديا وهو « باللسان ام بالعمل » واجابه بلهجة لا يخفى فيها الضيق :

— باللسان والعمل معا ، بالصلاة والصيام والزكاة ، بذكر الله قائما

وقاعدا ، وما على بعــد ذلك اذا روحت عن نفسي بشيء من اللهو الذى لا يؤذى أحدا او يغفل فريضة . وهل حرم محرم الا لهذا أو ذاك ؟

فرفع الشيخ حاجبيه واغمض عينيه معلنا عن عدم اقتناعه ثم تمتم :

ـ يا له من دفاع فى سبيل الباطل !

وتحول السيد فجأة من الضيق الى المرح كعادته فقال بأريحية :

ـ الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد ، انى لا اتصـــوره عز وجل غاضـــبا او متجهمـــا أبدا ، حتى انتقامه رحمة خافيـــة . وانى اقدم بين يديه الحب والطاعة والبر ، والحسنة بعشر امثالها ..

ـ اما فى حساب الحسنات فأنت رابح ..

فأشار السيد الى جميـــل الحمزاوى ليأتى بهدية الشيخ وهو يقول مسرورا :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

وجاءه الوكيل باللفة فأخذها الســـيد وقدمها الى الشيخ وهو يقول ضاحكا :

ـ فى صحتك ..

فتناولها الشيخ وهو يقول :

ـ رزقك الله رزقا واسعا وغفر لك ..

فغمغم السيد « آمين » ثم سأله باسما :

ـ الم تكن يوما من اهل ذلك يا سيدنا الشيخ ؟!

فضحك الشيخ قائلا :

ـ سامحك الله ، انت رجل كريم طيب القلب ، وبهذه المناسبة احذرك من التمادى فى الكرم فانه لا يتفق وما يطالب به التاجر من القصد ..

فتساءل السيد دهشا :

ـ اتغرينى باسترداد الهدية ؟

فنهض الرجل وهو يقول :

ـ هديتى لا تجاوز القصـــد فابدا بغيرها يا ابن عبد الجواد والســـلام عليكم ورحمة الله ..

وغادر الشيخ الدكان مهرولا وغاب عن الأنظار . ولبث السيد مفكرا ، ومضى يدير فى نفســه ما ثار من جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه فى ضراعة وتمتم « اللهم اغفر لى ما تقدم وما تأخر من ذنب ، اللهم انك انت الغفور الرحيم »

- ٨ -

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل اغا يضطرب فى تيار زاخر من التلاميذ الذين يسدون الطريق بزحمتهم ثم يأخذون فى التفرق ، بعضهم الى الدراسة ، وبعضهم الى السكة الجديدة ، وآخرون الى طريق الحسين ، على حين تتحلق جماعات منهم الباعة المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رءوس الطرقات المتفرعة عن المدرسة بما تحمل سلالهم من اللب والفول السودانى والدوم والحلوى ، والى هذا فلا يخلو الطريق فى هذه الساعة من معارك تنشب هنا وهناك بين تلاميذ اضطروا الى كتمان خلافاتهم فى أثناء النهار تفاديا من العقوبات المدرسية . وكانت المرات التى سيق فيها الى الاشتباك فى معركة نادرة جدا ، ولعلها لم تعد المرتين طوال العامين اللذين قضاهما فى المدرسة ، لا لندرة خلافاته التى لم تكن نادرة فى الواقع ، ولا لكراهية للعراك فقد أورثه اضطراره الى تجنبه أسفا عميقا ، ولكن لتقدم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه فى السن مما جعله هو وقلة من أترابه غرباء فى المدرسة ، يتعثرون فى بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيما بعد الخامسة عشرة وكثيرون منهم ناهزوا العشرين ، فشقوا طريقهم فى صلف وكبرياء وقد طرت شواربهم . من هؤلاء من كان يتعرض له فى فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيدا كالكرة ، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسها فى فمه بغير استئذان مواصلا ما كان فيه من حديث ، فلم تكن الرغبة فى العراك لتنقصه ولكنه كظمها تقديرا للعواقب ، وما لباها حتى دعاه اليها أحد أقرانه الصغار ، فوجد فى الهجوم عليه متنفسا لعواطفه الثائرة المكبوتة واستردادا لثقته بقوته ونفسه . وليس العراك ، أو العجز عنه ، بأسوأ ما لاقى من وقاحة المعتدين ، فالى هذا ما كان يترامى الى أذنيه ، سواء كان المقصود به أم غيره ، من الشتائم والسباب ، منه ما فطن لمعناه فحذره ، ومنه ما جهله فردده فى البيت بحسن نية فأثار به عاصفة من الثورة والفزع اتصلت انباؤها فى صورة شكوى لضابط المدرسة الذى كان صديقا لأبيه . ولكن سوء الحظ وحده هو الذى قضى بأن يكون أحد غريميه فى المعركتين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوات معروفة بالدراسة ، فلما كان عصر اليوم التالى المعركة وجد الغلام فى انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدججين

بالعصى فى هالة من نـر مسـطير . ولما اشـار اليه غريمه ليدل عليه تنبه لحركته وأدرك ما يتربص به من خطر فتراجع هاربا الى المدرسة وهـو يستغيث بالضـابط . وعبثا حاول الرجـل ان يصرف العصـابة عن مقصدها ، واغلظوا اله القول حتى اضطر الى استدعاء شرطى ليوصل الغلام الى داره ، وزار الضابط السيد فى دكانه وانبأه بما يتهدد ابنه من شر ناصحا اياه بمعالجة الأمر بالحلم والكياسـة ، ولجأ السيد الى بعض معارفه من تجار الدراسة فمضوا به الى بيت الفتوات مستشفعين له . وهنالك استعان السيد بما عرف عنه من سماحة نفس ورقة شمائل حتى الان عريكتهم فاصدروا عن الغلام عفوهم بل وتعهدوا بحمايته كأحـد أبنائهم ، ولم ينته اليوم حتى بعث السـيد بمن يحمـل اليهم نفحة من هداياه ، ونجا كمال من عصى الفتوات ولكنه كان كالمستجير من الرمضـاء بالنار ، لأن عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصى .

غادر الغلام المدرسة ، ومع أنه كان لرنين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسى فرحة فى نفسـه لا تعادلها فرحـة فى تلك الأيام الا ان نسـائم الحرية التى تنشقها خارج بوابة المدرسة بصدر رحب لم تمح أصـداء الدرس الأخـير الحبيب — درس الديانة — من قلبه . وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سـورة « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن » وشرحها لهم . فتركز فيه بوعيه ، ورفع أصبعه أكثر من مرة سائلا عما أغلق عليه ، ولما كان الأستاذ يعطف عليه لاقباله على الاستماع لدرسـه باهتمام بارز ، الى حفظه للسور حفظا جيدا ، فقد أوسع صدره لأسئلته بحال يندر أن يحظى بها أحد التلاميذ ، وراح الشيخ يحـدثه عن الجن وطوائفهم ، وعن المسلمين منهم خاصة الدين سيظفرون بالجنة فى النهاية اسوة باخوانهم من البشر . وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها ، ولم يزل يديرها فى نفسه حتى هذه اللحظة التى يعبر فيها الطريق قاصدا دكان البسبوسة على الجانب الآخر ، فالى شغفه بالديانة كان يعلم أنه لا يتلقاها لنفسـه فحسب ، وأن عليه أن يعيد ما وعى منهـا فى البيت على أمه — كما اعتاد أن يفعل مذ كان فى الكتاب — فيلقى اليهـا بمعلوماته وتستعيد هى على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن ابيها الذى كان شـخا ازهريا ، ويتذاكران معارفهما طويلا ، ثم يحفظها الجـديد من السـور التى لم يسـبق لها حفظهـا . وانتهى الى دكان البسـبوسة فمد يده الصـغيرة بالملاليم التى احتفظ بها منـذ الصباح ثم

مما جعله يحلم كثيرا بأن يكون يوما صاحب دكان حلوى ليأكلها تناول القطعة فى ارتياح شامل لا بشعر به الا فى مثل هذا الموقف اللذيذ ، لا ليبيعها ، ثم واصل سيره فى شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورا مترنما . نسى وقتذاك انه كان سجينا النهار كله ، وانه كان محروما من الحركة فضلا عن اللعب والمرح ، وانه كان عرضة فى اية لحظة لعصا المدرس المسلطة على الرءوس . بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع — بسبب تفوقه الذى يرجع كثير من الفضل فيه الى شقيقه فهمى — لا يحظى بعشر معشارها عند ابيه . ومر فى طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم فى مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصعد عينيه الصغيرتين الى الاعلان الملون الذى يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها خيط دخان متعرج ، معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارتها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرى من مجريات النيل ، وكان يدعوها فيما بينه وبين نفسه « ابلة عائشة » لما بين الاثنتين من شبه يتمثل فى الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين ، ومع انه كان يناهز العاشرة الا أن اعجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير ، فكم تخيلها متمتعة بالحياة فى ابهج مظاهرها . وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة ، ومنظر مونق متاح لها — لهما — ارضه ونخيله وماؤه وسماؤه ، يسبح فى الوادى الأخضر أو يعبر النهر فى قارب بدا فى نهاية الصورة كالطيف ، أو يهز النخيل فيساقط عليه الرطب ، أو يجلس بين يدى الحسناء طامح الطرف الى عينيها الحالمتين . على أنه لم يكن جميلا كأخويه ، ولعله كان اشبه الأسرة باخته خديجة ، فمثلها قد جمع فى وجهه بين عينى امه الصغيرتين وأنف ابيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهذبا بعض التهذيب كما ورثته خديجة ، الى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروزا واضحا جعل عينيه تبدوان غائرتين اكثر مما هما فى الواقع ، وكان من سوء الحظ ان نبه الى غرابة صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بأبى « راسين » فأهاج غضبه وأورطه فى احدى المعركتين اللتين خاضهما ، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا فى البيت حزنه الى امه التى تكدرت لكدره وراحت تغريه مؤكدة له أن كبر الرأس من كبر العقل ، وأن النبى عليه السلام كان كبير الراس ،

وانه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع . ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رانيا هذه المرة الى جامع الحسين الذى قضت نشاته بأن يكون لقلبه متار اخيلة وعواطف لا تنضب . ومع أن المكانة التى نزلها الحسين من نفسه ــ تبعا لمنزلته من نفس امه خاصة والأسرة عامة ــ كانت وليدة قرابته من النبى الا أن معرفته النبى وسيرته لم تكن شفيعا الى معرفته بالحسين وسيرته ، وما تهفو نفسه دائما اليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بانبل القصص وأعمق الايمان ، حتى لقد وجدت منه على مر القرون مستمعا مشغوفا ومحبا مؤمنا واسيفا بكاء ، فلم يهون من بلواه الا ما قيل له من أن راس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكنا الا فى مصر فجاءها طاهرا مسبحا ثم ثوى حيث يقوم ضريحه . وكم وقف حيال الضريح حالما مفكرا ، يود لو ينفذ ببصره الى الأعماق ليطلع على الوجه الجميل الذى اكدت له أمه انه قاوم غير الدهر بسره الالهى فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث يضىء ظلمة المثوى بنور غرته ، ولما لم يجد الى تحقيق أمنيته سبيلا قنع بمناجاته فى وقفات طويلة ، مفصحا له عن حبه ، شاكيا اليه متاعبه الناشئة من تصوراته عن العفاريت وخوفه من تهديد أبيه مستنجدا به على الامتحانات التى تلاحقه كل ثلاثة أشهر ، ثم خاتما مناجاته عادة بالتوسل اليه أن يكرمه بالزيارة فى منامه . ومع أن عادة مروره بالجامع صباحا ومساء خففت بعض الشىء من شدة تأثره به الا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرر ذلك منه مرات فى اليوم الواحد ، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع من صدره بهجة الأحلام ، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها مع قلبه ، ولم يزل لمئذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبيه نفسه . قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انعطف الى خان جعفر ، ومنها اتجه الى بيت القاضى ، ولكنه بدلا من أن يمضى الى البيت مخترقا النحاسين عبر الميدان الى درب قرمز على وحشته واثارته لمخاوفه ليتفادى من المرور بدكان أبيه . كان يرتعد فرقا من ابيه ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه اذا زعق به غاضبا . وضاعف من كربه أنه لم يقتنع يوما بالأوامر الصارمة التى يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو اليه نفسه من اللعب والمراح ، فلو أنه اذعن لمشيئته مخلصا لقضى وقت فراغه كله متربعا مكتوف اليدين

المدلك لم يسعه أن يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلما حلا له ، فى البيت أو فى الطريق ، وظل الرجل على جهل بأمره الا أن يبلغه منه شيء بوشاية من أهل البيت اذا ضاقوا بغلوه وافراطه . من ذلك انه جاء يوما بسلم وارتقاه الى عرش اللبلاب الياسمين فوق السطوح ، ورأته أمه وهو على تلك الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتى أجبرته على النزول ، ثم غلب اشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدة أبيه فصرحت السيد بما كان منه ، وسرعان مادعا به وأمره أن يمد قدميه وانهال عليهما بعصاه غير مبال بصراخه الذى ملأ البيت ، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلع ليجد اخوته فى الصالة وهم يغالبون ضحكهم الا خديجة التى حملته بين يديها هامسة فى أذنه « تستاهل .. كيف تعلو اللبلاب وتناطح السماء ! أحسبت نفسك زبلن ؟! » على انه فيما عدا الألعاب الخطرة كانت أمه تتستر عليه وتبيح له ما يشاء من اللعب البرىء . ولشد ما يعجب كلما ذكر كيف كان هذا الأب نفسه ظريفا لطيفا معه على عهد طفولته القريبة ، وكيف كان يتسلى بمداعبته وكيف كان ينفحه من آن لآخر بالوان شتى من الحلوى ، وكيف هون عليه يوم الختان – على فظاعته – فملأ حجره بالشيكولاته والملبس وشمله بعطفه ورعايته ، ثم ما أسرع أن تغير كل شيء فتبدل عطفه صرامة ، ومناغاته زعقا ، ومداعباته ضربا ، حتى الختان نفسه اتخذه أداة لارهابه حتى اختلط عليه الأمر ردحا من الزمن نظن انه من الممكن حقا أن يلحقوا ما تبقى له بما ذهب ! وليس الخوف وحده الذى شعر به نحو أبيه فاجلاله له لم يكن دون خوفه منه ، كان يعجب بمظهره العظيم القوى ، ومهابته التى تعنو لها الهام ، وأناقة ملبسه ، وما يعتقده فيه من قدرة على كل شيء ، ولعل حديث الأم عن سيدها هو الذى هوله عنده فلم يتصور انه يوجد فى الدنيا رجل يضارعه فى قوته أو جلاله أو ثروته . أما عن الحب فقد كان كل من فى البيت يحب الرجل لحد العبادة فانسرب حبه الى قلبه الصغير بايحاء البيئة ، بيد انه ظل جوهرة مكنونة فى حق مغلق من الخوف والرعب . مضى يقترب من قبو درب قرمز المظلم الذى تتخذه العفاريت مسرحا لألعابها الليلية ، والذى آثره لنفسه طريقا عن المرور بدكان أبيه ، وعندما دخل فى جوفه راح يقرأ « قل هو الله أحد » بصوت مرتفع رن فى الظلمة تحت السقف المنحنى ، وسبقته عيناه الى فوهة القبو البعيدة حيث ينسع نور الطريق ، ثم حث خطاه وهو يردد

السورة لطرد من تحدثه نفسه بالظهور من العفاريت . فالعفاريت لا سبيل لها على من يدرع بآيات الله . اما أبوه فلن يدرأ غضبه عنه اذا ثار أن يتلو كتاب الله كله . وخرج من القبو الى الشطر الآخر من الدرب ، وعند نهايته طالعه سبيل بين القصرين ومدخل حمام السلطان ؛ ثم لاحت لعينيه مشربيات بيته بلونها الأخضر القاتم ، والباب الكبير بمطرقته البرنزية فافتر ثغره عن ابتسامة فرح لما يدخره له هذا المكان من أفانين المرح . فعما قليل يهرع الغلمان اليه من جميع البيوت
من أفانين المرح . فعما قليل يهرع الغلمان اليه من جميع البيوت
يتوسطها الفرن فيخوضون لعب ولهو وبطاطة . وفى تلك اللحظة رأى سوارس وهى تقطع الطريق على مهل متجهة الى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور ماكر ، وما لبث ان دس حقيبة كتبه تحت أبطه الأيسر وجرى وراءها حتى أدركها ثم وثب الى سلمها الخلفى . ولكن الكمسارى لم يتركه فى سروره طويلا فجاءه يطالبه بثمن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن ريبة وتحد فقال له متوددا انه سيغادرها حالما تقف لأنه لا يسعه النزول وهى سائرة . فتحول الرجل عنه الى السائق وهتف به أن يوقف العربة وهو يزمجر غاضبا فانتهز الغلام فرصة تحوله عنه وتب على أمشاط قدميه وصفعه ثم وثب الى الأرض وانطلق هاربا وشتائم الكمسارى تلاحقه أشد من الأحجار المطينة !. لم تكن خطة مدبرة ، ولا هى من مختار شطارته ، ولكنه رأى غلاما يفعلها فى الصباح فراقت له . ثم وجد سانحة لاعادتها بنفسه ففعل ..

- ٩ -

واجتمعت الأسرة — ما عدا الأب — قبيل المغيب فيما يعرف بينها بمجلس القهوة ، وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الأخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد فرشت الصالة بالحصر الملونة وقامت فى أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد ، وتدلى من سقفها فانوس كبير يشغله مصباح غازى فى مثل حجمه . وكانت الأم تجلس على كنبة وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتى النصف فى جمراتها التى يعلوها الرماد ، والى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صفت عليها الفناجين ، ويجلس الأبناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمى

أو من لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقنع بالسمر كالشقيقتين وكمال . تلك ساعة محببة الى النفوس يستأنسون فيها الى رابطتهم العائلية ، وينعمون بلذة السمر ، وينضوون جميعا تحت جناح الأمومة فى حب صاف ومودة شاملة : وبدت فى جلساتهم راحة الفراغ وتحرره فكانوا بين متربع ومضطجع ، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحثان الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرآ لهم الطالع فى فناجينهم راح ياسين يحدث حينا ويقرأ فى قصة اليتمتين من مجموعة مسامرات الشعب حينا آخر . كان من عادة الشاب أن يهب بعض فراغه لمطالعة القصص والأشعار — لا لاحساسه بنقص تعلمه فالابتدائية وقتذاك لم تكن مطلبا صغيرا — ولكن غراما بالتسلية وولعا بالشعر والأساليب الجزلة . وقد بدا بجسمه المكتنز فى جلبابه الفضفاض كقربة هائلة الا ان مظهره لم يتعارض — بحكم الزمن — مع قسامة وجهه الأسمر الممتلىء بعينيه السوداوين الجذابتين وحاجبيه المقرونين وشفتيه الشهوانيتين ، ونم بجملته — رغم حداثة سنه الذى لا يجاوز الواحدة والعشرين — على رجولة مفعمة بالفحولة . ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمى اليه بين آونة وأخرى من نوادر القصص وهو لا يكف عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدثه الحاحه على أخيه من الضيق كى يشبع اشواقا تشتعل بخياله فى مثل هذه الساعة من كل يوم « ولكن ما اسرع ان يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق فى المطالعة متفضلا عليه بين حين وآخر — كلما اشتد الحاحه بكلمات مقتضبة ان وجد بها الجواب على بعض اسئلته فما أحرى أن تستثير اسئلة جديدة لا جواب لها عنده ، ثم لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ فى المطالعة التى تبيح له مفتاح العالم السحرى بعين الحسد والحزن ، فكم حز فى نفسه عجزه عن قراءة القصة بنفسه ، وكم أحزنه ان يجدها بين يديه بحيث يقلبها كيف شاء دون ان يسعه حل رموزها فالولوج منها الى دنيا الرؤى والأحلام ، فقد وجد فى هذا الجانب من ياسين مثارا لخياله هيأ له من الوان المسرة ما هيأ ، وهيج من اسباب الظمأ وعذابه ما هيج . وكثيرا ما كان يرفع عينيه الى أخيه ويسأله فى لهفة « وماذا حدث بعد ذلك ؟ » فينفخ الشاب قائلا : « لا تضيق على بأسئلتك ولا تتعجل حظك فان لم اقص عليك اليوم فغدا » « ولم يكن يحزنه شىء كاستنظاره للغد حتى اقترنت لفظة الغد فى ذهنه بالحسرة ، ولم يكن نادرا ان يتحول الى امه بعد تفرق المجلس وبه أمل أن تقص عليه ما « حدث بعد ذالك » ولكن المراة كانت

تجهل قصة اليتيمة وغيرها مما يقرأ ياسين الا أنها يعز عليها أن ترده خائبا فتروى له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيزوغ خياله اليها رويدا ظافرا بزاد من العزاء . فى مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبا أن يشعر بأنه ضائع مهمل بين أهله ، لا يكاد يلتفت اليه أحد ، وانهم مشغولون عنه بأحاديثهم التى لا تنتهى ، فلم يتورع عن الاختلاق فى سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو الى حين ، ولذلك رمى بنفسه فى مجرى الحديث معترضا تياره بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القذيفة كأنما تذكر أمرا خطيرا بغتة :

ـ ياله من منظر لا ينسى الذى رأيته اليوم وأنا عائد !.. رأيت غلاما يثب الى سلم سوارس ثم صفع الكمسارى وركض بأكبر سرعة فما كان من الرجل الا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم ركله فى بطنه بكل قوته ..

وقلب عينيه فى الوجوه ليرى أثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولمس اعراضا عن خبره المثير وتصميما على مواصلة الحديث ، بل رأى يد عائشة تمتد الى ذقن أمه وتحولها عنه بعد أن همت بالاصغاء اليه ، ولمح الى هذا ابتسامة هازئة ترتسم على شفتى ياسين الذى لم يرفع رأسه عن الكتاب ، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع :

ـ وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فاذا به قد فارق الحياة ..

وأبعدت الأم الفنجان عن فمها وهتفت :

ـ يا ولداه !.. أتقول أنه مات ؟

وسر باهتمامها وركز قوته فيها كما يركز المهاجم اليائس قوته فى نقطة ضعيفة من سور منيع فقال :

ـ أجل مات ، ورأيت بعينى دمه وهو يسيل بغزارة ..!

وحدجه فهمى بنظرة ساحرة كأنها تقول له : « أنى أذكر لك أكثر من قصة من هذا النوع » وقال متسائلا فى تهكم :

ـ قلت ان الكمسارى ركله فى بطنه ؟.. فمن أين سال الدم ؟!

وانطفأت شعلة الظفر التى تلألأت فى عينيه مذ جذب أمه اليه ، وحل محلها سهوم الارتباك والحنق ، ولكن أسعفه الخيال فاستردت نظرة عينيه حيويتها وقال :

ـ لما ركله فى بطنه سقط على وجهه فنشج رأسه !

وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمة :

ـ أو أن الدم سال من فيه ، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة الى

جرح ظاهرى ، هنالك اكثر من تفسير لخبرك المكذوب ـ كالعادة ـ فلا تخف ...

واحتج كمال على تكذيب اخيه وراح يحلف باغلظ الأيمان على صدقه ولكن احتجاجه ضاع فى ضجة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء فى هارمونى واحدة ، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت :

ـ ما اكثر ضحاياك ، لو صدقت فيما تروى من أخبار لما ابقيت على احد من اهل النحاسين حيا ..

ماذا تقول لربنا لو حاسبك على أخبارك هذه ؟!

ووجد فى خديجة مهاجما يقدر عليه ، وكعادته كلما ارتطم بسخريتها راح يعرض بأنفها قائلا :

ـ اقول له ان الحق على منخور اختى .. !

فقالت الفتاة وهى تضحك :

ـ من بعض ما عندكم ، السنا فى البلوى سواء !

وهنا قال ياسين مرة أخرى :

ـ صدقت يا اختاه ..

وتحولت اليه متحفزة للانقضاض فبادرها قائلا :

ـ هل اغضبتك ! . . لماذا ! . . ليس الا اننى جاهرت بالموافقة على رأيك ...

فقالت له حانقة :

ـ اذكر عيوبك قبل ان تعرض بعيوب الناس ..

فرفع حاجبيه متظاهرا بالحيرة ثم تمتم :

ـ والله ان اكبر عيب ليهون الى جانب هذا الأنف ..

وتظاهر فهمى بالاستنكار ثم تساءل فى نبرات وشت بانضمامه الى المهاجمين :

ـ ماذا قلت يا أخى ، اهو انف أم جريمة ؟

ولما كان فهمى لا يشترك فى مثل هذا النضال الا نادرا فقد رحب ياسين بقوله فى حماس وقال :

ـ هو الاثنان معا ، فكر فى المسئولية الجنائية التى سيتحملها من يقدم هذه العروس الى عريسها المنكود !

وقهقه كمال ضاحكا بصوت كالصفير المتقطع ولم ترتح الأم الى وقوع

ابنتهـــا بين كثرة من الهاجمين فأرادت ان ترجع الحـديث الى أصـــله وقالت بهدوء :

ـ خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث ، كان حديثنا عن السيد كمال أصدق فى أخباره أم لم يصدق ، ولكن أظن انه لا داعى الى الشك فى صدقه بعد أن حلف .. أجل كمال لا يحلف كذبا ابدا ...

وباخ سرور الغلام الانتقامى لتوه ، ومع أن أخوته واصلوا المزاح حينا آخر الا انه انقطع عنهم بروحه ، متبـــادلا مع أمه نظرة ذات معنى ، ثم خاليا بنفسه متفكرا فى قلق وكدر . كان يدرك خطورة الحلف الـكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه ، ويعز عليه جدا أن يحلف كذبا بالحسين خاصة لولهه به ، ولكنه كثيرا ما وجد نفسه فى مأزق حرج ـ كما وجد اليوم ـ لا مخرج منه فى نظره الا بالحلف الكاذب ، فينساق وهو لا يدرى الى التورط فيه . بيد أنه لم يكن ينجو ، خاصة اذا ذكر بجريرته ، من الهم والقلق ، ويود لو تقتلع الماضى السيىء من جذوره ، وان يبدأ صفحة جديدة نظيفة ، وذكر الحسين ، وموقفه عند أصل مئذنته حيث تتراءى وكأن هامتها تتصل بالسماء ، وسأله فى ضراعة أن يعفو عن زلته وهو يشعر بفضاضة من اجترأ على حبيب باساءة لا تغتفر . وغرق فى توسلاته مليا ثم أخذ يفيق الى ما حوله ويفتح أذنيه الى ما يدور من حديث فيه المعاد وفيه الجديد ، وقليل منه ما يسترعى انتباهه ، ولكنه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منتزعة من ماضى الأسرة البعيـــد أو القريب ، وأنباء مما يجرى عن مسرات الجيران وأحزانهم ، ومواقف حرجة للأخوين ، أمام أبيهما الجبار تنبرى خديجة الى استعادة وصفها وتحليلها على سبيل الفكاهة أو الشماتة ، ومن هذه وتلك نمت للغلام معرفة تبلورت فى مخيلته على صورة غريبة تأثر تكوينها غاية التأثر بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجمية العيابة وروح أمه السمحة العفوة . وانتبـــه أخيرا الى فهمى وهو يقول مخاطبا ياسين :

ـ ان هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا يبعد أن يكون الهجوم الفاصل فى هذه الحرب .

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن فى هدوء متسم بقلة الاكتراث ، تمنى مثله أن ينتصر الألمـــان وبالتالى الترك وأن تسترد الخـــلافة سابق عزتها ، وأن يعود عباس ومحمـــد فريد الى الوطن ولـــكن أمنية من هذه الأمانى لم تكن لتشغل قلبه فى غير أوقات الحديث عنها ، وقد قال وهو يهز رأسه :

ـ مضى أربع سنوات ونحن نردد هذا الكلام ..

فقال فهمى برجاء واشفاق :

ـ لكل حرب نهاية ، ولا بد أن تنتهى هذه الحرب ، ولا أظن الألمان ينهزمون ! ..

ـ هذا ما ندعو الله أن يتحقق ، ولكن ماذا يكون رأيك لو وجدنا الألمان كما يصفهم الانجليز ؟!

ولما كانت المعارضة تشعل حدته فقد علا صوته وهو يقول :

ـ المهم أن نتخلص من كابوس الانجليز ، وأن تعود الخلافة الى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهدا ...

وتدخلت خديجة فى الحديث متسائلة :

ـ لماذا تحبون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقى قنابله علينا .. !

وراح فهمى يؤكد ـ كعادته ـ أن الألمان قصدوا الانجليز بقنابلهم لا المصريين ، فانتقل الحديث الى مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها وخطورتها ، حتى استوى ياسين فى جلسته ونهض الى حجرته ليرتدى ملابسه تمهيدا لمغادرة البيت الى سهرته المعتادة ، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيأ واخذ زينته ، فتراءى أنيق الملبس ، جميل المظهر ، وبدا بجسمه الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النابت أكبر من سنه كثيرا ، ثم حياهم وانصرف وشيعه كمال بنظرة تنم عما يغبطه عليه من التمتع بحريته فى الطلاق ساخر ، فلم يغب عنه أن أخاه لم يعد يحاسب ـ منذ تعيينه كاتبا بمدرسة النحاسين ـ على ذهابه أو ايابه ، وأنه يسهر كما يشاء ويعود حين يشاء ، ما أجمل هذا وأسعده ، وكم يكون انسانا سعيدا لو ذهب وجاء كما يحب ، ومد سهرته الى حين يشاء ، وقصر القراءة ـ حين تتم له اداتها ـ على الروايات والأشعار ، ثم سأل أمه فجأة :

ـ أيمكننى اذا وظفت أن أسهر فى الخارج كياسين ؟

وابتسمت الأم قائلة :

ـ ليس السهر فى الخارج بالغاية التى يصح أن تحلم بها من الآن !

فصاح محتجا :

ـ ولكن أبى يسهر ، وياسين يسهر كذلك

فرفعت الأم حاجبيها ارتباكا وتمتمت :

ـ شد حيلك أولا حتى تصير رجلا ثم موظفا ، ووقتها يفرجها ربنا !

ولكن كمال بدا متعجلا فتساءل :

ــ ولماذا لا أتوظف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام ؟

وصاحت خديجة فى سخرية :

ــ تتوظف دون الرابعة عشرة !.. وماذا تصنع اذا بلت على نفسك فى الوظيفة ؟ !

وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمى بازدراء :

ــ يالك من حمار .. لماذا لا تفكر فى دخول الحقوق مثلى ؟ ... ان ظروف ياسين القاهرة هى التى جعلته يأخذ الابتدائية فى العشرين من عمره ، ولولاها لأتم تعليمه .. الا تدرى حتى كيف تتمنى يا كسول !

— ١٠ —

عندما صعد فهمى وكمال الى سطح البيت كانت الشمس على وشك الاختفاء ، فلاحت قرصا أبيض مسالما تولت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ توهجه ، وقد بدا بستان السطح المسقوف باللبلاب والياسمين فى ظلمة وانية ، ولكن الشاب والغلام مضيا الى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور حجاب ، ثم مالا الى السور الملاصق لسور السطح المجاور « سطح الجيران . وكان فهمى يرقى بكمال الى هذا الموضع كل مغيب بحجة مراجعة دروسه فى الهواء الطلق على الرغم من أن جو نوفمبر أخذ يميل الى البرودة خاصة فى هذه الساعة من اليوم ، وأوقف الغلام بحيث جعل ظهره الى السور ، ووقف هو اقاءه بحيث أمكنه أن يمد بصره الى سطح الجيران الملاصق دون تلفت كلما بدا له . وهناك بين حبال الغسيل لاحت فتاة ــ شابة فى العشرين أو نحو ذلك ــ وقد انهمكت فى جمع قطع الثياب الجافة وتكديسها فى سلة كبيرة ، ومع أن كمال راح يتكلم بصوت مرتفع كعادته الا انها واصلت عملها وكأنها لم تنتبه الى مجىء الطارئين . أمل كان يجىء به دواما فى مثل هذه الساعة لعله يفوز منها بنظرة اذا اتفق ودعاها الى السطح بعض شأنها « ولم يكن تحقيقه يسيرا كما دل تورد وجهه الناطق بفرط سروره ، وخفقان قلبه المتتابع ببهجة المفاجأة ، فجعل ينصت الى أخيه الصغير بعقل تائه وعينين أقلقهما استراق النظر ، وهي تتراءى تارة وتحتجب أخرى « أو يبدو بعضها ويغيب بعضها ، كيفما اتفق موقفها من الثياب والملاءات المنشوره .. كانت فتاة متوسطة القامة صافية البشرة مع ميل الى البياض ، سوداء العينين « تنطق مقلتاها بنظرة تفيض حياة وخفة وحرارة ، الا أن جمالها

وعاطفته المتوثبة واحساسه بالظفر لرؤيتهـا لم تسـتطع ان تمحو القلق الذى يدب وراء قلبه — وانيا حين حضورها ثم قويا اذا خلا الى نفسه — لجرأتها على التعرض لعينيه كأنه ليس بالرجل الذى ينبغى أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه ، أو كأنها فتاة لاتبالى التعرض للرجال ، وطالما سـاءل نفسه ما بالها لاتفزع مولية كخديجة أو عائشة لو وجدت احداهما نفسها فى مثل موقفها ! وأى روح عجيب يشذ بها عن التقاليد المرعية والآداب المقدسة ! ، والا يكون أهدأ جانبا لو بدا منها ذاك الاحتشام المفتقد ولو على حساب سروره الذى يفوق الوصف برؤيتها ؟ ! .. بيد انه داب على انتحال الأعذار لها من قدم الجوار ووحدة النشأة ، وربما الوداد أيضا . ثم لا يفتأ وراء نفسه يحاورها ويجادلها حتى تخشع وترضى ، ولما لم يكن جريئا كجراتها فقد جعل يختلس من الأسطح المجاورة النظر ليطمئن الى خلوها من الرقيب لأنه لم يكن مما يغض الطرف عنه ان يجرح شاب فى الثامنة عشرة حرمة الجيران ، وخاصة من كان منهم فى طيبة جارهم السيد محمد رضوان ولهذا أقلقه دائما شعوره بخطورة فعلته ، وخوفه من أن يترامى نباها الى أبيه فتكون الطامة . ولكن استهانة الحب بالمخاوف عجب قديم فلم يقدر شىء منها على افساد نشوته او انتزاعه من حلم ساعته ، فمضى يراقبها وهى تبدو أو تختفى حتى خلا مابينه وبينها وباتت تواجهه ويداها الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان واصابعها تنقبض وتنبسط على مهل وتؤدة كأنها تتعمد اطالة عملها وحدس قلبـه ذاك التعمد وهو بين الشك والتمنى ولكنه لم يقتصد فى الانطلاق مع فرحته الى أبعد الآفاق حتى استحال باطنه رقصا وانغاما ، ومع انها لم ترفع عينيها اليه قط الا أن هيئتها وتورد وجنتيها وتحاميهـا النظر اليه نمت جميعا عن شدة احساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على احساسها . وبدت فى هدوئها وصمتها موفورة الرزانة كأنها ليست هى هى التى تشيع الفرح والبهجة فى بيته اذا زارت شقيقتيه ؛ او ليست هى هى التى يعلو صوتها فى جنبات الدار وترن ضحكاتها ، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه فى يده استعدادا للتظاهر بالاستذكار اذا طرقه طارق ، ويروح يستقبل بوعيه المركز انغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من اصوات الآخرين الملابسة لها التى لايكاد يشعر بها كأنما وعيه مغناطيسى يجذب اليه الطلب وحده من بين أخلاط شتى ، وربما لحظ بعضا منهـا وهو يعبر الصالة ، وربما التقت عيناهما فى لمحة خاطفة ولكنها كافية لاسكاره واذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دارت رأسه بخطورتها ، وملأ بنظراته المسترقة

من وجهها عينيه وروحه ؛ فعلى الرغم من أنهـا كانت نظرات مسترقة خاطفة الا أنها مستأثرة بروحه واحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة تأتى النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق . كأنها انبثاق البرق الذى يتوهج لحظة قصيرة فتضىء شرارته الرحاب وتختطف الأبصار ، وثمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنه لم يخل ـ كحاله أبدا ـ من ظل أسى يتبعه كما تتبع رياح الخمسين مشرق الربيع ؛ لأنه لم يكن يكف عن التفكير فى الأربعة الأعوام التى يتم تعليمه فيها ، والتى لا يدرى كم من يد قد تمتد فى أثنائها الى الثمرة الناضجة لتقطفها . ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخانق الذى تشد على عنقه قبضة أبيه الحديدية لأمكنه أن يلتمس الى سلام قلبه أقصر السبيل ؛ ولكنه خاف دائما أن ينفس عن آماله فيعرضها لزجرة من أبيه قاسية تطيرها وتبددها . وتساءل وهو يمد بصره فوق رأس أخيه ترى أى أفكار تدور برأسها ؟ . الا يشغله حقا إلا ما تجمع من قطع الملابس !.. ألم تشعر بعد بما يجذبه الى موقفه هذا مساء بعد مساء ؟.. وكيف يلقى قلبهـا هذه الخطى الجريئة من ناحيته ؟.. وتخيل نفسه متخطيا سور السطح الى مكانها فى الظلام ، وتخيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد ، وتارة تباغت بمقدمه حتى تهم بالفرار ، ثم تصور ما يكون بعد ذلك ، وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب ، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقبل ، بيد أنها كانت محض تخيلات وأوهام ، وكان أدرى الناس ـ بما جبل عليه من دين وآداب ـ ببطلانها ومحالها . وبدا الموقف صامتا الا انه كان صمتا مكهربا يكاد ينطق بغير لسان ، وحتى كمال لاحت فى عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسائل نفسه عن معنى هذا الجد الغريب الذى يثير استطلاعه على غير جدوى ، ثم نفد صبره فرفع صوته قائلا :

ـ لقد حفظت الكلمات . الا تسمعها لى ؟

وأفاق فهمى على صوته فتناول الكراسة منه ومضى يسأله عن معانى الكلمات والآخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سببا وأى سبب فرفع صوته عمدا وهو يسأله عن معناها قائلا :

ـ قلب .. ؟

وأجاب الغلام وتهجى والآخر يتلمس أثر موقع الكلمة من وجهها ، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلا :

ـ حب ... ؟

وارتبك كمال قليلاً ثم قال بصوت يدل على الاعتراض :

- ليست هذه الكلمة فى الكراسة ..

فقال فهمى باسما :

- ولكنى ذكرتها لك مراراً ، وكان يجب ان تحفظها ..!

وقطب الغلام كأنه يشد قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكن أخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلا :

- زواج .. ؟

وخيل اليه عند ذاك انه لمح على شفتيها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه فى سرعة وحرارة ، وملأه شعور بالظفر لأنه أمكنه اخيرا ان ينقل اليها شحنة من الكهرباء التى تستعر فى صدره ، بيد أنه تساءل لماذا ياترى لم تفصح عن تأثرها الا عند هذه الكلمة ، ألأنها استنكرت سابقتها أم ان الأخيرة كانت أول ما وعت أذناها ؟!.. وما يدرى الا وكمال يقول محتجا بعد أن أعياه التذكر :

- هذه الكلمات صعبة جدا ..

وآمن قلبه بقولة أخيه البريئة ، وذكر على ضوئها حاله ففترت فورة سروره او كادت ، وهم بالكلام ولكنه رآها انحنت على السلة ثم حملتها واتجهت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الغسيل براحتيها ، قريبة من موقفه لا يفصلها عنه الا ذراعان ، ولو شاءت لاختارت موضعا آخر من السور ولكن كأنها تعمدت ان تتصدى له وجها لوجه ، فبدت فى هجومها جريئة لحد اخافه وأربكه ، وأن عاود قلبه الخفقان السريع الحار حتى شعر بأن الحياة تبيح له من كنوزها لوناجديدا لم يدره ، لطيفا بهيجا مفعما حيوية وافراحا . ولكن وقفتها القريبة لم تطل فما لبثت ان رفست السلة بين يديها واستدارت مولية صوب باب السطح حتى مرقت منه وغابت عن ناظريه . وجعل ينظر الى الباب مليا دون مبالاة بأخيه الذى عاود التشكى من صعوبة الكلمة ثم شعر برغبة فى الانفراد لتملى ما استجد له من تجارب الهوى فقلب عينيه فى الفضاء فى تظاهر بالدهشة كأنما يتنبه الى الظلمة الزاحفــة فى الأفق لأول مرة ، وتمتم قائلا :

- آن لنا ان نعود ..

- ١١ -

وكان كمال يستذكر دروسه فى الصالة ، تاركا حجرة الاستذكار لفهمى وحده ، ليكون غير بعيد عن مجلس أمه واختيه . وكان ذلك المجلس امتدادا لمجلس القهوة الا أنه يقتصر على النسوة وحديثهن الخاص الذى يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة ، وقد جلسن كعادتهن متلاصقات كأنهن جسم واحد ذو رءوس ثلاثة فى حين تربع كمال على كنبة أخرى قبالتهم فاتحا كتابه فى حجره يقرأ فيه حينا ، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حينا آخر ، ويتسلى بين هذا وذاك بالنظر اليهن والاصغاء لحديثهن . ولم يكن فهمى يوافق على استذكاره لدروسه بعيدا عن مراقبته الا على كره ولكن تفوق الغلام فى المدرسة شفع له فى اختيار المكان الذى يحب أن يستذكر فيه . والحق كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التى تحمد له ، ولولا شقاوته لاستحق عليها تشجيع ابيه نفسه ، ولكنه على اجتهاده وتفوقه كانت تلم به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتى ليغبط أمه وأختيه على خلو بالهن وما يحظين به من راحة وسلام ، وربما تمنى فيما بينه وبين نفسه لو كان حظ الذكور فى هذه الدنيا كحظ النساء الا أنها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسيه ما يتمتع به من مزايا دعته فى أحايين كثيرة الى التطاول عليهن بالفخر والمباهاة لداع ولغير ما داع فلم يكن من النادر أن يسألهن وفى صوته رنة التحدى « من منكن تعرف عاصمة الكاب ؟ » أو « ما معنى شاب بالانجليزية ؟ » فيجد من عائشة صمتا لطيفا على حين تقر له خديجة بجهلها ثم تعرض به قائلة « ليس لهذه الطلاسم الا من كان له راس كراسك ! » أما أمه فتقول له فى ايمان ساذج « لو علمتنى هذه الأشياء كما تعلمنى الديانة لما قصرت فيها دونك » . ذلك أن أمه ــ على استكانتها ورقتها ــ كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم ، ولم تكن تظن أنها بحاجة الى مزيد من العلم أو أنه استجد من العلم ما يستحق أن يضاف الى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطبية ، وضاعف من ايمانها بعلمها أنها تلقته عن أبيها أو فى بيته الذى نشأت فيه ، وكان الأب شيخا من العلماء الذين فضلهم الله ــ لحفظهم القرآن ــ على العالمين ، فلم يكن معقولا أن تعدل بعلمه علما ولو لم تجهر برأيها ايثارا للسلامة . ولهذا

كثيرا ما أساءت الظن ببعض ما يقال للأبناء فى المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء فى تفسيره أو فى السماح بتلقينه للناشئين . بيد أنها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام فى المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها ، ولما كان الدرس المدرسى لا يكاد يتسع الا لقراءة السور وتفسيرها وتبيين المبادىء الدينية الأولية فقد وجدت متسعا لقص ما عندها من أساطير لا تنفصل فى اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلها رأت فيها دائما حقيقة الدين وجوهره ، وجلها معجزات وكرامات عن النبى والصحابة والأولياء ، وتعاويذ شتى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض فصدقها الغلام وآمن بها ، لأنها صادرة عن أمه من ناحية ، ولأنها جديدة فى موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسية من ناحية أخرى . وفضلا عن هذا وذاك فلم تكن عقلية مدرس الديانة كما تتكشف فى تبسطه فى الحديث أحيانا — لتختلف عن عقلية أمه كثيرا أو قليلا ، ثم انه شغف بالأساطير شغفا لم يظفر بمثله فى الدروس الجافة فكان درس أمه من اسعد ساعات اليوم واحفلها بالمتعة والخيال . أما فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرا اذا تهيأت أسبابه ، من ذلك أنهما اختلفا مرة عن الأرض وهل هى تدور حول نفسها فى الفضاء أو تنهض على رأس ثور ، ولما وجدت من الغلام اصرارا تراجعت متظاهرة بالتسليم ، ولكنها تسللت الى حجرة فهمى وسألته عن حقيقة الثور الذى يحمل الأرض وهل ما زال على عهده بحملها . ورأى الشاب أن يترفق بها ويجيبها باللغة التى تحبها فقال لها ان الأرض مرفوعة بقدرة الله وحكمته ، وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذى سرها وان لم يمح من مخيلتها ذاك الثور الكبير . على أن كمال لم يؤثر هذا المجلس لاستذكاره رغبة منه فى الفخر بعلمه أو حبا فى النزاع الفكرى ، كان فى الحق يحب بكل قلبه الا يفارقهن ولو فى وقت عمله ، وكان يجد الرآهن سرورا لا يعادله سروره فهذه الأم يحبها أكثر من أى شىء فى الدنيا ولا يحتمل تصور الوجود بدونها لحظة واحدة ، وهذه خديجة وهى تلعب فى حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها ، وهذه عائشة التى وان لم تتحمس يوما لخدمة انسان الا انها أحبته حبا عظيما فبادلها حبا بحب حتى كان لا يشرب جرعة الماء من القلة الا اذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبتل بريقها . ومضت الجلسة كما تمضى كل ليلة حتى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودعتا امهما وذهبتا الى حجرة نومهما ، وعند ذاك عجل الغلام بقراءة

درسه حتى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل الى جانب أمه على الكنبة المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الاغراء :

ـ استمعنا اليوم الى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدا ..

فاستوت المرأة فى جلستها وهى تقول باحترام واجلال :

ـ كلام ربنا عظيم كله ..

وسره اهتمامها وهزه شعور بالغبطة والعزة لا يجده الا حين هذا الدرس الأخير من اليوم . أجل كان يجد فى هذا الدرس الدينى أكثر من سبب للسعادة ، فانه يقوم فى أثناء نصفه على الأقل بدور المدرس ، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرسه وحركاته وما يتمثله فيه من احساس بالاستعلاء والقوة ، وانه يستمتع فى نصفه الآخر بما تلقيه عليه امه من ذكريات وأساطير ، وأنه يستأثر وحده فى شطريه بأمه دون شريك . ونظر كمال فى الكتاب فيما يشبه الادلال ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » حتى أتم السورة ولاح فى عينى الأم التردد والحيرة ، اذ كانت تحذره من التفوه باسمى العفريت والجن درءا لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض اشفاقا ومبالغة فى الحيطة ، فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو احد الاسمين الخطيرين فى سورة شريفة ، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها أو ماذا تفعل لو دعاها كالمعتاد الى حفظها معه . وقرأ الغلام فى وجهها هذه الحيرة فداخله سرور ماكر ، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطا على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعا أن تفصح أخيرا عن اشفاقها فى لون من ألوان الاعتذار ، ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت ، فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال :

ـ ها أنت ترين أن من الجن من استمع الى القرآن وآمن به ، فلعل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين والا ما أبقوا علينا طوال هذا العمر

فقالت المرأة فى شىء من الضيق :

ـ لعلهم .. ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم ، فيحسن بنا الا نردد أسماءهم ..!

ـ لا خوف من ترديد الاسم .. هكذا قال مدرسنا ..

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت :

ـ المدرس لا يعرف كل شىء !

ـ وان كان الاسم ضمن آية شريفة ؟
وشعرت حيال تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بدا من أن تقول :
ـ كلام ربنا بركة كله ..
واقتنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلا :
ـ ويقول شيخنا أيضا ان اجسامهم من نار !
وبلغ بها القلق غايته فاستعاذت بالله وبسملت عدة مرات اما كمال فاستطرد قائلا :
ـ وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار فأجابني بحدة قائلا ان الله قادر على كل شيء ..
ـ جلت قدرته ..
فرنا اليها باهتمام ثم تساءل :
ـ واذا التقينا بهم فى الجنة الا تحرقنا نارهم ؟!
فابتسمت المرأة وقالت فى ثقة وايمان :
ـ ليس فيها أذى او خوف ..
وسرح الغلام بعينيه حالما واذا به يسأل مغيرا مجرى الحديث فجأة :
ـ أنرى الله فى الآخرة بأعيننا ؟
فقالت المرأة بنفس الثقة والايمان :
ـ هذا حق لا ريب فيه ..
فلاحت فى نظرته الحالمة اشواق كما تلوح فى الغلس بتأثير الضياء ، وساءل نفسه متى يرى الله ، وفى أى صورة يتبدى ، واذا به يسأل امه مغيرا مجرى الحديث فجأة مرة اخرى :
ـ أيخاف أبى الله ؟!
فتولتها الدهشة وقالت فى انكار :
ـ يا له من سؤال غريب !.. أبوك رجل مؤمن يا بنى ، والمؤمن يخاف ربه ..
فهز رأسه فى حيرة وقال بصوت خفيض :
ـ لا أتصور أن أبى يخاف شيئا ..
فهتفت المرأة فى عتاب :
ـ سامحك الله .. سامحك الله ..
واعتذر عن قولة بابتسامة رقيقة ، ثم دعاها الى حفظ السورة الجديدة ، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان . ولما استفرغا جهدهما نهض

الغلام ليذهب الى حجرة النــوم فتبعته حتى اندس تحت الغطاء على فراشــه الصغير ، ثم وضــعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسى ، وانحنت فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقها بذراعه ورد بقبلة طويلة صادرة من أعمــاق قلبه الصــغير . وكانت تلقى دائما صــعوبة فى التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يبذل كل حيلته ليستبقيها الى جانبه أطول مدة ممكنة ان لم نفز باستبقائها حتى يغيب فى نومه وهو بين ذراعيها ، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرا من أن يطلب اليهــا أن تتلو على رأسه ــ اذا ختمت آية الكرسى ــ سورة ثانية ثم ثالثة ، حتى اذا آنس منها ابتسامة اعتذار توسل اليها معتلا بخوفه من وحدته فى الحجرة أو بما يتراءى له من أحــلام مزعجة لا تدفعهــا الا تلاوة طويلة للسور الشريفة ، وربما تمادى فى تشبثه بها الى حد تصنع المرض ، غير واجد فى تحايله هذا جورا ، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحق من حقوقه المقدســة التى هضمت أفظع الهضم يوم فصل عن أمه ظلمــا وعدوانا وجىء به الى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه . كم يذكر مع الحسرة عهدا غير بعيد من ماضيه حين مضطجعهما كان واحدا ، وحين ينام متوسدا ذراعها وهى تسكب فى أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء ، وحين النوم يغشاه قبل رجوع ابيه من ســهرته ، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل الى الحمام ، فلم يكن يرى مع أمه ثالثا ، وكانت الدنيا له بلا شريك . ثم بقضاء أعمى لم يدر له حكمة فرقوا بينهمــا ، وتطلع اليهــا ليرى أثر نفيــه فى نفســها فما عجب الا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتهنئتها له قائلة « الآن صرت رجلا فمن حقك أن يفرد لك فراش خاص » ، من قال أنه يسره أن يكون رجلا أو أنه يطمح الى أن يفرد له فراش خاص !؟ ومع أنه بلل أول وسادة خاصة له بدمعه ، ومع أنه انذر أمه بأنه لن يعفو عنها مدى الحيــاة ، الا أنه لم يجرؤ على التسلل الى مضجعه القديم لأنه كان يعــلم ان وراء تلك الحركة الجائرة الغادرة تجثم ارادة أبيه التى لا ترد . ولشد ما حزن حتى رسبت عكارة الحزن فى أحلامه ، ولشد ما حنق على أمه ــ لا لأنه لم يسعه ان يحنق على أبيه فحسب ــ ولكن لأنها كانت آخر من يتصور أن يخيب عنده الأمل ، بيد أنها عرفت كيف تسترضيه وترده الى الصفاء رويدا ودأبت على الا تفارقه بادىء الأمر حتى يوافيه النوم ، وجعلت تقول له « لم نفترق كما تزعم ، ألست ترانا معا ؟ وسنبقى دائما معا ، لن يفرق بيننا الا النوم الذى كان يفرق بيننا ونحن فى فراش واحد » . والآن لم تعد

تطفو على شعوره حسرة مما تخلف عن تلك الذكرى ، واستنام الى حياته الجديدة ، الا أنه لم يكن يدعها تذهب حتى يستنفد الحيل لاستبقائها الى جانبه أطول مدة ممكنة ، وقد قبض على راحتها فى حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين اطفال يتخاطفونها وراحت هى تتلو الآيات على راسه حتى غافله الكرى ، فودعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة واتجهت الى الحجرة التالية ففتحت بابها بخفة ونظرت صوب فراش لاح شبحه فى جانبها الأيمن وتساءلت فى رقة : « نمتما ؟ » فجاءها صوت خديجة وهى تقول :

ــ كيف يتأتى لى النوم وشخير ست عائشة يملأ على الحجرة !

ثم يسمع صوت عائشة وهى تقول فى نبرات ناعسة :

ــ ما سمع احد لى شخيرا قط ، ولكنها لا تدعنى انام بثرثرتها المتواصلة . .

فقالت الأم فى عتاب :

ــ اين وصيتى لكما بأن تكفا عن هذركما وقت النوم !

وردت الباب وسارت الى حجرة الاستذكار فطرقت بابها بخفة ثم فتحت وأدخلت راسها وهى تقول باسمة :

ــ افى حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟

فرفع فهمى رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة لطيفة ، فردت الباب وابتعدت عنه وهى تدعو لفتاها بالفلاح وطول العمر ، ثم عبرت الصالة الى الدهليز الخارجى وارتقت السلم الى الدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيد ، وصوتها يسبقها تاليا الآيات . .

— ١٢ —

لما غادر ياسين البيت كان يدرى بطبيعة الحال وجهته التى يقصد مساء بعد مساء ولكنه بدا ــ كعادته دائما اذا مشى فى الطريق ــ وكأنه لا وجهة له . كان شأنه اذا سار ان يسير متمهلا فى هوادة ورفق ، مختالا فى عجب وزهو ، كأنه لا يغفل لحظة واحدة عن انه صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفائض حيوية وفحولة ، وهذه الملابس الأنيقة الآخذة حظها ــ وأكثر ــ من العناية الى منشة عاجية لا تفارق يده صيفا أو شتاء ، وطربوش طويل مائل بمنة حتى يكاد يمس حاجبه

ومن عادته أيضا اذا سار أنه كان يرفع عينيه ـ دون راسه ـ مستطلعا ما وراء النوافذ لعل وعسى ، فلم يكن يقطع طريقا حتى يشعر فى نهايته بما يشبه الدوار من كثره تحربك عينيه ، اذ كان ولعه بالتهام النسوة اللاتى يصادفنه داء لا شفاء منه ، فهو يتفحصهن مقبلات ويتبع عينيه أردافهن مدبرات ، ويظل فى قلقلة كثور هائج حتى ينسى نفسه فلا يعود يتدبر مداراة مقاصده ، الأمر الذى تنبه له مع الزمن عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى وأبو سريع صاحب المقلى وغيرهم فمنهم من حمله محمل الدعابة ومنهم من أخذه ماخذ الانتقاد لولا أن الجيرة ومنزلة السيد احمد عبد الجواد شفعتا له بالاغفاء والتسامح . كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله ، فلم تدع له وقتا يستريح فيه من استفزازها ، وشعر دائما بألسنتها تلهب حواسه ووجدانه ، وكأنها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء ، بيد أنه عفريت لم يخفه أو يضيق به ، ولم يود الخلاص منه ، بل لعله رام منه المزيد . ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكا لطيفا حين اقترب الشاب من دكان أبيه ، هناك أغضى طرفه واستقامت مشيته ، وتحلى بأدب وحياء ، وحث خطاه لا يلوى على شيء ، ولما مر بباب الدكان التفت الى داخله فرأى خلقا كثيرين ولكنه التقى بعينى ابيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى فى اجلال رافعا يده الى رأسه فى أدب ، فرد الرجل تحيته مبتسما ، ثم استأنف مسيره مسرورا بهذه الابتسامة كأنما حظى بنعمة نادرة المثال . والحق أن عنف أبيه المعهود ، ولو انه اعتوره تغير ملموس منذ أن انخرط الفتى فى سلك موظفى الدولة الا انه لم يزل فى نظره نوعا من العنف الملطف بالكياسة ، فلم يزايل الموظف خوفه القديم الذى ملأ قلبه وهو تلميذ ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن وان الآخر الأب ، وما فتىء يتضاءل بمحضره على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة . وما أن ابتعد عن دكان ابيه وصار بمنجى من عينيه حتى استرد خيلاءه وعادت عيناه الى الدبدبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال ، اذ كان العفريت الذى يركبه مولعا بالنساء كافة ، متواضعا يستوى عنده الرفيع والوضيع منهن فبائعات الدوم والبرتقال ـ على سبيل المثال ـ وان شابهن الأرض التى يقتعدنها لونا وقذارة لا يخلين أحيانا من ميزة حسن ، كثديين ناهدين أو عينين مكحولتين وماذا يروم غير هذا ؟! . ثم اتجه صوب الصاغة ومنها الى الغورية ، ومال الى قهوة سى على على ناصية

الصنادقية ، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم تفتح بابها على الصنادقية وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطفت بأركانها الأرائك . واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة - مجلسه المختار منذ أسابيع - وطلب الشاى . جلس بحيث يوجه بصره فى يسر ودون اثارة ظن الى الكوة ، ومنها يصعده كلما يشاء الى نافذة صغيرة فى بيت على الجانب الآخر للطريق ، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التى لم يعن باحكام اغلاق خصاصها ، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة «العالمة» ولم تكن «العالمة» مطمحه فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها فى صبر واناة ، ولكنه راح يرصد ظهور زنوبة العوادة ربيبة « العالمة » ونجمة تختها اللامعة . وكانت فترة توظفه بالحكومة عهدا حافلا بالذكريات جاءه بعد طول تقشف اجبارى عاناه محاذرا فى ظل أبيه الرهيب ، فانطلق من ثمة كالشلال يتحدر فى مهاوى الازبكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفتهم عجلة الحرب الى القاهرة ، ثم ظهر فى الميدان الاستراليون فاضطر الى التخلى عن مغانى العبث فرارا من وحشيتهم وضاقت به السبل فمضى يتقلب فى ازقة جيبه كالمجنون واقصى ما يطمع فيه من لذة بائعة برتقال أو غجرية ممن يقران الطالع ، حتى رأى يوما زنوبة فتبعها مذهولا الى موطنها ، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما يبل صدره . كانت امرأة وكل امرأة عنده رغيبة ، بيد انها كانت الى هذا ذات حسن فهرسته ، وليس الحب لديه الا تلك الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهى أسمى ما عرف من الوانه . وجعل يمد بصره خلال القضبان الى النافذة الخالية فى جزع وقلق انسياه نفسه فحسا الشاى الساخن دون أن ينتبه الى سخونته الا وهو يزدرده وراح ينفخ متألما ، ثم أعاد القدح الى الصينية الصفراء مسترقا النظر الى السمار الذى أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنما هى المسئولة عن اسعته او أنها السبب فى عدم ظهور زنوبة بالنافذة .. « ترى أين الملعونة ؟ .. أتتعمد الاختفاء ! .. من المحقق انها تعلم بوجودى هنا .. ولعلها رأتنى قادما .. فاذا اصطنعت التدلل الى النهاية الحقت هذا اليوم بأيامى المحرقة » . وعاود استراق النظر الى الجلوس ليرى هل يلاحظه أحد منهم ولكنه وجدهم جميعا منهمكين فى أحاديثهم التى لا تنتهى ، فداخله ارتياح وأرجع بصره الى الهدف المرموق ، بيد انه اعترضت تيار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التى صادفته فى المدرسة اذ شك الناظر فى أمانة متعهد اللحوم فقام بتحقيق اشترك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة ، ثم

بدا منه شيء من التراخي في عمله حمل الناظر على نهره مما نغص عليه صفوه بقية اليوم وجعله يفكر في أن ينسكو الناظر الى أبيه ـ وهما صديقان قديما ـ لولا خوفه أن يجد أباه أشد عليه من الناظر .. « اطر عنك هذه الأفكار السخيفة .. انتهينا من المدرسة والناظر عليهما اللعنة .. حسبي الآن ما ألاقي من القارحة بنت القارحة التي تبخل علينا بنظرة » واذا بأحلام عارية تنثال على خياله « احلام كثيرا ما تمتل على مسرح أوهامه وهو يرنو الى امرأة أو يستعيد ذكراها ، تخلقها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد أغطيتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستثنية جسده هو ، ثم تمضي في فنون من العبث لا عاصم لها ، ولكنه ما كاد يستنيم الى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذي وهو يصيح على حماره «يس» فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام بيت العالمة . وتساءل ترى أجاءت العربة لتحمل أفراد التخت الى فرح من الأفراح ؟ .. ونادى صبي القهوة ودفع اليه الحساب متأهبا لمغادرة المكان في أية لحظة اذا دعا داع . ومضت فترة انتظار وترقب ثم فتح باب البيت وبرزت امرأة من نسوة التخت وهي تجر رجلا أعمى مرتديا جلبابا ومعطفا وعوينات سوداء ومتأبطا القانون ، وصعدت المرأة الى العربة وتناولت القانون ثم أخذت بيد الأعمى ، وأعانه الحوذي من ناحية أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقدمة العربة . وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفا ، ثم ثالثة متأبطة صرة ، وقد تبدين في ملاءاتهن اللف سافرات ، كاسيات ـ بدلا من البراقع ـ بأقنعة من زواق فاقع الألوان جعلهن بعرائس المولد أشبه . ثم ماهذا !.. رأى ببصر شيق وقلب خافق العود وهو يبرز من الباب في جرابه الأحمر .. وأخيرا بدت زنوبة وقد انحسر طرف ملاءتها عند أعلى الرأس عن منديل قرمزي ذي أهداب منمنمة ، لمعت تحته عينان سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتهما لعبا وشيطنة . واقتربت من العربة ومدت يدها بالعود فتناولته امرأة ، ثم رفعت قدما الى أعلى العجلة فاشرأب ياسين بعنقه وهو يزدرد ريقه فلمح ثنية الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان برتقالي .. « آه لو تغوص بي الأريكة في الأرض مترا .. رباه .. ان وجهها أسمر ولكن لحمها المكنون أبيض .. أو شديد الميل للبياض .. فكيف يكون الورك ! .. وكيف يكون البطن !.. البطن يا هوه .. » وثبتت زنوبة راحتيها على سطح العربة وتحاملت عليهما حتى حطت ركبتيها على حافة العربة ثم مضت تتحرك رويدا على أربع .. « يالطيف

.. يا لطيف .. آه لو كنت على باب البيت .. او حتى فى دكان محمد الطرابيشى .. انظر الى ابن الكلب كيف يحملق فى الطابية بعينيه .. ما اجدر أن يسمى نفسه منذ اليوم محمد الفاتح .. يا لطيف .. يا منقذ .. »
واخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربة ، وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزها بيديها هزات متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه ، ثم لفتها حول جسمها لفة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وابرزت - خاصة - عجيزة مدملجة رقراقة ، ثم جلست عند مؤخرة العربة فتكور ردفها تحت الضغط متبلورا ذات اليمين وذات اليسار فنعم الوسادة .. ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربة قد تحركت فتبعها متمهلا وهو يلهث ويصر على أسنانه من شدة الانفعال .
وراحت العربة تسير سيرتها المتمهلة المتراخية المتمايلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركز الشاب عينيه فى وسادة العوادة ، يذهب معها ويجىء حتى خالها بعد حين ترقص . وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق واخذت كثرة من الدكاكين تغلق ابوابها ، الى ان غالبية المارة كانت من جمهور العاملين العائدين الى بيوتهم منهوكى القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتعب متسعا لانعام النظر والأحلام فى أمن ودعة .. « اللهم لاتجعل لهذا الطريق من نهاية » ولا لهذه الحركة الراقصة من ختام .. يالها من عجيزة سلطانية جمعت بين العجرفة واللطف يكاد البائس مثلى يحس بطراوتها وشدتها معا بالنظر المجرد .. وهذا المفرق العجيب الذى يشطرها تكاد تنطق الملاءة عنده .. وما خفى كان اعظم .. انى أدرك الآن لماذا يصلى بعض الناس ركعتين قبل أن يبنى بعروسه .. اليست هذه قبة ؟ .. بلى وتحت القبة شيخ .. وانى لمجذوب من مجاذيب هذا الشيخ . يا هوه .. يا عدوى .. » وتنحنح والعربة تقترب من بوابة المتولى فالتفتت زوبة وراءها وراءه ، ثم خيل اليه ، وهى تعيد راسها ، انه لمح على شفتيها بشير ابتسامة فدق قلبه فى عنف وسرت فى وجدانه سكرة سرور ملتهب . ومرقت العربة من بوابة المتولى ثم مالت الى اليسار ، وهناك اضطر الشاب الى التوقف عن متابعتها لأنه راى عن كثب معالم زينات وانوار وجمهورا مهللا فتراجع قليلا وبصره لا يفارق العوادة ، وجعل يراقبها بنهم وهى تنزل على الارض . وهى ترمى ناحيته بنظرة عابثة ، ثم وهى تتجه الى بيت العروس حتى واراها الباب فى ضجة من الزغاريد . وتنهد تنهدة حامية ، والفته حيرة خانقة فبدا قلقا كأنه لا يدرى أى وجهة يقصد .. « لعنة الله على

الاستراليين ! .. أين أنت يا ازبكية لأبثك همى وأشجانى واتزود منك بشيء من الصبر » .. ثم دار على عقبيه وهو يتمتم « الى العزاء الباقى .. الى كستاكى » ، وما كاد ينطق باسم البدال اليونانى حتى تندى راسه حنينا الى حميا الشراب .. كانت المرأة والخمر فى حياته متلازمتين متكاملتين ، ففى مجلس المرأة عاقر الخمر لأول مرة . ثم صارت بحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها ، بيد أنه لم يتح لهما ـ المرأة والخمر ـ أن يتلازما دائما ، وخلت ليال كثيرات من النساء . فلم يجد بدا من أن يخفف لوعته بالشراب ، وبكرور الأيام واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالخمر لذاتها . وعاد من نفس الطريق الذى جاء منه . وقصد بدالة كستاكى عند راس السكة الجديدة ـ حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينهما باب صغير ـ ووقف عند مدخلها مختلطا بالزبائن ريثما يتفحص الطريق أن يكون أبوه هنا او هناك ، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلى ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لمح فى طريقه رجلا واقفا أمام الميزان والخواجه كوستاكى نفسه يزن له لفة كبيرة ، فانجذب رأسه اليه بلا ارادة ، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت فى بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفا واشمئزازا . لم يكن فى مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواطف العدائية ، كان فى الحلقة السادسة ، مرتديا جلبابا فضفاضا وعمامة ، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة ، الا أن ياسين واصل سيره مضطربا كأنما يفر قبل أن تقع عليه عينا الرجل ، ودفع باب الحانة بشيء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الأرض ..

- ١٣ -

ارتمى على أول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهما ، ثم دعا النادل وطلب دورق كونياك بنبرات نمت على نفاد صبره . وكانت الحانة بالحجرة أشبه ؛ تدلى من سقفها فانوس كبير ، وصفت بجنباتها موائد خشبية وكراسي خيزران جلس اليها نفر من أهل البلد والعمال والأفندية ، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أصص القرنفل . من عجيب انه لم ينس الرجل ، وانه عرفه من النظرة الأولى » متى رآه آخر مرة ؟ .. لا يستطيع أن يجزم ، ولكن من المحقق انه لم تقع عليه عيناه فى مدى اثنتى عشرة سنة الا مرتين احداهما التى

زلزلته الآن . وقد تغير الرجل ما فى ذلك من شك فغدا شيخا هادىء وقورا ! . . الا سحق الله المصادفة العمياء التى ألقت به فى سبيله . والتوت شفتاه تقززا وامتعاضا وشعر بمرارة الهوان تجرى فى ريقه . ياله من هوان مذل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد حتى ترده اليه ذكرى من الذكريات المعتمة او مصادفة لعينة كالتى حدثت اليوم فينقلب ذليلا منكسرا . . ضائعا . وعلى رغمه حملقت عيناه فى الماضى البغيض ، بقوة الهياج المثار فى راسه وقلبه ، فانشق الظلام عن أشباح شائهة طالما ناوشته كرموز العذاب والكراهية ، فميز من بينها دكان فاكهة يقوم على راس عطفة قصر الشوق ، وطالعته صورة غامضة المعالم ، هى صورته وهو صبى . فرآه وهو يحث خطواته المتقاربة الى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثم حمله قرطاسا مليئا بالبرتقال والتفاح فتناوله مسرورا وعاد به الى المراة التى بعثته وانتظرت ، الى امه دون غيرها وا اسفاه . وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق وضيق . ثم استعادت مخيلته سورة الرجل فتساءل جزعا ترى أكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه ؟ . . اكان يذكر فيه الصبى الصغير الذى عرفه قديما ابنا لتلك المراة ؟ . . وقرضته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البادن الفارع وتضاءل فى حسه حتى استحال لا شيء . وجيء عند ذلك بالدورق والقدح نصب ونهل فى نهم وعصبية متعجلا حظ الشاربين من الانتعاش والنسيان . ولكن فجأة تراءى له من اعماق الماضى وجه امه فلم يتمالك من أن يبصق . أيهما يلعن : الحظ الذى جعلها امه أم جمالها الذى شغف كثيرين حبا وأحاطه بالكوارث ؟! . . والحق انه لم يكن بوسعه أن يغير أمرا مما قدر عليه ، ولم يكن بوسعه الا ان يذعن للقضاء الذى هرس عزة نفسه ، أفليس من الظلم ان يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنه هو الجانى الأثيم ؟! . ولم يدر لم استحق اللعنة ، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا فى حضانة امهات مطلقات مثله غير قليلين ، وعلى خلاف اكثرهم وجد من امه حنانا غير مشوب وحبا لا يعرف الحدود وتدليلا سابغا لا تشكمه رقابة أب فتمتع بطفولة سعيدة قوامها الحب واللين والدماثة . ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق ، كسطحه الذى يشرف على اسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقبابا من نواحيه الأربع ، ومشربيته التى تطل على الجمالية حيث تمر ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوات فيتجلى اكثرها عن معارك تشتجر فيها النبابيت وتسيل الدماء . فى ذلك البيت

أحب أمه حبا لا مزيد عليه وفيه شاعت فى قلبه روح الريبة الغامضة ، وفيه رمى الى صدره بالبذرة الأولى لنفور غريب ــ نفور ابن من أمه ــ التى قدر لها أن تنمو وتستفحل حتى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء المضال . وكثيرا ما قال لنفسه انه ربما كان فى وسع الارادة القوية أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكننا ان يكون لنا ــ مهما أوتينا من ارادة ــ الا ماض واحد لا مفر منه ولا مهرب . والآن يتساءل ــ كما تساءل من قبل كثيرا ــ متى فطن الى أن أمه لم تكن الشخص الوحيد فى حياته ؟!.. بعيد جدا أن يعرف هذا على وجه اليقين . وما يذكر الا أنه فى فترة ما من طفولته دعت حواسه شخصا جديدا كان يطرأ على البيت من حين لآخر ، ولعله ــ ياسين ــ كان يتطلع اليه بغرابة وشىء من الخوف . ولعل الآخر بذل ما فى وسعه لايناسه وارضائه : انه يحملق فى الماضى على استكراه ونفور شديدين ، ولكنه وجد المقاومة لا تجدى ، كأنما ذاك الماضى دمل يود لو يتجاهله على حين لاتمسك يده عن جسه من آن لآخر . ثم أن هنالك أمورا لا يمكن ان تنسى .. ففى مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافذة أو باب مطعم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر .. فى ذاك المكان يذكر أنه اطلع فجأة ــ فى ظروف قرضها النسيان ــ على ذلك الشخص الطارىء وهو كأنه يفترس أمه ، فما تمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول باكيا حتى أقبلت المرأة عليه فى اضطراب باد وراحت تطيب خاطره وتسكن ثائره . وانقطعت من شدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلب عينيه فيما حوله واجما ، ثم صب من الدورق فى القدح وشرب ، وقد لمح وهو يعيد القدح الى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكتته فظنها خمرا وأخرج منديله وانشأ يدلكها ، ثم خطر له خاطر فتفحص ظاهر القدح فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده أن ما سقط على سترته ماء لا خمر واسترد طمأنينته ، .. ولكن اى طمأنينة خادعة ! لقد رجعت عيناه الى مرآة الماضى البغيض . لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة ، ولا كم كان عمره حين وقوعها ، ولكنه يذكر بلا ريب أن الشخص المفترس لم ينقطع عن البيت القديم ، وانه كثيرا ما تودد اليه بما لذ له وطاب من الوان الفاكهة ، ثم كان يراه بعد ذلك فى دكان الفاكهة عند رأس العطفة اذا استصحبته أمه معها فى مشوار ، وبسذاجة الأطفال كان يلفت نظرها اليه فكانت تجذبه فى عنف بعيدا عنه وتمنعه من الأيماء اليه حتى تعلم ان يتجاهله وهو فى صحبتها بالطريق ، وازداد الشخص فى نظره ابهاما وغموضا . ثم حذرته من أن

يعود الى ذكره امام خال عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتبع تحذيرها وما يزداد الا حيرة . ولم يقنع الحظ منه بذاك القدر فكانت ـ أمه ـ اذا غاب الرجل عن البيت اياما يكون مبعوثا ـ اليه ليدعوه الى ان يحضر « الليلة » ! وكان الرجل يستقبله بلطف وود ويملأ له قرطاسا من التفاح والموز . ويحمله موافقته او اعتذاره كيفما اتفق . ثم بلغ به الحال انه كان اذا اشتاق الى لذيذ الفاكهة استأذن امه فى أن يذهب الى الرجل ليدعوه « الليلة » . ذكر هذا وجبينه يندى خزيا ، ثم نفخ فى قهر ، ثم صب وجرع . ورويدا انبعثت الحميا فى دمه ، وبدأت تلعب دورها الساحر فى معاونته على حمل متاعبه .. « قلت الف مرة انه يجب أن أدع الماضى مدفونا فى قبره .. لا فائدة .. لا أم لى وحسبى امرأة أبى الرقيقة الطيبة .. كل شىء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدى أن اميتها .. ترى لم اجارى الحاحها على فأبعثها من قبرها حينا بعد حين !. لم ؟!.. سوء الطالع وحده الذى رمى بالرجل فى طريقى اليوم ولكن مصيره أن يموت يوما .. أود ان يموت كثيرون .. لم يكن الرجل الوحيد ... بيد أن خياله الثائر واصل اسراءه فى ظلمات الماضى رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخف توترا . أجل لم يعد فى تلك القصة بالذات من بقية طويلة ، ولعلها ـ هذه البقية ـ تمتاز بما يضيئها من نور نسبى بعد عبور طور الطفولة المعتم . كان هذا فى السنوات القلائل التى سبقت انتقاله الى حضانة ابيه ، وقد وجدت امه الشجاعة لتصارحه بان ذاك « الفكهانى » يتردد عليها طلبا ليدها ، وانها مترددة فى قبوله ، وانها غالبا سترفض اكراما له !. ترى اصدق ما قيل له ؟.. هيهات أن يستوثق من تفاصيل ذكرياته ، ولكنه كان بلا ريب يشرئب للادراك والفهم ، ويعانى نوعا من الريبة الغامضة التى تتكشف للقلب دون العقل ، ويكابد الوانا من القلق اطار عن هامته حمامة السلام ، فتهيأت فى نفسه تربة لتلقى بذرة النفور التى صارت مع الأيام الى ما صارت اليه . ثم انتقل فى التاسعة من عمره الى حضانة ابيه الذى لم يكن رآه الا مرات معدودة تحاميا للاحتكاك بأمه . انتقل اليه غلاما على الفطرة لم يتلقن من مبادىء العلم كلمة واحدة ، ومضى يكفر عن سيئات التدليل الذى غلته به أمه فتلقى التعليم بنفس كارهة وارادة خائرة ، ولولا شدة السيد وطيبة جو البيت الجديد ما دفع الى النجاح فى الابتدائية بعد ان نيف على التاسعة عشرة من عمره . وبنمو عمره وادراكه حقائق الأشياء ، استعرض حياته الماضية فى بيت امه وقلبها على وجوهها ، ملقيا عليها من خبراته الجديدة انوارا فاضحة

فتكشفت له الحقائق ببشاعتها ومرارتها . وكلما تقدم فى الحياة خطوة بدا له الماضى سلاحا مسموما منغرسا فى صميم نفسه وكرامته . وقد دأب ابوه بادىء الأمر على أن يسأله عن حياته فى بيت أمه ولكنه على حداثة سنه ، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلب كبرياءه الجريح على الرغبة فى استثارة اهتمام أبيه وحب الثرثرة الذى يستهوى أمثاله من الغلمان . ولزم الصمت حتى ترامى اليه نبأ غريب عن زواج أمه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلا ، واشتد ضغط السخط على صدره حتى ضفضض فانطلق يحدث أباه عن «الفكهانى» الذى زعمت يوما أنها رفضت الزواج منه اكراما له !.. وانقطعت صلته بها من ذاك العهد - منذ احدى عشرة سنة - فلم يعد يدرى عنها شيئا الا ما ينقله اليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفحام بعد انقضاء عامين على زواجها منه ، ثم زواجها من باشجاويش فى العام التالى لطلاقها ، ثم طلاقها مرة اخرى بعد حوالى عامين الخ .. الخ .. وفى فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرا الى رؤيته ، فكانت ترسل الى ابيه من يستأذنه فى السماح له بالذهاب اليها ، ولكن ياسين صد عن دعوتها بإباء ونفور شديدين رغم نصح أبيه له بالتسامح والعفو . والحق أنه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح ، فأغلق دونها باب العفو والغفران واقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنا الى هذا بأنه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلتها فعالها .. « امرأة . أجل ما هى الا امرأة .. وكل امرأة لعنة قذرة .. لا تدرى امرأة ما العفة الا حين تنتفى أسباب الزنا .. حتى امرأة ابى الطيبة ، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا ابى ! » وقطع عليه أفكاره صوت رجل علا قائلا « الخمر ؟ ! كلها فوائد ، ومن يقل غير هذا أقطع رأسه .. الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر .. أما الخمر فكلها فوائد .. » فتساءل صاحبه « وما فوائدها ؟ » فقال الرجل مستنكرا « وما فوائدها ! ما اعجب سؤالك !.. كلها فوائد كما قلت .. وأنت تعلم هذا وتؤمن به .. » فقال صاحبه « ولكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به .. الناس جميعا يقولون هذا فهل تخالف الاجماع ؟ ! » وتريث الرجل قليلا ثم قال « كلها مفيدة اذن ، الكل ، الخمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجد ! » فعاد صاحبه يقول بلهجة تنم عن ظفر « ولكن الخمر حرام ! » فقال الرجل محتدا « وهل ضاقت السبل ! ، زكٍ .. حج .. أطعم المساكين .. أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر أمثالها .. »

وابتسم ياسين فى شىء من الارتياح . اجل امكنه اخيرا ان يبتسم فى شىء من الارتياح .. « لتذهب الى الجحيم ، ولتأخذ الماضى معها .. لست عن شىء مسئولا .. كل انسان ملوث فى هذه الحياة ومن يزح الستار ير عجبا .. شىء واحد يهمنى جدا هو عقارها ، دكان الحمزاوى وربع الغورية والبيت القديم بقصر الشوق .. وانى أعد أمام الله اذا ورثته كاملا يوما أن اترحم عليها بلا اسف .. آه .. زنوبة .. كدت انسالك وما انسانيك الا الشيطان . امراة عذبتنى وامرأة التمس عندها العزاء .. آه يا زنوبة ، ما علمت قبل اليوم أن باطنك بهذا اللون الرائق .. اف ينبغى ان أمحو الفكر من راسى .. الحق أن أمى كالضرس الثائر ، لا يسكن حتى ينخلع .. »

- ١٤ -

جلس السيد احمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبث أنامل يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلما جرفه تيار خواطره ، ويرنو الى لا شىء بوجه تنم معالمه عن ارتياح ورضى . انه يرضيه بلا ريب أن يشعر بما يكنه له الناس من حب ومودة ، ولو عرض له من حبهم دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سرورا مشرقا لا يبليه التكرار ، وقد واتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطراره الى التخلف ليلة الأمس عن شهود حفلة أنس دعاه اليها أحد الأصدقاء ، فما استقر به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه الداعى وبعض الاخوان من المدعوين وأوسعوه عتابا لتخلفه وحملوه تبعة ما ضاع عليهم من بهجة وطرب ، ثم قالوا — فيما قالوا — أنهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا أن يضحكوا معه ، ولم يجدوا للشراب لذته التى يجدون فى منادمته ، وأن مجلسهم خلا — على حد تعبيرهم — من روحه . وها هو يستعيد أقوالهم فى سرور وزهو لطلفا كثيرا مما لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته ، بيد أنه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على ارضاء الخلان ، بدار الى النهل من موارد الصداقة والمودة فى اخلاص وايثار ، فكاد يكدر صفوه لولا ما اشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم فى نفسه من أريحية الرضا والعجب ، اجل طالما كان الحب الذى يجذبه الى الناس ويجذبهم اليه معينا لقلبه يغدق عليه ما يشاء من فرح بهيج وزهو برىء وكأنه

خلق الصداقة قبل كل شيء . وثمة آية اخرى على هذا الحب - والأصدق ان يقال انه حب من نوع آخر - تجلت له ضحى اليوم حين ألمت به أم على الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران « ألا تعلم أن ست نفوسه أرملة الحاج على الدسوقى تملك سبعة دكاكين فى الغربلين ؟ » وابتسم السيد . وفطن بالغريزة الى ما تومىء اليه المرأة ؛ وحدثه قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنها رسول موصى بالكتمان ، ألم يخيل اليه فى اكثر من مناسبة أن الست نفوسه تكاد تعلن عن ودها أثناء ترددها على دكانه لابتياع حوائجها ؟.. بيد أنه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكه فقال لها باهتمام ظاهرى «عليك باختيار زوج صالح لها ، فما أعز المطلوب !» ؛ وظنت أم على أنها بلغت الغاية فقالت « قد اخترتك من دون الرجال ، فما قولك ؟ » ، وضحك السيد ضحكة مجلجلة وشت بسروره وثقته بنفسه ولكنه قال بلهجة قاطعة « لقد تزوجت مرتين ؛ اخفقت فى الأولى ووفقنى الله فى الأخرى ، ولن أبطر بنعمة الله » . والحق أنه طالما تغلب على مغريات الزواج على كثرة ما تهيأ له من فرص مواتية ، بقوة ارادة لا تنثنى ، وكأنه لم ينس مثل أبيه الذى انزلق الى زيجات متلاحقة بلا وعى » بددت ثروته وجرت عليه المتاعب ، ولم تبق له هو - عقبه الوحيد - الا على شيء من المال لا يغنى . ثم أنه من ربحه ودخله فى بسطة من العيش هيأت لأسرته هناء ورغدا وأتاحت له ما يشاء للانفاق فى مسراته وملاهيه فكيف يقدم على ما يخل بهذا الوضع البديع المتناسق الذى يكفل له الكرامة والحرية ؟ !. أجل لم يجمع السيد ثروة ، لا لقصور فى وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من جود جعل انفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذى يؤمن به ، الى ايمان عميق بالله وفضائله ملأ نفسه طمانينة وثقة وآمنه من الخوف الذى يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم . على أن صده عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلما رامته فرصة طيبة ، وبالتالى لم يستطع أن يتناسى أن سيدة جميلة كالست نفوسه توده بعلا لها ، وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيله والزبائن بعينين غائبتين وأسارير حالمة باسمة ، وذكر - باسما ايضا - ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم وهو يعابثه معرضا بأناقته وتعطره « حسبك ، حسبك يا عجوز !.. » عجوز ؟!.. انه فى الخامسة والأربعين حقا ، ولكن ما قول العاذل فى هذه القوة العارمة والصحة الدافقة والشعر

السبط اللامع السواد ! لم يهن احساسه بالشباب ولا تراخى ، وكأن فتوته ما تزداد مع الأيام الا قوة ؛ الى أن مزاياه لم تكن لتغيب عنه » بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور بها ، منطويا فى أعماقه على زهو وعجب ، يحب الثناء حبا جما ، وكأنه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحث الرفاق بمكر حسن عليه ، ولكن مع أن ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وظرفا وكياسة الا أنه لم يثقل ابدا على احد من الناس ، لأن تواضعه كان طبعا وسجية كذلك ؛ ولأنه نبع من فطرة تسيل بشاشة واخلاصا وحبا . والحق انه كان ينزع بفطرته الى ان يحب كما يحب ، ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحب ، فاتجهت طبيعته بوحى من غريزته الظامئة للحب الى الاخلاص والوفاء والصفاء والتواضع ، تلك السجايا التى تجذب الحب والرضا كما تجذب الزهور الفراش ، ومن هنا استوى أن يقال ان تواضعه كياسة او طبيعة والأصح أن يقال انه طبيعة تستمد كياستها من وحى الغريزة لا تدبير الارادة ، فتجلت طبعا بسيطا لا تكلف فيه ولا تعمل » ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاياه بل والتندر بعيوبه وهناته التماسا للعطف والحب احب اليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجران عادة الى الاستفزاز والحسد ، وهى كياسة سديدة دفعت المحبين الى التنويه بما يغضى عنه حكمة وحياء ، واذاعت سجاياه على نحو لم يكن ليقدر عليه بنفسه دون التضحية باجمل جوانب شخصيته ؛ وبما يحظى من جاذبية وحب لا تشوبهما شائبة . وبهذا الوحى الغريزى نفسه استهدى حتى فى جانب حياته الماجن ، فى مجالس انسه وطربه ، فلم يتخل فيها — مهما لعب الشراب براسه — عن لباقته وكياسته ؛ ولو شاء ، بما اوتى من خفة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخرية ، لاكتسح السمار بلا عناء ، ولكنه كان يدير مجالس الأنس بمهارة واريحية تفسح المجال لكل سامر ، ويشجع اهل الدعابة وان خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة ، الى حرصه الشديد على الا يخلف مزاحه فى نفس جرحا » فان اضطره الموقف الى الحملة على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودد اليه ولو بالسخرية من نفسه ، فلا ينفض المجلس الا وقد حظى كل سامر من اطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأسر الفؤاد . على أن كياسته الفطرية او فطرته الكيسة ، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب ، ولكنها امتدت الى جوانب هامة من حياته الاجتماعية ، فأعلنت عن نفسها أروع اعلان

فى كرمه المأثور ـ سـواء ما يتجلى منه فى الولائم التى يدعو اليها من حين لآخر فى البيت الكبير او فى الهبات التى ينفح بهـا المحتاجين ممن يتصلون بعمله أو بشـخصه ـ وفى شـهامته ومروءته ونجـدته التى فرضت له على أصـدقائه ومعارفه نوعا من الوصـاية المشربة بالحب والوفاء يفيئون اليها اذا دعت الضرورة الى المشـورة أو الشـفاعة او الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال أو شـئون المسـائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق ، أجل ارتضى لنفسـه وظائف يؤديها بلا أجر ـ غير الحب ـ فكان سمسـارا ومأذونا ومحكما ، ثم وجد دائما فى ادائها ـ على مشقته ـ حياة مليئة بالبهجة والغبطة . مثل هذا الرجل الذى تجود نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثم يطويها كأن فى نشرها أذى واى اذى ، مثل هذا الرجل يكون خليقا ـ اذا خلا الى خواطره وانقشـع عنه الحياء الذى يتولاه حيال النـاس ـ بأن يتملى مزاياه طويلا ويستسـلم لزهوه وعجبه . لذلك راح يسـتعيد عتاب أصدقائه المحبين ودعوة أم على الخاطبة بلذة وسرور وانشراح تعانقت فى قلبه عن نشـوة خالصة حتى تطفلت على خلوته لذعة أسف فمضى يحدث نفسه .. « نفوسه هانم سـيدة ذات مزايا لا يستهان بها .. يتمناها كثيرون ولـكنها رغبت فى أنا .. بيد اننى لن اتزوج ، هذا أمر مفروغ منه .. وليست هى بالمرأة التى تقبـل أن تعاشر رجـلا بغير زواج .. هذا أنا وهذه هى فكيف يمكن أن نلتقى !.. ولو صادفتنى فى غير هذه الأيام التى سد فيها الاستراليون علينا المنافذ لهان الأمر ولكنها تصدت لنا ونحن فى حاجة اليها فوا أسفاه .. »

وقطع عليـه أفكاره وقوف حانطور أمام مدخل الدكان فمد بصره مستطلعا فرأى العربة وهى تميل ناحية الدكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها فى بطء شديد على قدر ما تسمح طيات لحمها وشحمها وقد سبقتها الى الأرض جارية سوداء فمدت لها يدها لتعتمد عليها فى اثناء نزولها . وكالمحمل وقفت مليا وهى تتنهد كأنها تستجم من عنـاء النزول ، وكالمحمل راحت تتمايل وتخطر الى ناحيـة الدكان بينما علا صوت الجارية فى لهجة شبه خطابية لتعلن عن مولاتها :

ـ وسع يا جدع انت وهو للست زبيدة ملكة العوالم ..

وندت عن الست زبيدة ضـحكة مسـجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنم عن زجر كاذب .

ـ الله يسامحك يا جلجل .. ملكة العوالم مرة واحدة !.. هلا عرفت

فضيلة التواضع !

وهرع اليها جميل الحمزاوى مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة وهو يقول :

ـ أهلا وسهلا ، كان حقا علينا ان نفرش الأرض بالرمل . .

ونهض السيد وهو يتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متمما تحية وكيله :

ـ بل بالحناء والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل اذا اقبل غير مسبوق ببشير ؟..

ورأى السيد وكيله وهو يتجه الى كرسي ليأتي به فسبقه اليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانبا وهو يدارى ابتسامة ، وقدم السيد لها الكرسي بنفسه وهو يومىء براحته مرحبا كأنه يقول لها « تفضلى » بيد أن راحته انبسطت ـ ربما بلا شعور منه ـ لآخر طاقتها وانفرج ما بين أصابعه حتى صارت يده كالمروحة ، ولعله تأثر فى بسطها بما تركه فى خياله منظر العجيزة الهائلة التى ستملأ مقعد الكرسي وتفيض عن جوانبه حتما . وشكرته المراة بابتسامة من وجهها الذى أسفر حسنه بغير حجاب ، وجلست وهى تشع بزواقها وحليها نورا ، ثم التفتت الى جاريتها وخاطبتها قائلة وهى تعنى بالخطاب غيرها :

ـ الم أقل لك يا جلجل أنه ليس ثمة ما يدعونا للتخبط هنا وهناك لابتياع حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر ؟

فأمنت الجارية على قول سيدتها قائلة :

ـ صدقت كعادتك يا سلطانة ، لماذا نذهب بعيدا وعندنا السيد الكريم احمد عبد الجواد ..!

فتراجع رأس الست كأنما هالها ما صرحت به جلجل والقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهده على استنكارها وقالت وهى تدارى ابتسامة :

ـ واخجلتاه !.. حدثتك عن الدكان يا جلجل لا عن السيد احمد ..!

وشعر فؤاد السيد الذكى بالجو الودى الذى ينفثه حديث المراة فاندمج فيه بغريزته المتوثبة وتمتم باسما :

ـ الدكان والسيد أحمد شيء واحد يا سلطانة .

فرفعت حاجبيها فى دلال وقالت بعناد لطيف :

ـ ولكننا نريد الدكان لا السيد أحمد ..

وبدا أن السيد احمد لم يكن الشخص الوحيد الذى شعر بالجو

الطيب الذى خلقته السلطانة . فهذا جميل الحمزاوى كان يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر الى ما تيسر من جسم العالمة . وهؤلاء الزبائن جعلوا يجيلون ابصارهم بين البضائع لتمر فى الذهاب والاياب بالست ، بل بدا أن الزيارة المباركة قد لفتت بعض الأنظار فى الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطانة وان يولى الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين . بيد أن هذا لم ينسه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع :

ـ قضى الله جلت حكمته ان يكون الجماد أحيانا اسعد حظا من الانسان ..

فقالت بلهجة ذات معنى .

ـ أراك تغالى ، لن يكون الجماد أسعد حظا من الانسان ، ولكنه كثيرا ما يكون أجل فائدة ..

فثقبها السيد بعينيه الزرقاوين وقال متظاهرا بالدهشة :

ـ اجل فائدة !.. (ثم مشيرا الى الأرض) .. هذا الدكان !..

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا تخلو من خشونة مدبرة :

ـ اريد سكرا وبنا وأرزا فهل يغنى الانسان فيها عن الدكان شيئا !.. (وبنبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال) .. ثم ان الرجال أكثر من الهم على القلب ..

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع أبواب ، وشعر بأنه مقبل على شيء أجل خطرا من البيع والشراء ، فقال محتجا :

ـ ليست كل الرجال سواء يا سلطانة ، فمن قال لك ان الانسان لا يغنى عن الأرز والسكر والبن شيئا ؟!.. الانسان حقا من تجدين فيه الغذاء والحلاوة والكيف ..!

فسألته ضاحكة :

ـ انسان أم مطبخ هذا ؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر :

ـ لو نظرت من قريب لوجدت تشابها عجيبا بين الرجل والمطبخ .. فكلاهما حياة للبطون ..!

وغضت المرأة بصرها مليا ، وانتظر السيد أن ترفعه اليه موسوما بابتسامتها المشرقة ، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فأحس لتوه أنها غيرت

« السياسة » أو لعلها لم ترح كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول فى هدوء .

ــ افادك الله !.. ولكن حسبنا اليوم الأرز والبن والسكر ..

وتحول السيد عنها متظاهرا بالجد ودعا اليه وكيله ثم وصاه بصوت مرتفع بطلبات الست فأوحى مظهره بانه قرر هو أيضا العدول عن « التودد » والعودة الى « العمل » ، ولكنها لم تكن الا مناورة استعاد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطبا السلطانة :

ــ الدكان وصاحبه تحت أمرك !

وكان للمناورة اثرها فقالت المراة فى دعابة :

ــ اريد الدكان وتأبى الا ان تجود بنفسك !

ــ نفسى بلا ريب خير من دكانى ، أو خير ما فى دكانى ..

فأشرق وجهها بابتسامة ماكرة وهى تقول :

ــ هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك .!

فقهقه السيد قائلا :

ــ ما حاجتك الى السكر وفى لسانك هذه الحلاوة كلها ؟!

واعقب هذه المعركة الكلامية فترة سكون بدا فيها كلاهما راضيا عن نفسه ، ثم فتحت العالمة حقيبتها واخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضى وراحت تنظر فى صورتها فمضى السيد الى مكتبه ووقف مستندا الى حافته وهو يتفرس فى وجهها باهتمام . والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بأنها جادت بالزيارة لأمور غير الشراء والبيع ، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكدا اظنه ، فلم يعد امامه الا ان يقرر من الآن هل يوصلها بتاريخه او يودعها الوداع الأخير . ولم يكن يراها لأول مرة ، فقد رآها مرات فى افراح بعض الأصدقاء ، وعرف عن الرواة ان السيد خليل البنان اتخذها خليلة دهرا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد ، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد !.. وهى موفورة الحسن وان لم تعد منزلتها كعالمة المرتبة الثانية بين العوالم ، بيد ان المراة تهمه أكثر من العالمة ، وانها لشهية لطيفة وبها من طيات اللحم والدهن ما بدفء المقرور فى زمهرير الشتاء الذى غدا على الأبواب . واعترض افكاره مجىء الحمزاوى حاملا ثلاث لفات ، فتناولتها الجارية ، ودست الست يدها فى الحقيبة لتخرج النقود فيما بدا ، ولكن السيد أشار اليها محذرا وهو يقول :

ــ يا له من عيب .

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت :

ـ اى عيب يا سى السيد !.. ليس فى الحق عيب ..

ـ هذه زيارة ميمونة يحق علينا ان نحييها بما هى اهله من الاكرام . وهيهات أن نوفيها حقها ..

وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تبد مقاومة جدية لكرمه ولكنها قالت :

ـ ولكن كرمك هذا سيجعلنى أتردد مرة ومرتين قبل أن اقصدك مرة أخرى ..

فقهقه السيد قائلا :

ـ لا تخافى ، انى أكرم الزبون فى المرة الأولى ثم اعوض خسارتى فى المرات اللاحقة ولو بالسرقة ! هذا شعارنا نحن التجار ..!

فابتسمت الست ، ومدت له يدها قائلة :

ـ الكريم مثلك يسرق ولا يسرق .. اشكرك يا سيد احمد .

فقال من كل قلبه :

ـ العفو يا سلطانة ..

ووقف ينظر اليها وهى تتبختر صوب الباب حتى صعدت الى العربة واتخذت مجلسها ، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها ، وتحركت العربة بحملها النفيس ، ثم غابت عن ناظريه . هنالك قال الحمزاوى وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب :

ـ كيف يمكن أن يسدد هذا الحساب ؟!

فألقى السيد على وكيله نظرة باسمة وقال :

ـ اكتب مكان الأرقام « بضائع أتلفها الهوى » ..!

ثم غمغم وهو يمضى الى مكتبه « الله جميل يحب الجمال »

- ١٥ -

وحين المساء اغلق السيد الدكان وغادره تحف به المهابة وينضوع منه عرف طيب ثم مضى صوب الصاغة ، ومنها الى الغورية حتى قهوة سى على فلحظ فى مروره بها بيت العالمة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التى تمتد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة فى تدفقه ، فواصل السير الى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثم استأذن عائدا الى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقفرة ، وجعل يقترب من البيت آمنـا مطمئنا ، ثم طرق الباب وانتظر وهو يدقق النظر فيما حوله ولم يكن ثمة نور الا ما ترامى من كوة بقهوة سى على ، ومصباح غازى على عربة يد عند منعطف السكة الجديدة . وفتح الباب وبدا شبح خادم صغيرة فبادرها متسائلا بصـوت قوى غير متردد ليوحى بما يود من الصدق والثقة :

ـ الست زبيدة موجودة ؟

فرفعت اليـه الخادم رأسها وسألته بدورها فى تحفظ أملته عليها ظروف وظيفتها :

ـ من انت يا سيدى ؟

فقال بصوته القوى :

ـ شخص يروم الاتفاق معها على احياء ليلة ..

وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهى تقول : « تفضل » ، واوسعت له فدخل ، ورقى وراءها فى سلم متقارب الدرجات انتهى به الى دهليز ثم فتحت له بابا فى مواجهته انتقل منه الى حجرة مظلمة فظل واقفا على كثب من المدخل وهو يصغى الى اقدام الخادم وهى تجـرى ، ثم وهى تعود حاملة مصـباحا ، وتتبعها بعينيه وهى تضعه على خوان وتجىء بكرسى الى وسط الحجرة وتقف عليه لتشـعل المصباح الكبير المدلى من السقف ثم تعيد الكرسى الى موضعه وتحمل المصباح الصغير وتغادر الحجرة قائلة فى أدب « تفضل بالجلوس يا سـيدى » . واتجه السيد الى كنبة فى صدر الحجرة وجلس فى ثقة وهدوء دلا على اعتياد هذا الموقف وامثاله ، وطمأنينة الى الخروج منه بما يرضى ويطيب ، ثم خلع الطربوش وحطه على نمرقة تتوسط الكنبة ومد ساقيه فى ارتياح . رأى حجرة متوسطة الحجم نضدت بجنباتها الكنبات والمقاعد وفرشت

ارضها بسجادة فارسية وقام حيال كل كنبة من كنباتها الثلاث الكبرى خوان مطعم بالصدف ، وقد أسدلت الستائر على نافذتيها وبابها فحبست فى جوها شذا بخور سر به متسليا بالنظر الى فراشة راحت ترف على المصباح فى نشاط عصبى ، وانتظر بعض وقت جاءت فى اثنائه الخادم بالقهوة ، حتى ترامى الى اذنيه وقع شبشب منفوم ذى دقات مدغدغة فتنبهت اعصابه وحدق الى الباب الذى سرعان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصل الهائل وقد لف لفة شهوانية فى فستان ازرق . وما كادت عينا المرأة تقعان عليه حتى توقفت دهشة وهتفت

ـ بسم الله الرحمن الرحيم !... انت ..!

فجرى بصره على جسمها فى عجلة ونهم كما يجرى الفأر على جوال ارز ليجد لنفسه منفذا ، وقال باعجاب :

ـ باسم الله ما شاء الله ..!

فواصلت تقدمها بعد التوقف باسمة وهى تقول فى خوف مصطنع :

ـ عينك !.. أعوذ بالله ..!

فنهض السيد مستقبلا يدها الممدودة بترحاب وتشمم شذا البخور بأنفه العظيم وقال :

ـ اتخافين الحسد وعندك هذا البخور !

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت الى كنبة جانبية وجلست وهى تقول :

ـ بخورى خير وبركة ، انه أخلاط من أنواع شتى بعضها عربى وبعضها هندى أؤلف بينها بنفسى ، فهو جدير بأن يخلص الجسد من الف عفريت وعفريت ..

فعاود السيد الجلوس قائلا وهو يلوح بيديه فى يأس :

ـ الا جسدى !.. بجسدى عفاريت من نوع آخر لا يجدى معها البخور ، الأمر أجل وأخطر ..

فضربت المرأة صدرا ناهضا كالقربة وهتفت :

ـ ولكنى أحيى حفلات افراح لا حفلات زار !

فقال السيد برجاء :

ـ سنرى ان كان لدائى عندكم شفاء !

وساد الصمت قليلا فجعلت السلطانة تنظر اليه فيما يشبه التفكير وكأنما تستخبره عن سر حضوره وهل جاء حقا للاتفاق على احياء ليلة كما قال للخادم ؟.. وغلبتها الرغبة فى الاستطلاع فسألته :

(٦)

ـ فرح أم ختان ؟

فقال السيد باسما :

ـ لك ما تشائين !

ـ عندك مختون أم عروس ؟

ـ عندى كل شيء ...

فانذرته بنظرة كأنما تقول له « كم أنت متعب ! » ثم تمتمت فى تهكم :

ـ نحن فى خدمتك على اى حال ...

فرفع السيد يديه الى قمة رأسه فى هيئة تنم عن الشكر وقال بوقار يناقض نواياه :

ـ عظم الله قدرك .. بيد أننى مازلت مصرا على أن اترك لك الاختيار !

فتنهدت فى غيظ بالدعابة أشبه وقالت :

ـ انى أفضل أفراح العرائس بطبيعة الحال !

ـ ولكنى رجل متزوج ولا حاجة بى الى زفة من جديد ..!

فصاحت به :

ـ يا لك من رجل مهذار .. اذن فليكن ختانا

ـ ليكن ...

وتساءلت وهى تحاذر :

ـ وليدك ؟

فقال ببساطة وهو يفتل شاربه :

ـ انا !

فاطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقررت العدول عن التفكير فى مسألة احياء الليلة التى خمنت خبيئتها وهتفت به :

ـ يالك من رجل قارح ، لو طالتك يدى لقسمت ظهرك ..

فنهض السيد وأقبل عليها قائلا :

ـ لا احرمتك رغبة قط ..

وجلس جانبها فهمت بضربه ولكنها ترددت ثم امسكت فسألها بقلق ...

ـ لماذا لم تتكرمى بضربى ؟

فهزت رأسها وقالت ساخرة :

ـ أخاف أن انقض وضوئى ..

فتساءل فى لهفة :

ـ أأطمع اذن فى ان نصلى معا ؟ !

واستغفر الله فى سره عقب النطق بدعابته مباشرة لأن هذره وان كان لا يقف به فى سكرة المجون عند حد الا أن قلبه لم يكن ليطمئن ويواصل ابتهاجه حتى يستغفر فى باطنه صادقا مما يعبث به لسانه مازحا . اما المرأة فتساءلت فى دلال ساخر :

ـ أتعنى « يا صاحب الفضيلة » الصلاة التى هى خير من النوم ؟

ـ بل الصلاة التى هى والنوم سواء ..

ولم تتمالك العالمة الا أن تقول ضاحكة :

ـ يالك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنـــه الخلاعة والفجور ، الآن صدقت حقا ما قيل لى عنك ..

واستوى السيد فى جلسته فى اهتمام وتساءل :

ـ وماذا قيل ؟ !.. اللهم اكفنا شر القيل والقال ...

ـ قالوا لى انك زير نساء وعبد شراب ..

فتنهد بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال :

ـ حسبته ذما والعياذ بالله ..

ـ الم أقل لك انك قارح فاجر ؟!

ـ هى الشهادة لى بأنى حزت القبول ان شاء الله ..

فرفعت المرأة رأسها فى غطرسة وقالت :

ـ بعدك !.. لست كمن عرفت من النســـاء ..... ان زبيدة معروفة ولا فخر بعزة النفس ودقة الاختيار ..

فبسط السيد راحتيه على صدره ونظر اليها فى تجد مشرب باللطف وقال بطمأنينة :

ـ عند الامتحان نكرم المرء أو يهان ..

ـ من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختبر بعد بشهادتك ؟

فقهقه السيد طويلا حتى قال :

ـ لا تصدقى يا ختونة ، وان كنت فى شك ...

ولكمته فى منكبه قبل أن يتم جملته فأمسك ثم أغرقا فى الضحك معا ، وسر بمشاركتها اياه فى ضحكه ، وحدس وراء ذلك ـ بعد ما جرى بينهما من تلميح وتصريح ـ لونا من الجهر بالرضا ثبتته فى وعيه بسمة دلال سالت بطرفها المكحول ، وراح يفكر فى أن يحيى هذا الدلال بتحية تليق به لولا أن قالت له محذرة :

ـ لا تحملنى على مضاعفة سوء الظن بك ..

فأعاده قولها الى تذكر ما رددته عن القيل والقال « وسألها باهتمام :

ـ من الذى حدثك عنى ؟

فقالت باقتضاب وهى تلحظه بنظرة اتهام :

ـ جليلة . . . !

وفجاه الاسم كانه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم ابتسامة دلت على حرجه . جليلة ، تلك العالمة المعروفة التى عشقها دهرا حتى فصل بينهما الشبع ثم عاشا وما زالا على مودة متبادلة على البعد ، بيد أنه كخبير بالنساء لم ير بدا من أن يقول فى لهجة صادقة :

ـ لعنة الله على وجهها وصوتها معا ! . . (ثم متهربا) . . دعينا من هذا كله ولنتكلم فى الجد . .

فتساءلت متهكمة :

ـ الا تستحق جليلة كلمة ارق والطف !. . ام هذا شانك عند ذكر من قطعتهن من النساء ؟ !

وداخل السيد شىء من الحرج الا انه ذاب فى موجة الزهو الجنسى التى اثارها فى نفسه حديث عشيقة جديدة عن عشيقة ولت ، واخذ مليا بنشوة ظفر حلوة ثم قال بلباقة معهودة :

ـ لا يسعنى وانا بمحضر من هذا البهاء أن اغادره الى ذكريات طويت ونسيت . . .

وبالرغم من ان السلطانة حافظت على نظرتها التهكمية الا أنها استجابت للثناء كما بدا فى رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامة خفيفة اندست الى شفتيها ، ولكنها خاطبته بازدراء قائلة :

ـ لسان تاجر يسخو بالحلاوة حتى ينال غرضه . .

ـ لنا الجنة نحن التجار بما يظلمنا الناس . .

وهزت كتفيها استهانة ثم سالته فى اهتمام غير خاف :

ـ متى رافقتها ؟

فلوح السيد بذراعه كانه يقول « ما أبعده من زمن ! » ثم تمتم :

ـ منذ ازمان وازمان . .

فضحكت فى تهكم وقالت بنبرات تنم عن التشفى :

ـ فى ايام الشباب الذى مضى . . !

فرنا السيد اليها معاتبا ثم قال :

ـ بودى أن امص من لسانك الأذى . .

ولكنها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة :

ـ أخذتك لحما وتركتك عظاما . .

ـوح اليه بسبابته محذرا وقال :

ـ انى من صلب رجال يتزوجون فى الستين ..

ـ بدافع العشق أم بدافع الخرف ؟ !

فقهقه السيد قائلا :

ـ يا ولية اتقى الله ودعينا نتكلم فى الجد ..

ـ الجد ؟ !.. أتعنى احياء الليلة التى جئت تتفق عليها ؟

ـ أعنى احياء العمر كله ..

ـ كله أم نصفه ؟ !

ـ ربنا يقدرنا على ما فيه الخير ..

ـ ربنا يقدرك على الطيب ..

واستغفر الله فى سره مقدما ثم تساءل :

ـ نقرأ الفاتحة ؟

ولكنها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع :

ـ رباه .. سرقنى الوقت ولدى الليلة عمل هام ..

ونهض السيد بدوره ، ومد يده فتناول يدها ثم بسط راحتها المخضبة بالحناء ورنا اليها بشوق وافتتان ، وأصر على احتفاظه بها رغم جذبها اياها مرة ومرتين ، حتى قرصته فى اصبعه ورفعت يدها الى شاربه وصاحت به مهددة :

ـ دعنى أو تخرج من بينى بفردة شارب واحدة ..

ورأى ساعدها قريبا من فيه فزهد فى النقاش وقرب منه شفتيه رويدا حتى غاصتا فى لحمه الطرى فتطاير منه الى انفه رائحة قرنفلية ذات طعم حلو ، ثم تنهد مغمغما :

ـ الى الغد ؟ !

فتخلصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرة ، وحدقت اليه طويلا ثم ابتسمت وتمتمت :

عصفورى يا امه عصفورى لاعب وأورى له امـــورى

وجعلت تردد « عصفورى يا امه » مرات وهى تودعه . وغادر السيد الحجرة وهو يردد مطلع الأغنية بصـــوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنما يستخبر الالفاظ عما وراءها من معان ..

- ١٦ -

كان ما يطلق عليه بهو الحفلات ببيت العالمة زبيدة يتوسط الدار كالصالة ، أو كأن الصالة بالفعل استجدت لها اغراض أخرى . ولعل اهم اغراضه انها كانت تقوم فيه - هي وجوقتها - بالتجارب الغنائية وحفظ الأغاني الجديدة ، وقد اختارته لبعده عن الطريق العام بما يفصل بينهما من حجرات النوم والاستقبال ، وجعله اتساعه - الى هذا - صالحا لاحياء الحفلات الخاصة ، التى تتراوح عادة بين الزار والغناء ، والتى تدعو اليها الخاصة من أصدقائها ومعارفهم المقربين . ولم يكن الباعث على هذه الحفلات اريحية كرم فحسب - ان كان ثمة كرم على الاطلاق فانه غالبا ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم - ولكنها رمت من ورائها الى الاكثار من الأصدقاء المتازين الخليقين بأن يدعوها لاحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة فى الأوساط التى يتقلبون فيها ، ومن بينهم - الى هذا كله - تنتقي الخليل بعد الخليل . وجاء دور السيد احمد عبد الجواد ليشرف البهو السعيد محاطا بالخاصة من معارفه . والحق أنه تبدى عن نشاط جم عقب المقابلة الجريئة التى تمت بينه وبين زبيدة فى بيتها فسرعان ما حمل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا ، الى مدفأة اوصى على صنعها ونقشها وطليها بالفضة لتكون - جميعا - عربونا للمودة المقبلة ، ففى لقاء هذا دعته السلطانة ، تاركة له الخيار فى دعوة من يشاء من أصدقائه ، الى حفلة تعارف تكريما للحب الجديد - ولشد ما كان البهو موسوما بطابع بلدى جذاب بكنباته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة ، الممتدة على الجانبين حتى الصدر حيث يقوم ديوان الست تكتنفه الشلت والوسائد المعدة للجوقة ، اما أرضه المستطيلة فمفروشة بسجاد متعدد الألوان والشكول ، وعلى كنصول يتوسط الجناح الأيمن - كالشامة رواء وصفاء - اقيدت الشموع منغرسة فى الفنايير ، غير مصباح ضخم يندلى من قمة منور يتوسط سقف الحجرة ذى منافذ على سطح الدار تفتح فى الليالى الدافئة وتغلق بأضلاء زجاجية فى ليالى البرد

جلست زبيدة متربعة على الديوان والى يمينها زنوبة العوادة ربيبتها ، والى يسارها عبده عازف القانون الضرير ، واستوت النسوة جلوسا عن

يمين وشمال مابين ممسكة بالدف أو ماسحة على الدربكة أوعابثةبالصنج وآثرت السلطانة السيد أحمد بأول مجلس فىالجناحالأيمن ، واتخذالباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار ، ولا عجب فلم يكن الجو بالجديد عليهم ، ولا السلطانة بالتي يرونها لأول مرة . وقدم السيد أحمد أصحابه الى العالمة مبتدئا بالسيد على بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة :

ــ ليس السيد على بالغريب فقد احييت فرح كريمته فىالعامالماضى ..

ثم ثنى بالسيد تاجر النحاس » ولما رماه احدهم بانه من رواد بمبةكشر بادر الرجل قائلا :

ــ وجئت تائبا يا ست ..

وتتابع التعارف حتى تم ، ثم جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوين ، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعةبالأريحية والمرح . وبدا السيد عريس الحفلة بلا منازع ، بهذا دعاه الأصدقاء،وبهذا شعر فى أعماقه ، وقد وجد لذلك باديء الأمر لونا من الارتباك قل ان يلم به » فداراه بالاسراف في الضحك والمرح ، حتى اذا أخذ فى الشراب زايله بلا عناء ، فاستعاد طمأنينته واندمج فى الطرب بكل قلبه . وجعل كلما لج به الشوق ــ والأشواق فى مغانى الطرب تثار ــ يمد بصره الى سلطانه المجلس بنهم فيتلكأ ناظره عند طيات جسمها المكتنز » فطاب قلبا بما أفاء عليه الحظ من نعمة ، وهنأ نفسه على ما يترقبها من لذيذ المسرات، هذه الليلة والليالى الأخريات . « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ، هذا التصريح الذى تحديتها به » يجب أن أكون عند كلمتى ، اية امرأة هى يا ترى ، وأى مدى مداها ، سأعرف الحقيقة فى الساعة المناسبة ثم البس لكل حال لبوسها ، لكى تضمن الانتصار على غريم ينبغى أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس ، لن أحيد عن شعارى القديم وهو أن إجعل من لذتى أنا مطلبا ثانويا ومن لذتها هى الهدف والنهاية ، وبذلك تتحقق لذتى على أكمل وجه » . ومع ان السيد لم يخبر من ألوان الحب ــ على وفرة مغامراته ــ الا الحب العضوىوحى اللحم والدم » الا انه تدرج فى اعتناقه الى أرق صوره وانقاها» فلم يكن حيوانا بحتا ولكنه الى حيوانيته وهب لطافة احساس ورهافة شعور وولع متغلغل بالغناء والطرب » فسما بالشهوة الى أسمى مايمكن أن تسمو اليه فىمجالها العضوى . بهذهالبواعث العضوية وحدها تزوج أول مرة ثم ثانى مرة ، أجل أثرت عاطفته الزوجية ــ بكرور الأيام ــ بعناصر جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنها ظلت فى

جوهرها جسدية شهوانية ، ولما كانت عاطفة من هذا النوع - خاصة اذا أوتيت قوة متجددة وحيوية دافقة - لا يمكن أن تستنيم الى لون واحد فقد انطلق فى مذاهب العشق والهوى كالثور الهائج ، كلما دعته صبوة استجاب لها فى نشوة وحماس . لم ير فى أية امرأة الا جسدا ، ولكنه لم يكن يحنى هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقا حقا بأن يرى ويلمس ويشم ويذاق ويسمع ، شهوة نعم ولكنها ليست وحشية ولا عمياء ، بل هذبتها صنعة ، ووجهها فن فاتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جوا واطارا . فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه ، فهو مثلها فى الضخامة والقوة اللتين توحيان بالقسوة والوحشية ولكنه - مثلها أيضا - فيما ينطوى عليه فى أعماقه من لطف ورقة ومودة على ما يتسربل به أحيانا - متعمدا - من الصرامة والشدة . ولذلك فلم يتركز خياله النشيط - وهو يلتهم السلطانة بنظراته - فى المضاجعة ونحوها ولكنه تاه - الى هذا - فى أفانين من أحلام اللهو واللعب والغناء والسمر . وأحست زبيدة بحرارة عينيه فقالت تخاطبه وهى تقلب عينيها فى وجوه المدعوين بعجب ودلال :

- حسبك يا عريس ، هلا استحييت حيال رفاقك !

فقال السيد متعجبا :

- وما انتفاعى بالحياء حيال قنطار من اللحم والدهن !

فأطلقت العالمة ضحكة رنانة وتساءلت فى غاية من الانبساط :

- كيف ترون صاحبكم ؟

فقالوا فى نفس واحد :

- معذورا ..!!

وهنا حرك عازف القانون الضرير رأسه يمنة ويسرة وقد تدلت شفته السفلى وتمتم :

- قد أعذر من أنذر ..

ومع أن « حكمته » لاقت ترحيبا الا أن الست التفتت نحوه كالغاضبة ولكزته فى صدره هاتفة :

- أسكت أنت وسد فاك الذى يبلغ المحيط ..

وتلقى الضرير الضربة ضاحكا ثم فتح فاه كأنما ليتكلم ولكنه أغلقه مرة أخرى مؤثرا السلامة فوجهت المرأة رأسها صوب السيد وقالت بلهجة تنم عن الوعيد :

- هذا جزاء من يجاوز حده ..

فقال السيد متظاهرا بالانزعاج :
ـ ولكننى جئت لأتعلم قلة الأدب ..
فدقت المرأة صدرها بيدها وصاحت :
ـ يا خبر !.. أسمعتم قوله ؟!
فقال أكثر من واحا منهم فى وقت واحد :
ـ انه خير ما سمعنا حتى الآن ..
وأضاف الى هذا أحد الرفاق قائلا :
ـ بل عليك بضربه اذا جاوز حدود قلة الأدب ..
وقال آخر مؤمنا على قوله :
ـ الزمى طاعته ما قل ادبه
فتساءلت المرأة وهى ترفع حاجبيها لتعلن عن دهشة لا أثر لها فى نفسها :
ـ لحد هذا تحبون قلة الأدب !
فتنهد السيد قائلا :
ـ ربنا يديمها علينا ..
فما كان من العالمة الا أن تناولت الدف وهى تقول :
ـ سأسمعكم شيئا أفضل .
ونقرت عليه فيما يشبه العبث ، ولكن علا النقر فى حومة اللغو كالنذير حتى أسكته ، وداعب الآذان متوددا فبدل القوم حالا بعد حال ، تحفز أفراد الجوقة للعمل ، وفرغ السادة الكئوس ثم مدوا رءوسهم نحو السلطانة وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدة التهيؤ للطرب . وأومأت العالمة الى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عثمان بك ، وراحت الرءوس تذهب مع الأنغام وتجىء ، وسلم السيد نفسه لرنين القانون الذى جعل يلدع قلبه فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بليالى الطرب كأنها ذرات نفط تساقط على جمر مكنون ، أجل كان القانون أحب آلات الطرب الى نفسه ـ لا لمهارة العقاد وحدها ـ ولكن لسر مستلهم من طبيعة أوتاره ، ومع أنه كان يعلم أنه لن يستمع الى العقاد أو سى عبده الا أن قلبه العاشق دارى بعشقه ما قصر دونه الفن . وما أن فرغت الجوقة من عزف البشرف حتى انطلقت العالمة تنشد « والذى أسكر من عرف اللما » فلحقت بها الجوقة فى حماس ، وكان أجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان ، أحدهما غليظ عريض للعازف الضرير والآخر رقيق يندى بالطفولة لزنوبة العوادة ، فجاش صدر

السيد بالانفعال فابتدر الكأس الذى بين يديه فافرغه فى جوفه واندفع يشارك فى انشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته - عند مطلع الغناء - بشرق فى حلقه لاندفاعه الى الانشاد قبل أن يتم بلع ريقه ، وما لبث أن تشجع بقية الرفاق فحذوا حذوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد . ولما ختم التوشيح تهيأت روح السيد - بحكم العادة - لاستماع التقاسيم والليالى ولكن العالمة ذيلت الختام بضحكة من ضحكاتها الرنانة معلنة عن سرورها وعجبها « ومضت تهنىء أفراد الجوقة المستجدين مداعبة وتسالهم عن الدور الذى يودون سماعه ؛ وانزعج السيد فى بطنه ومرت به لحظة كدرة امتحن فيها ولعه بالغناء امتحانا قاسيا لم يفطن اليه كثيرون ممن حوله ، ولكنه أدرك فى اللحظة التالية أن زبيدة ليست كفئا لتقاسيم الليالى شأن جميع العوالم بما فيهن «بمبه كشر» نفسها ، فتمنى لو تختار المرأة طقطوقة خفيفة مما تغنى للسيدات فى الأفراح ، مفضلا هذا على محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستعجز حتما عن اجادة ترجيعه . وصمم على ان يتفادى من المتاعب التى تخافها اذنه بأن يقترح اغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال :

- ما رأيكم فى عصفورى يا امه ؟

وحدجها بنظرة ذات معنى كأنما ليثير فى نفسها ايحاء هذه الطقطوقة التى توجت بها حوار تعارفهما فى حجرة الاستقبال منذ إيام قلائل ، ولكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخرا :

- الأولى أن تطلبها من أمك ..!

وسرعان ماضاع الاقتراح فيما تفجر من قهقهات أفسدت على السيد خطته « وقبل أن يكرر المحاولة طلب نفر « يا مسلمين يا اهل الله » وطلب آخرون « سلامتك يا قلبى » ولكن زبيدة التى تحاشت ان ترضى فئة على حساب أخرى أعلنت أنها ستغنيهم « على روحى انا الجانى » فاستقبلت بترحاب حار . ولم يجد السيد بدا من توطين النفس على الانبساط مستعينا بالشراب ، وبأحلام ليلته الواعدة ، فتألق ثغره بابتسامة وضيئة ادرك بها ركب النشاوى بلا كدر ، بل وجد عطفا على رغبة المرأة فى محاكاة الفحول ارضاء لمستمعيها الراسخين فى السماع وان لم يخل حالها من غرور تألفه الغوانى . وفيما تتهيأ الجوقة للغناء نهض أحد الرفاق وهتف بحماس :

- دعوا الدف للسيد أحمد فهو به خبير ..!

فهزت زبيدة رأسها عجبا وتساءلت :

ــ حقا ؟!

فحرك السيد أصابعه فى سرعة ورشاقة كأنما يعرض عليها مثالا من صنعته فقالت زبيدة باسمة :

ــ فيم العجب وأنت تلميذ جليلة !

وضحك السادة فى غير ماتحفظ ، وتواصل الضحك حتى علا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلا :

ــ وماذا تنوين أن تعلميه أنت ؟

فقالت بلهجة ذات معنى :

ــ سأعلمه القانون .. الا يروقك هذا ؟

فقال السيد باستعطاف :

ــ علمينى الهنك ان شئت ..

وحث كثيرون السيد على الانضمام الى التخت وأخذ الدف فما كان منه الا أن نهض وخلع الجبة فبدا بطوله وعرضه فى القفطان الكمونى كجواد يقف مستوفزا على رجليه الخلفيتين ، ثم شمر عن ساعديه ومضى الى الديوان ليتخذ مجلسه الى جانب الست ، ولكى تفسح له قامت نصف قومة متزحزحة الى اليسار فانحسر الفستان الأحمر عن ساق لحيمة مرتوية بيضاء مشربة بلون وردى من أثر الحف والتف محلى أسفلها بخلخال ذهبى أعيا ضمها ذراعيه . ورأى بعضهم ذلك المنظر فصاح بصوت كالرعد .

ــ تحيا الخلافة !

وكان السيد يغمز ثديى المرأة بعينيه فهتف وراءه :

ــ قل يحيا الصدر الأعظم ..

فصاحت العالمة محذرة :

ــ خفضوا أصواتكم او يبيتنا الانجليز فى السجن ..

فهتف السيد الذى لعبت الخمر برأسه :

ــ اذهب معك مؤبدا مع الشغل ..

وعلا اكثر من صوت يقول :

ــ لا عاش من يتركـكما تذهبان وحدكما ..

وارادت المرأة أن تحسم النزاع الذى أثاره منظر ساقها فمدت يدها بالدف الى السيد وهى تقول :

ــ أرنى شطارتك ..

وتناول السيد الدف ، ومسح عليه براحته مبتسما ، وبدأت أصابعه تنقر عليه فى مهارة على حين انطلقت آلات الطرب عازفة ، ثم غنت زبيدة وهى ترنو الى الأعين المحدقة اليها :

على روحى أنا الجـانى   وخلى فى الهـوى رمانى

ووجد السيد نفسه فى موقف عجيب ، تهفو اليه أنفاس السلطانة بين اللفتة واللفتة فتلتقى باشعاعات الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة ، فما أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولى وعثمان والمنيلاوى ، وعاش فى لحظته الراهنة قانعا سعيدا ، ثم سرى اليه من نبرات صوتها ما حرك أوتار قلبه فاستعر نشاطه ولعب بالدف لعبا لا يدانيه المحترفون ، وما بلغت المرأة فى الغناء قولها « أمانة يارايح يمه تبوس لى الحلو من فمه » حتى كان من النشوة فى سكرة عاتية ملهمة مدغدغة محرقة ، ولحق به الرفاق أو سبقوه اذ بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهوات نثرا فتركتهم كأدواح راقصة فى حومة عاصفة هوجاء ..

ورويدا رويدا شارف الدور الختام وراحت زبيدة تختمه مرددة نفس المطلع الذى افتتحت به وهو « على روحى أنا الجانى » ولكن بروح يوحى بالدعة والتذكير والوداع ثم النهاية ، وغابت الأنغام كما تغيب طيارة بحبيب وراء الأفق . ومع أن الختام قوبل بعاصفة من التهليل والتصفيق الا انه سرعان ما ساد القاعة صمت دل على همود أنفس أعياها الجهد والانفعال ، ومضت فترة لم يسمع فيها الا سعلة أو نحنحة أو حكة عود ثقاب أو كلمة لا تستحق المراجعة . وقال لسان الحال للمدعوين « تفضلوا بسلام » فلاحت من بعضهم نظرات الى قطع الثياب التى تخففوا منها فى فورة الطرب فوضعوها وراءهم على مساند ، ولكن البعض الآخر ممن تعلقت نفوسهم بحلاوة السهرة أبوا أن يغادروها حتى يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق ، فصاح أحدهم :

ـ لا نبرح حتى نزف السلطانة الى السيد أحمد ..

وقوبل الاقتراح بترحاب وتأييد ، على حين اغرق السيد والعالمة فى الضحك غير مصدقين ، وما يدريان الا ونفر من الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثم يشيرون الى الجوقة لتشرع فى النشيد السعيد .

وقفا جنبا لجنب ، هى كالمحمل وهو كالجمل ، عملاقين ملطفين بالحسن ، ثم تأبطت فى دلال ذراعه وأشارت الى المحدقين بهما ليفسحوا الطريق . ونقرت الدفافة على الدف فانطلقت الجوقة وكثرة من

المدعوين يرددون نشيد الزفة « أنظر بعينك ياجميل » ومضى العروسان فى خطو وئيد يتبختران طربا وسكرا فلم تتمالك زنوبة مع هذا المنظر الا ان تمسك عن اللعب بأوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس لو تجسمت لبدت لسانا متعرجا من لهب يشق الفضاء كالشهاب.

وتسابق الأصدقاء يزجون التهانى تباعا :

ــ بالرفاء والبنين ...

ــ ذرية صالحة من الراقصات والمغنيات ..

وصاح به أحدهم محذرا

ــ لا تؤجل عمل اليوم الى غد ..

ولم تزل الجوقة تواصل الانشاد ، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين ، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المفضى الى داخل الدار .

- ١٧ -

كان السيد أحمد جالسا الى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار . ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب ، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة ، اذ لم يكن من الطبيعى أن يزور الفتى أباه فى دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته فى بيته ، والى هذا بدا شارد اللب ساهم النظرة .. وأقبل على أبيه مكتفيا برفع يده الى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضره من أدب بالغ وخضوع كأنما نسى نفسه ، ثم قال بلهجة نمت عن شديد تأثره :

ــ السلام عليكم يا أبى ، جئت لأحدثك فى أمر هام ..

ورفع السيد اليه عينيه متسائلا وقد ساوره قلق استعان على اخفائه بقوة ارادته ثم قال بهدوء :

ــ خير ان شاء الله ..!

وجاء جميل الحمزاوى بكرسى وهو يرحب بمقدمه فأمره والده بالجلوس فقرب الشاب الكرسى من مكان أبيه وجلس ، وبدا لحظات كالمتردد ، ثم زفر ثائرا بتردده وقال بنبرات متهدجة وفى اقتضاب مؤثر :

ــ المسألة أن أمى شارعة فى الزواج ..!

ومع أن السيد توقع خبرا سيئا الا أن خياله لم يجنح فى جولته التشاؤمية الى تلك الناحية التى أودعها ركنا مهجورا من ماضيه ، لذلك

لقيت منه المفاجاة صيدا غافلا ، وسرعان ما قطب كما يقطب كلما عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى ، وتولاه لذلك ضيق ، ثم انزعاج لما يمس ابنه مباشرة في صميم كرامته ، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديدا ولكن ليتلمسوا منفذا للنجاة من الواقع وهم يائسون ، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروى وتمالك الأعصاب ، سأله :

ـ ومن أدراك بهذا ؟

ـ قريبها الشيخ حمدى ، زارنى اليوم بمدرسة النحاسين والقى على الخبر مؤكدا بانه سيتم فى ظرف شهر ..

الخبر حق لا ريب فيه ، وما هو بالأول من نوعه ، فى حياتها ، وان يكون الأخير اذا اتخذ الماضى مقياسا للمستقبل ، ولكن أى ذنب جناه هذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدد الأذى ؟! .. ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفا ، وعز عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهو الذى يقصده الناس فى الملمات ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو المبتلى بهذه الأم ! .. فانقبض صدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه ، ثم شعر برغبة تدفعه الى السؤال عن ذلك الزوج المنتظر ، ولكنه لم يستسلم لها ، اما لأنه اشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقا واتساعا واما لأنه انكرها على نفسه لما آنس بها من حب استطلاع ـ لا يليق بالمأساة الراهنة ـ موجه إلى المرأة التى كانت زوجا له ، بيد أن ياسين قال منفعلا من تلقاء نفسه وكأنه يجيب خاطرته :

ـ وممن تتزوج ! .. من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز فى الدراسة .. فى الثلاثين من عمره !

واشتد انفعاله وتهدج صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنما يلفظ شظيه ، فانتقل احساسه الى ابيه تقززا واشمئزازا ، وجعل يردد فى سره : فى الثلاثين من عمره .. ياله من عمل فاضح .. انه فسق فى ثياب زواج .. غضب الرجل لغضب ابنه ، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلما ترامى اليه نبأ من مباذلها كأنما يتجدد شعوره بتبعته فى أعتبارها يوما زوجا له ، أو كأنما يعز عليه ـ ولو بعد كرور ذلك الزمن الطويل ـ انها أفلتت من تاديبه والاذعان لسنته !. وانه ليذكر أيام معاشرته لها ـ على قصرها كما يذكر الانسان حمى هاضته ، وربما كان مغاليا فى تصوره ، ولكن رجلا فى مثل اعتداده بنفسه جدير بأن يرى فى مجرد الرغبة عن الاذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وهزيمة قتالة . ثم انها كانت ـ ولعلها لاتزال ـ جميلة مترعة انوثة وجاذبية

فنعم بمعاشرتها أشهرا حتى بدا منها شيء من المقاومة لارادته التى نزع الى فرضها على المتصلين به من آله ، ولم تر بأسا فى الاستمتاع بالحرية ولو بالقدر الذى يتيح لها زيارة بيت أبيها من آن لآن ، فغضب السيد وحاول منعها بالزجر أولا ثم بالضرب المبرح اخيرا ، فما كان من المرأة المدللة الا أن فرت الى والديها ! وأعمى الغضب الرجل المتعجرف فظن أن خير سبيل الى تأديبها وارجاع عقلها الى رأسها هو أن يطلقها الى حين ـ الى حين طبعا لأنه كان شديد التعلق بها ـ فطلقها ، وتظاهر باهمالها أياما وأسابيع وهو ينتظر آملا أن يجيئه وسيط خير من آلها ، فلما لم يطرق بابه أحد داس كبرياءه وبعث هو من يجس النبض تمهيدا للصلح فعاد الرسول يقول انهم يرحبون به على شرط الا يسجنها أو يضربها !.. ولكنه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا شرط فثار غضبه ثورة عاتية وأقسم فيما بينه وبين نفسه الا يضمهما رباط الى الأبد . هكذا ذهب كلاهما الى حال سبيله ، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بعيدا عن أبيه وأن يلقى من حياته فى بيت أمه ما لقى من ضروب المذلة والألم ..

ومع ان المرأة تزوجت أكثر من مرة ، ومع أن الزواج كان ـ فى نظر ابنها ـ أشرف سقطاتها ، الا أن هذا الزواج الجديد المتوقع بدا أفظع من سوابقه وأمعن فى الايلام ، لأن المرأة استوت على الأربعين من ناحية ، ولأن ياسين اكتمل شابا مدركا بوسعه اذا شاء أن يدفع عن كرامته الاساءة والهوان من ناحية أخرى ، فقد جاوز اذن موقفه القديم الذى ألزمته اياه حداثة سنه حين كان يتلقى الأنباء المثيرة عن امه بالدهش والانزعاج والبكاء الى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه رجلا مسئولا لا يصح له أن يلقى الاساءة مكتوف اليدين . دارت هذه الخواطر بذهن السيد ، وقدر خطورتها بقلق ، ولكنه صمم على التهوين من شأنها بما وسعته الحيلة ابتعادا بابنه الأكبر عن المتاعب ، فهز منكبيه العريضين متظاهرا بالاستهانة وقال :

ـ الم نتعاهد على اعتبارها كشىء لم يكن ..؟!

فقال ياسين فى حزن وقنوط :

ـ ولكنها شيء كائن يا أبى !.. ومهما يكن من أمر تعاهدنا فلن تزال امى الى ما شاء الله ، سواء فى نظرى أم فى نظر الناس جميعا .. لا مفر ولا خلاص ..

ونفخ الشاب من الأعماق ، ورنا الى أبيه بعينيه السوداوين الجميلتين

- اللتين ورثهما عنها - فى استغاثة صارخة وكأنه يقول له : « انك أبى الجبار القادر فمد لى يدك » ، فبلغ التأثر بالسيد غايته ولكنه واصل تظاهره بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلا :

- لا أنكر عليك تألمك ولكنى أنكر عليك أن تغالى فيه ، كذلك يطيب لى أن أعذرك على غضبك ولكن قليلا من العقل حرى بأن يردك بلا عناء ، سائل نفسك فى هدوء ماذا عليك من زواجها ؟.. امرأة تتزوج ، كما تتزوج النساء كل يوم وكل ساعة ، وليست هى بالتى تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من سلوكها ، بل لعلها خليقة بأن تشكر عليه ، وكما قلت لك مرارا ان يرتاح لك بال حتى تسقطها من حسابك كأنها لم تكن ، فافعل بالله وارح نفسك ، وتعز - مهما يكن من أمر القيل والقال - بأن الزواج علاقة مشروعة .. شريفة ..

قال السيد هذا بلسانه فحسب - اذ كان يناقض كل المناقضة ماطبع عليه من غيرة متطرفة فيما يتصل بالآداب المطلقة للأسرة - ولكنه قاله بحرارة كالصدق ، منشؤها ما مارسه من لباقة أهلته لأن يكون الحكم الحكيم ووسيط الخير الذى لا يعجزه فض نزاع بين الناس ، ومع ان كلامه لم يضع هباء - حيث انه من المستحيل أن يضيع كلام للسيد هباء حيال أحد من ابنائه - الا أن غضب الفتى كان أعمق من أن يتبخر بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من ابريق بالماء المغلى ، وما لبث ان خاطب اباه قائلا :

- هو علاقة مشروعة حقا يا أبى ولكنها تبدو احيانا ابعد ما تكون عن الشرع ، انى اسائل نفسى عما يدفع هذا الرجل الى الزواج منها ؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه فى شىء من السخرية « أولى بك أن تسأل عما يدفعها هى ! » ، وقبل أن يحاور ابنه واصل حديثه قائلا :

- انه الطمع ... ولا شىء غيره !

- أو لعلها رغبة صادقة فى الزواج منها ..

ولكن الشاب هاج ثائره وهتف فى حنق والم معا :

- بل الطمع وحده ..

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة اللهجة التى خاطبه بها ابنه ، بل لم يخل الرجل من ضيق الى تقديره لحاله وحزنه

أو أن يعود الى توكيد قوله السابق . فلما لم يفعل استطرد قائلا فى هدوء نسبى :

ـ ان ما يدفعه الى الزواج من امرأة تكبره بعشرة أعوام هو الطمع فى مالها وعقارها ..

وجد السيد فى تحول النقاش الى هذه النقطة فائدة لم تغب عن ألمعيته ، فهو ينتزع الفتى من تركيز تفكيره فى أمور أشد حساسية وأبعث للألم وبحسبه أنه يصرفه عن النظر فيما يدفع أمه الى الزواج الى مايدفع الرجل ، والى هذا كله فلم يخف عليه ما فى رأى ابنه من وجاهة فيما يتعلق بالزوج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه فيه . أجل أن هنية ـ أم ياسين ـ غنية لدرجة لا بأس بها . وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت من تجاريب الزواج والهوى ، بيد أنها كانت فيما مضى شابة حسناء ذات سحر وسلطان ، يخاف منها ولا يخاف عليها ، أما الآن فبعيد عن الاحتمال أن تملك نفسها ـ فضلا عن أنفس الآخرين ـ ماملكت ؛ واذن فثروتها خليقة بأن تبدد فى معركة الغرام التى لم تعد من رماتها . وانه لحرام واى حرام أن يخرج ياسين من جحيم هذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين . وقال السيد يخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها الرأى :

ـ أراك على حق بانى فيما تقول ، ان امرأة فى سنها صيد يسير خليق بأن يغرى الطماعين من البشر ، فما عسى أن نفعل ؟... أنتلمس سبيلا الى ذاك الرجل لنحمله على العدول عن مغامرته ؟!.. ان الحملة عليه بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس ، كذلك التوسل اليه بالرجاء والاقناع مهانة لا تهضمها كرامتنا ... فلم يبق أمامنا الا المرأة نفسها !.. ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من قطيعة كانت بها ـ ولا تزال ـ خليقة ، بل الحق انى لا أرتاح الى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما استجد من أعذار قهرية ، فللضرورة أحكام ، ومهما يشق عليك الرجوع فهو رجوع الى أمك ، ومن يدرى فلعل ظهورك المفاجىء فى أفقها يردها الى شىء من الصواب ...

وبدا ياسين أمام أبيه ، كالوسيط أمام المنوم المغناطيسى فى اللحظات التى تسبق تنفيذ ما يوحى به اليه ، ذاهلا صامتا ، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل الى نفسه ، أو لعله دل على انه لم يفاجأ بهذا الاقتراح ، وأنه يحتمل أن يكون مما دار بنفسه قبل مجيئه ، بيد أنه تمتم قائلا :

ـ أليس ثمة حل أوفق ..؟

فقال السيد بقوة ووضوح :

ــ اراه أوفق الحلول . .

فقال ياسين وكأنه يحادث نفسه :

ــ كيف أرجع اليها ؟!؟ . . كيف أزج بنفسي في ماض فررت منه وليس احب الى من ان يبتر من حياتي بترا ! . . لا ام لى . . لا أم لى

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بانه وفق الى جذبه الى رايه فقال بلباقة :

ــ هذا حق ، ولكن لا اظن ان ظهورك امامها فجأة بعد ذاك الغياب الطويل يمضي بلا اثر ، لعلها اذا راتك بين يديها شابا ناضجا أن تتحرك امومتها فتجفل مما عساه يسوء الى كرامتك وتعدل عن سيرتها . . . من يدرى ؟!

فطامن ياسين راسه غارقا في افكاره ، غير مبال بما دل عليه من ضيق ويأس . كان يرتعد خوفا من وقوع الفضيحة ، ولعل هذا كان أفظع ما يكربه ولكن خوفه على ضياع الثروة التي ينتظر أن يرثها يوما لم يكن دون ذلك ؟ وما عسى أن يفعل ؟! . . مهما يقلب أوجه الرأى فلن يجد حلا اوفق مما ارتأى أبوه ، بل أن صدور الرأى عن ابيه البسه في نظره ــ على تقلقل حاله ــ وجاهة واعفاه هو من هموم كثيرة . ايكن . . هكذا ... في نفسه ، ثم قال مخاطبا اباه .

ــ كما ترى يا أبى . . .

- ١٨ -

لما بلغت به قدماه طريق الجمالية انقبض صدره حتى شعر بانه يختنق . لقد غاب عنه احد عشر عاما ؛ احد عشر عاما تصرمت فلم ينازعه القلب اليه مرة واحدة ، او ترف عليه ذكرى من ذكرياته الا في هالة قاتمة مقبضة نسيج وشبها من مادة الكابوس ، والحق أنه لم يكن غادره ولكن واتته فرصة ففر منه فرارا ، ثم ولاه ظهره غاضبا حانقا يائسا ، ثم تجنبه بكل قوة نفسه فلم يعرفه بعد ذلك كفاية في نفسه أو معبرا الى سواه من الأحياء بيد انه هو الحى كما عهده في طفولته وصباه ، لم يتغير منه شيء . ما زال ضيقا تكاد تسده عربة يد اذا اعترضت سبيله ، وها هى بيوته تكاد تتماس مشربياتها ، ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها والطنين

الصادر عنها كخلايا النحل ؛ وارضه التربة بفجواتها المفعمة وحلا ، وغلمانه الذين يغشون جوانبه ويطبعون على أديمه آثار أقدامهم الحافية . وسابلته الذين لا ينقطع لهم تيار . ومقلى عم حسن ومطعم عم سليمان . كل أولئك باق كما عهده فتكاد ترف على شفتيه ابتسامة حنان يريد ثغر طفولته أن يفتر عنها لولا مرارة الماضى وسقم الحاضر ..

وتراءت لعينيه عطفة قصر الشوق فخفق قلبه بقوة حتى كاد يصم اذنيه ، ثم لاحت على رأس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار أمام دكان الفاكهة فعض على شفتيه وغض طرفه فى خزى . الماضى ملطخ بالعار ، مدفون الراس فى الطين من الخجل ، دائم الجار بالشكوى من الخزى والألم ، ولكنه كله فى كفة وهذه الدكان فى كفة وحدها، بل انها ترجح به ، اذ أنها رمزه الحى الباقى على الزمن ، جمعت فى صاحبها وسلالها وفاكهتها وموقعها وذكرياتها الخزى متبجحا والألم ناطقا والهزيمة مولولة ، واذا كان الماضى احداثا وذكريات هى بطبعها عرضة للتخلخل أو النسيان فهذه الدكان تقوم شاهدا مجسما يكشف مخلخله ويستحضر منسيه .. وكان كلما تقدم من المنعطف خطوة تقهقر عن الحاضر خطوات طاويا الزمن على رغم ارادته ، وكأنه يرى فى الدكان « غلاما » يرفع راسه الى صاحبها ويقول « نينه تطلب منك أن تحضر الليلة » ، أو كأنه يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأسارير ، أو وهو يلفت نظر أمه فى الطريق الى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيدا أن يلفت اليهما الأنظار ، أو وهو ينشج باكيا أمام منظر الافتراس الوحشى الذى يخلقه خلقا جديدا — كلما ورد على ذهنه — على ضوء تجاربه الراهنة فينقلب البشاعة نفسها ، طفقت الصور الملتهبة تطارده وهو يجد فى الفرار منها ، ولكنه ما أن يتملص من قبضة احداها حتى يقع فى قبضة الأخرى ، مطاردة عنيفة وحشية اثارت فى اعماقه بركان الحنق والحقد فواصل السير الى غايته وهو على اسوأ حال « كيف أمرق الى العطفة وعلى رأسها هذا الدكان .. وهذا الرجل .. اتراه بموقفه القديم منها ؟.. لن التفت نحوها ، أى قوة ماكرة تغرينى بالنظر ، أيعرفنى اذا التقت عينانا ؟ !.. اذا بدا منه أنه عرفنى قتلته ، ولكن كيف له بأن يعرفنى ؟.. لا هو ولا احد من الحى ، احد عشر عاما ، تركته غلاما وأعود اليه ثورا .. ذا قرنين ! ثم لا تواتينا القوة على ابادة الحشرات السامة التى لا تنفك تلدغنا .. » ؟

ومال الى العطفة مسرعا بعض الشىء ، متخيلا القوم وهم يستطلعونه بأنظارهم متسائلين « اين ومتى رأينا هذا الوجه ! » . ورقى فى الطريق

المتصاعد فى غير أستواء ، جامعا عزمه على نفض الغبار الخانق عن وجهه وراسه ولو الى حين ، وتنسجبعا لعزمه فر بنفسه بعيدا وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلا : « لا تضق بالطريق المتعب فكم كنت تفرح به صغيرا وأنت تتزحلق على منحدره فوق لوح من الخشب ! » ، بيد انه عاد يقول حين تراءى له جدار البيت : « الى اين أسير ؟ !.. الى امى ! .. يا للعجب ، لا اصدق ، كيف القاها وكيف تلقانى !.. وددت او .. » ومال يمينا الى عطفة مسدودة ثم اتجه الى اول باب فى جانبها الأيسر . هو البيت القديم بلا ادنى شك ، قطع الطريق اليه كما كان يقطعه وهو صغير ، بلا تردد أو تساؤل ، وكأنه ما تركه الا امس القريب ، ولكنه اقتحم بابه هذه المرة باضطراب غير معهود . ورقى فى الدرج بخطوات ثقيلة بطيئة ، وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحصه باهتمام مطابقا بينه وبين صورته المحفوظة فى خياله فألفاه اضيق قليلا مما فى ذاكرته وقد تآكلت بعض جوانبه وتهدمت اجزاء صغيرة من أطراف درجاته المطلة على بئر السلم ، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله . ومر وهوعلى تلك الحال بالدورين المأجورين حتى انتهى الى الدور الاخير . ووقف لحظات يتصنت وصدره يعلو وينخفض ، ثم هز منكبيه كالمستهين ونقر على الباب ، وبعد دقيقة او نحوها فتح الباب عن وجه خادم متوسطة العمر ما أن تبينت فيه رجلا غريبا حتى توارت وراء الباب وهى تسأله فى أدب عما يريد . وثارت اعصابه فجاة وبلا داع معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة واتجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ قولي لستك ياسين هنا ..

« ترى ماذا تظن الخادم بى ؟ » .. والتفت وراءه فوجدها مسرعة الى الداخل ، اما لأن لهجته الآمرة غلبتها على امرها ، واما .. وعض على شفتيه وهو يرق الى داخل الحجرة . انها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعى فى لهوجته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل ، ولو وجد فى ظرف غير الظرف لطاف مسترجعا ذكرياته من الحمام الذى كان يحمل اليه وهو يبكى الى المشربية التى كان ينظر من وراء ثقوبها الى موكب الزفة مساء بعد مساء . ترى اثاث الحجرة الراهن هو هو اثاث الماضى البعيد ؟.. انه لا يذكر من الأثاث القديم الا مرآة طويلة ثبتت فى حوض مذهب تنبثق من ثغرات فى سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان ، وتركز فى زاويتيه المتباعدتين فنايير تتدلى من أعناقها أهلة بلورية طالما

ولع بالعبث بها والنظر خلالهـا الى المكان فيلوح فى حلل غريبـة يذكر اغراءها وان غاب عنه منظرها . ولكن لا داعى للتساؤل . فأثاث اليوم غير اثاث الأمس ، لا لجدته البادية فحسب . ولكن لأن حجرة امراة مزواج خليقة بأن تتغير أو تتجدد ، كما تغير ابوه ، وتاجر الفحم ، والباشجاويش . وركبه توتر وضيق فأدرك انه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنه نكأ جرحا متورما وغاص فى قبحه . ولم يطل انتظاره . ولعله جاء أقصر مما يتصور ، اذ ابتدر أذنيه وقع اقدام متتابعة متدافعة . وصوت يتردد محاورا نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبن الفاظه ، ثم احس بها ـ وهو لم يزل مولى الباب ظهره ـ وضلفة الباب المغلقة تطقطق تحت صدمة منكبها ، ثم جاءه هتافها وهى تقول بأنفاس مبهورة :

ـ ياسين !.. ابنى !.. كيف أصدق عينى ؟ !.. ربى .. صار رجلا ..

وتدافع الدم الى وجهه المكتنز ، واستدار نحوها فى ارتباك وهو لا يدرى كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء ، ولكن المراة أعفته من تدبير امره فهرعت اليه واحتوته بذراعيها وضمته اليها بشدة عصبية وراحت تقبل صدره ـ وهو غاية ماوسع شفتاها أن تبلغاه من جسمه المنتصب ـ ثم اختنقت نبراتهـا واغرورقت عيناها فدفنت وجهها فى صـدره مستسلمة له مليا ريثما تسترد انفاسها . لم يكن حتى تلك اللحظة قد اتى حركة أو نطق بكلمة ، ومع أنه شعر شعورا عميقا اليما بأن جموده اشد من ان يحتمل الا انه لم يبدر منه ما ينم عن حيـاة : أى حياة ؛ فلازم جموده وخرسـه ، بيد أنه كان متأثرا غاية التأثر وان لم يتضح له نوع التـأثر بادىء الأمر بحال يطمئن اليهـا ، ولـكنه ، على حرارة استقبالها ، لم يجد رغبة للارتماء فى حضنها أو تقبيلها ، لعله لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشبة فى نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا ، ومع أنه وجه ارادته بعزم وتصميم الى أخلاء المسرح من الماضى فى اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته ، الا أن الماضى المطرود انعـكس على صفحة قلبه ظلالا قاتمة كذبابة نشت عن الفم بعد ان خلفت وراءها جـرثومة تسرى ، فادرك فى ذاك الموقف الرهيب ، أكثر ممـا ادرك فى ماضـيه كله ، الحقيقة المحزنة التى طالمـا أدمت فؤاده وهى أن امه قد اقتلعت من صدره . ورفعت المراة راسها اليه كأنها تدعوه الى تقريب وجهه فلم يستطع الاباء وأدنى وجهه منها فقبلته فى خديه وجبينه ،

والتقت اثناء العناق عيناهما فلثم جبينها تأثرا بارتباكه وحيائه لا لعاطفة اخرى ، ثم سمعها تغمغم :

ـ قالت لى ياسين هنا ، قلت ياسين ! من يكون هذا ؟! ولكن من يكون غيره ؟ ليس لى الا ياسين واحد ، ذاك الذى حرم بيتى على نفسه وحرم نفسه على ، فماذا حدث ؟ وكيف استجيب الدعاء آخر الدهر ؟! وجئت عدوا كالمجنونة لا اصدق اذنى ، وها أنت ، انت دون غيرك والحمد لله ، تركتني غلاما وعدت الى رجلا ، كم قتلنى الشوق اليك وانت لا تحس لى وجودا . .

واخذته من ذراعه الى الكنبة فمضى معها وهو يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من الاستقبال الحار حتى يتبين الطريق الى هدفه . وجعل يسترق اليها النظر فى استطلاع مقرون بالدهشة والقلق ؟ . . كأنها لم تتغير الا ان يكون جسمها قد زاد امتلاء ولكنه لا يزال محافظا على حسن تقطيعه ، اما الوجه القمحى المستدير والعينان السوداوان المكحولتان فعلى سابق عهدهما تقريبا من القسامة البارعة . ولم يرتح الى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق كأنه كان ينتظر ان تغير اعوام القطيعة من دابها القديم على العناية بنفسها وولعها بالتبرج لداع ولغير ما داع اى حتى فى تلك الأوقات التى تخلو فيها الى نفسها : وجلسا جنبا الى جنب وهى تحدق الى وجهه بحنان تارة وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة اخرى ثم تمتمت بصوت متهدج :

ـ آه يا ربى لا اكاد اصدق عينى ، انا فى حلم ؟ هذا ياسين ! اى عمر ذهب هباء ، كم دعوتك ورجوتك ، وبعثت اليك الرسول تلو الرسول ؟ ماذا أقول ؟ . . دعنى اسألك كيف قسا قلبك على لهذا الحد ؟ . . كيف اعرضت عن دعواتى الحارة ، كيف تصاممت عن نداء قلبى المكروب ؟ كيف . . كيف ؟ . . كيف نسيت أن لك اما منزوية هنا ؟!

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدها غريبة تدعو الى السخرية والرثاء معا ، وكأنها افلتت منها فى ذهول الانفعال ، اجل يوجد شىء ، واشياء ، تذكره صباح مساء بان له اما ، ولكن اى شىء واى اشياء ؟!

ورفع اليها عينيه فى حيرة دون أن ينبس فالتقت عيناهما لحظة ، وابتدرته المراة قائلة فى لهفة :

ـ لماذا لا تتكلم ؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال وكأنه لم يجد بدا مما قال :

ـ ذكرتك كثيرا . ولكن آلامي كانت افظع من أن تطاق ..

وقبل أن يتم كلامه كان النور الذى ينبعث من نظرتها قد خمد ، واحتلت الحدقتين غمامة خيبة وفتور ساقتها رياح تهب من جوف الماضى الأسيف ؛ فلم تعد تطيق التحديق فى عينيه وخفضت جفنيها وهى تقول بلهجة حزينة :

ـ ظننتك برئت من احزان الماضى ؛ وانها علم الله لا تستحق بعض ما أوليتها من غضب حملك على هجرى احد عشر عاما ..

وعجب لعتابها عجبا أحنقه ، واستنكره استنكارا ذر على غضبه المكتوم فلفلا فانفعل انفعالا لولا القصد الذى جاء من اجله لثار بركانه . أتعنى المرأة حقا ما تقول ؟.. اهان عليها ما فعلت لهذا الحد ؟ ام تظن به الجهل بما كان ؟ ! بيد انه ضبط اعصابه بقوة ارادته التى لم تغفل عن هدفها وقال :

ـ تقولين انها لا تستحق غضبى ؟.. اراها تستحق الغضب كل الغضب وأكثر ..

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبة كشىء تهدم ، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة :

ـ ما وجه العيب فى أن تتزوج امرأة بعد طلاقها ؟..

فشعر بنيران الغضب تتأجج فى عروقه وان لم تبد منها آثار الا فى انطباق شفتيه ثم فى التصافهما ، لا زالت تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة على يقين ببراءتها ! .. وتتساءل عن وجه العيب فى أن تتزوج « امرأة » بعد طلاقها ، حسن ، لا عيب فى أن تتزوج « امرأة » بعد طلاقها ، أما ان تكون المرأة امه فهذا شىء آخر ، شىء آخر جدا ؛ وأى زواج الذى تعنيه ؟!.. انه زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ، وهنالك ما هو أدهى وامر ، ذلك « الفكهانى » !.. أيذكرها به ؟.. أيصفعها بما فى نفسه من مر ذكرياته ؟ أيصارحها بأنه لم يعد جاهلا كما تظن ؟ وأرغمته حدة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرة فقال بامتعاض شديد :

ـ زواج وطلاق ، زواج وطلاق ، هذه امور شائنة لم تكن لتليق بك ، ولشد ما مزقت نياط قلبى بلا رحمة .

فشبكت ذراعيها على صدرها فى استسلام اليائس وقالت باشفاق حزين :

ـ انه سوء الحظ ولا شىء غيره ، انى سيئة الحظ ، هذا كل ما هنالك .

فبادرها قائلا ، وقد تقلصت اســـاريره وانتفخ لغده فلفظ الكلمات كأنما يلفظ مستخبثا تعافه النفس :

ـ لا تحاولى ان تبرئى ساحتك فما يزيدنى هذا الا ألما على ألم ، من الخير ان نســدل على آلامنا ستارا يخفيها ما دمنا لا نستطيع ان نمحوها من الوجود محوا ..

ولاذت بالصمت على كره والقلب يشفق اشفاقا شديدا من هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه فى نفسها من آمال ، وجعلت تلحظه بقلق كأنما تستخبره عما يطوى عليه صــدره ، فلما ثقل عليها صمته قالت متشكية :

ـ لا تلح فى تعذيبى وانت وحيدى ..

ووقع الكلام من نفسه موقعا غريبا كأنما يكشف له لأول مرة ، بيد انه وجد فيه باعثا جديدا للهيــاج والتوتر ، انه ابنهــا حقا ، وانها امه الوحيدة كذلك ، ولكن ثم رحلا ..! واشاح عنها بوجهه ليخفى ما ارتسم على صفحته من آى التقزز والغضب ، ثم أغمض عينيه فرارا من ذكريات مناظر بشعة ، عند ذاك سمعها تقول برقة وتوسل :

ـ دعنى أعتقد بأن ســعادتى الراهنة حقيقة لا وهم ، اجل حقيقة لا وهم ، وبأنك جئتنى منفضا عن قلبك احزان الماضى كله الى الأبد .

فنظر اليها نظرة طويلة مركزة وشت بخطورة أفكاره ، ولم يكن شىء فى تلك اللحظة يستطيع أن يعدل به عن النفاذ الى غرضه ولو بتأجيله الى حين ، فقال بصوت يدل على ان الفاظه التى يتفوه بها اقل بكثير من المعانى التى يوحى بها :

ـ هذا يتوقف عليك انت ، فان شئت كان لك ما تحبين ..

فتجلت فى عينى المرأة نظرة قلق نمت عما تعــانى من ايحاء الخوف وقالت :

ـ انى ارغب فى مودتك من اعماق قلبى ، وطالما تمنيتها ، وكم سعيت اليها فرددتنى بلا رحمة ..

ولكنه كان مشغولا عن كلامها الحار بما يضطرب فى ذهنه فقال :

ـ بيدك ما تتمنين ، بيدك انت وحدك ، اذا جعلت من الحكمة رائدك .

فتساءلت المرأة فى انزعاج :

ـ ماذا تعنى ؟

فأحنقه تجاهلها وقال بتذمر :

ــ مضمون كلامي واضح ؛ هو أن تعدلي عما لو صح ما بلغني عنه لكان فيه الضربة القاضية علي !

فاتسعت عيناها وتجهم وجهها في يأس غير خاف . وتمتمت وهي لا تدري :

ــ ماذا تعني ؟

بيد أنه ظنها تصر على التجاهل فقال بغيظ :

ــ أعني ان تلغي مشروع الزواج الجديد ، والا تسمحي لنفسك بمعاودة التفكير في شيء من هذا القبيل ، لم اعد طفلا . وليس بصبري متسع لطعنة جديدة . .

أطرقت في حزن بالغ ، ولازمت الاطراق كأنما أخذتها سنة من النوم ، ثم رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في وجهها أعمق مما قدر ، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها :

ــ اذن جئت من أجل هذا !

ودون تفكير فيما يقول قال :

ــ نعم ! . .

فوقع جوابه كطلقة نارية فاذا بكل شيء حوله يتغير ويتبدل سريعا ، ويكفهر الجو . وقد استرجع فيما بعد ــ وهو خال الى نفسه ــ ما دار من حديث بينه وبين امه في هذه المقابلة فاقر أقواله جميعا حتى بلغ هذا الجواب الأخير فتردد حياله لا يدري أأخطأ أم أصاب ، وظل على تردده طويلا . أما المرأة فقد غمغمت وهي تنظر فيما أمامها :

ــ لشد ما اتمنى أن اكذب أذني . .

وادرك انه تعجل بعد فوات الفرصة ، وسخط على نفسه حانقا ، ثم صب سخطه عما حوله . فاندفع قائلا بلا وعي مداريا خطأه بما هو أمعن في الخطأ :

ــ انك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب ، وكنت أنا دائما الضحية التي تتلقى الاساءة بلا ذنب جنته ، وقد ظننت العمر رادك الى شيء من العقل فما أعجب الا لقائل يقول لي انك شارعة في الزواج من جديد ! . . يالها من فضيحة تتجدد كل بضعة أعوام كأن لا نهاية لها .

من شدة اليأس راحت تصغي اليه فيما يشبه اللامبالاة ، ثم قالت بأسى :

ــ انت ضحية ، وانا ضحية ، كلانا ضحية لما يوسوس به اليك أبوك وتلك المرأة التي تعيش في كنفها ! . .

وعجب لهذا الانحراف فى مجرى الحديث الذى بدا له مضحكا ، بيد انه لم يضحك ؛ ولعله ازداد غضبا وهو يقول :

ـ ما دخل أبى وزوجه فى هذا الشأن !.. لا تتملصى من فعالك بالقاء التهم فى وجوه الأبرياء

فهتفت بصوت يشبه الأنين :

ـ ما رايت ابنا أقسى منك !.. أهذا خطابك لى بعد فراق احد عشر عاما !!

فلوح بيده فى احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط :

ـ الأم الخاطئة خليقة بأن تلد ابنا قاسيا ..

ـ لست خاطئة .. لست خاطئة .. ولكنك قاس غليظ القلب كأبيك ..

فنفخ فى ملل وصاح بها :

ـ رجعنا الى ابى !.. حسبنا ما نحن فيه .. اتقى الله وتراجعى عن الفضيحة الجديدة .. أريد ان امنع هذه الفضيحة بأى ثمن ..

ومن شدة اليأس والحزن خرج صوتها متلفعا بالبرودة وهى تقول :

ـ وماذا يهمك منها ؟

فصاح فى دهش :

ـ كيف لا تهمنى فضيحة امى ؟!

فقالت فى حزن مشوب بما تيسر من التهكم :

ـ انت فى الحق لا تعدنى اما لك ..

ـ ماذا تعنين ؟

فغمغمت فى يأس متجاهلة تساؤله :

ـ ما دمت قد خلعتنى من نفسك فيجدر بك ان تدعنى وشانى ..

فهتف غاضبا :

ـ حسبى ما كان ، لن اسمح لك بتلويث سمعتى من جديد ..

فقالت وهى تزدرد مرارة ريقها :

ـ لا شىء هنالك مما يلوث السمعة ، والله شهيد ..

فسألها مستنكرا :

ـ أتصرين على هذا الزواج ؟!

فصمتت مليا ، مطرقة محزونة غارقة فى اليأس ، ثم ندت عنها تنهدة عميقة ، ثم قالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ قضى الأمر وكتب العقد ، ولم يعد بوسعى منعه !

فانتفض ياسين قائما وقد تصلب جسمه البدين وعلت وجهه سحابة، وركز بصره فى رأسها المطرق وهو يغلى غضبا، ثم صاح بها بصوت كالزئير :

ـ يالك من امرأة .. مجرمة !..

فغمغمت بصوت مغموس يدل على الاستسلام المطلق :

ـ سامحك الله ..

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف ـ مما تظن أنه يجهله ـ من ماضى سيرتها، بحديث « الفكهانى » الأسود، قذيفة يصبها على رأسها بغتة فتنثره اربا ويثأر بهـا افظع الثأر، وتوهج فى عينيه بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابسـة مكفهرة تجمعت فى أخاديدها نذر الشر والوعيد، وفغر فاه ليطلق قذيفته، ولكن لسانه لم يتحرك، التصق بسقف حلقه كأنما جذبه اليه مخه الذى لم يعمه العناء عن البلاء، ومرت اللحظة الرهيبـة فى سرعة الزلزال الخاطف الذى يشعر فيه الانسـان بأنفاس الموت تتردد على وجهه لحظات ثم يعود كل شىء الى مستقره، وزفر وهو كظيم، وتراجع غير آسف وجبينه يسح عرقا باردا . وقد ذكر موقفه هذا ـ فيما بعد ـ فيما ذكر من مواقف هذه المقابلة الغريبة فارتاح لتراجعه كل الارتياح وان عجب له اشد العجب، وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنه انما تراجع رحمة بنفسه لا رحمة بها وكأنه تستر على كرامته لا على كرامتها وان لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر !..

وافرغ غضبه فى كفيه فجعل يضرب واحدة على الأخرى ويقول :

ـ مجرمة ! .. فضيحة مجسـمة ! .. كم سأضحك من غبائى كلما اذكر اننى أملت خيرا من هـذه الزيارة ! .. (ثم بلهجة تهكمية) .. انى أعجب كيف طمعت بعد هذا فى مودتى ؟ !

فجاءه صوتها وهو يقول فى انكسار وحسرة :

ـ منتنى نفسى ان نعيش على مودة رغم كل شىء !.. وبعثت زيارتك المفاجئة فى قلبى آمالا حارة خيل الى معها انى أستطيع أن اهبك اسمى ما فى قلبى من حب .. بلا كدر ..

وابتعد عنها متقهقرا كأنما يفر من لين كلامها الذى لم يعد شىء يؤرث غضبه مثلما يؤرثه، وشعر حانقا يائسا بأنه لم تعد ثمة فائدة من بقائه فى هذا الجو الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سمته الى الخارج :

ـ وددت لو أستطيع قتلك ..

فغضت بصرها وقالت فى حزن بالغ :

- لو فعلت لأرحتنى من حياتى ..

وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة أخيرة مظلمة بالمقت ثم غادر المكان وأرض الحجرة ترتج تحت وقع قدميه . وعندما انتهى الى الطريق واخذ يثوب الى نفسه ، ذكر لأول مرة انه نسى حديث العقار والمال فلم يطرقه بكلمة واحدة ، انسيه كأنما لم يكن هو الباعث الأول لهذه الزيارة !.

- ١٩ -

فتحت الست امينة الباب وادخلت راسها وهى تقول برنتها المعهودة :

- أفى حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟

فجاءها صوت فهمى قائلا :

- تعالى يا نينة ، خمس دقائق فقط ..

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرأته واقفا امام مكتبه يلوح فى وجهه الجد والاهتمام فأخذها من يدها الى كنبة غير بعيدة من الباب واجلسها ثم جلس الى جانبها وهو يتساءل :

- ناموا جميعا ؟

وادركت المرأة انها لم تدع لتقديم خدمة عابرة والا ماكان هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام سرعة الى نفسها المطواعة للايحاء وقالت تجيبه :

- ذهبت خديجة وعائشة الى حجرتهما فى ميعاد كل ليلة ، أما كمال فقد تركته الآن فى فراشه .

كان فهمى يترقب هذه اللحظة منذ آوى الى حجرة المذاكرة عند اول المساء فلم يستطع كعادته تركيز انتباهه فى الكتاب الذى بين يديه ، وجعل يتابع ، بين آونة وأخرى ، احاديث امه وشقيقتيه فى جزع لا يدرى متى ينتهين ، ثم الى امه وكمال وهما يحفظان معا جملة من سورة عم . حتى ساد الصمت ثم جاءت امه لتحييه تحية المساء فدعاها اليه وقد تناهى به توتر الانتظار . ومع ان امه بدت له كالحمامة الوديعة ، ومع انه لم يشعر حيالها قط بتحفظ أو خوف ، الا انه وجد عسرا فى التعبير عما يريد الافصاح عنه ، فعلاه ارتباك الحياء ، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن يقول مختلج الجفنين :

- دعوتك يا نينة لأشاورك فى أمر يهمنى جدا .

واشتد الاهتمام بالمراة حتى تملكه قلبها الرقيق خوفا اوشبيها بالخوف وقالت :

ـ انى مصغية اليك يابنى ..

فتنفس تنفسا عميقا ليخفف عن اعصابه وقال :

ـ ما رأيك فيما لو .. أعنى اليس من الممكن أن ..

وتوقف مترددا ، ثم غير لهجته قائلا برقة وتردد وارتباك :

ـ ليس لى من افضى اليه بدخيلة نفسى الا أنت ..

ـ طبعا ، طبعا يا بنى ..

فقال متشجعا عما قبل

ـ ما رأيك اذا اقترحت عليك أن تخطبى لى مريم بنت جارنا السيد محمد رضوان .. ؟

وتلقت أمينة كلماته بدهشة اولا ، فأجابته أول ما أجابت بابتسامة تدل على الحيرة أكثر من الفرح ثم انقشع الخوف الذى قبض صدرها حينا وهى تترقب افصاحه عما يريد ، ثم اتسعت ابتسامتها وأشرقت معلنة عن سرور صاف ، وترددت لحظات لاتدرى ماذا تقول ، ثم اندفعت قائلة :

ـ أهذه رغبتك حقا ؟ .. سأقول لك رايى صراحة .. ان يوما أمضى فيه لأخطب لك بنت الحلال لهو أسعد ايام حياتى ..

فتورد وجه الشاب وقال بامتنان :

ـ شكرا لك يا اماه ..

ورنت الأم اليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء :

ـ ياله من يوم سعيد ، لقد تعبت كثيرا وصبرت كثيرا ، وليس بالكثير على الله أن يجزينى على تعبى وصبرى بمثل هذا اليوم المرجى ، بل بأيام مثله كثيرة ليقر عينىَ بك وبأختيك خديجة وعائشة .

وغابت عيناها فى رؤى الأحلام السعيدة حتى بدا لها ما ايقظها فجاة فتراجع راسها فى قلق كقطة اقبل نحوها كلب ، وتمتمت فى اشفاق :

ـ لكن .. ابوك ؟ !

وابتسم فهمى ممتعضا وقال :

ـ من اجل هذا دعوتك للمشاورة .

ففكرت المراة قليلا ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ لا أدرى ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء ؟. أبوك شخص غريب غير الناس جميعا ، وقد يرى جريمة فيما يراه الغير شيئا عاديا ..

فقطب فهمى قائلا :
ــ ليس فى الأمر ما يدعو الى الغضب او الاعتراض .
ــ هذا رايى . . !
ــ وغنى عن البيان ان الزواج سيؤجل حتى اتم دراستى واجد لنفسى عملا . .
ــ طبعا . . طبعا . .
ــ فيم يكون الاعتراض اذن ؟!
فنظرت اليه نظرة كأنما تقول له : « ومن ذا يحاسب اباك اذا اراد ان ينبذ المنطق جانبا ؟ » هى التى لم تعرف حياله الا الطاعة العمياء اصاب أم أخطأ ، عدل أم ظلم ، بيد أنها قالت :
ــ أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول . .
فقال الشاب بحماس :
ــ لقد تزوج أبى وهو فى سنى هذه ، ولست اقصد شيئا من هذا ، ولكنى سانتظر حتى يكون الزواج طبيعيا لا اعتراض عليه من اى ناحية . .
ــ ربنا يحقق رجاءنا . .
وسكنا الى الصمت مليا وهما يتبادلان النظرات ، مجتمعين فى فكرة واحدة وهما عن بداهة يدريان اذ كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم ، ويقرأ ما يدوربخاطره فى غير ما عسر ، ثم قال فهمى مفصحا عما يشغلهما معا :
ــ بقى أن نفكر فيمن يفاتحه بالموضوع . . !
وابتسمت المرأة ابتسامة افقدها التفكير والقلق روحها ، وادركت ان ابنها الأويب يذكرها بالواجب الذى لا يستطيع ان يؤديه أحد سواها بالأسرة ، ولم تعترض على هذا لأنه لا سبيل غيره ، الا أنها قبلته على كره كما تقبل امورا كثيرة وهى تسأل الله حسن العاقبة ، وقالت برقة وعطف :
ــ ومن غيرى يفاتحه ؟ . . ربنا معنا . .
ــ انى آسف . . لو كان بوسعى ان احدثه لفعلت .
ــ سأحدثه ، وسيوافق باذن الله ، مريم فتاة جميلة ، مؤدبة ، من اسرة كريمة . .
وسكتت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لها الخاطر لأول مرة :
ــ ولكن أليست هى فى مثل سنك او تزيد ؟!
فقال الفتى جزعا :
ــ لا يهمنى هذا بتاتا !
فقالت مبتسمة :

ــ على بركة الله . ربنا معنا . « ثم وهي تنهض » ادعك الآن لعنـاية المولى ، والى الغد . . ومالت نحوه فقبلته ثم غادرت الحجرة واغلقت الباب وراءها ، ولكن كم ادهشها أن ترى كمال جالسا على الكنبة مكبا على كراسة بين يديه فهتفت به :

ــ ما الذي عاد بك الى هنا ؟

فنهض الغلام مبتسما في ارتباك وقال :

ــ تذكرت اني نسيت كراسة الانجليزى فعدت لآخذها ثم بدا لى ان أستعيد الكلمات مرة أخيرة

وذهبت معـه مرة أخرى الى حجـرة النوم ولم تتركه حتى تمدد تحت الغطـاء ، ولكنه لم ينم ، وكان النـوم أعجز من ان يغلب اليقظة الماكرة التي تنبعث في شعوره ، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى الى سمعه وقع اقـدام أمه وهي ترقى السـلم الى الدور الأعلى ، ثم فتح الباب وجرى الى حجرة شقيقتيه ودفع بابها ودخل دون أن يغلقه ليوسع للمصباح المعلق بالصالة منفذا يضيء منه جانبا من الظلمة الغاشية في الداخل ، وهرع الى الفراش وهو يهمس « ابلة خديجة ! » فجلست الفتاة في الفراش دهشة فوثب الى جانبها وهو يلهث من الانفعال ، وكأنه لم يقنع بمستمعة واحدة ليستودعها السر الذى أطار النوم عن عينيه فمد يده الى جسم عائشة وهزه ولكن الفتاة كانت قد تنبهت الى القادم وازاحت عنها الغطاء ثم رفعت رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة :

ــ ماذا جاء بك الآن ؟

لم يابه للهجة الاحتجاج لأنه كان على يقين من أن كلمة واحدة يشير بها الى سره خليقة بأن تقلبهما راسا على عقب ، وقفز لهذا قلبـه بهجة وسرورا ، ثم قال هامسا كأنه يحاذر أن يسمعه رابع :

ــ عندى سر غريب . .

فسألته خديجة :

ــ أى سر هذا ؟ ! . . . هات ما عندك وارنا شطارتك . .

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال :

ــ أخي فهمي يريد ان يخطب مريم . .

عند ذاك جلست عائشة في الفراش بدورها في حركة آلية سريعة كأنما التصريح رشة ماء بارد القيت في وجه وسنان ، وتقاربت الأشباح الثلاثة في شكل هرمي كما بدا على الضوء الخافت النافذ الى الحجرة والمنعكس على أرضها فيما يلي الباب المفتوح على هيئة متوازى الأضلاع مذبذب

الأطراف تبعاً لذبذبة ذبالة المصباح الذى تعرض ، بترك الباب مفتوحا - الى تيار وأن نسم من خصائص النافذة الى الصالة فى لطف همسات تذيع سرا ، ثم تساءلت خديجة فى اهتمام :

- كيف عرفت هذا ؟

- تركت فراشى لأحضر كراسة الانجليزى ، وعند باب أخى جاءنى صوته وهو يتكلم فلبدت فى الكنبة ثم أعاد على مسمعيهما ما تسرب اليه من وراء الباب الموارب وهما ينصتان اليه فى اهتمام ملك عليهما الأنفاس حتى فرغ من حديثه ، وهنا تساءلت عائشة كان بها حاجة الى المزيد من الاقتناع :

- أتصدقين هذا ؟

فقالت خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة :

- اتتصورين ان يخترع هذا « مشيرة الى كمال » حكاية طويلة عريضة كهذه ؟

- لك حق « ثم ضاحكة لتخفف من جدة اهتمامها » اختلاق موت غلام فى الطريق شىء ، اما هذه الحكاية فشىء آخر ..

فتساءلت خديجة دون ان تلقى بالا الى احتجاج كمال الذى اعترض على التعريض به .

- كيف وقع هذا يا ترى ؟ !

فضحكت عائشة قائلة :

- الم أقل لك مرة انى أشك فى ان اللبلاب هو الذى يدعو فهمى الى السطح كل يوم ؟ !

- انه اللبلاب الآخر الذى التف حول ساقه هو .

فترنمت عائشة بصوت خفيض :

- لا ملام عليك يا عيونى فى حبه .

فنهرتها خديجة قائلة :

- هس .. ليس هذا وقت الغناء .. مريم فى العشرين وفهمى فى الثامنة عشرة .. كيف توافق نينة على هذا ؟ !

- نينة ؟ ! .. نينة حمامة وديعة لا تدرى كيف تقول لا ، ولكن صبرا ، أليس من الحق ان أقول ان مريم جميلة وطيبة ؟ ! ... ثم ان بيتنا هو البيت الوحيد فى الحى الذى لم يعرف الأفراح بعد ..

كانت خديجة - كعائشة - تحب مريم ، ولكن الحب لم يستطع ابدا أن يخفى عن عينيها مواضع الانتقاد فى المحبوب أيا كان شأنه ، فلم يكن

يعجزها - عند الضرورة - الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب ، ولما كانت سيرة الزواج تثير مخاوفهـا الكامنة ، وغيرتها . فقـد انقلبت على صديقتها دون مشقة ، وأبى قلبها أن يقبلها زوجة لأخيها ، ومضت تقول :

- مجنونة أنت ؟ ! . . مريم جميلة ولكنها دون فهمي بمراحل بعيدة . . فهمي ياحمارة طالب بالعالى ، وسيكون قاضيا يوما ما ، فهل تتصورين مريم زوجا لقاض كبير المقام ؟ ! . . انها مثلنا على أكثر تقدير ، بل هى دوننا فى أكثر من ناحية ولن نتزوج احدانا بقاض . . !

وتساءلت عائشة فى نفسها : « من قال ان القاضى أحسن من الضابط !! »

ثم سألتها محتجة :

- لم لا ؟ !

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعترافها :

- يستطيع فهمي أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم مائة مرة ، وفى نفس الوقت تكون متعلمة وغنية وبنت بك أو حتى باشا ، فلماذا يتسرع بخطبة مريم ؟ ! . . ما هى الا امية طويلة اللسان ، أنت لاتعرفينها كما أعرفها . .

وأدركت عائشة أن مريم انقلبت فى نظر خديجة الى جملة من العيوب والنقائص ، بيد أنها لم تتمالك نفسها - حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التى لخديجة منها اكبر نصيب - من أن تبتسم مستترة بالظلمة ، وتحاشت اثارتها فقالت بتسليم :

- لندع الأمر لله . .

فقالت خديجة بثقة وايمان :

- الأمر لله فى السماء ولأبى فى الأرض وسوف نرى ماذا يكون رأيه غدا . . « ثم موجهة الخطاب الى كمال » . . ان لك أن تعود الى سريرك بسلام . .

عاد كمال الى حجرته وهو يقول لنفسه : « لم يبق الا ياسين ، وسأخبره غدا . . »

— ٣٠ —

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى وهما يكتمان أنفاسهما فى حذر شديد ويمدان آذانهما الى الداخل فى اهتمام وتلقف . كان الوقت قبيل العصر بقليل ، وكان السيد قد نهض من قيلولته فتوضأ وجلس كعادته يحتسى القهوة منتظرا الأذان ليصلى قبل عودته الى الدكان ، فتوقعت الأختان أن تفاتح الأم أباهما فى الأمر الذى انبأهما عنه كمال اذ لم يكن انسب لذلك الغرض من هذا الوقت . وتناهى اليهما من الداخل صوت أبيهما الجهورى وهو يتحدث عن أمور البيت العادية فأنصتتا فى جزع وترقب وهما تتبادلان النظر متسائلتين حتى سمعتا اخيرا الأم وهى تقول فى أدب بالغ ولهجة خاشعة :

ـ سيدى ، اذا اذنت لى حدثتك عن شأن رجانى فهمى أن ابلغك اياه .

عند ذاك أومأت عائشة بذقنها الى الداخل كأنها تقول « هذا هو الحديث » على حين راحت خديجة تتخيل حال امها وهى تتهيأ للكلام الخطير فرق قلبها لها وعضت على شفتها فى اشفاق شديد ، ثم جاءهما صوت السيد وهو يتساءل :

ـ ماذا يريد ؟

وساد الصمت قليلا ، أو طويلا بالقياس الى اللتين تسترقان السمع ، ثم قالت المرأة برقة :

ـ فهمى يا سيدى شاب طيب ، حاز رضاك بجده وتفوقه وأدبه ، حماه الله من شر الأعين ، ولعله بلغنى رجاءه ! ادلالا بمنزلته عند والده ..

فقال الأب بلهجة تخيلتاه معها راضيا :

ـ ماذا يريد ؟ .. تكلمى ..

ومال رأساهما نحو الباب وكل منهما تحملق فى الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهافت وهو يقول :

ـ سيدى يعرف جارنا الطيب السيد محمد رضوان ..؟

ـ طبعا ..

ـ رجل فاضل مثل سيدى وأسرة كريمة وجيران ولا كل الجيران ..

ـ نعم ..

واستطردت بعد تردد :

ــ فهمي يسأل يا سيدى هل يجيز له والده أن .. يخطب مريم كريمة جارنا الطيب لتبقى على ذمته حتى يصير أهلا للزواج ؟

وهنا علا صوت السيد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار :

ــ يخطب ؟!.. ماذا تقولين ياولية ؟.. هذا الغلام !.. ماشاء الله .. اعيدى على سمعى ما قلت ..

فقالت الأم بصوت متهدج وقد تخيلتها خديجة وهى تنكمش فى ذعر :

ــ ليس الا أنه يتساءل ؛ مجرد تساؤل يا سيدى والأمر لك ..

فقال الصوت المتفجر بالغضب :

ــ لا عهد لى ولا له بهذا التدلل المائع ، ولا ادرى ما الذى أتلف تلميذا حتى يتمادى فى مطالبه الى هذا الحد ؟.. ولكن أما مثلك خليقة بأن تفسد أبناءها ، فلو كنت أما كما ينبغى لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهذر الوقح ..

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما فى قلب خديجة ارتياح ، ثم سمعا صوت الأم المتهدج المستخذى وهى تقول :

ــ لا تجشم نفسك مشقة الغضب يا سيدى ، كل شىء يهون الا غضبك ، ما قصدت من ناحيتى اساءة قط ، ولا تخيلها ابنى وهو يحملنى رغبته ببراءة ، ولكنه رجانى بحسن نية فرأيت أن أعرض الأمر عليك ، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه اياه ، وسيذعن له بكل خضوع كما يذعن لأمرك دائما ..

ــ سيذعن أراد أم لم يرد ، ولكنى اريد أن أقول لك انك أم ضعيفة لا يرجى منها خير .

ــ انى أتعهدهم بما توصى به ..

ــ خبرينى عما دعاه الى التفكير فى هذا الرجاء ؟

وأرهفت الفتاتان السمع فى اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذى لم يتوقعاه ، ولكنهما لم يسمعا لأمهما جوابا وتصورتاها وهى ترمش فى ارتباك وخوف فعطف قلباهما فى اشفاق شديد :

ــ ماذا أخرسك ؟.. خبرينى هل رآها ؟

ــ كلا يا سيدى ، ان ابنى لا يرفع عينيه الى جارة ولا الى غيرها ..

ــ كيف رغب فى خطبتها دون أن يراها ؟.. ما كنت احسب أن لى ابناء يسترقون النظر الى حرمات الجيران !

ــ معاذ الله ياسيدى معاذ الله .. ان ابنى اذا سار فى الطريق لا يلتفت

يمنة ولا يسرة ، وهو فى البيت لا يكاد يغادر حجرته الا اضرورة ..

ـ ما الذى دعاه الى طلابها اذن ؟

ـ لعله يا سيدى سمع شقيقتيه وهما تتحدثان عنها ..

وسرت فى بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما فى فزع وهما تنصتان ..

ـ ومتى كانت شقيقتاه خاطبتين !.. يا سبحان الله اينبغى أن اهجر دكانى وعملى واقبع فى البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد !

فهتفت الأم فى نبرات باكية :

ـ بيتك اشرف البيوت ، بالله يا سيدى الا ما هونت عليك الغضب ، انتهى الأمر وكأن ما كان لم يكن ..

فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد :

ـ قولى له ان يتأدب ويستحى ويلزم حدوده ، وأن من الخير ان يتفرغ لدروسه ..

وسمعت الفتاتان حركة فى الداخل فقامتا فى حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما ..

رأت الست امينة ان تغادر الحجرة كشأنها اذا ند عنها عفوا ما يثير غضبه فلا تعود اليها بعد ذلك الا اذا دعاها ، اذ علمتها التجربة أن مكوثها بين يديه حال الغضب ثم سعيها الى تسكينه برقيق الكلام لا يزيد النار الا استعارا . ووجد السيد نفسه وحيدا فزايلته آثار الغضب المحسوسة الذى تثور عادة فى عينيه وبشرة وجهه وحركات يديه وكلامه ، ولكن بقى الغضب فى اعماق صدره كالعكارة فى قعر القدر .

من المحقق انه كان يغضب فى البيت لأتفه الأسباب لا اتباعا لخطته الموضوعة فى سياسة بيته فحسب ، ولكن مدفوعا كذلك بحدة طبعه التى لا تشكمها بين آله فرملة الكياسة التى يتقن استعمالها خارج البيت ، وربما ترويحا عما يعانى بين الناس كثيرا من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأى ثمن ، وليس بالنادر ان يتضح له انه استسلم للغضب فى غير موجب ولكنه حتى فى تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأن غضبته للتافه من الأمر عسية بأن تمنع وقوع الخطير منه مما يستحق الغضب عن جدارة ، بيد انه لم يعد ما بلغه عن فهمى ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز ان تعتلج فى نفس تلميذ من آل بيته ، وما كاد يتصور أن تتسرب « العواطف » الى بنيان البيت الذى يحرص على أن يشب

فى جو من النقاء الصارم والطهارة المتقشفة . ثم جاءت صلاة العصر فرصة طيبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ قلبا وأروح بالا ، فوسعه أن يتربع على سجادة الصلاة ويبسط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له فى ذريته وماله ، وأن يدعو خاصة لفخر ابنائه بالهدى والارشاد والتوفيق ، فلما أن غادر البيت كان تجهمه مظاهرة يراد بها التخويف لا أكثر . وفى الدكان التقى ببعض الأصدقاء فقص عليهم «نادرة اليوم» لا كفاجعة لأنه كان يكره أن يلقى احدا بالفاجعات ؛ ولكن كدعابة سخيفة ، فعلقوا عليها بما حلا لهم من المزاح ، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم ، فغادروه وهو يقهقه فى غير تحفظ . بدت له « النادرة » فى الدكان على غير ما بدت فى حجرته بالبيت ، وأمكنه أن يضحك منها . بل وأن يعطف عليها ، حتى قال لنفسه اخيرا باسما راضيا « من شابه اباه فما ظلم » ..

— ٢١ —

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف فى خطوات حاسمة غاشيا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب ، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئة التى قل أن تتاح له فى مثل ذاك الوقت المتأخر الا زهوه بالرسالة الشفوية التى حمله اياها فهمى ، فلم يغب عنه انه عهد بها اليه وحده دون غيره ، فى جو من السرية والتكتم الأمر الذى أضفى عليها — وعليه بالتالى — أهمية خاصة احسها قلبه الصغير ورقص لها طربا وفخارا . وتساءل فى عجب عما زلزل فهمى حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا فى لباسها القاتم شخصا غريبا لم يره ولم يسمعه من قبل ، هو مثال وحده ، ان اباه يثور كالبركان لأتفه الأسباب ، وان ياسين على حلاوة حديثه قابل للالتهاب ، حتى خديجة وعائشة لا تخلوان من نوبات عفرتة ، هو مثال وحده ، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب ، وهدوءه عميق على صدق عواطفه واصالة حماسه ، فلم يذكر انه رآه على الحال التى رآه عليها اليوم . لن ينسى كيف خلا اليه فى حجرة المذاكرة ، بصر زائغ ونفس مضطرب وصوت متهدج ، ولا كيف خاطبه لأول مرة فى حياته بلهجة توسل حارة عجب لها أشد العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التى حملها أن تكرر عليه مرات ومرات . وقد أدرك من فحوى الرسالة

نفسها أن للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذى استرق السمع اليه من وراء البــاب ، والذى نقله الى شقيقتيه فأثار بينهما جدلا ونزاعا ، وبالجملة انه يتعلق بمريم ، تلك الفتـــاة التى كثيرا ما تعابثه ويعابثهـــا ، ويأنس اليها حينا ويضجر منها حينا آخر ، دون أن يعرف لهـــا هذه الخطورة التى احاطت بهدوء أخيه وسلامته . مريم ؟!.. لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هــذا كله بأخيه العزيز الرائع !! . ووجد فى الجو غموضا ، كذلك الغموض الذى يكتنف حياة الأرواح والأشـــباح ، والذى طالما استثار حب استطلاعه وخوفه ، فتوثب قلبه للنفاذ الى مكنون سره فى تطلع وحيرة . ولكن حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتى يضمن الا يضيع منه حرف واحد من مضمونها فمر تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها ، ثم مال الى أول عطفة تليه حيث يوجد باب البيت . لم يكن البيت بالغريب عنه ، فطالما تسلل الى فنائه الصـــغير حيث تنزوى فى ركن منـــه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعينا بخياله على اصـــلاح عجلاتها وتحريكها حيثما شاء ، وطالما تردد بين حجراته بغير استئذان فقوبل بالترحيب والمداعبة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدهما « على حداثة ســنه » صديقتين قديمتين ، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التى تتوسطها صالة صــغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التى تطل على حمام الســلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسـعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء . والى هذا خلفت بعض متعلقات البيت أثرا فى نفســه استجابت له عهدا طويلا من صباه ، كعش يمامة فى أعلى المشربية المتصــلة بحجرة مريم الذى تبــدو حافته فوق ركن المشربية الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القش والريش ويلوح منـــه أحيانا ذيل اليمامة الأم أو منقارها كيفما اتفق وضعها فيتطلع اليه تتنـــازعه رغبتان ، احـــداهما — وهى المنبعثة من نفســـه — تدعوه الى العبث به واختطـــاف الصـــغار ، والأخـــرى — وهى المكتســـبة عن أمه — توقفـــه عنـــد حد التطلع والعطف والمشاركة الخيالية فى حياة اليمامة واسرتها ، وكصورة للسفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضا زاهية الألوان رقراقة البشرة وسيمة القسمات فاقت بجمالها الحسناء التى تطالعه صورتها عصره كل يوم بدكان ماتوسيان فكان يديم النظر اليها متســـائلا عن « حكايتها » فتقص عليه مريم من انبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لسان تستهويه وتستأثره . لم يكن

البيت بالغريب عليه اذن ، فشق سبيله الى الصالة دون أن يشعر به أحد ، وألقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيد محمد رضوان راقدا فى فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات . كان يعلم ان الشيخ مريض ، وقد سمع عنه كثيرا أنه مشلول : حتى سأل أمه مرة عن معنى الشلل .. فجزعت وراحت تستعيذ بالله من شر الاسم الذى نطق به فانكمش متراجعا ، ومنذ ذاك اليوم والسيد يستثير رثاءه واستطلاعه المقرون بالخوف . ثم مر بالحجرة التالية فرأى أم مريم واقفة أمام المرآة وبيدها ما يشبه العجين تمطه فوق خدها وعنقها وتجذبه جذبات سريعة متتابعة ثم تتحسس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسه وتطمئن الى نعومته ، ومع أنها كانت فى الأربعين الا انها كانت بارعة الحسن كابنتها ، شغوفة بالضحك والدعابة . فما تلقاه حتى تقبل عليه فى مرح فتقبله ثم تسأله فيما يشبه نفاد الصبر « متى تبلغ رشدك لأتزوجك ؟ » فيعلوه الحياء والارتباك وان استلذ مداعباتها وود الاكثار منها . وكم أثارت فضوله هذه العملية التى تعكف عليها من حين لآخر أمام المرآة ، وقد سأل أمه عنها مرة فنهرته ــ والنهر أقصى ما تمارس من ضروب التأديب ــ مؤنبة اياه على سؤاله عما لا يعنيه ، بيد أن أم مريم أكبر سماحة ورقة فلما لحظته مرة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت بأنامله ماحسبه أول الأمر عجينة وبسطت له صفحة وجهها وقالت ضاحكة « اشتغل وأرنى شطارتك » فمضى يقلد حركاتها حتى أثبت لها شطارته بخفة غبطته عليها ، ولكنه لم يقنع بلذة التجربة فسألها « لماذا تفعلين هذا ؟ » فقهقهت قائلة « هلا انتظرت عشرة أعوام أخرى حتى تعرف بنفسك ؟ ! . ولكن لا داعى للانتظار ، أليست البشرة الناعمة أحسن من الخشنة ؟ .. هذه هى ؟ .. » وقد مر ببابها بخفة حتى لا يشعرها بنفسه لأن رسالته كانت أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد الا مريم وحدها فى الحجرة الأخيرة متربعة على فراشها تقزقز لبا وبين يديها طبق فنجان قد امتلأ بالقشر فلما رأته قالت بدهشة :

ــ كمال ! .. « كادت تسأله عما جاء به فى هذه الساعة ولكنها عدلت عما همت به أن تخيفه أو تخجله » .. شرفت البيت .. تعال اجلس الى جانبى ..

فمد لها يده بالسلام ، ثم فك ازرار حذائه ذى الرقبة الطويلة وخلعه ، ووثب الى الفراش فى جلباب مقلم وطاقية زرقاء منمنمة بخطوط حمراء . وضحكت مريم ضحكاتها الرقيقة ودست فى يده شوية لب وهى تقول

ــ قزقز يا عصفور وحرك اسنانك اللؤلؤية .. اتذكر يوم عضضت معصمي وانا ادغدغك .. هكذا .. ومدت يدها صوب ابطه ولكنه ــ بحركة عكسية ــ شبك ذراعيه على صدره ليحمي ابطيه ، وندت عنه ضحكة عصبية كما لو كانت اناملها دغدغته بالفعل ، ثم هتف بها

ــ في عرضك يا ابله مريم ..

فامسكت عنه وهي تتعجب من خوفه قائلة :

ــ لماذا يقشعر بدنك من الدغدغة ؟! .. انظر الى كيف لا ابالي بها ..

وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهي ترميه بنظرة ازدراء فلم يملك ان قال لها متحديا :

ــ دعيني ادغدغك انا وسنرى ..!

فما كان منها الا ان رفعت ذراعيها فوق راسها فغرس اصابعه تحت ابطيها وراح يدغدغهما بما وسعه من خفة وسرعة ، مثبتا عينيه في عينيها السوداوين الجميلتين ليتلقف اول بادرة تضعضع عنها » حتى اضطر ان يسترد يديه متنهدا في ياس وخجل فشيعته بضحكة رقيقة ساخرة وقالت :

ــ ارايت ايها الرجل الصغير العاجز !.. لا تزعم انك رجل بعد اليوم « ثم بلهجة من تذكر امرا هاما بغتة » .. يا داهيتي ! .. نسيت ان تقبلني ! .. الم انبه عليك مرارا بان تكون تحية لقائنا قبلة ؟! وادنت وجهها منه فمد شفتيه ولثم خدها ، ثم رأى فتاتا من اللب المسرب من زاوية فيه قد التصق بخدها فازاله بانامله في حياء ، اما مريم فتناولت ذقنه بانامل يمناها وقبلت شفتيه مرة ومرة ، ثم سألته بما يشبه الاعجاب :

ــ كيف استطعت ان تفلت من بين ايديهم في هذه الساعة ! ؟ .. لعل تيزة تبحث عنك الآن في كل حجرات البيت ..

آه .. لقد استنام الى الحديث واللعب حتى اوشك ان ينسى الرسالة التي جاء من اجلها ، ولكن تساؤلها ذكره بمهمته فرنا اليها بعين اخرى . العين التي تود ان تنقب فيذاتها عنالسر الذي زلزل اخاه الرزينالطيب . الا ان تشوفه تهافت حيال شعوره بانه يحمل انباء غير سارة ، فقال بوجوم :

ــ فهمي الذي ارسلني ..

ارتسمت في عينيها نظرة جديدة تفيض جدا ، وتفرست في وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بان الجد قد تغير كانما انتقل من فصل الى

فصل ، ثم سمعها تسأل بصوت خافت :
- لمه ؟! ..
فقال لها بصراحة دلت على انه لم يقدر خطورة الأنباء التى يحملها رغم شعوره الفطرى بخطورتها ..
- قال لى بلغها تحياتى وقل لها انه استأذن والده فى خطبتها ولكنه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو تلميذ ، وطلب اليه ان ينتظر حتى يتم دراســــته ..
كانت تحدق الى وجهــه باهتمام شديد فلما بلغ الســكوت خفضت عينيها دون أن تنبس بكلمة ، فغشيت الجلسة صمتة واجمة ضاق بها قلبه الصغير ، وتلهف على كشفها مهما كلفه الأمر فقال .
- انه يؤكد لك أن الرفض جاء على رغمه وانه يتعجل السنين حتى يحقق ما يتمنى ...
ولما لم يجد لكلامه أثرا فى اخراجها من غشاوة الصمت ازداد تلهفه على اعادتها الى ما كانت عليه من بهجة ومرح فقال باغراء :
- هل أحدثك عما دار بين فهمى وبين نينته من حديث عنك ؟
فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه .
- ماذا قال وماذا قالت ؟
فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئى وقص عليها ماترامى اليه من حديث من وراء الباب حتى اتى عليه ، فخيل اليه أنها تتنهد ، ثم قالت ببرم .
- ان والدك رجل شديد مخيف ، الكل يعرفه هكذا ..
فقال وهو لا يدرى :
- نعم ... ابى كذلك ...
ورفع رأسه اليها فى خوف وحذر ولكنه وجدها كالغائبة ، فسألها متذكرا ما وصاه به اخوه :
- ماذا اقول له ؟
فضحكت من انفها وهى تهز كتفيها ، وهمت بالكلام ، ولكنها أمسكت متفكرة مليا ، ثم قالت وقد التمعت فى عينيها نظرة ماكرة :
- قل له انها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب فى أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار .. !
وعنى كمال بحفظ الرسالة الجديدة اكثر مما عنى بفهمها ، وسرعان ما شعر بأن مهمته قد انتهت فأودع بقية اللب جيب جلبابه ، ومد لها يده بالسلام ، ثم انزلق الى أرض الحجرة ومضى خارجا ..

— ٢٢ —

بدت عائشة وهى تنظر فى المرآة شديدة الاعجاب بنفسها ، دون الأسرة اللامعة ، بل أى فتاة فى الحى كله تتحلى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين ؟ ! .. ان ياسين يتغزل بها جهارا ، وفهمى لا يخلو اذا تحدث اليها لأمر او لآخر من نظرات تنم عن الاعجاب ، حتى كمال الصغير لا يحلو له الشراب من قلة الا من الموضع المبتل بريقها ، وهذه أمها تدللها فتدعوها « قمر » وان لم تخف قلقها نحو نحافتها ورقتها الأمر الذى جعلها تحث أم حنفى على تركيب وصفة لتسمينها . اما عائشة نفسها فلعلها كانت أعرف الجميع بحسنها البارع كما تدل عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها اليه . على ان هذه العناية المفرطة لم تمر بخديجة دون تعليق ، بل مؤاخذة وتقريع ، لا لأنها تستنيم الى الاهمال فالحق ان خديجة هى الوريثة الأولى لأمها فى الولع بالنظافة والأناقة ، ولكن لأنها رأت الفتاة تستقبل النهار عاده بتمشيط شعرها واصلاح هندامها حتى قبل القيام بواجبات المنزل كأنها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية . ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هى الباعث على هذا التجمل الباكر ، فعند ذهاب الرجال كل الى عمله — تأوى الى حجرة الاستقبال وتفرج بين ضلفتى الشباك المطل على بين القصرين زيقا رقيقا فتقف وراءه مادة بصرها الى الطريق ، يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف . هكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرا ما بين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتى يواصل خفقاته حتى تراءى عن بعد « المنتظر » وهو ينعطف قادما من الخرنفش خاطرا فى بدلته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه ، وجعل كلما اقترب من البيت يرفع فى حذر عينيه دون رأسه ، حتى تدانى من البيت فهفت فى أساريره ابتسامة خفيفة آية فى الخفة — تدرك بالقلب أكثر مما تدرك بالحواس — كأنها الهلال فى ليلته الأولى ، ثم اختفى تحت المشربية فاستدارت فى عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلة على النحاسين فما راعها الا أن ترى خديجة منتصبة على الكنبة بين النافذتين ملقية بنظرها الى الطريق من فوق رأسها ..! فرت منها آهة ، واتسعت عيناها فى رعب فاضح ،

فتسمرت فى موقفها .. متى وكيف جاءت ! كيف علت الكنبه دون أن تشعر بها ؟! .. وماذا رأت ؟! .. متى وكيف وماذا ؟ أما خديجة فقد ثبتت بصرها عليها وهى تضيق عينيها رويدا صامتة ، مطيلة الصمت كأنما لتطيل تعذيبها . ثم تمالكت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها فى جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة - عبثا - بضبط الأعصاب وهى تغمغم :

- أرعبتنى يا شيخة ..!

لم تبد خديجة اكتراثا ، ظلت بموقفها على الكنبة وعيناها الى الطريق خلل الزيق .. ثم تمتمت ساخرة :

- أرعبتك ؟ ! .. اسم الله عليك ! .. أصلى بعبع .. !

وعضت عائشة على نواجذها فى غيظ وحنق ويأس بعد أن تراجعت قليلا الى مأمن من عينيها ، الا أنها قالت بصوت هادىء :

- رأيتك فجأة فوق رأسي دون أن أشعر بدخولك ، لماذا تسترقين الخطو ؟

فوثبت خديجة الى الأرض ، ثم جلست على الكنبة فى استرخاء ساحر وهى تقول :

- آسفة يا أختى ، فى المرة القادمة سأعلق جرسا فى عنقى مثل عربة المطافىء لتنتبهى الى حضورى فلا ترتعبين

فقالت عائشة فى ضيق والرعب لم يفارقها :

- لا لزوم لتعليق الجرس ، حسبك أن تسيرى كالناس الذين خلقهم ربنا ..

فقالت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهى ترميها بنظرة ذات معنى :

- ربنا يعلم انى أسير كالناس الذين خلقهم ، ولكن الظاهر انك اذا وقفت وراء النافذة - أقصد وراء هذا الزيق - استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدين الوعى بما حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربنا .

فنفخت عائشة مغمغمة :

- هكذا انت دائما

وعادت خديجة الى الصمت قليلا ، ثم حولت عينيها عن فريستها ، ورفعت حاجبيها كأنما تفكر فى مشكل عسير ، ثم تظاهرت بالسرور كأنما اهتدت للحل الموفق ، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرة دون أن تنظر الى الأخرى :

- اذن لهذا فهى تغنى كثيرا « يابو الشريط الأحمر ياللى أسرتنى ترحم

ذلى » ! . . وكم حسبته بسلامة نيتى ياعينى غناء بريئا لمجرد التسلية !

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية ، وقع المحذور ولم يعد ينفع التعلق بأوهام الأمانى الكاذبة ، وركبها اضطراب زلزل اركان نفسها فكادت تشرق بالبكاء ، الا أن اليأس نفسه دفعها الى الاستماتة فى الذود عن نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه :

ــ ماهذا الكلام غير المفهوم !

ولكن لم يبد على خديجة أنها سمعت كلامها فواصلت مخاطبة نفسها قائلة :

ــ ولهذا أيضا تتزين فى الصباح الباكر ! طالما ساءلت نفسى ايعقل أن تتبرج بنت قبل الكنس والتنفيض ؟ ! ولكن اى كنس واى تنفيض يا خديجة يا مسكينة ، يا من ستعيشين بلهاء ، وتموتين بلهاء ، اكنسى أنت ونفضى أنت ، ولا تتزينى لا قبل العمل ولا حتى بعده ولماذا تتزينين يا تعيسة ؟ ! انظرى من زيق الشباك من اليوم الى الغد فان اعتنى بك عسكرى دورية اقطع ذراعى !

فهتفت عائشة فى اضطراب وعصبية :

ــ حرام عليك . . حرام

ــ لها حق يا خديجة ، هذه فنون لا تستطعين فهمها بعقلك المظلم ، عيون زرق ، وشعر من سبائك الذهب ، شريط احمر ونجمة لامعة شىء مفهوم ومعقول

ــ خديجة ، انت مخطئة ، كنت انظر الى الطريق فحسب : لا لأرى أحدا ولا ليرانى احد ، فالتفتت خديجة اليها كأنما تنتبه الى اعتراضها لأول مرة وتساءلت كالمعتذرة :

ــ هل تخاطبيننى يا شوشو ؟ ! لا مؤاخذة انى أفكر فى بعض الأمور الهامة فأجلى حديثك الى حين ، وعادت تهز راسها فى تفكير وتخاطب نفسها قائلة :

ــ شىء مفهوم ومعقول ، ولكن ما ذنبك أنت ياسيد احمد عبد الجواد ؟ ! أسفى عليك يا سيد يا شريف يا كريم ، تعال شف حريمك يا سيدى وتاج راسى !

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم ابيها ، فدار راسها ، ورد على ذهنها قول السيد لأمها وهو يحمل على رغبة فهمى فى خطبة مريم « اخبرينى هل رآها ؟ » . . «ماكنت أحسب أن لى ابناء يسترقون النظر الى حرمات

الجيران » ، هــذا رأيه فى الابن فكيف يكون فى البنت ! وهتفت بصوت مخنوق النبرات :

ــ خديجة .. لا يليق هذا .. انت مخطئة .. انت مخطئة

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات اليها :

ــ ترى أهذا هو الحب ؟! يمكن ! الم يقولوا عنه : « الحب كبش فى قلبى .. قربت أروح منه طوكر »

ترى اين طوكر هذه ؟ ! لعلها فى النحاسين ، بل لعلها فى بيت السيد احمد عبد الجواد

ــ لم أعد احتمل كلامك ، ارحمينى من لســانك ، رباه .. لماذا لا تصدقيننى ؟ !

ــ تدبرى امرك يا خديجة ، ليس ما نحن فيه لعبــا ، وانت الأخت الكبرى ، والواجب هو الواجب مهما بدا مرا ، يجب أن يعلم اولو الشأن ، هل تفضين بالسر الى والدك ؟ ؟ الحق انى لا ادرى كيف اخاطبه فى مثل هذا السر الخطير ، ياسين ؟ ! ولكنه كعدمه وغاية ما يرجى منه أن يترنم بكلام غير مفهوم ، فهمى ؟ ولكنه يعطف بدوره على الشعر الذهبى أصل البلوى كلها ، أظن من الأفضل أن أخبر نينة ، وأترك لها التصرف بما ترى

وندت عنها حركة كأنها تهم بالقيام فهرعت عائشــة اليها كدجاجة مذبوحة وأمسكت بكتفيها صائحة بصدر يعلو وينخفض :

ــ ماذا تريدين ؟

فتساءلت خديجة :

ــ أتهددينني ؟ !

همت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت بكلام مزقه البكاء شر ممزق ، وجعلت خديجة تحــدق اليها صــامتة متفكرة ، ثم زايل اساريرها عبث السخرية حتى تجهم وجهها وهى تصغى فى غير ارتياح الى نشيج الفتاة ، ثم قالت بلهجة جدية لأول مرة :

ــ لقد اخطأت يا عائشة

وامسكت ووجهها يشتد تجهمه ، وكأن أنفها ازداد بروزا ، وبدا عليها التأثر واضحا فاستطردت قائلة :

ــ يجب أن تقــرى بخطئك ، خبرينى كيف سولت لك نفســك هذا العبث يا مجنونة ؟

فغمغمت عائشة وهى تجفف عينيها :

ــ انت تسيئين الظن بى

فنفخت خديجة مقطبــة كأنما ضاقت بهذه المكابرة الضائعة ، بيد انها عدلت نهائيا عن نية الاعتداء أو حتى المعابثة ، انها تعرف دائما أين ومتى تقف فلا تجاوز الحد ، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانية القاسية فقنعت بها كما تقنع بها عادة ، ولكن بقيت لديها ميول من نوع آخر — أبعد ما تكون عن العــدوان والقسوة — لم تشبع بعد ، ميول تنبعث من عاطفة الأخت الكبرى ، بل من عاطفة امومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة مهما اشتدت حملتها عليه أو حملته عليها ، وتحت تأثير الرغبة فى اشباع هذه الميول الودية قالت :

— لا تكابرى ، لقد رأيتكل شىء بعينى ، لست الآن اهزل ولكنى أريد أن أصارحك بأنك اخطأت خطأ كبيرا ، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت فى الماضى ولا يود أن يعرفه فى حاضره أو مستقبله ، انه الطيش وحده الذى أوقعك فيه ، اصغى الى واعقلى نصيحتى ، لا تعــودى الى هذا أبدا ، لا يخفى شىء وان طال كتمانه ، فتصورى ماذا يكون من أمرنا جميعا لو لمحك أحد فى الطريق أو أحد من الجيران ، وأنت أدرى بألسنة الناس ، تصورى ماذا يكون لو نمى الخبر الى أبى والعياذ بالله !

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن اعترافها ، وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل ، ذلك الدم الذى ينزفه الضــــمير فى الداخل اذا جرحته خطيئة ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

— حذار ، حــذار ، فاهمة ؟ .. « ثم نسمت عليها نسمة ســخرية فغيرت الهجتها شيئا ما » ، ألم يرك ؟ فماذا يقعده عن أن يتقدم لك مثل الرجال الشرفاء ؟ وقتها نقول لك مع الف ســلامة ، بل فى ستين داهية يا ستى ..

استردت عائشة أنفاســها ، فافتر ثغرها عن ابتسامة لاحت كلمعــة اليقظة الأولى فى العين عقب غيبــوبة طويلة ، وكأن خديجة عز عليهـــا — برؤية هذه الابتسامة — أن تفلت الفتاة من قبضــتها بعد أن نعمت بامتلاكها فترة طويلة فصاحت بها :

— لا تظنى انك بلغت بر الأمان ، ان لسانى لا يسكت اذا لم تحسنى مشاغلته ..

فتساءلت الأخرى فى ارتياح :

— ماذا تعنين ؟

— لا تتركيه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشر ، الهيه بشىء من الحلوى ليشغل بها عنك ، علبة ملبس مثلا من شنجراى .

ـ لك ما تشتهين واكثر

وساد الصمت فشغلت كلتاهما بأفكارها ؛ على أن قلب خديجة كان ـ كما كان من بادىء الأمر ـ مرتعا لضروب من المشاعر متباينة .. غيرة وحنق واشفاق وحنان ..

— ٢٣ —

كانت ست أمينة مشغولة باعداد أدوات القهوة استعدادا لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أم حنفي مهرولة ، يبشر لمعان عينيها بأنباء سارة ، ثم قالت بلهجة موحية :

ـ ستى ثلاث سيدات غريبات يرغبن فى زيارتك ...

أخلت الأم يديها من كل شيء ، وانتصبت قامتهـا فى عجلة دلت على تأثير الخبر فىنفسها ، وحدجتالخادم بنظرة اهتمام شديدة كأنه منالمحتمل ان تكون الزائرات من البيت المالك أو من السماء نفسها ، ثم تمنتاستزادة من التوكيد :

ـ غريبات ؟ !

فقالت أم حنفي بلهجة تنم عن فرحة الظفر :

ـ نعم يا ستى ، طرقن الباب ففتحت لهن فقلن لى « أليس هذا بيت السيد أحمد عبد الجواد ؟ » فقلت لهن « بلى » فقلن « الهوانم فوق ؟ » فقلت « نعم » فقلن « نريد أن نتشرف بالزيارة » فسألتهن « أقول من الزائرات ؟ » فقالت لى احداهن ضاحكة « دعى هذا لنا ، وما علىالرسول الا البلاغ » فجئتك يا ستى طائرة وأنا أقول لنفسى « يا رب حقق لنـا الأحلام » ...

فقالت الأم بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها :

ـ ادعيهن الى حجرة الاستقبال ... أسرعى ...

ولبثت دون حراك ثوان ، مستغرقة فى خواطرها الجديدة ، فى الحلم السعيد الذى تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وان بدا شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة ، ثم أفاقت الى نفسهـا فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتـاة على الأثر ، وما أن التقت عيناهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهى لا تملك نفسها من الفرح :

ـ ثلاث سـيدات غريبات فى حجرة الاسـتقبال .. ارتدى خير

ملابسك .. واستمدى .. ولما تورد وجه خديجة تورد وجهها ايضا كأنما انتقلت اليه عدوى الحياء ، ثم غادرت الصالة الى حجرتها فى الدور الأعلى لتستعد بدورها لاستقبال الزائرات . وجعلت خديجة تنظر الى الباب حيث اختفت امها ، غائبة الطرف ، وقلبها يخفق لحد الألم ، متسائلة « ماوراء هذه الزيارة ؟ » ثم نزعت نفسها من موقفها ، وسرعان ما استرد عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال الذى جاءها من حجرة فهمى فبادرته قائلة :

— اذهب الى ابلة مريم وقل لها ان خديجة تقرئك السلام وترجوك ان ترسلى لها معى علبة البودرة والكحل والأحمر ..

وتلقف الغلام الأمر وهو يعدو الى الخارج « اما خديجة فاسرعت الى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهى تقول لعائشة التى لحظتها بعين متسائلة :

— اختارى لى أحسن فستان ... أحسن فستان بلا استثناء ..

فتساءلت عائشة :

— ما الداعى الى هذا الاهتمام ؟ .. زائرة ؟ ! من ؟ ! ..

فقالت خديجة بصوت خافت :

— ثلاث سيدات .. « ثم وهى تضغط على مخارج اللفظ » ... غريبات ... !

فتراجع رأس عائشة فى دهش ، ثم اتسعت عيناها الجميلتان سرورا ، وهتفت :

— آه .. هل يفهم من هذا ان .. ياله من خبر

— لا تتسرعى فى الحكم .. فمن يدرى عما هناك

فاتجهت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقى الفستان المناسب وهى تقول ضاحكة :

— فى الجو شىء .. ان الفرح يشم كالروائح الزكية ..

فضحكت خديجة لتخفى اضطرابها ، واقتربت من المرآة ونظرت الى صورتها بامعان ، ثم اخفت انفها براحتها وقالت بتهكم :

— لا بأس بوجهى الآن ، وجه مقبول » « ثم رافعة راحتها » .. اما على هذه الحال فربنا وحده المنجى ! ..

فقالت عائشة ضاحكة وهى تساعدها فى نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موشى بأزهار بنفسجية :

ـ لا تغمطى نفسك ... الا يسلم شيء من لسانك !.. ليست العروس انفا فحسب ، هناك العينان والشعر الطويل ، والدم الخفيف ! ..

فلوت خديجة بوزها قائلة :

ـ الناس لا ترى الا العيوب ...

ـ هذا صحيح بالقياس الى من على شاكلتك من الناس ، ولكن ليس كل الناس على شاكلتك والحمد لله ...

ـ سوف أجيبك حين أفرغ لك .. !

فربتت الأخرى على خاصرتها وهى تسوى الفستان قائلة :

ـ ولا تنسى هذا الجسم البض المتلىء .. ياله من جسم !

فضحكت خديجة فى سرور وقالت :

ـ لو كان العريس أعمى ما عملت حسابا لشيء .. وانى أرضى به فى تلك الحال ولو كان شيخا من شيوخ الأزهر ..

ـ وماذا يعيب شيوخ الأزهر ! .. أليس منهم من خيراته كالبحر ؟ !

ولما فرغا من الفستان ندت عن عائشة نغمة تأفف فسألتها خديجة :

ـ ماذا بك ؟

فقالت بتذمر :

ـ ليس فى بيتنا كله نقطة بودرة أو كحل أو أحمر كأن ليس به نساء ..!

ـ من الأفضل أن تبلغى هذا الاحتجاج لوالدنا ..

ـ أليست نينة سيدة ومن حقها أن تتزين ؟

ـ انها جميلة هكذا بلا زينة !

ـ وحضرتك ؟ هل تلقين الزائرات هكذا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ـ أرسلت كمال الى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر ، وهل وجهى وجه أقابل به الخاطبات عاطلا ؟ !

ولما كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعت خديجة منديل رأسها وأخذت تحل ضفيرتيها الغليظتين الطويلتين ، على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهى تقول :

ـ ياله من شعر سبط طويل .. ما رأيك ؟ سأجدله فى ضفيرة واحدة ، الا يكون ذلك أروع ؟

ـ بل ضفيرتين .. ولكن خبرينى هل أبقى الجراب فى قدمى أو أدخل عليهن عارية الساقين ؟

ان الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكنى اخشى اذا ابقيته ان يحسبن بساقك أو قدمك عيبا تتعمدين اخفاءه .. !

ـ صدقت ، ان المحكمة أرحم من الحجرة التى تنتظرنى الآن ..

ـ قوى قلبك ، ربنا يوعدنا ..

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعا وهو يلهث فقدم الى اختـه أدوات الزينة وهو يقول :

ـ قطعت السلم والطريق جريا ..

فقالت له خديجة باسمة :

ـ عفارم ، عفارم .. ماذا قالت لك مريم ؟

ـ سألتنى هل عندنا ضيوف .. ومن هن ، فأجبتها بانى لا ادرى ..

فتجلت فى عينى خديجة نظرة اهتمام وهى تسأله :

ـ وهل قنعت بهذه الاجابة ؟

ـ حلفتنى بالحسين أن أصرح لها بما عندى فحلفت لها بانه ليس عندى غير ما قلت ..

فضحكت عائشة قائلة ويداها لا تكفان عن العمل ..

ـ ستخمن ما هنالك ..

فقالت خديجة وهى تذر البودرة على وجهها :

ـ انها بنت هرمة ، وهيهات أن يفوتها شيء ، واراهنك على انها سوف تزورنا غدا على الاكثر لاجراء تحقيق شامل ..

ولم يشأ كمال ان يغادر الحجرة كما كان المنتظر ، أو لعله لم يستطع مغادرتها تحت اغراء المشهد الذى يمثل امام عينيه ، والذى يراه لأول مرة فى حياته فلم يسبق له أن رأى وجه اختـه وهو يلقى هذا التغير الذى استحال معه وجها جديدا ، البشرة تبيض والوجنتان تتوردان والعينان تصطبغ أشفارهما بسواد لطيف يرسم لهما حدودا جذابة ويضفى على حدقتيهما صفاء بهيجا ، وجه جديد هش له قلبه فطرب هاتفا :

ـ انت يا ابله الآن كالعروس التى يشتريها بابا فى مولد النبى ...

فضحكت الفتاتان ، وسألته خديجة :

ـ هل اعجبك الآن ؟

فاقترب منها مسرعا ومد يده صوب ارنبة انفها وهو يقول :

ـ لو تزول هذه !

فتفادت من يده ، ثم قالت لأختها :

ـ أخرجى هذا النمام ..

فقبضت عائشة على يده وجذبتــه الى الخارج رغم مقــاومته حتى أخرجته واغلقت الباب ، ثم عادت الى استئناف عملها الجميل ، فواصلتا نشاطهما فى صمت وجــد . ومع أنه كان من المتفق عليه فى الأسرة أن تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها الا أن الفتاة قالتلعائشة على سبيل المكر :

ــ ينبغى أن تتأهبى أنت أيضا لاستقبال الزائرات

فقالت عائشة بمثل مكر أختها :

ــ لن يكون هذا قبل أن تزفى الى عريسك !

ثم استدركت قائلة قبل أن تتكلم خديجة :

ــ أما الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر ؟ !

فرمتها أختها بنظرة مستريبة وتساءلت :

ــ من يكون القمر ؟

فقالت عائشة ضاحكة :

ــ طبعا أنا . . !

فلكزتها بكوعها ، ثم تنهدت قائلة :

ــ لو تعيريننى أنفك كما أعارتنى مريم علبة بودرتها !

ــ تناسى انفك ولو الليلة على الأقل ، ان الأنف ــ كالدمل ــ يضــخم لداب على التفكير فيه ! . .

أوشكتا عند ذاك على الفراغ منعملية التجميل ، فتراخىانتباه خديجة عن التركيز فى مظهرها واتجه فى رهبة الى موقف الامتحانالذى ينتظرها فشعرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل ، لا بالقياس الى جدته فحسب ولكن ــ قبل كل شيء ــ بالقياس الى خطورة عواقبه ، وما لبثت أنقالت متشكية :

ــ اية جلسة هذه التى قضى على بها ! . . تصورى نفسك فى مكانى ، بين نسوة غريبات لا تدرينأى خلق خلقهن ولا أى أصل أصلهن ، وهل جئن بنية صادقة او لمجرد الفرجة والتسلية ، وماذا يكون من أمرى لو كن عيابات شتامات (ثم ضاحكة ضحكة مقتضبة) مثلى مثلا . . هه ؟ وماذا بوسعى الا أن أجلس بينهن فى ادب واستسلام أتلقى نظراتهن من اليمين والشمال ، ومن الأمام والخلف ، وأصــدع بأمرهن بلا أدنى تردد ، اذا طلبن قياما قمت ، او مشيا مشيت او كلاما تكلمت حتى لا يفوتهن شيء من جلوسى وقيامى وصمتى وكلامى واعضائى وقسماتى ، وعلينا بعد هذه « البهدلة » كلها أن نتودد اليهن ونطــرى لطفهن ، وكرمهن ، ثم لا

ندرى بعد ذلك أنفوز بالرضى او نفوز بالغضب ، أف .. أف .. ملعون الذى أرسلهن !

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى :

ـ بعد الشر عنه !

فقالت خديجة ضاحكة أيضا :

ـ لا تدعى له حتى نتأكد انه من نصيبنا .. آه يا ربى كم أن قلبى يدق ! ..

فتراجعت عائشة خطوة عن مرمى كوعها وقالت :

ـ صبرك .. ستجدين فى المستقبل فرصا كثيرة للانتقام من مجلس اليوم الرهيب ، فكم سيصلين من نار لسانك وأنت ست البيت ... ولعلهن يذكرن امتحان اليوم وهن يقلن لانفسهن ياليت الذى جرى ما كان ... !

وقنعت خديجة بالابتسام ، لم يكن فى الوقت متسع لرد الهجوم ، ولم تجد فى الهجوم ـ الذى تجد فيه عادة سرورا شافيا ـ لذة على الاطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء ، ولما فرغا من مهمتهما وقفت تلقى على صورتها نظرة شاملة وعائشة ـ الى الوراء خطوتين ـ تردد نظرها بعناية بين الصورة والأصل ، وجعلت خديجة تتمتم :

ـ احسنت يداك ، منظر حسن أليس كذلك ؟ .. هذه خديجة حقا .. لا بأس بانفى الآن .. جلت حكمتك يا رب ، بقليل من الجهد صار كل شيء مقبولا فلماذا (ثم مستدركة بسرعة) استغفر الله العظيم ، لك فى كل شيء حكمة ..

وتراجعت خطوات وهى تفحص صورتها بعناية ثم قرات الفاتحة فى سرها ، والتفتت نحو عائشة قائلة :

ـ ادعى لى يا بنت .

وغادرت الحجرة ..

— ٢٤ —

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثلت فى المدفأة الكبيرة التى توسطت الصالة فتكأكأت حولها الأسرة ، الذكور فى معاطفهم والنساء ملتفات بخماراتهن ، فهيأ لهم المجلس الى لذة الشراب وحلو السمر متعة الدفء ، وقد بدا فهمى — على حزنه الصامت الطويل فى الأيام الأخيرة — كمن يتحفز لمواجهة أهله بخبر هام ؛ ولم يكن تردده وطول تفكيره الا دليلا على خطورة الخبر وأهميته ، بيد انه انتهى من تفكيره وتردده الى التصميم على ابلاغه ملقيا عبأه بعد ذلك على والديه والأقدار ، فلذلك قال :

— عندى خبر هام لكم فاسمعوا ..

فتطلعت اليه الأعين باهتمام لم يشذ عنه أحد ، لأن ما عرف به الشاب من اتزان جعل الجميع ينتظرون خبرا هاما حقا كما قال ، اما فهمى فاستطرد قائلا :

— الخبر هو أن حسن أفندى ابراهيم ضابط قسم الجمالية — وهو من معارفى كما تعلمون — قابلنى ورجانى أن أبلغ والدى رغبته فى خطبة عائشة ..!

وأحدث الخبر — كما قدر فهمى من قبل ما دعاه الى التردد وطول التفكير — آثارا جد متباينة ، فتطلعت الأم اليه باهتمام شديد ، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهز رأسه ، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياء ولتخفى وجهها عن الأعين أن تفضحها أساريرها فتعلن للناظرين ما يضطرب فى قلبها الخافق ، أما خديجة فقد تلقت الخبر بدهشة بادىء الأمر لم تلبث أن انقلبت خوفا وتشاؤما لم تدر لهما سببا واضحا ولكنها كانت كتلميذ ، يتوقع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان — اذا تناهى اليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاص ، وتساءلت الأم فى ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة :

— أهذا كل ما قال ؟

فقال فهمى وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة :

— بدانى بقوله انه يود أن يتشرف بطلب يد شقيقتى الصغرى ..

ـ وماذا قلت له ؟

ـ شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال ..

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال رغبة فى استطلاع شىء تود معرفته ، ولكن لتدارى ارتباكها وتنتزع من المفاجأة مهلة للتروى ، ثم راحت تتساءل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتى جئنها منذ أيام ؟ ! وذكرت عند ذاك كيف قالت احداهن ـ قبل ظهور خديجة ـ وهى بمعرض الحديث عن أسرة السيد احمد أنهن سمعن أن للسيد كريمتين فأدركت وقتها أنهن جئن لرؤية الفتاتين ولكنها تصامت عن الاشارة ، وقد انتسبت الزائرات الى اسرة تاجر بالدرب الأحمر ـ غير والد الضابط الذى قال فهمى عنه مرة أنه موظف بوزارة الأشغال ـ ولكن هذا لا ينفى نفيا قاطعا العلاقة بين الأسرتين لأنه من المألوف أن تبعث الأسر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص ، وكم ودت أن تسأل فهمى عن هذه النقطة بالذات وكأنها اشفقت من أن يجىء الجواب مصداقا لمخاوفها فيقضى على آمال ابنتها الكبرى ويسيمها خيبة جديدة ، بيد أن خديجة نابت عن امها ـ اتفاقا ـ يطرح ما يعتلج فى صدرها خارجا حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة :

ـ لعله هو الذى بعث بالزائرات اللاتى زرننا منذ أيام ؟

ولكن فهمى بادر قائلا :

ـ كلا ، فقد قال لى انه سيرسل امه الينا فى حالة الموافقة على طلبه ..

ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق ، لم يكن صادقا فيما قال ، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتى زرن والدته قريباته ، بيد أنه أشفق من ايلام شقيقته الكبرى التى كان ـ على حبه عائشة واقتناعه بجدارة صديقه الضابط ـ يعطف عليها عطفا أخويا ، ويألم أشد الألم لسوء حظها ، ولعله كان لما منى به هو من خيبة أثر قوى فى البلوغ بهذا العطف ذروته . وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صبيانى :

ـ يبدو اننا سنجمع قريبا بين فرحتين .

فهتفت الأم فى فرح صادق :

ـ ربنا يسمع منك ..

ـ هل تخاطبين ابى نيابة عنى ؟..

ند عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها ، ولكنه ـ عقب النطق به ـ وقع من أذنيه موقعا غريبا ، فكأنه ألقى عليه من حافظة

ذكرياته لا من طرف لســانه ، او كأنه حين القى على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص الى أعماقه ثم طفا عالقا به ما علق من ذكرياته . وللحال ذكر ســؤالا مماثلا لهذا الســؤال توجه به الى أمه فى ظروف مشــابهة فانقبض قلبه ، وهاجت آلامه . وعاوده احساسه بالظلم الذى واد أمله ، وجعل يقول لنفســه كما قال لها مرارا ، فى الأيام الأخيرة كم كان يكون ســعيدا بيومه مستبشرا بغده راضــيا عن الحيــاة كلهــا لولا ارادة أبيه القاسية ، وانتزعته الذكرى من الاهتمام بشئون غيره ، فاستبسلم للحزن الذى يقرض شغاف قلبه . أما الأم ففكرت مليا ثم تساءلت :

ــ الا يحسن بنا أن نفكر فيما عسى أن أجيب أباك اذا سألنى عما دعا الضابط الى طلب يد عائشة بالذات ، ولماذا لم يطلب يد خديجة ، ما دام لم ير لا هذه ولا تلك ؟..

وانتبهت الفتاتان الى ملاحظة أمهما معا ، ولعلهما ذكرا موقفهما وراء النافذة فى وقت واحد ، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن ، واحتج قلبهــا على الحظ الأعمى الذى يأبى الا أن يجزى النزق والاســتهتار بالاحسان ، أما عائشــة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمهــا كما تعترض الحلق ــ وهو نشــوان بازدراد اكلة لذيذة شهية ــ شوكة حادة مدسوسة فى الطعــام ، وسرعان ما امتص الخوف حرارة الفرح التى كان ينتفض بها روحها . فهمى وحــده الذى ثار على قول أمه ، لا دفاعا كما بدا عن عائشة ــ فانه ما كان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة فى هذه النقطة الحســاسة بالذات ــ ولكن غضبا لحزنه الكظيم الذى لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه ، فقال محتدا يخاطب أباه فى شخص أمه ، وهو لا يدرى :

ــ هذا تعسف ظالم لا مبرر له من عقل أو حكمة . ألا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نســاء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتى لا يقصدن بحديثهن الا الجمع بين رجل وامراة فى الحلال .

ولكن الأم لم تقصــد باعتراضها الا تواريا وراء أبيه حتى تجد مخرجا من المأزق الذى وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة ، فلما صارحها فهمى باحتجاجه لم تجد بدا من مصارحته بما يدور :

ــ الا ترى أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يأتينا نبأ الزائرات ؟ !

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التى أبت عليها الا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كله بالرغم ممــا يصــطرع داخلهــا من القلق والتشاؤم ، فقالت :

- هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داع لتأجيل هذا من اجل ذاك ..

فقالت الأم بهدوء مؤثر :

- كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج خديجة .

ولم يسع عائشة الا أن تقول برقة وتسليم :

- هذا أمر مفروغ منه ..

امتلأ صدر خديجة حنقا لدى سماع النبرات الرقيقة التى تتكلم ، ولعل رقتها نفسها كانت اشد ما أحنقها ، ربما لأنها أوحت بعطف أبته كل الاباء ، أو لأنها ودت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتيح لها فرصة لمهاجمتها بما يشفي حنقها على حين قام ذاك العطف الكاذب البغيض درعا يدفع عنها الأذى ويضاعف من حنق المتربص المتحفز ، وأخيرا لم يسعها الا ان تقول بلهجة لم تخل من حدة :

- لا أوافق على أن هذا أمر مفروغ منه ، فليس من العدل ان يحملكم حظ عاثر على كسر حظ سعيد !..

وتنبه فهمي الى ما ينطوي عليه كلام خديجة من حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحي بالايثار فانتزع نفسه من قبضة احزانه الشخصية نادما على ما صدر منه من قول في غضبته مما قد تحسبه خديجة ميلا صريحا منه الى قضية اختها فقال موجها خطابه اليها :

- ان مفاتحة بابا عن رغبة حسين افندى لا تعنى التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك ، وما علينا من بأس اذا نلنا موافقته على الخطبة ، ان نؤجل اعلانها للوقت المناسب !..

ولم يكن ياسين مقتنعا بوجاهة الراى الذى يحتم تقديم زواج على زواج ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للافصاح عن رايه الا انه روح عنه بكلام عام يفهم منه من يشاء ما يشاء فقال :

- الزواج مصير كل حى ، ومن لم تتزوج اليوم فستتزوج غدا .

وهنا انطلق صوت كمال الرفيع - الذى كان يتابع الحديث باهتمام - متسائلا على غير انتظار :

- نينة .. لماذا كان الزواج مصير كل حى ؟

ولكنها لم تعن بالالتفات اليه ، فلم يحدث تساؤله من اثر الا عند ياسين الذى قعقع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة ، على حين قالت الأم :

- أعلم ان كل فتاة ستتزوج اليوم أو غدا ولكن هناك اعتبارات لا ينبغى اغفالها ..

وعاد كمال يسألها :

ـ وهل ستتزوجين أنت أيضا يا نينة ؟

وضج الجميع ضحكا فخفف هذا من حدة التوتر وانتهز ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلا :

ـ أعرضى الأمر على أبى ، فالكلمة كلمته على أى حال ..

وقالت خديجة باصرار غريب :

ـ لابد من هذا ، لابد من هذا ..

كانت تعنى ما تقول : لأنها من ناحية تعلم باستحالة اخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها ، ولأنها من ناحيــة أخرى تعتقــد بأن والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليها ، ولأنها ـ الى هذا وذاك ـ مازالت تصر على التظاهر باللامبالاة ، ومع أنها لم تكن تعلم بما بين الضابط والزائرات من سبب .. الا أن القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادىء الأمر لم يتخليا عنها لحظة واحدة .

— ٢٥ —

مع أن السيدة أمينة جربت فى حياتهــا أكثر من سبب من الأسباب التى تكدر الصــفو الا أنهــا لم تكن قديمة عهــد بنوع طارىء من هذه الأسباب ، امتاز بطابع خاص به ، اذ بدا فى ذاته ـ على خلاف سوابقه ـ مما يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة الجوهرية فى الدنيا ، ومع هــذا انقلب فى بيتها ، بل فى قلبهــا خاصة ، باعثا هاما من بواعث القلق والكدر ، وكم كانت صادقة وهى تسائل نفسها : من كان يظن أن مقدم عريس ، الأمر الذى تتلهف النفوس على اســتقباله ، يجر علينــا هذا التعب كله !.. ولكن هكذا جرى الحال ، فتنازع قلبها أكثر من رأى دون أن تطمئن الى واحد منها ، رأت حينا أن الموافقة على زواج عائشة قبل خديجة كفيلة أن تقضى على مستقبل ابنتها الكبرى ، ورأت حينا آخر أن الالحاح فى معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتــاتين بأوخم العواقب ، والى هذا وذاك شــق عليها كثيرا أن توصد الباب فى وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسير أن يجود الحظ بمثله مرة أخرى ولــكن ما عسى أن يكون حال خديجــة اذا تمت الموافقــة وما عسى أن يكون حظها ومســتقبلها ؟ ! .. لم تدر لنفســها

مستقرا ، خاصة وان ما طبعت عليه من سلبية شاملة جعلها اعجز من أن تجد حلا موفقا لمشكل من المشاكل ، ولهذا وجدت راحة وهى تتحفز لالقاء العبء كله على عاتق السيد ، بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرها من خوف كلما أقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب فى حسن تقبله له ، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع :

ـ سيدى .. حدثنى فهمى قال أن صديقا له رجاه أن يعرض عليك رغبته فى خطبة عائشة ..

سددت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنبة الى حيث تجلس المرأة على شلتة غير بعيدة من قدميه ، كأنما تقول لها : « كيف تحدثينى عن عائشة وانا فى انتظار اخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث » .. ثم تساءل ليستوثق مما سمع :

ـ عائشة ؟..

ـ نعم يا سيدى ..

ونظر السيد أمامه فى ضيق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

ـ قررت من زمن بعيد أن هذا أمر سابق لأوانه ..

فقالت المرأة فى عجلة ان يظن بها معارضة ارايه :

ـ انى أعلم رأيك يا سيدى ، ولكن يجب على أن أطلعك على كل شيء مما يدور بيننا ..

تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسبر ما فى قولها من صدق واخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارىء حال بينه وبين تفحصها ، فتساءل فى اهتمام وقلق :

ـ ترى ألهذا علاقة بالسيدات اللاتى زرنك ؟

أجل ، علمت بهذه العلاقة ، وهى منفردة بفهمى ، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفى امرها عن والده عند مفاتحته بالخبر فوعدته بالتفكير فى المسألة طويلا ، وترددت بين قبولها ورفضها ، ثم مالت أخيرا الى كتمانها كما اقترح فهمى ، ولكنها حين جوبهت بسؤال السيد وهى تشعر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهاج شعت عزمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد :

ـ نعم يا سيدى ، علم فهمى أنهن قريبات صديقه ..

فعبس السيد غاضبا ، وكعهده اذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه ، من يستهن بخديجة فكأنما استهان

بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه فى صميم كرامته ، ولكنه لم يدر كيف يعلن غضبه الا عن طريق صوته الذى علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء :

ـ من هو هذا الصديق ؟

فقالت ـ وهى تجد للنطق بالاسم قلقا لا تدرى له من سبب :

ـ حسن ابراهيم ضابط قسم الجمالية .

فقال السيد متسائلا فى انفعال :

ـ قلت أنك أدخلت خديجة وحدها على السيدات !؟..

ـ نعم يا سيدى ..

ـ هل زرنك مرة أخرى ؟

ـ كلا يا سيدى والا كنت أخبرتك .

فسألها منتهرا كأنها هى المسئولة عن هذه الغرابة :

ـ أرسل قريباته فرأين خديجة ، واذا به يطلب عائشة !.. ما معنى هـذا ؟ ! ..

فازدردت الأم ريقها الذى جف بين الأخذ والرد وتمتمت :

ـ فى مثل هذه الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود الا بعد أن يزرن كثيرا من بيوت الجيران متحريات عما يهمهن ، وبالفعل قد أشرن فى حديثهن معى الى أنهن سمعن بأن للسيد كريمتين ، ولعل تقديم واحدة دون الأخرى ..

أرادت أن تقول « لعل تقديم واحدة دون الأخرى وكد لديهن ما سمعن عن جمال الصغرى » ولكنها أمسكت خوفا من مضاعفة غضبه من ناحية ، واشفاقا من الجهر بهذه الحقيقة التى ترتبط فى ذهنها بألوان قاتمة من القلق والأسى من ناحية أخرى ، فأمسكت مكتفية باتمام الحديث باشارة من يدها كأنها تقول « الخ الخ » .

وحدج السيد اليها بنظر حاد حتى غضت الطرف استخذاء ، وانقلب الى حال من الامتعاض والحزن كثفت الغضب فى صدره فمضى يقرع أضلعه يروم متنفسا أو ينشد صحبة ، ثم صاح بصوت عاصف :

ـ عرفنا كل شىء ، هاهو ذا عريس يتقدم طالبا يد ابنتك فأسمعينى رأيك ؟ ..

شعرت بسؤاله يستدرجها الى حفرة لاقرار لها فقالت بلا تردد وهى تبسط راحتيها فى تسليم :

ـ رأيى رأيك يا سيدى ولا رأى لى غيره ...

فصاح فى زمجرة :

ـ لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتنى فى الأمر .

فقالت فى لهجة ملهوجة واشفاق :

ـ ما حدثتك يا سيدى الا لأخبرك عمــا جد فى الأمر ، لأن واجبى يقضى على بأن اطلعك على كل ما يتصل ببيتك من قريب أو بعيد ..

فهز راسه فى حنق قائلا :

ـ من يدرى .. أى والله من يدرى .. ما أنت الا امرأة ، وكل امرأة ناقصة عقل ، والزواج خاصة يفتنكن عن الرشاد ، فلعلك ..

فقاطعته بصوت متهدج :

ـ سيدى أعوذ بالله مما تظن بى ، ان خديجة ابنتى ومن لحمى ودمى كما هى ابنتك .. وأن حظها ليفتت كبدى ، أما عائشة فما تزال فى أول ربيعها ولن يضيرها أن تنتظر حتى يأخذ الله بيد شقيقتها ..

فراح يمسح براحته على شـاربه الغليظ بحركة عصـبية حتى توقف فجاة ، كأنما تذكر أمرا وتساءل :

ـ هل علمت خديجة ؟

ـ نعم يا سيدى ..

فلوح بيده غاضبا وهو يصيح :

ـ كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من ان أحدا لم يرها ؟!

فقالت بحرارة وقلبها يرتجف :

ـ قلت يا سيدى لعلهن سمعن عنها ..

ـ ولكنه يعمل فى قسم الجمالية اى فى حينا ، وكانه من اهله ..

فقالت الأم فى تأثر شديد :

ـ ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى منذ انقطاعهما عن المدرسة فى سن الطفولة ..

فضرب كفا بكف وصاح بها :

ـ مهلا .. مهلا .. هل حسبتنى اشك فى هذا يا ولية ؟ ! لو شككت فيه ما اشبعنى القتل !

انما اتحدث عما قد يجرى فى عقول بعض النـاس ممن لا يعرفوننا ، « ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى » .. ما شاء الله ، وهل كنت تريدين أن تقع عين رجل عليهمــا ؟ ! .. يا لك من مجنونة مهذارة ، انى أردد ما قد تشيع به ألسنة السـفهاء من الناس ، اجل .. انه ضابط الحى ، يسير فى شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن

عن احتمال رؤيته لاحدى الفنـاتين اذا علموا بزواجه منها .. لا احب لا أريد ان أعطى ابنتى لأحد لينير الشبهات حول سمعتى . بل لن تنتقل ابنتى الى بيت رجل الا اذا ثبت لدى أن دافعـه الأول الى الزواج منها هو رغبته الخالصة فى مصاهرتى انا .. أنا .. أنا .. « لم تقع عين رجل على احدى ابنتى » .. مبارك .. مبارك يا ست أمينة ..

وصغت الأم دون أن تنبس بكلمة فساد أنصمت الحجرة ، ثم نهض الرجل فآذنها نهوضه بأنه سيشرع فى ارتداء ملابسه استعدادا للعودة الى الدكان فبادرت بالقيام ، ونزع السيد ذراعيه من الجلباب ورفعـه ليخلعه ، ولـكنه توقف قبـــل أن تجاور طاقة الجلبـاب ذقنه ، وقال والجلباب مكوم فوق منكبه كلبدة الأسد :

ـ ألم يقدر سى فهمى خطورة الطلب الذى تقدم به صديقه ؟..

(ثم محركا رأسه فى أسف) : يحسدنى الناس على انجاب ثلاثة ذكور ، والحق أنى لم أنجب الا أناثا .. خمس أناث .

— ٢٦ —

على اثر مغادرة السيد للبيت ذاع رايه فى خطبة عائشة ، ومع انه قوبل بتسليم عام ـ تسـليم من لا حيلة لهم سـوى التسليم ـ الا انه كان متباين الصدى فى النفوس . أسف فهمى للخبر ، وساءه أن تفقد عائشة زوجا صالحا مثل صديقه حسن ابراهيم ، أجل كان قبل أن يبت أبوهُ فى الأمر مترددا بين التحمس للعريس المتقدم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق ، فلمـا أن قضى الأمر واسـتراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الراغب فى سعادة عائشة ، وأمكنه أن يجهر برايه فقال :

ـ لا شك ان مسـتقبل خديجة يهمنا جميعا ولكننى لا أوافق على الاصرار على حرمان عائشـة من الفرص الحسـنة التى تتاح لها ، الحظ غيب لا يعلمه الا الله ، ولعل الله يدخر للمتأخر حظا أوفر من المتقدم ..

ولعل خديجة كانت أشد الجميع شعورا بالحرج لوقوفها للمرة الثانية عشرة فى سبيل اختها ، لم تكن تفـكر فى الحرج وهى تحت المطرقة ، ولكن حين نما اليها راي ابيها الحاسم ، وتقهقر الخطر الذى يتهددها ، زايلهـا الحنق والألم وحل محلهما شـعور اليم بالخجل والحرج ، ومع أن حديث

فهمى لم يترك فى نفسها اثرا حسنا لأنها طمعت فى اعماقها أن تجد من الجميع حماسا لرأى ابيها وأن تبقى هى الوحيـدة المعارضة له ؛ الا انها قالت معلقة عليه :

ــ صدق فهمى فيما قال : وكان هذا رأيى دائما ..

فعاد ياسين يؤكد رأيه السابق قائلا :

ــ الزواج مصير كل حى .. لا تخافوا .. ولا تجزعوا ..

قنع هذه المرة بالكلام العام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم ، ولكنه خاف أن يعلن رأيه كله صراحة ان تسىء خديجة فهمه او تظن ان ثمة علاقة بين هذا الرأى وبين ما ينشب بينهما كثيرا من نقار برىء ، والى هذا وذاك كان احساسه الباطنى بأنه نصف اخ فقط يقعده عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن ابداء الرأى الخليق بجرح احد من أفرادها .. ولم تكن عائشـة قد نبست بكلمة .فقسرت نفسها على الكلام قسرا أن يشى صمتها بآلامها التى صممت على اخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذلك من عذاب وتوتر ، بل اجمعت على اعلان الارتياح مجاراة لجـو البيت الذى لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها . والذى تدارى فيه أهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء ، فقالت :

ــ لا يصح أن أتزوج قبل خديجة . والخير كل الخير فيما يرى أبى (ثم مبتسمة) .. لماذا تتعجلون الزواج ؟.. ومن ادراكم باننا سنحظى فى بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتى نحظى بها فى بيت ابينا ؟ !

ولما تواصل الحديث كشأنه فى كل مساء حول المدفاة لم تمسـك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها ، وكم فى الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التى تندفع مبسوطة الجناحين ــ كأنما تنتفض حيوية ونشاطا ــ على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفيا آخر قطرات الحياة ..

على أنها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها ، ان لاثمة امل غامض داعب أحلامهـا كما يداعبنـا الأمل فى كسب النمـرة الأولى فى اليانصيب الكبير .. وقد تطوعت اول الأمر للمعارضة فى زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة ، وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ ، الآن خمدت الأريحيـة ونضب العطف ، فلم يبق الا الامتعاض والسـخط واليأس . ليس لها من الأمر شىء . هذه ارادة الأب ولا معقب لها ، وما عليها الا الاذعان والاستسلام ، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح ، لأن محض الوجوم ذنب لايغتفر ، أما الاحتجاج فاثم لايطيقه ادبها وحياؤها ،

افاقت من سكرة السعادة الغامرة التى انتشت بها يوما وليلة على يأس مظلم ، ما أكثف الظلمة تجيء عقب النور الباهر ، فى تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة ، ولكنه يضاعف مرات ومرات بالحسرة على النور الذاهب وتسائل نفسها اذا كان ثمة نور أمكن أن يضيء مليا فلماذا لم يواصل الضياء ، لماذا لا يخبو ، لماذا خبا ، فتكون حسرة جديدة تنضم الى بقية الحسرات التى ينسجها الحزن حول قلبها منتزعا اياها من ذكريات الماضى وواقع الحال وأحلام المستقبل ، وعلى اغراقها فى التفكير فى هذا كله وحضوره - تبعا لذلك - فى شعورها فانها تعود تتساءل وكأنها تتساءل لأول مرة ، وكأن الحقيقة المرة ترتطم بشعورها للمرة الأولى : هل حقا خبا النور ؟ !

هل تمزقت الأسباب بينها وبين الشاب الذى ملأ قلبها وخيالها ؟ !

سؤال جديد رغم تكراره ، وصدمة جديدة رغم نفاذها الى العظام ، ذلك ان الحسرة الكاوية لا تنفك يتنازعها اليأس المستقر فى الأعماق والآمال المتطايرة فى الهواء كلما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير ، ثم تعود فتستقر فى الأعماق ، ثم تطفو مرة أخرى ، وثالثة ، حتى تأوى الى مستقرها - وقد ودعت النفس آخر آمالها - فلا تغادره الى الأبد ، انتهى كأنه لم يكن ، لا سبيل اليه أبدا ، ما أهون الأمر عليهم ، عالجوه كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا تأكل غدا أو حلمت ليلة أمس حلما غريبا أو رائحة الياسمين تملأ جو السطح ، كلمة من هنا كلمة من هناك ، واقتراح يعلن ورأى يبسط ، فى هدوء وحلم غريبين ، ثم تعزية باسمة ، وتشجيع كأنه الدعابة ، ثم تغير الحديث وتشعب ، انتهى كل شيء ، وأدرج فى التاريخ الذى تنزل عنه الأسرة للنسيان ، أين قلبها من هذا كله ؟ ! . . لا قلب لها ، لا يتصور وجوده أحد ، لا وجود له فى الواقع ، ما أشد غربتها ، ضائعة مفقودة ، ليسوا منها وليست منهم وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات ، ولكن كيف تنسى أن كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها ، كانت تكفى لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقا جديدا ؟ ! . . كلمة واحدة لا أكثر ، لا تزيد عن لفظة « نعم » ثم تحدث المعجزة ، لم تكن لتكلفه الا عشر ما تكلف من جهد فى المناقشة الطويلة التى انتهت الى الرفض ولكن لم تجر بذلك مشيئته ، وارتضى لها هذا العذاب كله . ومع أنها كانت متألمة حانقة ساخطة الا أن ألمها وحنقها وسخطها وقفت عند شخص أبيها وارتدت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج اذا اعترضه مروضه ، الذى يحبه ويخافه ، لم يسعها أن تحمل عليه ، ولو فى أعماق سريرتها ، وظل قلبها

على ولائه وحبه فلم تضمر له الا الاخلاص والوفاء كأنه اله لا يجوز أن تقابل قضاءه الا بالتسليم والحب والوفاء .

شدت الصغيرة ذاك المساء حبل اليأس حول عنقها الرقيق فآمن قلبها المتفتح بانه نضب واجدب الى الأبد ، وضاعف من توتر أعصابها الدور الذي صممت على أن تمثله بينهم ، دور البشر واللا مبالاة وما سامته نفسها من المشاركة في سمرهم حتى ناءت هامتها الذهبية بحمله ، وانقلبت الأصوات في أذنيها وقرا ، فما جاء وقت الانسحاب الى حجرة النوم حتى مضت في اعياء كالمرضى ، وهناك في أمن من ظلمة الحجرة تجهم وجهها لأول مرة وعكس صورة صادقة من قلبها ..

بيد انه لحق بها رقيب — خديجة — أيقنت من بادىء الأمر أن تصنعها لن يجدي معها شيئا ، وقد تحامت في المجلس نظراتها أما الآن — اذ جلست اليها — فلا مهرب منها ولا مفر . وتوقعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف ، وانتظرت تسلل صوتها الى اذنيها بين لحظة واخرى ، ورحب قلبها بالحديث ، لا لأنه سيبعث رجاء جديدا ، ولكن لأنها املت وراء الاعتذار والحرج اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتما شيئا من العزاء ولم يطل بها الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشق الظلمة قائلا :

— عائشة ، اني حزينة آسفة ، ولكن علم الله لا حيلة لي ، وكم وددت لو تواتيني الشجاعة فأرجو ابي ان يعدل عن رأيه ..

وتساءلت عما وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعلة بثورة حنق ثارت بها الذي سماعها النبرات الأسيفة مباشرة ، ولكنها اضطرت الى العودة الى استعارة النبرات التي ظلت تتحدث بها في مجلس أمها فقالت :

— فيم الحزن والأسف ، ما أخطأ ابي وما ظلم ولا داعي للعجلة !..

— هذه ثاني مرة يؤجل زواجك بسببي

— لست آسفة مطلقا ..

فقالت خديجة بلهجة ذات مغزى :

— ولكن هذه المرة غير المرة الأولى ..

أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق ، فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة ، وبكى وجدا وحبا ، ذلك الحب الكامن يثار بالاشارة تجيئه من الخارج عفوا أو قصدا كما يثار الجرح أو الدمل باللمس والشك ، وهمت بالكلام ولكنها امسكت مضطرة لأن أنفاسها لم تسعفها فخافت ان تفضحها نبراتها ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

— لهذا تجدينني في غاية الحزن والأسف ، ولكن ربنا كريم ، وما شدة

الا وبعدها الفرج . فعسى أن ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم مما بدا ...

وهتفت جوارحها :

« ياليت »

أما لسانها فقال :

ـ سيان عندى ، الأمر أبسط مما تظنين ..

ـ أرجو أن يكون كذلك .. انى جد حزينة وآسفة يا عائشة ..

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال فى الشعاع الخافت الذى تسلل من فرجة الباب فصاحت به خديجة فى ضيق :

ـ لماذا جئت ؟ وماذا تريد ؟

فقال الغلام بصوت يشى باحتجاجه على سوء مقابلتها له :

ـ لا تنهرينى .. وافسحى لى ..

ووثب الى الفراش وركع بينهما . ثم دس يدا الى واحدة ويدا الى الأخرى ، وراح يدغدغهما ، ليهيىء لحديثه جوا طيبا غير الجو الذى أنذرت به نهرة خديجة ، ولكنهما نثرتا يديه ، وقالتا بصوتين متتابعين :

ـ آن لك أن تنام ، فاذهب ونم ..

ولكنه هتف فى غيظ :

ـ لن أذهب حتى أعرف ما جئت أسأل عنه !

ـ عم تسأل فى هذه الساعة من الليل ؟

فقال مغيرا لهجته حتى يستجيبا له :

ـ أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا اذا تزوجتما

فصاحت به خديجة :

ـ انتظر حتى يجىء الزواج !

فتساءل فى عناد :

ـ ولكن ما هو الزواج ؟

ـ كيف أجيبك وأنا لم أتزوج .. اذهب ونم الله لا يسيئك

ـ لن أذهب حتى أعرف ..

ـ يا حبيبى توكل على الله وفارقنا ..

فقال بصوت حزين :

ـ أريد أن أعرف هل تغادران البيت اذا تزوجتما ؟

فقالت فى ضجر :

ـ نعم يا سيدى .. ماذا تريد أيضا ؟

فقال فى جزع
ــ اذن لا تتزوجا . . هذا ما اريد . .
ــ سمعا وطاعة . .
فعاد يقول فى احتجاج ثائر :
ــ انا لا أطيق أن تذهبا بعيدا عنا وسأدعو الله الا يزوجكما . .
فهتفت :
ــ من فمك لباب السما . . عال عال . . ربنا يكرمك . تفضل فارقنا مع السلامة .

— ٢٧ —

سرى فى البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرهقة بالتزمت يوم راحة يستطيع ــ اذا شاء ــ أن يستروح فيه نسمة من الحرية البريئة فى أمن من الرقيب ، فظن كمال أنه غدا فى حل من ان يقطع اليوم كله فى اللعب داخل البيت أو خارجه ، وتساءلت خديجة وعائشة الا يمكن ان تنسلا مساء الى بيت مريم لقضاء ساعة فى لهو ومرح ؟ لم تجىء هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكالح وحلول بشائر الربيع ملوحة بالدفء والبشاشة ، اذ ليس من شأن الربيع ان يهب هذه الأسرة حرية يحرمها اياها الشتاء ، ولكنها جاءت نتيجة طبيعية لسفر السيد أحمد الى بور سعيد فى مهمة تجارية تدعوه كل عدة اعوام الى السفر يوما أو بضع يوم ، واتفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسمية بين أفراد الأسرة . . وتجاوبت رغباتهم الظماى الى الحرية فى الجو الطليق الآمن الذى خلقه على غير انتظار رحيل الأب عن القاهرة كلها ، بيد أن الأم وقفت من رغبة الفتاتين وجماح الغلام وقفة المتردد ، لأنها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة على سيرتها المألوفة ، وأن تلتزم ــ فى غياب الأب ــ الحدود التى تلتزمها فى حضوره خوفا من مخالفته اكثر منها اقتناعا بوجاهة شدته وصرامته ، ولكنها ما تدرى الا وياسين يقول لها :

ــ لا تعارضى بالله . . اننا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس ، بل أريد أن أقول شيئا جديدا . . لماذا لا تروحين عن نفسك انت ؟! . . ما رأيكم فى هذا الاقتراح ؟!

وتطلعت اليه الأعين فى دهشة ولكن احدا لم ينبس بكلمة ، ولعلهم ــ كأمهم التى رمته بنظرة تأنيب ــ لم يحملوا قوله محمل الجد ؛ الا أنه استطرد قائلا :

ــ لماذا تنظرين الى هكذا ؟! .. لم اخطىء فى البخارى ، وليس ثمة جريمة والحمد لله ، ما هو الا مشوار قصير ترجعين منه وقد ألقيت نظرة على جزء صغير من الحى الذى عشت فيه أربعين عاما دون أن ترى منه شيئا ..

فتنهدت المراة متمتمة :

ــ سامحك الله ..

فقهقه الشاب قائلا :

ــ علام يسامحنى ؟.. هل اقترفت ذنبا لا يغتفر ؟ . والله لو كنت مكانك لمضيت من توى الى سيدنا الحسين .. سيدنا الحسين الا تسمعين ؟.. حبيبك الذى تهيمين به على البعد وهو قريب ، قومى انه يدعوك اليه ...

وخفق قلبها خفقانا لاحت آثاره فى احمرار وجهها فخفضت راسها لتخفى تأثرها الشديد ، انجذب قلبها الى الدعاء بقوة تفجرت فى نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من احد ممن حولها حتى ياسين نفسه ، كأنها زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل ؛ فلم تدر كيف استجاب قلبها للنداء ، ولا كيف تطلع بصرها الى ماوراء الحدود المحرمة ، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طاغية ، أجل بدت زيارة الحسين عذرا قويا ــ له صفة القداسة ــ للطفرة اليسارية التى نزعت اليها ارادتها ، ولكنها لم تكن وحدها التى تمخضت عنها نفسها اذ لبت دعاءها فى الأعماق تيارات حبيسة متلهفة على الانطلاق كما تلبى الغرائز المتعطشة للقتال نداء الدعاة الى الحرب بحجة الدفاع عن الحرية والسلام . ولم تدر كيف تعلن استسلامها الخطير ولكنها نظرت الى ياسين وسألته بصوت متهدج :

ــ زيارة الحسين منية قلبى وحياتى .. ولكن .. أبوك ؟

فضحك ياسين قائلا :

ــ أبى فى طريقه الى بور سعيد ولن يعود قبل ضحى الغد ، وبوسعك ــ زيادة فى الحيطة ــ أن تستعيرى ملاءة أم حنفى اللف حتى اذا اتفق أن رآك أحد و أنت تغادرين البيت أو وانت تعودين اليه ظنك زائرة ...

ورددت عينيها بين الأبناء فى خجل وتهيب كأنها تنشد المزيد من

التشـــجيع ، فتحمست خديجة وعائشـــة للاقتراح ، وكأنهما تعبران بحماسهما عن رغبتهما الحبيســـة فى الانطلاق ، وفرحتهما بزيارة مريم التى باتت ــ بعـــد هذا الانقـــلاب ــ فى حكم المقرر ، وهتف كمـــال من أعماق قلبه :

ــ سأذهب معك يا نينة لأدلك على الطريق ..

وحدجها فهمى بنظرة عطف أثاره فى نفسه ما طالعه فى وجهها البرىء من سرور حائر كسرور الطفل اذا منى بلعبة جديدة فقال لها فى تشجيع واستهانة :

ــ ألقى نظرة على الدنيا ، لا عليك من هذا فانى أخاف أن تنسى المشى من طول لزومك للبيت ..!

وفى فورة الحمـــاس جرت خديجة الى أم حنفى ثم عادت بملاءتهـــا ، وتزاحمت الأصوات بالضحك والتعليق ، فغدا اليوم عيدا سعيدا لا عهد لأحد به ، واشترك الجميع ــ وهم لا يدرون ــ فى الثورة على ارادة الأب الغائب ، والتفت الست أمينة فى الملاءة وأســـدلت البرقع الأسود على وجهها ، ثم نظرت فى المرآة فلم تتمالك من أن تضحك طويلا حتى اهتز جذعها ، وارتدى كمال بدلته وطربوشه وسبقها الى فناء البيت ، ولكنها لم تتبعه ، ركبها شـــعور الرهبة الذى يلازم المواقف الفاصـــلة فرفعت عينيها الى فهمى وتساءلت :

ــ ما رأيكم ، هل أذهب حقا ؟

فصاح بها ياسين :

ــ توكلى على الله ...

وتقدمت منها خديجة ، ووضعت يدها على منكبها ودفعتهـــا برفق وهى تقول :

ــ الفاتحة أمانة ..

ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها الى السلم ، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع فى أعقابهـــا ... ووجدت أم حنفى فى انتظارها ، فألقت الخادم على سيدتها ــ أو بالحرى على الملاءة الملتفة بها ــ نظرة فاحصـة . ثم هزت رأسها هزة انتقادية ، وتقدمت منهـــا وأعادت لف الملاءة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها فى الوضع المناسب ، فانقادت لهـــا سيدتها التى كانت ترتدى الملاءة اللف لأول مرة ، وعند ذلك ارتســمت ملامح قامتها وقدها فى تفصيل وسيم ، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضـة ،

فالقت خديجة عليها نظرة اعجاب باسمة وغمــزت بعينها لعائشــــة واغرقتا فى الضحك ...

ولاقت وهى نعبر عتبة الباب الخارجى الى الطريق لحظة دقيقة جف لهــا ريقها فضـــاع السرور فى نوبة القلق ووطأة الاحســـاس بالذنب ؛ وتحــركت فى بطء وهى قابضـــة على يد كمال بحال عصـــبية ، وبدت مشيتها مضـــطربة مخلخلة كأنها عاجزة عن مبادىء المشى الأولية » الى ما اعتراها من حياء شديد ، وهى تتعرض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيـــد من وراء خصـــاص المشربية ــ عم حســـــنين الحلاق ، ودرويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشرباتلى وأبوسريع صاحب المقلى ــ حتى توهمت أنهم سيعرفونها كما تعرفهم ــ أو لأنها تعرفهم ــ ووجدت مشـقة فى تثبيت حقيقة بديهية فى رأسها وهى أن عينا منهم لم تقع عليها مدى الحياة ، وعلى تلك الحال عبرا الطريق الى درب قرمز لأنه وان لم يكن اقصر الطــرق الى جامع الحســـين الا أنه كان لا يمر ــ كطريق النحاسين ــ بدكان السيد فضلا عن خلوه من الدكاكين وانقطاع المارة عنه الا فيما ندر ، وتوقفت لحظة قبـــل أن توغل فيه ، والتفتت صوب المشربية فرات شبحى ابنتيها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة اخرى عن وجهى ياســـين وفهمى الباسمين ، فاســـــتمدت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها ، ثم جدت فى السير ــ هى وغلامها ــ يقطعان الدرب المقفر فى شىء من الطمــأنينة ، لم يغب عنهــا القلق ولا الاحســاس بالذنب ولكنهما تراجعا الى حاشــية الشعور الذى احتلت مركزه عاطفة استطلاع حماســـية نحو الدنيا التى يتراءى لها درب من دروبهـــا وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من اناســـها ؛ ووجدت سرورا ساذجا لمشاركة الأحياء فى الحركة والانطــلاق ، سرور من قضت ربع قرن سجينة الجدران ما عدا زيارات معـــدودات لأمهـــا فى الخرنفش ــ بضع مرات فى العام ــ تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاســـتراق النظر الى الطريق ... وجعلت تسأل كمال عما يصـــادفهما فى طريقهما من مشـــاهد وأبنية وأماكن ؛ والغلام يحدثها فى اسهاب مزهوا بدور المرشد الذى يقوم به ، فهذا قبو قرمز المشهور الذى يجب ــ قبل الدخول فيه ــ تلاوة الفاتحة ، وقاية من العفاريت التى تسكنه ، وهذا ميدان بيت القاضى بأشجاره الباسقة وكان يسميه ميدان « ذقن الباشـــا » مطلقا عليه اسم الزهر الذى يعلو أشجاره أو يسميه احيانا أخرى « ميدان شنجرلى » ساحبا عليه اسم

بائع الشيكولاته التركى » أما هذا البناء الكبير فهو قسم الجمالية ، ومع أن الغلام لم يجد به ما يستحق اهتمامه سوى السيف المدلى من وسط الديدبان الا أن الأم ألقت عليه نظرة مليئة بحب الاستطلاع الخليق بمكان يقيم به الرجل الذى سعى الى طلب يد عائشة ، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الأولية ، التى قضى بها عاما قبل التحاقه بمدرسة خليل اغا الابتدائية ، فأشار الى شرفتها الأثرية وهو يقول « فى هذه الشرفة كان الشيخ مهدى يلصق وجوهنا بالجدار لأقل هفوة ، ويركلنا بحذائه خمسا او ستا أو عشرا كما يحلو له » ، ثم أومأ الى دكان تقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقف عن السير « وهذا عم صادق بائع الحلوى » ثم لم يقبل التزحزح عن موضعه حتى أخذ قرشا وابتاع به ملبنا أحمر ، انعطفا بعد ذلك الى طريق خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجى لجامع الحسين ، يتوسطه نبال عظيم الرقعة محلى بالزخارف العربية ، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كأسنة الرماح ، فتساءلت والبشر يسجع فى صدرها « سيدنا الحسين ؟ » ولما أجابها بالايجاب مضت تقارن بين المنظر الذى تقترب منه — وقد حثت خطاها لأول مرة مذ غادرت البيت — وبين الصورة التى خلقها خيالها له مستعينا فى خلقه بمناذج من الجوامع التى فى متناول بصرها كجامع قلاوون وبرقوق فوجدت الحقيقة دون الخيال ، لأنها كانت تنفخ فى الصورة طولا وعرضا على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها ، بيد ان هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئا فى فرحة اللقاء التى ثملت بها جوانحها ، ودارا حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا فى زحمة الداخلات . ولما وطئت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأن بدنها يذوب رقة وعطفا وحنانا ، وانها تستخيل روحا طائرا يرفرف بجناحيه فى سماء يسطع بجنباتها عرف النبوة والوحى فاغرورقت عيناها بالدمع الذى أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حبها وايمانها واريحية امتنانها وفرحها ، وراحت تلتهم المكان بأعين شيقة مستطلعة ، جدرانه وسقفه وعمده وابسطته ونجفه ومنبره ومحاريبه ، والى جانبها كان كمال ينظر الى هذه الأشياء من ناحية أخرى خاصة به ترى أن الجامع يكون مزارا للناس فى النهار والهزيع الأول من الليل ، وبيتا من بعد ذلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويجىء مستعملا ما فيه من أثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه ، فيطوف بأرجائه

ويصلى فى المحراب ويرتقى المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حيه المحيط ، وكم تمنى حالما لو ينسسونه فى الجامع بعد أن يغلق أبوابه فيمكنه أن يلقى الحسين وجها لوجه وأن يمضى فى حضرته ليلة كاملة حتى الصباح وتخيل ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من آى الحب والخضوع وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه بعد ذلك عنده من العطف والبركة ، تخيل نفسه وهو يقترب منه خافض الرأس فيسأله الشهيد برقة « من أنت ؟ » فيجيبه وهو يقبل يده « كمال أحمد عبد الجواد » ويسأله عن عمله فيقول له « تلميذ — ولن ينسى التنويه بتفوقه — بمدرسة خليل أغا » ويسأله عما جاء به فى هذه الساعة من الليل فيجيبه بأنه حب آل البيت عامة والحسين خاصة ، فيبسم اليه عطفا » ويدعوه الى مرافقته فى تجواله الليلى ، وعند ذلك يبوح له بأمانيه جملة قائلا : « اضمن لى أن ألعب كما أشاء داخل البيت وخارجه ، وأن تبقى عائشة وخديجة فى بيتنا الى الأبد ، وأن تغير طبع أبى ، وأن تمد فى عمر أمى الى مالا نهاية ، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتى ، وأن ندخل الجنة جميعا بغير حساب » ... هذا وتيار الزائرات الزاحف فى بطء يدفعهما رويدا حتى وجدا نفسيهما فى مثوى الضريح ، طالما تلهفت أشواقها على زيارة هذا المثوى كما تتلهف على حلم يستحيل تحقيقه فى هذه الدنيا ، ها هى تقف بين أركانه ، بل ها هى تلصق جدران الضريح نفسه ، تشرف نفسها عليه خلال الدموع ، وتود لو تتريث لتتملى مذاق السعادة لولا شدة ضغط الزحام ، ومدت يدها الى الجدران الخشبية ، واقتدى كمال بها ، ثم قرءا الفاتحة ، ومسحت بالجدران وقبلتها ولسانها لا ينى عن الدعاء والتوسل ، ودت لو تقف طويلا أو تجلس فى ركن من الأركان لتعيد النظر والتأمل ثم لتعيد الطواف ، ولكن خادم المسجد وقف للجميع بالمرصاد ، لا يسمح لواحدة بالتلكؤ ويحث المتباطئات ، ويلوح منذرا بعصاه الطويلة ، وهو يدعو الجميع الى اتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة ، ارتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفىء ظمأها ، وهيهات أن يروى لها ظمأ ، لقد هاج الطواف حنينها فتفجرت عيونه وسال وزخر وان يزال ينشد المزيد من القرب والابتهاج ، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه انتزاعا ، وأودعته قلبها وهى توليه ظهرها ، ثم مضت حسرى يعذبها شعورها بأنها تودعه الوداع الأخير ، بيد أن ما طبعت عليه من قناعة واستسلام آخذها على ما استسلمت له من الحزن فردها الى تملى ما ظفرت به من سعادة طاردت

بها هواجس الفراق ، ودعاها كمال الى مشاهدة مدرسته فمضيا اليها فى نهاية شارع الحسين ، ووقفا عندها مليا ، ولما أرادت الرجوع من حيث اتت أنذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمه التى لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفريط فيها واستمات فى الدفاع عنها فاقترح عليها أن يسيرا فى السكة الجديدة حتى الغورية ، ولكى يقضى على المقاومة التى بدت فى صورة تقطيبة باسمة من وراء البرقع خلفها بالحسين فتنهدت ، واستسلمت ليده الصغيرة ، ومضيا يشقان طريقهما فى زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة من السائرين فى جميع الجهات مما لم تجد عشر معشاره فى الطريق الهادىء الذى جاءت منه فعلاها الارتباك ، واخذت تفقد نفسها فى اضطراب شامل ، ولم تلبث أن شكت اليه ما تلقى من عناء واعياء ، ولكن تهالكه على اتمام الرحلة السعيدة جعله يصم أذنيه عن شكاتها ويشجعها على مواصلة السير ويلهيها عن متاعبها بلفت نظرها الى الدكاكين والعربات والمارة ، وهما يقتربان فى بطء شديد صوب منعطف الغورية ، وعند ذاك المنعطف لاحت لناظريه دكان فطائر فسال لعابه وثبتت عيناه عليها لا تتحولان وراح يفكر فى وسيلة لاقناع أمه بالدخول الى الدكان وابتياع فطيرة ، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر ، ولكنه ما يدرى الا وأمه تفلت من يده فالتفت نحوها متسائلا فرآها وهى تسقط على وجهها وقد ندت عنها آهة عميقة ، واتسعت عيناه فى ذهول ورعب دون أن يبدى حراكا ولكنه على ذهوله ورعبه راى بجانب عينه — فى نفس الوقت تقريبا — سيارة تفرمل محدثة صوتا عنيفا ومرسلة وراءها ذيلا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا ان انحرفت عنها مقدار شبر ، وتعالى صياح وحدثت ضجة وهرع الناس الى المكان من جميع نواحى الطريق كما تهرع الصبية الى صفارة الحاوى فضربوا حولها حلقة غليظة بدت اعينا مستطلعة ورءوسا مشرئبة والسنة تهتف بكلام اختلطت اسئلته بأجوبته ، وافاق كمال من الصدمة بعض الشىء فراح يردد عينيه بين أمه الملقاة عند قدميه وبين الناس فى حال ناطقة بالخوف والاستغاثة ثم ارتمى على ركبتيه الى جانبها ووضع كفه على منكبها وناداها بصوت تفتت نبراته بحرارة الرجاء ولكنها لم تستجب له فرفع راسه مقلبا عينيه فى وجوه الناس ، ثم صرخ باكيا فى نحيب حار علا على الضجة التى تكتنفه حتى كاد يسكتها وتطوع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها ، وانحنى آخرون فوق أمه مستطلعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان ، تنشد احداهما السلامة للضحية ، وتنزع الأخرى —

فى حال اليأس من السلامة ـ الى ان ترى الموت ـ ذاك الحتم المؤجل ـ وهو يطـرق بابا غير بابهم ، وينتزع روحا غير روحهم كأنهم يودون أن يقوموا بشـــبه بروفا آمنة لأخطر دور قضى عليهم جميعا ان يختموا الحياة بلعبــه ، وصاح أحدهم قائلا « صدمها باب السـيارة الأيسـر فى ظهرها » ، وقال السائق الذى غادر السيارة ووقف مختنقا بجو الاتهام الذى يطبق عليه « لقد انحرفت عن الطوار بغتة فلم استطع أن اتفادى من صدمها ، ولكنى فرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة ، ولولا رعاية الله لدسـتها » .. وجاء صـوت من المحـدقين أيها قائلا « ما زالت تتنفس ... أغمى عليها فقط » ، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطى قادما يترنح سيفه بجنبه الأيسر « انها صدمة خفيفة .. لم تتمكن منها ابدا .. انها بخير .. بخير يا جماعة والله .... » .. ثم انتصبت قامة اول رجل تقـدم لفحصها وقال كأنما يلقى خطبة « ابتعـدوا لا تمنعوا الهواء .. فتحت عينيها .. بخير .. بخير والحمد لله ! .. » كان يتكلم بابتهاج لايخلو من زهو كانه هو الذى رد اليها الحياة ، ثم تحول الى كمال الذى غلبه بكاء عصبى فاسترســل فيه فى انفعال لم تجد معه مواساة المواسين ، تحول اليه وربت على خده بحنان وقال له « حسـبك يابنى .. امك بخير .. انظر .. هلم سـاعدنى على اقامتها » .. ولكن كمال لم يمسك عن البكاء حتى راى امه تتحرك فمال نحوها ووضع يسراها على كتفه ، وعاون الرجل على اقامتها حتى أمكن بجهد شديد أن تقف بينهما فى اعياء وخور وقد سقطت عنها الملاءة التى امتدت بعض الأيدى لتعيدها الى موضعها ـ بقدر الامكان ـ حول كتفيها ، ثم قدم لها الفطائرى الذى وقعت الحادثة أمام دكانه مقعدا فأقعدوها عليه وجاءها بقدح من المـاء فتجرعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسية وهى تزفر زفرة عميقة ، وجعلت تردد انفاسا مضطربة بضعوبة وتنظر فى وجوه المحدقين بها فى ذهول وهى تتساءل « ماذا جرى ؟.. ماذا جرى ؟.. رباه لماذا تبكى يا كمال ؟! » وعنـد ذاك اقترب الشرطى منها وسألها « هل بك سوء ياسيدتى ؟ وهل تستطيعين السير الى القسم ؟ » فصدم اسم « القسم » عقلها فرجها من الأعمـاق وهتفت بفزع « لماذا اذهب الى القسـم ؟ .. لا اذهب الى القسم أبدا » فقال لها الشرطى « لقد صدمتك السيارة فأوقعتك ، فاذا كان بك سوء وجب أن تذهبى أنت وهذا السائق الى القسم لتحرير المحضر » ولكنها قالت وهى تلهث « كلا .. كلا .. لن أذهب .. أنا بخير » فقـال لهـا

الشرطى « توكدى مما تقولين ، انهضى وامشى لترى ان كان اصابك سوء » ، ولم تتردد عن النهوض ـ مدفوعة بالفزع الذى اثاره ذكر القسم ـ فنهضت واصلحت ملاءتها ثم سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال الى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب ، ثم قالت للشرطى وهى ترجو أن تنتهى هذه الحال المؤلمة بأى ثمن « انى بخير .. (ثم مشيرة الى السائق) .. دعوه .. لا شىء بى » لم تعد تشعر بخور فيما ركبها من خوف ، هالها منظر الناس المحدقين بها ، خاصة الشرطى الذى يتقدمهم ، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوبة نحوها من كل مكان متحدية باستهانة بالغة تاريخا طويلا من التستر والتخفى فتخايلت لعينيها فوق هذا الجمع صورة السيد وكأنها تتفرس فى وجهها بعينين باردتين متحجرتين منذرتين بما لا تطيق تصوره من الشر ، فلم تأل ان قبضت على يد الغلام واتجهت به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها احد وما غيبهما منعطف الطريق حتى شهقت من الأعماق وخاطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها « يا ربى ماذا حدث ؟ ماذا رأيت يا كمال ؟ كأنه حلم مفزع ، خيل الى انى أهوى من عل الى هاوية مظلمة ، وان الأرض تدور تحت قدمى ، ثم غبت عن كل شىء حتى فتحت عينى على ذاك المنظر المخيف ، رباه .. هل أراد حقا أن يذهب بى الى القسم لا ! بالطيف يارب .. يامنجى يارب ، متى نبلغ بيتنا ؟ ! بكيت كثيرا يا كمال لا عدمت عينيك ابدا .. جفف عينيك بهذا المنديل حتى تغسل وجهك فى البيت .. آه »

وتوقفت عن السير بعد ان أوشكا أن يطويا طريق الصاغة ، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلص وجهها ، فرفع كمال وجهه اليها منزعجا وسألها :

ـ ماذا بك ؟

فاغمضت عينيها وهى تقول بصوت ضعيف :

ـ انى تعبة ، تعبة جدا ، لا تكاد تحملنى قدماى ادع أول عربة تصادفك يا كمال ...

ونظر كمال فيما حوله فلم ير الا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذى الذى بادر الى سوق العربة حتى وقف بها أمامهما واقتربت الأم منها متكئة على كتف كمال ثم صعدت الى سطحها بمعاونته واعتمادا على منكب الحوذى الذى وطأه لها حتى تربعت وهى تتنهد فى اعياء شديد ، وجلس كمال الى جانبها ثم وثب الحوذى

الى المقدمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوئيدة والعربة ترنح وراءه مطقطقة .. وتأوهت المرأة متمتمة « ما أشد الى ؟ عظام كتفى تتفكك » هذا وكمال يرمقها فى جزع وقلق .. ومرت العربة فى طريقها بدكان السيد دون أن يعيراها التفاتا ، ومضى كمال يتطلع الى الأمام حتى لاحت لعينيه مشربيات البيت .. لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة الا نهايتها المحزنة ..

— ٢٨ —

فتحت أم حنفى الباب فأذهلها أن ترى سيدتها متربعة على عربة كارو ، وقد ظنت لأول وهلة انه ربما يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة فى العربة على سبيل اللهو فلاحت على وجهها ابتسامة ولكن الى لحظة قصيرة اذ ما لبثت أن رأت عينى كمال المحمرتين من البكاء فارتدت عيناها الى سيدتها فى انزعاج واستطاعت هذه المرة أن تلمس ما تعانى من اعياء وألم فندت عنها آهة وهرعت الى العربة هاتفة « ستى ، مالك ، بعد الشر عنك » فقال لها الحوذى « تعب بسيط ان شاء الله ، عاونينى على انزالها » وتلقتها المرأة بين ذراعيها ، وسارت بها الى الداخل وتبعهما كمال واجما محزونا ، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا فى الفناء وكلتاهما تفكر فى دعابة تلقى بها القادمين فما راعهما الا أن تطلع عليهما أم حنفى من الدهليز الخارجى وهى تكاد تحمل الأم حملا فندت عنهما صرخة ، وهرعتا اليها فزعتين وهما تهتفان :

ــ نينة ... نينة ... مالك !

وتعاونوا جميعا على حملها ، ولم تكف خديجة فى أثناء ذلك عن ان تسأل كمال عما حدث حتى اضطر الغلام الى ان يغمغم فى خوف بالغ :

ــ سيارة !

ــ سيارة !

هكذا هتفت الفتاتان معا مرددتين الاسم الذى وقع من نفسيهما موقعا مفزعا فاق الاحتمال . فولولت خديجة هاتفة « ياخبر اسود .. بعد الشر عنك يا نينة » أما عائشة فانعقد لسانها وأقحمت فى البكاء ، ولم تكن الأم غائبة عن الوجود وان كانت من الاعياء فى نهاية فهمست على اعيائها رغبة فى تسكين اضطرابهما :

— انى بخير ، لم يحدث سوء ، ما بى الا تعب .

وتناهت الضجة الى ياسين وفهمى فخرجا الى راس السلم ، واطلا من فوق الدرابزين وما لبثا ان نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عما حدث ، ولم تملك خديجة الا ان تشير الى كمال ليجيب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فاتجه الشابان الى الغلام الذى عاد يغمغم بحزن وارتباك :

— سيارة !

ثم انتحب باكيا ، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما يلح عليهما من اسئلة الى حين ، وحملا الأم الى حجرة الفتاتين وأجلساها على الكنبة ثم سألها فهمى قلقا معذبا :

— خبرينى عما بك يا نينة ، اريد ان اعرف كل شىء ..

ولكنها مالت براسها الى الوراء ولم تنبس بكلمة ريثما تسترد انفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وام حنفى وكمال حتى فقد فهمى أعصابه فثار بهن ونهرهن حتى أمسكن ، ثم جذب كمال اليه ليستجوبه عما يريد ، كيف وقع الحادث ، وماذا فعل الناس بالسائق ، وهل اخذوكما الى القسم ، وكيف كان حال الأم فى اثناء ذلك كله ، هذا وكمال يجيبه على اسئلته بلا تردد وفى اسهاب ، وعن أكثر التفاصيل ، وكانت الأم تتابع الحديث بالرغم من وهنها فلما سكت الغلام استجمعت قواها وقالت :

— انى بخير يا فهمى ، لاتزعج نفسك ، كانوا يريدون أن أذهب الى القسم فرفضت ، ثم واصلت السير حتى نهاية الصاغة وهناك خارت قواى فجاة ، لا تنزعج ، سأسترد قواى بعد راحة قصيرة ..

الا ان ياسين عانى — الى انزعاجه للحادث — حرجا شديدا لأنه كان المسئول الأول عن الرحلة المشئومة — بهذا وصفت بعد الحادث — فاقترح عليهم أن يستدعوا طبيبا ، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة راى الآخرين ، وارتعدت الأم للذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجت فهمى أن يلحق بأخيه وأن يثنيه عن عزمه مؤكدة له بأنها ستبرأ دون حاجة الى طبيب ولكن الشاب رفض الاذعان لرجائها مبينا لها أوجه الفائدة المنوطه بمجيئه ، وفى اثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع الملاءة عنها وجاءتها ام حنفى بقدح ماء ثم احاطوا بها جميعا وهم يتفحصون بقلق وجهها الذى علاه الشحوب ويسالونها مرارا وتكرارا عما تجد ، وهى تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو تقنع بان تقول اذا ألح عليها الألم « ثمة الم خفيف فى كتفى اليمنى » ثم تستدرك قائلة

« ولكن لم يكن من داع لاستدعاء طبيب » ؛ والحق أنها لم ترتح لاستدعائه ابدا ، لأنها من ناحية الم تلق طبيبا قط ـ لا لحصانة صحتها فحسب ـ ولكن لأنها نجحت دائما فى مداواة ما يلم بها من توعك أو انحراف بطبعها الخاص فلم تؤمن بالطب الرسمى ، الى أنه اقترن فى ذهنها بالحوادث الخطيرة والخطوب لفادحة ، ومن ناحية أخرى فقد شعرت بأن استدعاء الطبيب من شأنه ان يهول الأمر الذى تود له الستر والطى قبل عودة السيد .. ولم تأل أن أفصحت لأبنائها من مخاوفها . ولكنهم لم يهتموا فى تلك اللحظة الدقيقة الا بشىء واحد ، هو سلامتها ..

ولم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأن عيادة الطبيب كانت فى ميدان بيت القاضى ، ثم عاد بتقدم الرجل الذى ادخل الى الأم حال حضوره ، وأخليت الغرفة فلم يبق بها معه الا ياسين وفهمى ، وسأل الطبيب الأم عما تشكو فأشارت الى كتفها اليمنى وقالت وهى تزدرد ريقها الذى جف من الخوف :

ـ أشعر هنا بألم ...

وعلى هدى اشارتها ، الى ما حدثه به ياسين فى الطريق عن الحادث جملة ، تقدم لفحصها ، وطال وقت الفحص فى شعور الشابين المنتظرين فى الداخل ، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب ، وتحول الطبيب عن المصابة الى ياسين قائلا :

ـ كسر فى الترقوة اليمنى ، هذا كل ما هنالك

وأحدثت « لفظة » الكسر ارتياعا فى الداخل والخارج ، وعجب الجميع لقوله « هذا كل ما هنالك » كأن وراء الكسر شيئا يتسع له احتمالهم ، على أنهم وجدوا فى ذات التعبير ، واللهجة التى ألقى بها مايغرى بالطمأنينة فتساءل فهمى وهو بين الخوف والأمل ..

ـ وهل هو شىء خطير ..؟

ـ كلا البتة ، سأعيد العظم الى سابق موضعه وأشده ولكن عليها أن تنام بضع ليال وهى قاعدة مسندة الظهر الى وسادة لأنه سيتعذر عليها أن تنام على الظهر أو الجنبين ، وسوف يجبر الكسر وتعود الى ما كانت عليه فى ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر ، لا داعى للخوف مطلقا .. والآن دعونى أعمل ...

ومهما يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد أن جفت منهم الحناجر ، وبدأ هذا الأثر واضحا بين الجماعة خارج الحجرة فتمتمت خديجة :

— فلتحل بها بركة سيدنا الحسين الذى ماخرجت الا لزيارته ..
وكأنما تذكر كمال بقولها أمرا هاما انسيه طويلا فقال بدهشة
— كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين ؟
ولكن أم حنفى قالت ببساطة :
— ومن ادرانا بما كان يحدث لها — والعياذ بالله — لو لم تتبرك بزيارة سيدها وسيدنا ؟ !

ولم تكن عائشة قد افاقت من اثر الصدمة فضاق صدرها بالحديث وهتفت برجاء حار .

— آه يا ربى متى تنتهى كل شىء كأنه لم يكن ! ..

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة :

— ما الذى ذهب بها الى الغورية ؟ ! لو رجعت بعد الزيارة الى البيت مباشرة لما حدث لها الذى حدث !..

فدق قلب كمال خوفا وانزعاجا وتجسم ذنبه لعينيه جريمة نكراء ولكنه حاول التملص من الشبهات فقال بلهجة تنم عن لوم :

— أرادت أن تتمشى فى الطريق وعبثا حاولت أن اثنيها عن ارادتها ..

فحدجته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالرد عليه وكأنها امسكت اشفاقا وعطفا على وجهه الذى علاه الاصفرار ، ثم قالت لنفسها « حسبنا مانحن فيه الآن » ..

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول للشابين اللذين تبعاه :

— ينبغى أن اعودها يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، وكما قلت لكما لا داعى للخوف مطلقا ...

واقتحم الجميع الحجرة فرأوا أمهم قاعدة فى الفراش ، مسندة الظهر الى وسادة مكسورة وراءها ولم يكن ثمة تغيير الا ارتفاع فى كتف الفستان فوق منكبها الأيمن وشى بالرباط الذى تحته ، فهرعوا اليها ووقفوا

— الحمد لله ...

كم اشتد بها الألم والطبيب يعالج الكسر فأنت أنينا متواصلا ، ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليا ، ولكن زايلها الآن الألم ، أو هكذا بدا ، وشعرت براحة نسبية وسكينة ، بيد أن زوال حدة الألم مكنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت أن تفكر فى الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهى تردد بينهم بصرا زائغا :

— ماعسى أن أقول لأبيكم اذا رجع ؟

اعترض هذا السؤال - ساخرا متحديا - نسمات الطمأنينة التى سكنوا اليها كما تعترض الصخور الناتئة سبيل سفينة آمنة ، على انه لم يجىء مفاجأة لوعيهم ، بل لعله اندس فى زحمة المشاعر الأليمة التى ورت بها قلوبهم لدى ارتطامهـا بالخبر ولكنه ضاع فى زحمتها فتأجل حسابه الى حين ، الآن قد عاد ليحتل الصدارة من نفوسهم ، فلم يجدوا مهربا من مواجهته ، ورأوا بحق أنه اشد عليهم وعلى أمهم من الاصابة التى خرجت منها وشيكة الشفاء . وشعرت الأم - للصمت الذى قوبل به سؤالها - بعزلة المذنب اذا تخلى عنه رفاقه حين انكشاف تهمته فتمتمت بنبرات شاكية :

- سيعلم حتمـا بالحادث ، وسيعلم أكثر من هذا بخروجى الذى ادى اليه ..

ومع أن أم حنفى لم تكن دون افراد الأسرة قلقا ولا أقل ادراكا لخطورة الموقف الا أنها أرادت أن تقول كلمة طيبة ، تلطيفا للجو من ناحية ، ولأنها كانت تشعر من ناحية أخرى بأن الواجب يقضى عليهـا - كخادم الأسرة القديمة الأمينة - بألا تلوذ عند الشدائد بالصمت ان يظن بها عدم اكتراث ، فقالت وهى أدرى ببعد قولها عن الواقع :

- اذا علم سيدى بما وقع لك فلن يسعه الا أن يتناسى هفوتك حامدا الله على نجاتك ..

وقوبل قولها بالاهمـال الذى يستحقه عنـد قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية ، الا ان كمال آمن به ، وقال متحمسـا وكأنه يتم كلام أم حنفى ...

- خصوصا اذا قلنا له أن خروجنا كان لزيارة سيدنا الحسين ..

ورددت المرأة عينيها الخابيتين بين ياسين وفهمى وتساءلت :

- ماعسى أن أقول له ؟

فقال ياسين الذى هاضته شدة مسئوليته :

- اى شيطان اضلنى حين نصحت لك بالخروج ، كلمـة جرت على لسانى وليتها ماجرت ، ولكن هكذا شاءت الأقدار لترمى بنا فى هذا المأزق الأليم ، على اننى أقول لك بأننا سنجد ما نقوله ، وأيا كان الأمر فلا ينبغى أن تشغلى فكرك بما سيكون ، دعى الأمر لله ، وحسبك ماقاسيت فى يومك من آلام ومخاوف ...

تكلم ياسين بحماس وعطف معا ، فصب سخطه على نفسه ، وعطف على الأم عطف المتألم لحالها ، ومع أن كلامه لم يقدم ولم يؤخر الا أنه روح عن

شعوره الضيق بالحرج ، وأفصح به فى نفس الوقت عما عساه يدور فى عقول بعض – أو كل – من يقفون الى جانبه فأغناهم عن الافصاح عنه بأنفسهم .اذ أن التجربة علمته بأنه احيانا ما يكون السبيل خير السبيل للدفاع عن النفس هو فى الهجوم عليها وان الاعتراف بالذنب يغرى بالصفح بقدر ما يغرى الدفاع عنه بالغضب ، وكان الخوف ما يخاف أن تنتهز خديجة الفرصة السانحة لتحمله جهارا مسئولية ما ادت اليه مشورته وتتخذها سبيلا الى مهاجمته فسبقها الى غرضها قاطعا عليها الطريق ، ولم يكذب ظنه فالحق أن خديجة كانت على وشك أن تطالبه – بصفته المسئول الأول عما وقع – بأن يجد لهم مخرجا ، فلما أن القى خطابه استحيت من مهاجمته خاصة وانها لا تهاجمه عادة الا على سبيل النقار لا الكراهة ، بذلك تحسن موقفه بعض الشيء ولكن الموقف العام بقى على سوئه ، وظل كذلك حتى خرجت خديجة من صمتها قائلة :

– لماذا لا ندعى أنها سقطت على السلم ؟

فتطلعت اليها امها بوجه يتلهف على النجاة من اى سبيل ، وقلبته بين فهمى وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل « بيد أن فهمى تساءل فى حيرة :

– والطبيب ؟ . سيعودها يوما بعد يوم وسيقابل ابى بالضرورة ..

ولكن ياسين ابى ان يغلق الباب الذى تسللت منه نسمة امل حرية بأن تستنقذه من آلامه ومخاوفه فقال :

– نتفق مع الطبيب على ما ينبغى أن يقال لأبى ؟

وتبودلت النظرات بين التصديق والتكذيب ، ثم شاع فى الوجوه البشر للاحساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القاتم الى جو بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة السماوية فى دقائق معدودات ثم تضىء الشمس ، قال ياسين وهو يتنهد :

– نجونا والحمد لله ..

فقالت خديجة بعد ان استعادت فى الجو الجديد نشاطها المألوف :

– بل نجوت أنت يا صاحب المشورة ..

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال :

– أجل نجوت من عقرب لسانك ، طالما توقعت أن تمتد الى بين حين وآخر لتلسعنى ..

– ولكنها هى التى انقذتك ، ومن أجل الورد يسقى العليق ..

كادوا ينسون فى فرحة النجاة أن امهم طريحة الفراش مكسورة الترقوة ، ولكنها هى نفسها كادت أن تنسى ..

— ٢٩ —

فتحت عينيها فوقع بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين اليها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء ، فتنهدت ثم التفتت صوب النافذة فرأت خصاصها ينضح بضوء الضحى فتمتمت كالمستغربة :

— نمت طويلا ...

فقالت عائشة :

— ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن ، يالها من ليلة لن انساها مهما امتد بى العمر ..

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فنطقت عيناها بالرثاء — لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا الى جانبها طوال الليل يبادلانها الألم والأرق — وتحركت شفتاها وهى تستعيذ بالله بصوت غير مسموع ثم همست قائلة فيما يشبه الحياء ..

— شد ما أتعبتكما ..

فقالت خديجة بلهجة توحى بالدعابة :

— تعبك راحة ، ولكن اياك وأن تعودى الى اوعابنا .. (ثم بنبرات غلبها التأثر) .. كيف هاجمك ذاك الألم المخيف ؟ ! .. لقد حسبتك استغرقت فى النوم وانت على أحسن حال ، واستلقيت لأنام بدورى ، واذا بى استيقظ على أنينك ، ثم لم تمسكى عن آه .. آه .. حتى مطلع الفجر ...

وتهلل وجه عائشة بالتفاؤل وهى تقول :

— على أي حال أبشرى ، لقد أخبرت فهمى عن حالك حين سألنى عن صحتك فى الصباح فقال لى ان الألم الذى انتابك دليل على أن العظم المكسور كان آخذا فى الالتئام ..

وجذبها اسم فهمى من لجة أفكارها فتساءلت :

— ذهبوا بسلامة الله ؟

فقالت خديجة :

ـ طبعا ، كانوا يودون محادثتك ليطمئنوا عليك بانفسهم ولكنى لم أسمح لأحد بأن يوقظك من النوم الذى لم تدخليه حتى شيبتنا ..

فتنهدت الأم فى استسلام :

ـ الحمد لله على كل حال ، ربنا يجعل العواقب سليمة .. فى أى وقت نحن الآن ؟ ...

فقالت خديجة :

ـ كلها ساعة ويؤذن الظهر ..

ودعاها تأخر الوقت الى ان تخفض عينيها متفكرة ثم رفعتهما فاذا بهما تعكسان نظرة قلق ، وتمتمت :

ـ لعله الآن فى الطريق الى البيت ..

وادركتا من تعنى ، ومع انهما شعرتا بدبيب الخوف فى قلبيهما الا أن عائشة قالت بثقة :

ـ اهلا به وسهلا ،، لا داعى للقلق ، اتفقنا على ما ينبغى أن يقال وانتهى الأمر ...

ولكن اقتراب عودته اشاع فى نفسها المهزولة القلق فتساءلت :

ـ ترى هل يمكن التستر على ما وقع ؟

فقالت خديجة بصوت ارتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد :

ـ ولم لا ؟ .. سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام ..

تمنت فى تلك الساعة او بقى ياسين وفهمى الى جانبها ليشجعاها ، تقول خديجة سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام ، ولكن هل يظل ما وقع سرا مغلقا الى الأبد .. الا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها الى الرجل ؟ .. كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة ، ولا تدرى أى مصير يتربص بها .. ورددت عينيها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاها لتتكلم حين دخلت أم حنفى مهرولة وهى تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة :

ـ سيدى جاء يا ستى ...

وخفقت قلوبهن فى اضطراب ، وجلت الفتاتان عن الفراش فى وثبة واحدة ثم وقفتا حيال امهما يتبادلن جميعا النظر صامتات حتى غمغمت الأم ...

ـ لا تتكلما أنتما فانى أخاف عليكما مغبة مخادعته ، اتركا لى القول والله المستعان ..

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذى يركب اطفالا فى الظلام

اذا قرع آذانهم وقع أقــدام من يظنونهم عفاريت يجوسون فى الخارج ، حتى ترامى اليهن وقع أقدام السيد على السلم وهى تقترب فأزاحت الأم كابوس الصمت بشقة وغمغمت ..

ـ اذا تركناه صعد الى حجرته لم يجد احدا ؟ ! ..

ثم التفتت صوب أم حنفى قائلة :

ـ اخبريه بأننى هنا ، مريضة ، ولا تزيدى ..

وازدردت ريقها الجاف ، أما الفتاتان فمرقتا من الحجرة مستبقتين وغادرتاها وحيــدة ، ووجدت نفســها وكأنها فى عــزلة عن العــالم كله فاستسلمت للمقادير ، وكثيرا ما يبدو هذا الاستسلام فى سلوكها ـ الاعــزل من كل سـلاح ـ كأسـلوب من اساليب الشجاعة السلبية ، واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك فى سلامة تدبيرها لم يزايلها قط وكمن فى أعماق شعورها مغلنا عن ذاته بحـال من القلق والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه على ارض الصالة فغمغمت « رحمتك يارب وعونك » ثم تطلع بصرها الى الباب حتى اعترضه جسمه الطويل العريض ، ورأته وهو يدخل مقتربا ملقيا عليها نظرة متفحصة من عينيه الواسعتين حتى وقف فى منتصف الحجرة وهو يتســاءل بصوت خالته رقيقا على غير عادته :

ـ مالك ؟ ..

فقالت وهى تغض بصرها :

ـ حمد الله على سلامتك يا سيدى ، بخير ما دمت بخير ..

ـ لكن أم حنفى قالت لى انك مريضة ..

فأشارت بيسراها الى كتفها اليمنى وقالت :

ـ أصيب كتفى يا سيدى لا أراك الله سوءا .

فتساءل الرجل وهو يتفرس فى كتفها باهتمام وقلق :

ـ ماذا أصابه ؟

حم الأمر ، وجاءت الدقيقة الفاصـلة ، ما عليها الا أن تتـكلم ، ان تنطق بكذبة النجاة ، فتمــر الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح ، ورفعت عينيها وهى تتوثب ، فالتقت عيناها بعينيه ، أو بالأحرى غابت عيناها فى عينيه ، فاشتد وجيب قلبها ، وتتابع بلا رحمة ، هناك تبخر ما جمعته فى رأسها من رأى ، وانتثر ما كتلتــه فى ارادتها من عــزم ، ورمشت عيناها فى اضطراب وذهول ، ثم رنت اليه بطرف حائر دون ان تنبس بكلمة ، وعجب السيد لاضطرابها فتعجلها متسائلا :

ــ ماذا حدث يا أمينة ؟ !

لاتدرى ماذا تقول ، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات فى حكم اليقين انه لم يعد بوسعها أن تكذب ، أفلتت الفرصة دون أن تدرى كيف ، ولو انها أعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشـوفة ، كانت كمن يسير وهو منوم تنويما مغناطيسيا على حبل اذا دعى الى اعادة مخاطرته وهو صاح ، وكلما مرت الثوانى غاصت فى الارتباك والهزيمة حتى اشفت على اليأس ..

ــ لماذا لا تتكلمين ؟ ..

ها هى لهجته قد بدات تنم عن نفاد صـبر ولا يبعد أن تفعقع قريبا بالغضب ، رباه لشد ماهى فى حاجة الى العون ، اى شيطان اغواها بتلك الخرجة المشئومة ..

ــ عجبا الا تريدين أن تتكلمى ؟ ! ..

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتمت بصوت متهدج مدفوعة باليأس والقهـر ..

ــ اخطأت خطأ كبيرا يا سيدى .. صدمتنى سيارة ..

واتسعت عينا السيد دهشة ولاح فيهما انزعاج مقـرون بالانكار .. وكأنه بات يشك فى صحة قواها العقلية ، ولم تعد المراة تحتمل التردد وصممت على أن تبوح باعترافها كاملا مهما تكن العواقب ، كمن يقدم ــ مغامرا بحياته ــ على اجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من آلام داء لا قبل له به ، وتضاعف عند ذلك شـعورها بفداحة الذنب وخطـورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تعن باخفاء نبراته الباكية اما لأنه غلبها على صوتها او لأنها ارادت أن تبذل محاولة يائسة لاسـتدرار العطف ..

ــ ظننت أن سـيدنا الحسين يدعونى الى زيارته فلبيت .. ذهبت للزيارة .. وفى طريق العودة صدمتنى سيارة .. قضاء الله ياسيدى .. ولقد نهضت من سـقطتى دون معاونة احد (قالت العبـارة الاخيرة بوضـوح) ولم اشـعر بادىء الأمر باى الم فحسبتنى بخير وواصلت السـير حتى عدت الى البيت ، وهنا تحرك الألم فاحضروا لى الطبيب ففحص كتفى وقرر أن به كسرا ووعد بأن يعودنى يوما بعـد يوم حتى يجبر الـكسر ، لقد اخطأت خطأ كبيرا يا سـيدى وجوزيت عليـه بما أستحق .. والله غفور رحيم ..

أنصت السيد اليها صامتا جامدا ، ثم تتحول عنها عيناه ، ولم يبد

فى وجهه أثر مما يعتلج فى صدره على حين نكسبت هى راسها فى تخشع بحال من ينتظر النطق بالحكم ، وطال الصمت ، واشتد ، وشاعت فى جوه المقبض نذر الخوف والوعيد ، وتحيرت من أمره لا تدرى عن أى قضاء يتمخض ولا الى أى مصير يقذف بها ، حتى جاءها صوته وهو يقول فى هدوء غريب :

- وماذا قال الطبيب ؟ .. هل ثمة خطر على الكسر ؟..

فالتفت راسها صوبه بذهول .. أجل توقعت كل شىء الا أن يجود بهذا القول اللطيف ، ولولا رهبة الموقف لاستعادته لتتوكد من صحة ما سمعت وغلبها التأثر فطفرت من عينيها دمعتان غزيرتان فشدت على شفتيها أن تفحم فى البكاء ، ثم غمغمت فى ذل وانكسار :

- قال الطبيب انه لا داعى للخوف مطلقا ، نجاك الله من كل سوء يا سيدى ..

ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه الى المزيد من السؤال حتى تغلب عليها فتحول عن موقفه ليغادر الحجرة وهو يقول :

- الزمى فراشك حتى يأخذ الله بيدك ..

- ٣٠ -

هرعت خديجة وعائشة الى الحجرة بعد ذهاب والدهما ، ووقفتا حيال أمهما تنظران اليها بعينين مستطلعتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق ، ثم لاحظتا احمرار عينيها من اثر البكاء ، فوجمتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم :

- خير ان شاء الله ؟..

فلم تعد الأم أن قالت باقتضاب وهى ترمش بعينيها ارتباكا :

- اعترفت له بالحقيقة ..

- الحقيقة !..

فقالت باستسلام :

- لم يسعنى الا الاعتراف ، فما كان من الممكن أن يخفى الأمر عنه الى الأبد ، وحسنا فعلت ..

فدقت خديجة صدرها بيدها وهتفت :

- يا نهارنا الاسود ..

على حين بهتت عائشة فحملقت فى وجه امها دون أن تنبس بكلمة ، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء ، وتورد وجهها الشاحب وهى تستعيد ذكرى العطف الذى شملها به حين لم تكن تتوقع الا غضبا كاسحا يعصف بها ويستقبلها .. أجل شعرت بزهو وحياء وهى تتهيأ للحديث عن عطف السيد عليها فى محنتها وكيف نسى غضبه فيما اعتراه من تأثر واشفاق ، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ كان بى رحيما أطال الله عمره ، انصت الى قصتى صامتا ، ثم سألنى عن رأى الطبيب فى خطورة الكسر وغادرنى وهو يشير على أن الزم الفراش حتى يأخذ الله بيدى ..

وتبادلت الفتاتان النظرات فى دهشة وعدم تصديق ولكن زايلهما الخوف سريعا فتنهدتا فى ارتياح عميق واضاء وجهاهما بالبشر ، وهتفت خديجة :

ـ ارايت بركة الحسين ؟

وقالت عائشة بخيلاء :

ـ لكل شىء حدود حتى غضب بابا ، ما كان يسعه أن يغضب وهو يراها على هذه الحال ، الآن عرفنا قيمتها عنده .. (ثم مخاطبة أمها فى دعابة) .. يالك من ام محظوظة ، هنيئا لك التكريم والعطف !

فعاود وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء :

ـ أطال الله عمره .. (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة !

وتذكرت أمرا فالتفتت الى خديجة وقالت باهتمام :

ـ يجب أن تلحقى به لأنه سيحتاج الى خدمتك حتما ..

وشعرت الفتاة ـ لما يركبها فى محضر أبيها من الارتباك والاضطراب ـ كأنها وقعت فى شرك ، فقالت محتدة :

ـ ولماذا لا تذهب عائشة ؟ !

ولكن الأم قالت فى عتاب :

ـ أنت اقدر على خدمته ، لا تتلكئى يا شابة اذ ربما يكون فى حاجة اليك الآن ..

وكانت تعلم ان احتجاجها لن يغنى عنها شيئا كما لا يغنى عنها عادة كلما دعيت الى اداء واجب ترى الأم انها اقدر عليه من اختها ، ولكنها أصرت على اعلانه كما تصر عادة على اعلانه فى أمثاله من المواقف ، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب ، وجريا مع نزعتها العدوانية التى تجد من لسانها أطوع أداة واحدها ، ثم لتحمل امها على اعادة القول بانها « اقدر

على كيت وكيت من عائشة » كاقرار من أمها وانذار لشقيقتها وعزاء لها هى نفسها ، والحق انه لو حدث أن عهدت الأم بواجب من هذه الواجبات « الخطيرة » لعائشة دونها لثارت ثورة اشد ، ولحالت بينها وبينه ، ما دامت تجد ــ فى أعماق قلبها ــ ان القيام بهذه الواجبات حق من حقوقها وامتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأمها فى البيت ، ولكنها ابت فى الوقت نفسه أن تعترف جهارا بأنها تمارس ــ بالقيام بها ــ حقا من حقوقها ولكن واجبا ثقيلا تقبله مضطرة ، حتى تدعى اليه ــ اذا دعيت ــ فى حرج من الداعى ، ولتحتج عليه ــ اذا احتجت ــ فى غضب يروح عن نفسها ، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذى تود ؛ ثم ليحسب لها بعد ذلك كله جميلا تستحق من أجله الشكر !.. ولذلك غادرت الحجرة وهى تقول :

ــ فى كل مأزق تنادين خديجة ، كأنه لا يوجد أمامك غير خديجة . ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة !

ولكن خيلاءها تخلى عنها بمجرد مغادرتها للحجرة وحلت محله رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتى الها أن تمثل بين يدى الرجل ، وكيف تقوم على خدمته ، وماذا تلقى منه اذا تلجلجت أو إبطأت أو اخطأت ؟! على أن السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه ، ولما وقفت بالباب تسأله عما هو فى حاجة اليه أمرها بأن تصنع له فنجان قهوة ، فبادرت تعدها ثم قدمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء .. ورجعت الى الصالة فمكثت بها لتكون رهن اشارته اذا دعاها فلم يفارقها احساس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها ان تواصل خدمته طوال الساعات التى يقضيها فى البيت يوما بعد يوم حتى تنقضى الأسابيع الثلاثة ؟! .. وبدا لها الأمر شاقا حقا وأدركت لأول مرة خطورة الفراغ الذى تسده أمها فى البيت فدعت لها بالشفاء ، حبا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من ناحية أخرى .

ومن سوء حظها أن السيد شعر برغبة فى الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب الى الدكان كما كانت تأمل ، واضطرت تبعا لذلك ان تبقى فى الصالة كالسجينة ، وفى أثناء ذلك صعدت عائشة الى الدور الأعلى وتسللت الى الصالة حيث تجلس أختها دون أن تحدث صوتا لتريها نفسها وتغمز لها بعينها على سبيل التنديد بحالها ثم تعود الى أمها تاركة اياها وهى تغلى من الغيظ اذ كان مما يحنقها أشد الحنق أن يعابثها أحد بالمزاح وان لذ لها هى أن تعابث الجميع بمزاحها ، ولم تسترد حريتها ـ

الى حين طبعا — الا عندما أسلم السيد جنبه للنوم فطارت الى أمها وانشأت تحدثها عما قدمت لأبيها من خدمات حقيقية ووهمية وتصف لها ما قرأت فى عينيه من آى العطف والتقدير لخدماتها !.. ولم تنس ان تعرج على عائشة فتنهال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرف صبيانى ، ثم عادت الى الأب بعد استيقاظه فقدمت له الغداء ، ولما فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتا غير قصير ثم دعاها اليه وطلب اليها ان تبعث له بياسين وفهمى بمجرد رجوعهما الى البيت ..

وقلقت الأم للطلب وخافت أن يكون قد حز فى نفس الرجل غضب مكظوم وانه يروم الآن — فى الشابين — متنفسا عن غضبه ، ولما جاء ياسين وفهمى وعلما بما كان ثم بلغا أمر ابيهما بمقابلته دار بخاطرهما ما دار بخاطر المراة من قبل وذهبا الى حجرته وهما يتوجسان خيفة ، ولكن الرجل خيب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألهما عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب فحدثاه طويلا بما يعلمان وهو يصغى اليهما باهتمام ، وفى النهاية سألهما :

— اكنتما فى البيت حين خروجها ؟

ومع ان هذا السؤال كان متوقعا لهما من بادىء الأمر الا أنه وقع من نفسيهما — بعد الهدوء العجيب غير المنتظر — موقع الانزعاج فخافا ان يكون مقدمة لتغيير طبقة النغمة التى ارتاحا اليها ارتياح النجاة ، ولم يسعهما الكلام فلاذا بالصمت .. بيد أن السيد لم يلحف فى السؤال وكأنه لم يعبأ بسماع الجواب الذى استنتجه مقدما ، أو لعله اراد ان يسجل عليهما الخطأ بلا اكتراث باقرارهما به .. ولم يزد بعد ذلك على أن يشير الى باب الحجرة اذنا لهما بالانصراف ، وعندما مضيا الى الخارج سمعاه يقول مخاطبا نفسه :

— ما دام الله لم يرزقنى رجالا فليهبنى الصبر .

ومع أن الظواهر دلت على أن الحادث قد هز نفس السيد حتى غير المألوف من سلوكه تغيرا دهش له الجميع الا انه لم يستطع ان يثنى ارادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية !.. فما جاء المساء حتى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشرا بين يديه شذا طيبا ، الا انه مر فى طريقه الى الخارج بحجرة الأم وسأل عنها فدعت له طويلا ممتنة شاكرة .. لم تر فى ذهابه الى سهرته — وهى طريحة الفراش — تجافيا للعطف ، ولعلها وجدت فى مروره بها وسؤاله عنها تكريما فاق ما كانت

تنتظر ، بل أليس مجرد امتناعه عن صب غضبه عليها منة لم تكن تحلم بها ؟.. وكان الاخوة - قبل مبارحته حجرته - قد تساءلوا « ترى هل يعدل الليلة عن سهرته ؟ » ولكن الأم أجابت قائلة « ولماذا يبقى بعد أن علم أن الحال مطمئنة ؟! » ولعلها تمنت فيما بينها وبين نفسها لو يتم نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزوج أصيبت زوجه بما أصيبت هي به ، ولكنها كانت أدرى بطبعه فسبقت بانتحال العذر له حتى اذا انطلق الى سهرته كما تتوقع امكنها - مداراة لموقفها - ان تسوغ انطلاقه بالعذر الذى انتحلت لا بقلة الاكتراث ؟ ولكن خديجة قالت : « كيف يطيق السهر وهو يراك على هذه الحال ؟ » فأجابها ياسين : « لا عليه اذا فعل مادام قد اطمأن عليها ، حزن الرجال غير حزن النساء ، وذهاب الرجل الى سهرته لا يتنافى مع حزنه ، بل لعل التفريج عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته الشاقة » ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته فى الانطلاق التى بدأت تتحرك فى أعماقه ، الا ان مكره لم يجز على خديجة فسألته : « هل تطيق أنت مثلا ان تسهر فى قهوتك الليلة ؟ » فبادرها قائلا وهو يلعنها فى سره « طبعا لا ، ولكن أنا شيء وبابا شيء آخر ! » .

ولما فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذى يعقب النجاة من خطر محقق فتألق محياها بابتسامة وقالت :

- لعله رأى أن جزائى كفاف ذنبى فعفا عنى ، عفا الله عنه وعنا جميعا ..

فضرب ياسين كفا بكف وهو يقول محتجا :

- ان رجالا غيورين مثله ، منهم أصدقاء له ، لا يرون بأسا فى السماح لنسائهم بالخروج كلما دعت ضرورة أو مجاملة ، فما باله يقيم لكن من البيت سجنا مؤبدا ؟

فلحظته خديجة بهزء وسألته :

- لم لم تلق بدفاعك هذا وانت بين يديه ؟!

فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجت كرشه ثم أجابها قائلا :

- يلزمنى مثل انفك أولا كى أدافع به عن نفسى عند الضرورة ..

وتتابعت أيام الرقاد ، فلم يعاودها الألم الذى هصرها أول ليلة وأن تهدد جذعها وكتفها الوجع لأقل حركة تأتيها ، ثم تقدمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القوية وحيويتها الدافقة التى تكره بطبعها السكون والقعود مما جعل الاذعان لأوامر الطبيب مهمة شاقة غطى

عذابها على آلام الكسر ابان احتدامها ، ولعلها لولا تشـــدد الأبناء فى مراقبتها لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلى لأمورها .. على ان رقادها لم يمنعهما من نشر الرقابة على شـئون البيت من فراشـها ، ومراجعة الفتاتين بدقة متعبة فيما يعهد اليهما به .. خاصة عن دقائق الواجبـات التى تخاف عليها الاهمـال أو النسـيان ، فتسأل وتلح فى السؤال « هل نفضت أعلى الستائر ؟.. وخصاص الشبابيك ؟.. هل بخرت الحمام لأبيك ؟... هل سقيت اللبلاب والياسمين ؟ » الأمر الذى أحنق خديجة مرة فقالت لها « اعلمى أنك اذا كنت تعنين بالبيت قيراطا فانى اعنى به اربعة وعشرين » .. والى هذا كله اورثها تخليها الاجبارى عن مركزها المرموق شعورا معقدا عانت منه كثيرا ، فربما تساءلت ترى ألم يفقد البيت — أو أحد من أهله — بتخليها عنه شـيئا من نظامه او راحته ؟! .. وأيهما يا ترى أحب اليها ، ان يبقى كل شىء كما كان بفضل فتاتيها — غرس يديها — أم أن يختـل شىء من توازنه يكون خليقا أن يذكر الجميع بالفراغ الذى خلفتـه وراءها ؟! . وهب السـيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذلك مدعاة لتقديره لأهميتها او استخطائه على ذنبها الذى جر هـذا كله ؟!.. تحيرت المرأة طويلا بين عاطفتهـا السيتجيبة نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيها ، ولكن المحقق أنه لو اختل شىء من النظام لأحدث لها كربا شديدا ، كما أنه لو حافظ على كماله كأن لم يطرأ نقص لما خلت من ضيق ..

أما الواقع فهو أن فراغها لم يسده أحد ، واثبت البيت انه اكبر من الفتاتين على نشـاطهما واخلاصهما .. ولم تسر الأم لهذا لا فى الظاهر ولا فى الباطن ، توارى شعورها نحو ذاتها ، ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعا جارا صادقا ، ثم ركبها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبرا على الزوائها ..

- ٣١ -

وفى فجر اليوم الموعود الذى انتظرته طويلا هبت من الفراش فى خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود الى عرشه بعد نفى ... ونزلت الى حجرة الفرن متداركة عادتها التى انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت ام حنفى ، واستيقظت المرأة وهى لا تصدق اذنيها ، ثم نهضت الى سيدتها فعانقتها ودعت لها ، ثم باشرا عمل الصباح فى سرور لا يوصف ، وعند شروق اول شعاع للشمس صعدت الى الدور الأول فتلقاها الأبناء بالتهانى والقبل ، ثم مضت الى حيث ينام كمال فأيقظته : وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهشة وفرحا ، ثم تعلق بعنقها ولكنها بادرت الى التخلص من ذراعيه برقة وهى تقول :

ـ الا تخاف أن ترد كتفى الى ما كان عليه ؟..

فأمطرها قبلا ، ثم ضحك متسائلا فى خبث :

ـ متى يا عزيزتى نخرج معا مرة أخرى ؟!

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

ـ عندما يهديك الله فلا تسوقنى رغم ارادتى الى الطريق الذى كدت أهلك فيه ..!

وأدرك أنها تشير الى عناده الذى كان السبب المباشر فيما وقع لها فضحك ملء فيه ضحك مذنب واتته النجاة بعد ان ظل ذنبه معلقا فوق رأسه ثلاثة أسابيع ، أجل لشد ما خاف أن يجر التحقيق الذى باشره اخوته الى معرفة الجانى المستتر ، وقد أوشكت الريبة التى سلطتها عليه خديجة حينا وياسين حينا آخر أن تكشفه فى الركن المنزوى فيه لولا صمود امه فى الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسئولية الحادث وحدها ، فلما انتقل التحقيق الى يدى والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى ان يدعى الى مقابلته ، هذا الى عذابه ـ طوال الأسابيع الثلاثة ـ وهو يرى أمه المحبوبة طريحة الفراش ، شديدة العناء ، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معا .. الآن مضى الحادث ، ومضت فى أثره عقابيله ، وانتهى التحقيق ، وعادت امه توقظه فى الصباح ، وسوف تنيمه فى المساء ، رجع كل شىء الى اصله ، ونشر الأمان ألويته ، فحق له أن يضحك ملء فيه وان يهنىء ضميره على الراحة المتاحة ..

وغادرت الأم الحجرة فصعدت الى الدور الأعلى ، ولما تدانت من باب حجرة السيد ترامى اليها صوته وهو يردد فى صلاته « سبحان ربى العظيم » فخفق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمترددة ، ثم وجدت نفسها تتساءل « أتدخل لتصبح أو الأجدر أن تعد مائدة الفطور أولا ؟ » لا على سبيل التساؤل حقا ولكن فرارا مما شاع فى نفسها من الخوف و الخجل أو كليهما معا ، كما يقع للانسان أحيانا ان يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راهنة يشق عليه فضها ... ومضت الى حجرة المائدة فاقبلت على العمل بعناية مضاعفة ، الا ان قلقها تزايد ، فلم تنتفع بمهلة التأجيل التى اقتنصتها ، ولم تجدها راحة كما املت ولكن محنة انتظار اشد عناء من الموقف الذى نكصت عن مواجهته .. وعجبت كيف جفلت من دخول « حجرتها » كأنها كانت تهم بدخولها لأول مرة ، خاصة وان السيد لم ينقطع عن زيارتها يوما بعد يوم فى أثناء رقادها ، ولكن الحق ان برءها رفع عنها الحماية التى ضربها حولها المرض فشعرت بانها ستلقاه بمفردها لأول مرة مذ كشفت خطيئتها .. ولما جاء الأبناء تباعا خفت وحشتها قليلا ، وما لبث ان دخل السيد الحجرة فى جلبابه الفضفاض ولكن لم يبد فى وجهه أثر لدى رؤيتها ، وقال بهدوء وهو يتجه الى مكانه فى المائدة :

ـ جئت ..؟ (ثم مخاطبا الأبناء وهو يتخذ مجلسه) .. اجلسوا ..

واخذوا فى تناول فطورهم على حين وقفت هى بمكانها المعتاد ، ومع ان الخوف تناهى بها حال دخوله الا انها مضت تسترد انفاسها بعد ذلك ، أى بعد ان تم أول لقاء بعد الشفاء ومر بسلام ، وشعرت عند ذاك بانها لن تجد مشقة فى الانفراد به فى حجرته عما قليل .. وانفضت المائدة فعاد السيد الى حجرته ، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينية القهوة التى وضعتها على الخوان وتنحت جانبا فى انتظار فراغه من احتسائها لتساعده على ارتداء ملابسه .. وحسا السيد قهوته فى صمت عميق ، لا ذاك الصمت الذى يقع عفوا أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدر فارغ من شئون الحديث ، ولكنه صمت صامت مسربل بالتعمد ، ولم تكن تعدم أملا ـ ولو ضعيفا ـ فى ان يتعطف عليها بكلمة رقيقة ، أو فى الأقل أن يلم بشأن من شئون حديثه المعتاد فى مثل هذه الساعة من الصباح ، فحيرها صمته المتعمد وعادت تسائل نفسها ترى الا يزال بنفسه شىء ، واخذ القلق ينشب ابره فى قلبها مرة اخرى ، على أن الصمت الغليظ لم يمتد طويلا .. كان الرجل يفكر فى سرعة

وتركيز لم يذق معهما طعمـــا . لا ذاك التفـكير الذى ينبعث من وحى الساعة ، ولكن آخر عنيدا قديما لم يزايل نفسه طوال الأيام المنقضيـة . . واخيرا تساءل دون ان يرفع رأسه عن فنجان القهوة الفارغ :

ـ أستردت صحتك ؟

فقالت امينة بصوت خفيض :

ـ الحمد لله يا سيدى . .

فاستطرد الرجل قائلا بمرارة :

ـ انى أعجب ـ وهيهـات أن ينتهى لى عجب ـ كيف أقدمت على فعلتـك !

فدق قلبها بعنف واطرقت فى وجوم . . لم تكن تطيق غضبـه وهى تدافع عن خطأ ارتكبه غيرها فـكيف بها الآن وهى المذنبـة ! . . وعقـل الخوف لسانها ولكنه بانتظار الجواب فواصل حديثه متسائلا فى استنكار :

ـ أكنت مخدوعا بك طوال هذه السنين وأنا لا ادرى ؟!

عند ذاك بسطت راحتيها فى جزع والم وهمست بأنفاس مضطربة :

ـ أعوذ بالله يا سـيدى ، ان خطئى كبير حقا ولكنى لا استحق هذا القول . .

ولكن الرجل واصل حديثـه بهدوئه الرهيب الذى يهون الى جانبه الزعيق قائلا :

ـ كيف اقترفت هـذا الخطأ الـكبير ! . . الأنى ابتعدت عن البـلد يوما واحدا ؟ !

فقالت بصوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التى ملكت جسمها :

ـ اخطأت يا سـيدى ، وعندك العفو ، كانت نفسى تتوق الى زيادة سـيدنا الحسين ، وحسبت أن زيارته المبـاركة تشفع لى فى الخروج ولو مرة واحدة . .

فهز رأسه فى شىء من الحدة كأنما يقول « لا فائدة ترجى من الجدال » ثم رفع اليها عينيه متجهما ساخطا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة :

ـ ليس عندى الا كلمة واحدة : غادرى بيتى بلا توان . .

هوى أمره على رأســـها كالضربة القاضـــية فبهتت لاتنبس بكلمة . ولا تستطيع حراكا ، طالمـا توقعت فى أشد أوقات محنتها ـ وهى تنتظر عودته من رحلة بور سعيد ـ الوانا من المخاوف ، كان يصب عليها غضبه أو يصمها بزعيقه وسـبابه ، حتى الضرب لم تستبعده ، اما الطرد من البيت فلم يزعج لها خاطرا ، لا لشىء الا أنها سكنت الى معاشرته خمسة

وعشرين عاما فلم تتصور ان ثمة سببا يمكن أن يفرق بينهما أو ينتزعها من البيت الذى صارت جزءا منه لا يتجزأ .. اما السيد فقد تخلص - بكلمته الاخيرة - من عبء فكر دوخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية .. وقد بدأ الصراع فى اللحظة التى اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهى طريحة الفرش ، لم يصدق أذنيه لأول وهلة ، ثم اخذ يفيق الى نفسه والى الحقيقة البغيضة التى تطالعه متحدية كبرياءه وصلفه ، بيد انه اجل حنقه ريثما يرى ما اصابها ، او انه - وهو الأصدق - لم يسعه أن يفكر فيما تحدى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المرأة التى يألفها ويعجب بمزاياها فعطف عليها عطفا انساه خطاها وسأل الله لها السلامة ، انكمش جبروته حيال الخطر المحدق بها واستيقظ ما تنطوى عليه نفسه من حنان موفور فعاد - يومذاك - الى حجرته محزونا مكتئبا وان لم يفصح وجهه .. لا امامها ولا أمام أحد من الابناء - عن شيء مما يعتلج فى صدره .. الا انه مضى يستعيد طمأنينته وهو يراها تتماثل للشفاء بخطى سريعة ثابتة . ومضى بالتالى يعيد النظر الى الحادث كله - أسبابه ونتائجه - بعين جديدة أو بالأحرى بالعين القديمة التى اعتاد أن ينظر بها فى بيته ، فكان من سوء الحظ - حظ الأم طبعا - أن يعيد النظر فى هدوء وهو خال الى نفسه ، وان يقتنع بانه اذا غلب العفو ولبى نداء العطف - وهو ما نزعت اليه نفسه - فقد اضاع هيبته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعا فافلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التى يأبى الا ان يسوسها بالحزم والصرامة ، وبالجملة لن يكون فى تلك الحال احمد عبد الجواد ولكن شخصا آخر لن يرتضى أن يكونه أبدا .. أجل كان من سوء الحظ ان يعيد النظر فى هدوء وهو خال الى نفسه ، اذ لو اتيح له أن ينفس عن غضبه حين اعترافها لانفثأ حنقه ومر الحادث دون أن يسحب وراءه عواقب خطيرة ، ولكنه لم يسعه الغضب فى وقته كما لم يكن مما يرضى كبرياءه أن يعلن غضبه عقب شفائها - بعد هدوء دام ثلاثة اسابيع ... اذ أن هذا الغضب يكون أقرب الى الزجر المتعمد منه الى الغضب الحقيقى ، ولما كانت حساسيته الغضبية تستعر عادة عن طبع وتعمد معا ، ولما كان الجانب الطبيعى منها لم يجد متنفسا فى حينه فقد وجب على الجانب المتعمد - وقد اتيحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير - ان يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب ، هكذا انقلب الخطر الذى تهدد حياتها حينا والذى امنها من

غضبه بما أثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبر والتفكير . . ونهض مقطبا فولاها ظهره مستقبلا ملابسه على الكنبة ثم قال بجفاء :

ـ سأرتدى ملابسى بنفسى . .

كانت لم تزل متسمرة فى مكانها ذاهلة عما حولها فافاقت على صوته : وسرعان ما ادركت من قوله ووقفته انه يأمرها بالانصراف فاتجهت نحو الباب فى خطى لا وقع لها ، وقبل أن تجاوزه ادركها صوته وهو يقول :

ـ لا احب أن أجدك هنا اذا عدت ظهرا .

- ٣٢ -

خارت قواها فى الصالة فارتمت على طرف كنبة وكلماته القاسية الحاسمة تتردد فى باطنها ، ليس الرجل هازلا ، ومتى كان هازلا ؟ ! ولم تستطع مبارحة مكانها ـ على رغبتها فى الفرار ـ أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الأبناء الذين لا تحب لهم ان يستقبلوا يومهم أو يذهبوا الى اعمالهم متجرعين خبر طردها ، وثمة احساس آخر ـ لعله الحياء ـ اقعدها عن ان تلقاهم فى ذل المطرود وقررت أن تبقى حيث هى حتى يغادر البيت ، أو أن تأوى الى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى لا تقع عليها عيناه اذا مضى الى الخارج فتسللت الى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلتة ساهمة واجمة ترى ماذا يعنى ؟ . . أيطردها الى حين ام الى الأبد ؟ انها لا تصدق انه ينوى تطليقها . هو أكرم من هذا وانبل ، أجل انه غضوب جبار ولكن من الاسراف فى التشاؤم أن تغيب عنها أى شهامته ومروءته ورحمته ؛ وهل تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد ؟ . . وكيف عادها يوما بعد يوم مستفسرا عن صحتها ؟ . . مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن يخرب بيتا أو يكسر قلبا او ينزع أما من بين أبنائها . وجعلت تدير هذه الأفكار فى رأسها كأنما لتدخل بها بعض الطمأنينة الى نفسها المزعزعة ، وألحت فى هذا الحاحا ان دل على شىء فعلى أن الطمأنينة لا تريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزيدون تغنيا بقوتهم كلما زادوا احساسا بضعفهم اذ كانت لا تدرى ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تعنى

الحياة لها لو خاب الرجاء ونفذ المحذور . وترامى الى اذنيهـا وقع عصاه على أرض الصالة وهو يمضي خارجا فاطار أفكارها وانصتت باهتمام تتابعه حتى غاب . وشعرت عند ذاك بالم جارح لحالها وسخط على الارادة المتحجرة التى لم ترع لضعفها حقا ، ثم نهضت فيما يشبه الاعياء وغادرت الحجرة لتنزل الى الدور الأول فجاءتها عند راس السلم اصوات الأبناء وهم ينزلون تباعا فمدت راسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمي وكمال وهما يتبعان ياسين الى الباب المفضى الى الفناء ، هنالك غمزت خطرة من الحنان قلبها فاذهلته ، وعجبت لنفسها كيف تركتهما يذهبان دون ان تودعهما ، أليست قد تحرم عليها رؤيتهما أياما او أسابيع ؟ وربما لا تراهما مدى العمر الا لماما كالغرباء ؟ .. وعاودها غمز الحنان متتابعا وهى بموقفها من السلم لا تريم ، بيد أن قلبها — على امتلائه — كبر عليه أن يصدق أن يكون هذا المصير الأسود نصيبها المقدور ، لايمانها اللانهائى بالله الذى حفظها فى وحدتها العابرة من العفاريت نفسها ، ولثقتها برجلها التى تأبى أن تنهار ، ولأنها لم يصبها فى حياتها الماضية شر خطير خليق بان يسلبها الطمانينة الى الحياة الوادعة فمالت نفسها الى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمر بها دون ان تنشب فيها ، ووجدت خديجة وعائشة مشتبكين فى جدال كعادتهما ولكنها نزعتها عما كانتا فيه حين راتا وجومها ونظرة عينيها الخابية ، ولعلهما خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألتها خديجة فى قلق :

— ماذا بك يا نينة ؟

— لا ادرى والله ماذا أقول .. انى ذاهبة ...

ومع أن العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محددة الهدف الا أنها اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبراتها الشاكية معنى حالكا ريعتا له فهتفتا معا :

— الى أين ؟!

فقالت بانكسار وهى تشفق سلفا من وقع كلامها من اذنيهما بل ومن اذنيها هى نفسها :

— الى أمى ..

فهرعتا اليها مذعورين وهما تقولان :

— ماذا تقولين ؟ .. لا تعيدى هذا القول .. ماذا جرى ؟!

وجدت فى فزع فتاتيها عزاء ولـكنه كشأنه فى مثل هذا الموقف فجر اشجانها فقالت بصوت متهدج وهى تمانع دموعها :

ـ لم ينس شيئا ولم يعف ، رددت هذا بأسى دل على عمق حزنها) .. كان يضمر لى الغضب ويؤجله ريثما ابرأ ، ثم قال لى غادرى بيتى بلا توان ، وقال لى أيضا لا احب ان اجدك هنا اذا عدت ظهرا ، ثم بلهجة تنم عن عتاب اسيف وخيبة أمل ، سمعا وطاعة .. سمعا وطاعة .

فصاحت خديجة بحال عصبية :

ـ لا أصدق ، لا أصدق ، قولى قولا آخر . . ماذا جرى للدنيا ؟ !

وصاحت عائشة بصوت متهدج :

ـ لن يكون هذا أبدا ، أهانت عليه سعادتنا جميعا لهذا الحد ؟!

وعادت خديجة تتساءل فى حدة وحنق :

ـ ماذا يقصد !.. ماذا يقصد يا نينة ؟

ـ لا أدرى ، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان ..

اكتفت أول وهلة بهذا القول ، ولعلها رغبت بالاقتصار عليه ان تستزيد من عطفهما وتتعزى بجزعهما ، ولـكن غلبها الاشفاق من ناحية والرغبة فى طمانة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة :

ـ لا اظنه يقصد أكثر من ابعادى عنكم أياما عقابا لى على ما فرط منى ..

فتساءلت عائشة محتجة :

ـ اما كفاه ما وقع لك ؟ !

فتنهدت الأم محزونة وغمغمت قائلة :

ـ الأمر لله .. يجب الآن ان أذهب ..

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهى تقول بصوت مختنق بالبكاء :

ـ لن ندعك تذهبين ، لا تتركى بيتك ، فلا أظنه يصر على غضبه اذا عاد ووجدك بيننا ..

وقالت عائشة برجاء :

ـ انتظرى حتى يعود فهمى وياسين ، ولن يرضى ابى أن ينتزعك من بيننا جميعا ..

ولكنها قالت فيما يشبه التحذير :

ـ ليس من الحكمة فى شىء أن نتحدى غضبه ، فمثله من يلين بالطاعة ويشتد بالعصيان ..

وهمتا بالاعتراض مرة أخرى ولكنها اسكتتهما باشارة من يدها واستطردت قائلة :

ـ لا جدوى من الكلام ، لا بد من الذهاب ، ساجمع ثيابي وارحل ، لا تجزعا ، لن يطول افتراقنا ، وسنجتمع مرة أخرى ان شاء الله . .

وانتقلت المرأة الى حجرتها بالدور الثاني والفتاتان فى أعقابها وهما تبكيان كالأطفال ، وأخذت تخرج ملابسها من الصوان حتى امسكت خديجة بيدها وسألتها بانفعال :

ـ ماذا تفعلين ؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام ان تفضحها نبراتها أو تستسلم للبكاء الذى صممت على مقاومته ما دامت بمرأى من ابنتيها ، فأشارت بيدها كأنها تقول « الحال يوجب ان اجمع ملابسى » ولكن خديجة قالت بحدة :

ـ لن تأخذى معك الا تغييرة واحدة . . واحدة فقط . .

فندت عنها تنهدة . ودت فى تلك اللحظة لو يكون الأمر كله حلما مزعجا ، ثم قالت :

ـ اخاف أن تثور ثائرته اذا رأى ملابسى بمكانها . .!

ـ سنحفظها عندنا . .

وجمعت عائشة الثياب الا تغييرة واحدة كما اقترحت اختها فأذعنت الأم لهما فى ارتياح عميق كأن بقاء ملابسها فى البيت مما يثبت لها حقا فى العودة اليه ، ثم جاءت ببقجة وصرت فيها الملابس التى سمح لها بها ، وجلست على الكنبة لتلبس جوربها وحذاءها والفتاتان حيالها تنظران فى حزن ذاهل حتى رق قلبها لهما فقالت متكلفة الهدوء :

ـ سيعود كل شيء الى اصله ، تشجعا حتى لا تستفزا غضبه ، انى اعهد اليكما بالبيت والله ولى كل الثقة فى كفاءتكما ، ولا شك عندى فى انك ستجدين من عائشة كل معاونة ، قوما بما كنا نقوم به معا كما لو كنت معكما ، كلتاكما شابة خليقة بأن تفتح بيتا وتعمره . .

ونهضت الى ملاءتها فارتدتها وأسدلت على وجهها البرقع الأبيض فى تمهل متعمد لتؤجل ما استطاعت اللحظة الأخيرة المعذبة المحيرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية . لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع ، ولم تواتِ احداهما الشجاعة على الارتماء فى حضنها كما تود ومرت الثوانى محملة بالعذاب والقلق بيد ان المرأة المتجلدة

خافت أن يخونهـا تجلدها فخطت خطوة نحوهمـا ومالت اليهما فقبلتهما بالتتابع وهى تهمس :

ــ تشجيعا ، ربنا معنا جميعا .

هنالك تعلقتا بها وأفحمتا فى البكاء ..

وقد غادرت الأم البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعهما وهو يتميع ..

- ٣٣ -

طرقت باب البيت القـديم وهى تـفكر ــ بألم وحيـاء معا ــ فيما سيحدثه مجيئها مغضوبا عليها من الانزعاج والـكدر ، وكان البـاب يفتح على عطفـة مسدودة متفرعة من شارع الخرنفش تنتهى بزاوية اقيمت بها الصـلاة عهدا طويلا ثم هجرت من أعوام لقدمهـا ولـكن بقيت آثارها المتهدمة لتذكرها ــ كلما زارت أمها ــ بطفولتهـا حين كانت تنتظر ببابها أباها حتى يفرغ من صلاته ويعود اليهـا ، وحين تمد راسها داخلهـا فى أويقات الصـلاة لتلهو بمنظر الركع السجود ، أو حـين تتفرج على بعض اهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيمـا يليها من العطفـة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار ولمـا فتح البـاب أطل منه راس جارية سوداء فى العقـد الخامس ، ما أن رأت القـادمة حتى تهلل وجهها وهتفت مرحبة بهـا ، ثم تنحت جانبا لتوسع لهـا فدخلت أمينة ، ولبثت الخـادم بموقفها كأنهـا تنتظر دخول قادم آخر فادركت أمينـة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض :

ــ أغلقي الباب يا صديقة ..

فتساءلت الجارية بدهشـة :

ــ ألم يأت السيد معك ؟

فهزت رأسها بالنفى متجاهلة دهشتها ومضت ــ عابرة فناء البيت الذى تتصـدره حجرة الفرن وتقـع البئر فى ركنه الأيسر ــ الى سـلم ضيق فرقيته الى الدور الأول والأخـير . ثم اجتازت دهليزا الى حجرة امها ودخلت ، رأت امها متربعـة على كنبة فى صـدر الحجرة الصـغيرة قابضـة بكلتا راحتيهـا على مسبحة طويلة متدلية فى حجرها ، متجهـة العينين صوب الباب فى تطلع اثاره بلا ريب طرق البـاب ثم وقع القدمين المقتربتين ، ولما تدانت أمينة منها تساءلت :

— من .. ؟

وافتر ثغرها وهى تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنم عن البشر والترحاب ، كأنما حدست هوية القادم ، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن :

— أنا أمينة يا امى ..

فألقت العجوز بساقيها الى الأرض وتحسست بقدميها موضع الشبشب حتى عثرت عليه فدستهما فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة فى شوق فرمت امينة بالبقجة الى طرف الكنبة وانطوت بين ذراعى امها وهى تقبل جبينها وخديها والأخرى تلثم ما يتفق وقوع شفتيها عليه من الرأس والخد والعنق ، ولما انتهى العناق ربتت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلعة صوب الباب وعلى شفتيها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد ، كما فعلت صديقة من قبل فادركت امينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت بامتعاض واستسلام :

— جئت وحدى يا امى ..

فتحول الرأس اليها كالمتسائل ، وتمتمت المرأة :

— وحدك ؟!.. (ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لتطرد ما انتابها من قلق) سبحان الذى لا يتغير .!

وتراجعت الى الكنبة فجلست وهى تتساءل بلهجة افصحت هذه المرة عن قلقها :

— كيف الحال ؟ ... لماذا لم يحضر معك كعادته ؟

فجلست أمينة الى جانبها وهى تقول بلهجة التلميذ الذى يعترف برداءة اجاباته فى الامتحان :

— انه غاضب على يا امى ..

ورمشت الأم واجمة ثم تمتمت بنبرات حزينة — اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبى لا يكذبنى أبدا ، وقد انقبض وانت تقولين لى « جئت وحدى يا امى » ترى ماذا هيج غضبه على ملاك كريم مثلك ام يحظ رجل به قبله ؟! .. خبرينى يا بنتى ..

فقالت امينة متنهدة :

— زرت سيدنا الحسين فى اثناء سفره الى بور سعيد ..

فتفكرت الأم فى حزن وكآبة ثم تساءلت :

— وكيف علم بأمر الزيارة ؟

حرصت أمينة من بادىء الأمر على الا تشير الى حادث السيارة

وحمة بالعجوز من ناحية وتخففا من المسئولية من ناحية اخرى . ولهذا اجابتها بما أعدته سلفا لهذا السؤال قائلة :

ــ لعل أحدا رآنى فوشى بى عنده ..

فقالت العجوز بحدة :

ــ لا يعرفك أحد من البشر الا من اختلط بك داخل بينك . الم تشكى فى أحد ؟.. هذه المرأة أم حنفى ؟! او ابنه من المرأة الأخرى ؟

فبادرتها أمينة قائلة بثقة ويقين :

ــ لعل جارة رأتنى فأخبرت زوجها بحسن نية فأعاد الرجل الخبر على مسمع السيد غير مقدر لخطورة عواقبه ، ظنى ما تشائين الا الشك فى أحد من اهل بيتى ..

فهزت العجوز رأسها فى حيرة وشك وأنشأت تقول :

ــ طول عمرك سليمة الطوية ، الله وحده المطلع وهو الكفيل يرد كيد الكائد ، ولكن زوجك ! ... الرجل العاقل .. الداخل على الخمسين .. الم يجد وسيلة لاعلان غضبه الا طرد عشيرة العمر من بين أولاده ؟!.. سبحانك يارب . الناس تكبر تعقل ونحن نكبر نتهور ، هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة سيدنا الحسين !.. الا يسمح اصدقاؤه ، وهم لا يقلون عنه غيرة ورجولة ، لزوجاتهم بالخروج لمختلف الأغراض ؟ ! .. أبوك نفسه الذى كان شيخا من حملة كتاب الله كان يأذن لى فى الذهاب الى بيوت الجيران للتفرج على المحمل ..

وغلب الصمت والكآبة مليا حتى التفتت العجوز ناحية ابنتها وعلى شفتيها ابتسامة عتاب حائرة ثم تساءلت ؟

ــ أى شىء أغراك بعصيانه بعد ذاك العمر الطويل من الطاعة العمياء ؟! .. لشد ما يحيرنى هذا .. اذ مهما يكن من حمية طبعه فهو زوجك ومن السلامة الحرص على طاعته من أجل راحتك وسعادة الأولاد ، أليس كذلك يا ابنتى ؟ .. أعجب شىء اننى لم أجدك يوما فى حاجة الى نصح ناصح .. ؟!

فندت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء ، وغمغمت :

ــ تحكم الشيطان !

ــ عليه لعنة الله ، أيزل اللعين قدمك بعد خمسة وعشرين عاما من الوئام والسلام !.. ولكنه هو الذى أخرج أبانا آدم وأمنا حواء من الجنة !.. لشد ما يحزننى يا ابنتى ، ولكنها سحابة صيف ثم تنقشع

ويعود كل شيء الى أصله .. (ثم وهي كأنها تحادث نفسها) ماذا كان عليه لو استوصي بالحلم ؟! .. ولكنه رجل ، ولن يخلو رجل من عيوب تخفي عين الشمس .. (ثم بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلعي ملابسك واستريحي ، لا تجزعي ، ماذا يضيرك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك في الحجرة التي والدت فيها ؟!

فجرى بصرها في غير اكتراث على الفراش القديم الذي حال لون عمده ، والسجادة البالية التي انجرد وبرها ونسلت أطرافها وان بقيت رسوم ورودها حافظة لحمرتها وخضرتها ، ولكن صدرها — لما ران عليه من فرقة الأحباب — لم يكن مهيئا لتلقي موجات الذكريات ، فلم تهج دعوة أمها في قلبها الحنان الذي تهيجه عادة ذكرياتها المتباعدة لهذه الحجرة وهي قريرة العين ، ولم يسعها الا ان تتنهد قائلة :

— ما بي الا القلق على الأولاد يا أمي ..

— انهم في رعاية الله ، ولن يطول بعدك عنهم باذن الرحمن الرحيم ..

وقامت امينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة — حزينة اسيفة لما سمعت . من موقفها عند مدخل الحجرة الذي لزمته اثناء الحديث ، ثم عادت المرأة الى مجلسها جنب أمها وما لبثتا أن قلبتا الحديث ظهرا لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكأن في تقابلهما جنبا لجنب ما يدعو الى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم ، كأنهما شخص واحد وصورته المنعكسة في مرآة المستقبل او نفس الشخص وصورته المنعكسة في مرآة الماضي وبين الأصل والصورة على الحالين ما يشير الى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التي تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذي يدفع الى التغير والنهاية من ناحية اخرى ، ذاك الصراع الذي ينجلي عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعا بقوانين الوراثة حتى يغدو قصاراها أن تؤدي وظيفة متواضعة في نطاق قانون الزمن الصارم . في نطاق ذاك القانون استحالت الأم العجوز جسما نحيلا ووجها ذابلا وعينين لا تبصران الى تطورات باطنية لا تنالها الحواس ، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة الا ما يدعونه بجمال الشيخوخة أي السمت الهادىء والوقار المكتسب الحزين والراس المرصع بالبياض . بيد انها كانت تنحدر من جيل معمر عرف بصلابة المقاومة فلم يكن طعنها فيما بعد الخامسة والسبعين بقعدها عن أن تنهض في الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتتحسس سبيلها — بدون ارشاد الجارية — الى الحمام فتتوضأ ثم تعود الى

حجرتها فتصلى ، أما بقية النهار فتقطعها فى التسبيح والتأمل الصامت الذى لا يدرى به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت ، أو مستأنسة الى حديث المراة اذا فرغت لمجالستها ، حتى الصفات التى تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحماس للحياة لم تزايلها بحال ، مثال هذا شدة محاسبتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالمصروفات ، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكئها اذا تلكأت فى مهمة ، وتأخيرها اذا تأخرت فى مشوار ، ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن الى صحة تقاريرها عن غسل الحمام والأوانى وتنفيض النوافذ ، دقة بالوسوسة اشبه ، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمرارا لعادة تأصلت فى صدر الشباب ، كما أنه من الجائز أن تكون نكسة مما يعترى الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء فى بيتها فى شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلها ، ثم اصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها ، متصامة عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال الى بيته لتعيش فى رعاية ابنتها وأحفادها ، مما عرضها لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائيا ، ولكن الحق أنها كرهت هجر بيتها لتعلقها الشديد به ، ولتحاميها ما عسى أن تلقى فى البيت الجديد من اهمال غير مقصود أو ما يستوجبه وجودها من القاء اعباء جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات ، ولنفورها من الزج بنفسها فى بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن تنزلق وهى لا تدرى الى ملاحاته ، الأمر الذى تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها ، وأخيرا لما تنطوى عليه فى قرارة نفسها من حياء وكبرياء حببا اليها الحياة فى البيت الذى تملك معتمدة - بعد الله - على المعاش الذى تركه لها زوجها الراحل . على أن ثمة اسبابا أخرى لاصرارها على البقاء فى بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية أو سداد البصيرة ، كخوفها - اذا أخلت البيت - من أن تجد نفسها مضطرة الى اختيار أمر من اثنين ، فاما أن تسمح للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شىء لديها بعد ابنتها واحفادها ، واما أن تتركه مهجورا فتتخذه العفاريت ملعبا بعد أن ظل طوال عمره مقاما لشيخ من حملة كتاب الله هو زوجها ؛ الا أن انتقالها الى بيت السيد كان خليقا بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تفض فى نظرها بميسور الحلول لأنها ما انفكت تسائل نفسها وقتذاك اتقبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لا ترتاح اليه بحال ، أم تنزل له عن

معاشها لقاء اقامتها فى بيته وهو ما يقلق غريزتها فى الامتلاك التى اضحت — مع الكبر — عنصرا جوهريا من عناصر « وسوستها » العامة ؟!

بل قد توهمت احيانا عند الحاحه عليها فى الانتقال الى بيته انه يضمر نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذى سيخلو بعد انتقالها ففزعت الى الرفض لحد العناد الأعمى ولما نزل السيد عند ارادتها قالت له بارتياح « لا تؤاخذنى باصرارى يا بنى ، ربنا يكرمك بما اوليتنى من عطف ، الا ترى انه لا يسعنى أن اهجر بيتى ؟ .. وما اجدرك أن تجارى عجوزا مثلى على علاتها بيد انى استحلفك بالله الا ما سمحت لأمينة والأولاد بزيارتى الحين بعد الحين بعد أن أمسى خروجى من البيت متعذرا » وهكذا بقيت فى بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحريتها وكثير من عادات الماضى العزيز واذا كان بعض هذه العادات ، كالمغالاة الشاذة فى الاهتمام بشئون البيت والمال » مما يتنافر مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتسامحها ، وبالتالى مما يبدو كعارض من اعراض الهرم الانتكاسية ، فثمة عادة اخرى مما حافظت عليه جديرة بأن تزين الشباب ، وبأن تضفى على الشيخوخة جلالا ، تلك هى العبادة ، كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها ، رضعتها صغيرة فى كنف أب شيخ من شيوخ الدين ، وتغلغلت فى أعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعا وتقوى ، وظلت تمارسها بحب واخلاص غير مفرقة فى اخلاصها بين ما هو دين حقا وما هو خرافة خالصة حتى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة ، صديقة الجارية وحدها التى عرفتها بخيرها وشرها ، فربما قالت لها على اثر مشادة مما ينشب بينهما « يا ستى اليست العبادة اولى بوقتك من الشجار والنقار على التافه من الأمور ! ؟ » فتجيبها محتدة « يا لئيمة انك لاتوصيننى بالعبادة حبا فيها ولكن كى يخلو لك مجال العبث والاهمال والقذارة والسلب والنهب » ان الله يأمر بالنظافة والأمانة فمراقبتك ومحاسبتك عبادة وثواب ! » ولأن الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما ابوها ومن بعده زوجها الى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة ، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله فى صدريهما ، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت امينة مواسية ومشجعة فقالت :

— ما أراد السيد باخراجك من بيتك الا إعلان غضبه على مخالفتك

لأمره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب ، اجل لن يحيق سوء بمن كان لها اب كأبيك أو جد كجدك ..

وابتل صدر أمينة بذكر ابيهــا وجدها كما يبتــل صدر المنقطع به الطريق فى الظلمــاء اذا ترامى اليه صــوت الغفير وهو يهتف « هوه » فآمن قلبها بقول أمها ، لا لتلهفها على الطمأنينة فحسب . ولكن لايمانها قبل كل شيء ببركة الشيخين الراحلين ، فلم تكن الا صورة من أمها فى جسمها وايمانها وجل طباعها . وانثالت على وجدانهــا فى تلك اللحظة ذكريات أبيهــا الذى أفعم قلبهــا وليدة بالحب والايمان فدعت الله أن ينتشــلها من ورطتها اكراما لبركته ، وعادت العجوز الى مواســـاتها فقالت وعلى شفتيها الجافتين ابتسامة رقيقة :

— ان الله يرعاك دائما برحمته ، أذكرى عهــد الوباء لا أرجعه الله وكيف نجاك الله من شره فقضي أخواتك ولم يمسسك سوء !

غلبها الابتسام عى كآبتها فابتسمت ، وتفرست فى غبش من الماضى كاد يمحوه النسيان فوضحت — بعض الوضوح — من خليط الذكريات صــور احيت فى نفسها أصــداء من عهد الرعب ، وهى صبية تحجل خارج أبواب غلقت على أخوات مســتلقيات على أسرة المرض والموت ، وهى وراء النافذة تنظر الى سيل من النعوش لا ينقطع والناس تفر من طريقها ، أو وهى تسمع الى جماهير من الشعب التقت فى ذعرها ويأسها برجل من رجال الدين — كما كان يتفق لأبيها — وراحت تجار بالشكوى وترسل الدعوات الى رب السماء ، وعلى رغم اســتفحال الشر وهلاك اخواتها جميعا فقد أفلتت من براثن الوباء سالمة آمنة لم يكدر صــفوها الا عصير الليمون والبصل الذى كانت تجبر على تجرعه مرة أو مرتين فى اليوم ، واستطردت الأم بصوت نمت رقته وحنانه على الاسترسال فى الاحلام كأنما قد ردها التذكر الى العهد الخالى فاســـتعادت حياته وذكرياته — العزيزة الغالية لاقترانها بالشــباب — خالصة من شوائب الألم المنسى ، فقالت :

— ولم يقنع حظك الســعيد بانقاذك من الوباء لــكنه ابقاك وحيــدة الأسرة وكل ما لها فى الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت فى صميم قلوبنا .

لم تعــد أمينة ترى الحجرة — بعد هذا الخطاب — كما كانت تراها قبله ، بعثت جدة الشباب فى كل شيء ، فى الجدران والسجادة والسرير ، فى أمها وفيها هى نفسها ، ورد أبوها الى الحياة واتخذ مجلسه المعهود ،

وعادت تصغى الى مناغاة الحب والتدليل ، وتحلم بقصص الأنبياء والمعجزات ، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفار الى عرابى باشا والانجليز ، بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة وسعاداتها المرجوة ثم قالت العجوز بلهجة من يقرر النتيجة النهائية لما مهد به من مقدمات منطقية :

ـ أليس الله حافظك وراعيك ؟ !

بيد أن هذا القول نفسه تضمن عزاء موحيا ذكرها بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم الماضى السعيد عائدة الى كآبتها كما يعود السالى الى اجترار أحزانه بكلمة مواساة تلقى اليه بحسن نية ، ولبثت الى جانب أمها فى حال من الفراغ الصارم لم تعهدها الا حين مرضها فأنكرتها وضاقت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمها الا نصف انتباهها على حين بقى النصف الآخر مرعى للضيق والقلق ، ولما جاءت صديقة ظهرا بصينية الغداء قالت لها العجوز بقصد تسلية ابنتها أولا « جاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك ! » ولكن أمينة لم يكن يهمها وقتذاك ان تسرق المرأة أو أن تلتزم الأمانة ولم ترد الجارية على سيدتها اكراما للضيفة من ناحية ولأنها من ناحية أخرى ألفت مرارة سيدتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنتين . وباستدارة النهار اشتد تعلق فكرها ببيتها وتهالك عليه لأنه فى ذلك الوقت يعود السيد الى البيت للغداء والقيلولة ، ثم يرجع الأبناء تباعا عقب خروج الرجل الى الدكان ، فرأت بخيالها الذى استمد من الألم والحنين قوة خارقة ، البيت وآله كأنهم شهود ، رأت السيد وهو يخلع جبته وقفطانه دون مساعدتها التى تخاف أن يكون قد ألف الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل ، وحاولت أن تقرأ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا ، هل يستشعر الفراغ الذى خلفته وراءها ، وكيف كان احساسه حين لم يجد لها من أثر فى البيت ، وألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر ؟ .. وها هم الأبناء عائدون وها هم يهرعون الى الصالة بعد طول اشتياق الى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغرا ، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهمة الدامعة ، ترى كيف يتلقى فهمى الخبر ، وهل يدرك كمال ـ وهنا خفق قلبها خفقة جارحة ـ معنى غيابها ؟ أيتشاورون طويلا ؟ .. ماذا ينتظرون ؟ .. لعلهم فى الطريق يستبقون اليها .. يجب أن يكونوا فى الطريق ، أم يكون قد أصدر أمرا بعدم زيارتها ؟ يجب أن يكونوا فى الخرنفش .. سترى عما قليل ..

ـ أتحدثينني يا أمينة ؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز تيار خيالها فانتبهت اليهـا فى دهشة ممزوجة بالحيـاء ، اذ فطنت الى أن كلمـات ـ من حديثها البـاطنى مع نفسها ـ قد تسللت فى غفلة منهـا الى طرف لسانها محدثة الحس الذى التقطته أذن أمها المرهفة فلم تر بدا من أن تجيبها قائلة :

ـ انى أتساءل يا أمى الا يجىء الأولاد لزيارتى ؟

ـ أظنهم جاءوا .. !

قالت العجوز هذا وهى ترهف السمع مادة راسها الى الأمام فانصتت أمينـة صامتة فترامى اليها صوت مطرقة البـاب وهى ترسل ضربات سريعة متلاحقـة كأنها صوت يبعث فى لهفة بصرخات اسـتغاثة حارة فعرفت وراء هـذه الضربات العصبية قبضة كمال الصـغيرة كما كانت تعرفها وهى تدق عيها باب حجرة الفرن ، وسرعان ما هرعت الى رأس السلم وهى تنادى صديقة لتفتح البـاب ، ثم اطلت من فوق الدرابزين فرأت الغـلام وهو يثب فوق درجات السـلم وفى أثره فهمى وياسين وتعلق كمال بعنقها فعاقها قليلا عن عنـاق الآخرين ، ثم دخلوا الحجرة وهم ، من جيشان النفس وتبلبل الخاطر يتكلمون فى وقت واحد لا يبالى أحدهم ما يقول الآخرون ، ولمـا رأوا الجدة واقفـة مبسوطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مفعمة بالحب أمسكوا عن الكلام الى حين واقبلوا عليها تبـاعا فساد صمت نسبى تخللته همسات القبـل المتبادلة وأخيرا هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن :

ـ نحن الآن لا بيت لنا ، ولن يكون لنا بيت حتى تعودى اليه .

وآوى كمال الى حجرها كالهـارب وهو يقول مفصحا لأول مرة عن نيته التى طوى صدره عليها فى البيت وفى الطريق :

ـ سأبقى هنا مع نينة .. لن أعود معكما .

اما فهمى فقدرنا اليهـا طويلا صامتا ، كشـأنه اذا أراد أن يحدثها بالنظر ، فوجدت فى نظرته الصامتة خير معبر عمـا يعتلج فى صدريهما معا . هذا الحبيب الذى لا يفوق حبه الها الا حبهـا له ، والذى ينـدر أن يشير فى أحاديثه معها الى عواطفه ولـكن تشى به خطرات نفسه وكلماته وفعـاله ، وقد قرأ الفتى فى عينيها نظرة تدل على الألم والخجل فاشـتد تأثره وقال بحزن وتألم :

ـ نحن الذين اقترحنا عليك الخروج ، وشجعناك عليه ، ولكن ها أنت وحدك تتلقين العقاب ..

فابتسمت الأم فى ارتباك وقالت :

ــ لست طفلة يا فهمى ، وما كان ينبغى لى أن افعل ..

فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل ، واشتد كربه لفرط احساسه بالحرج بصفته صاحب الاقتراح المشئوم ، وتردد طويلا بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه ، على مسمع من الجدة أن تعاتبه أو تضمر له حنقا ، وبين السكوت على ما به من رغبة فى التنفيس عن تحرجه ، ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمى الى لغة أخرى قائلا :

ــ أجل ، نحن المذنبون وانت المتهمة . (ثم ضاغطا على مخارج الكلمات كأنما يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك ستعودين ، وسوف تنقشع السحابة التى تظلنا جميعا .

ولفت كمال وجهها اليه من ذقنها ، وانهال عليها بسيل من الأسئلة ، عن معنى مغادرتها للبيت ، وكم تطول اقامتها فى بيت جدته ، وعما يحدث لو عادت معهم ، وغير ذلك من الأسئلة التى لم يسمع عنها جوابا واحدا حقيقا بأن يسكن خاطره الذى لم ينفع فى تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمه حيث هى ، ذلك العزم الذى كان أول من يرتاب فى قدرته على تحقيقه ، وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه ، فأخذوا يعالجون الموقف معالجة جدية لأنه ــ كما قال فهمى ــ « لا يجدى التكلم فيما كان ولكن ينبغى ان نتساءل عما سيكون » وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلا « ان رجلا كأبينا لا يرضى بأن يمر بحادث كخروج أمنا مرا كريما ، فلم يكن بد من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها ، ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل » بدا هذا الرأى مقنعا لما صادف من ارتياح النفوس اليه فقال فهمى مفصحا عن اقتناعه ومرجوه معا « والدليل على صحة رايك انه لم يقدم على فعل شىء آخر ، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته عليه » وتكلموا كثيرا عن « قلب » ابيهم فاتفقت كلمتهم على انه قلب خير رغم ثورته وحدته وان أبعد شىء عن تصورهم هو أن يقدم على عمل من شانه ان يسىء الى السمعة أو يؤذى أحدا وعند ذاك قالت الجدة على سبيل الدعابة وهى تعلم باستحالة ما تدعو اليه :

ــ لو كنتم رجالا حقا لالتمستم الوسيلة الى قلب ابيكم ليتحول عن عناده ..

فتبادل ياسين وفهمى نظرات ساخرة من هذه « الرجولة » المزعومة التى تذوب لدى ذكر ابيهم ، وخافت الأم من ناحيتها أن يتطور الحديث

بين الشابين والجدة الى ذكر حادث السيارة فأفهمتهما بالاشارة ــ وهى تردد يدها بين كتفها وامها ــ أنها اخفت عنها الأمر . ثم قالت تخاطب امها وكأنها تنبرى للدفاع عن رجولة الشابين :

ــ لا أحب أن يتعرض أحدهما اغضبه فلنتركه لنفسه حتى يعفو . .

وهنا تساءل كمال :

ــ ومتى يعفو ؟

فأشارت الأم بسبابتها الى فوق وهى تغمغم « ربنا عندد العفو » .

وكالمألوف فى مثل هذه الحال دار الحديث حول نفسه فأعاد كل ما سبق نه قوله بنفس الألفاظ أو بالفاظ جديدة من ايثار متواصل للظنون الوردية فطال الحديث دون أن يستجد به جديد ، حتى خيم الظلام ووجب الرحيل . وحين وجب الرحيل وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن الكلام فساد سكون كالسكون الذى يسبق العاصفة ، اللهم الا كلمات لا يراد بها الا التخفيف من وطأة الصمت او التهرب من الاعتراف بجثوم الوداع وكأن كلا منهم يلقى تبعة اعلانه على عاتق غيره رحمة بالجانب الآخر ، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس حولها فرمشت عيناها المظلمتان ولعبت أصابعها بحبات السبحة فى عجلة ولهوجة ، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس كاللحظات التى يترقب فيها الحالم فى كابوس سقطة من علو شاهق ، حتى جاءها صوت ياسين وهو يقول « أظن أن لنا أن نذهب ، وسنعود لنأخذك معنا قريبا ان شاء الله » وتسمعت العجوز لترى كيف تتهدج نبرات ابنتها عند الكلام ، ولكنها لم تسمع كلاما بل سمعت حركة دالة على نهوض الجلوس ، واصوات قبل وهمهمة توديع ، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوة فبكاءه ، ثم جاء دورها فى التسليم فى جو مشبع بالحزن والفتور ، وأخيرا أخذت الأقدام تبتعد تاركة اياها فى وحدة وشجن . .

وعادت قدما أمينة الخفيفتان فمضت العجوز تتصنت فى قلق حتى هتفت بها :

ــ اتبكين ؟! . . يا لك من عبيطة ! . . كأنك لا تطيقين أن تبيتى ليلتين فى حضن أمك ! . .

— ٣٤ —

بدت خديجة وعائشة أضيق الجميع بغياب الأم ، فالى حزنهما الذى يشاركهما فيه الأخوة تحملتا وحدهما اعباء البيت وخدمة الأب بيد أن أعباء البيت لم تكن لتنوء بهما ، اما خدمة الأب فهى التى عملا لها الف حساب ونزعت عائشة الى الهرب من منطقة ابيها معتلة بأن خديجة سبق لها أن تدربت على خدمته فى أثناء رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة الى تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التى تكابدها وهى على كثب من السيد أو وهى تقضى له حاجة من حاجاته . ومنذ الساعة الأولى لذهاب الأم قالت خديجة « ينبغى الا تطول هذه الحال ، أن الحياة بدونها فى هذا البيت عناء لا بطاق » فأمنت عائشة على قولها ولكنها لم تجد من حيلة فى وسعها غير الدموع فذرفتها ، وانتظرت عودة اخوتها من بيت الجدة حتى جاءوا وقبل ان تلفظ كلمة مما يدور فى نفسها راحوا يحدثون عن حال امهم فى « منفاها » فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لأنها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها لقاؤهم فغلبها الانفعال وقالت بحدة :

— اذا قنع كل منا بالسكوت والانتظار فربما تلاحقت الايام والأسابيع وهى مبعدة عن بيتها حتى يضنيها الحزن ، أجل ان مخاطبة بابا فى هذا الشأن مهمة شاقة ولكنها ليست اشق من السكوت الذى لا يليق بنا ، ينبغى أن نجد طريقة .. ينبغى أن نتكلم ..

ومع أن صيغة « نتكلم » التى ختمت بها جملتها جاءت شاملة لجميع الحاضرين الا انه قصد بها — كما فهم بالبداهة — شخصا أو شخصين شعر كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تخف بواعثه على احد ، بيد أن خديجة واصلت حديثها قائلة :

— لم تكن مهمة مخاطبته فيما يعرض لنا من أمور بأيسر على نينة مما هى علينا ومع ذلك لم تكن تتردد عن مخاطبته اكراما لأى واحد منا ، فمن الانصاف أن نتحمل نفس التضحية من اجل خاطرها ...

تبادل ياسين وفهمى نظرة فضحت احساسهما بالخناق الذى اخذ يضيق حولهما سريعا ولكن واحدا منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهى به الكلام الى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلما

لانتظار ما يجيء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرة . وتركت خديجة التعميم الى التخصيص فالتفتت الى ياسين قائلة :

— أنت اخونا الأكبر والى هذا فانت موظف . اى رجل كامل . فانت اجدرنا بالقيام بهذا الواجب ..

ملأ ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو يعبث بأنامله فى ارتباك ظاهر وتمتم قائلا :

— والدنا رجل نارى الغضب لا يقبل مراجعة لرايه ، وانا من ناحيتى لم أعد غلاما بل صرت رجلا وموظفا كما تقولين ، واخوف ما اخاف ان ينفجر فى غاضبا فيفلت منى زمام نفسى ويثور غضبى بدوره !

وغلبهم الابتسام على أعصابهم المتوترة وانفسهم المحزونة فابتسموا . وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها فى كفيها ؛ ولعل حالهم المتوترة نفسها مما هيأهم لقبول الابتسام كمسكن وقتى للتوتر والألم كما يحدث للنفوس أحيانا عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لاتفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأضدادها ، ذلك انهم عدوا قوله نوعا من الدعابة الجدير بالضحك والسخرية ؛ وكان هو أول من يعلم بعجزه التام عن مجرد التفكير فى الغضب أو المقاومة حيال والده وأول من يعلم أنه قال ما قال فرارا من مواجهة أبيه واتقاء لسخطه ، فلما رأى هزءهم لم يسعه الا أن يبتسم بدوره وهو يهز منكبيه كأنما يقول لهم « دعونى وشأنى » . فهمى وحده بدا متحفظا فى ابتسامه لشعوره بأن القرعة ستصيبه قبل أن تغيب ابتسامته ، وصدق شعوره اذ أعرضت خديجة عن ياسين فى ازدراء ويأس وخاطبته قائلة برجاء واشفاق :

— فهمى ... انت رجلنا .. !

فرفع حاجبيه فى ارتباك متطلعا اليها بنظرة كأنما يقول لها « انت ادرى بالعواقب! » حقا كان يتمتع بمزايا لا يتمتع ببعضها أحد فى الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق ، وهو اكبرهم عقلا وانفذهم رأيا ، وله من ضبط النفس فى المواقف الحرجة ما يدل على الشجاعة والرجولة ولكنه سرعان ما يفقد جملة مزاياه اذا مثل بين يدى أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء . وبدا وكأنه لا يدرى ماذا يقول فحثته على الكلام بإيماءة من راسها فقال متحيرا :

— هل ترينه يقبل رجائى ؟ .. كلا .. ولكنه سينتهزنى قائلا :

« لا تتدخل فيما لا يعنيك » .. هذا اذا لم يثر غضبه فيوجه الى كلاما اشد واقسى .. !

وارتاح ياسين الى هذا الكلام « الحكيم » الذى وجد فيه دفاعا عن موقفه ايضا فقال وكأنه يكمل رأى أخيه :

ــ وربما جر تدخلنا الى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على أنفسنا فتحة لا ندرى كيف نسدها !

فالتفتت الفتاة نحوه مغيظة محنقة وقالت بمرارة وسخرية :

ــ لا منك ولا كفاية شرك !

فقال فهمى الذى استمد من غريزة « حب البقاء » قوة جديدة للدفاع عن نفسه :

ــ فلنفكر فى الأمر بعناية شاملة .. لا اظنه يقبل لى او لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين فى الخطأ ، وعليه فالقضية خاسرة اذا تقدم احدنا للدفاع عنها ، أما اذا حدثته واحدة منكما فلعلها تنجح فى استعطافه او لعلها تجد ــ على أسوا الظنون ــ اعراضا هادئا لا يبلغ حد العنف ، فلماذا لا تحدثه احداكما ؟ . . أنت مثلا يا خديجة ؟!

فانقبض قلب الفتاة التى وقعت فى الشرك وحدجت ياسين لا فهمى بنظرة غيظ وهى تقول :

ــ ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال !

فقال فهمى مواصلا هجومه السلمى :

ــ العكس هو الصحيح ما دمنا نتوخى نجاح المسعى ، ولا ننسى أنكما لم تتعرضا لغضبه طوال حياتكما الا فى النادر الذى لا يقاس عليه ، فهو يألف الرفق بكما كما يألف البطش بنا !..

فاطرقت خديجة متفكرة فى قلق غير خاف ، وكأنها خافت ان طال صمتها أن تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة فى قرعتها فرفعت راسها قائلة :

ــ اذا كان الأمر كما تقول فعائشة اخلق منى بالكلام !

ــ انا !.. لمه ؟!

نطقت بها عائشة فى فزع من وجد نفسه بغتة فى مرمى الخطر بعد أن اطمأن طويلا الى موقف المتفرج الذى ليس له من الأمر شىء خاصة وانها ــ لحداثة سنها وغلبة احساس الطفولة المدللة عليها ــ لم تكن تندب لشىء هام فضلا عن اخطر مهمة يمكن أن تعرض لأحد منهم ، الا

ان خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيد انها اصرت عليه فى عناد مشبع بالمرارة والتهكم فقالت تجيب شقيقتها :

ــ لأنه ينبغى الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك فى انجاح مسعانا !

ــ وما دخل شعرى وعينى فى مواجهة ابى ؟

لم تكن خديجة تهتم فى تلك اللحظة بالاقناع بقدر ما تهالكت على ايجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان الى أمور هى بالمعابثة أشبه تمهيدا للتقهقر ، فالفرار من أسلم السبل الممكنة كمن يقع فى مأزق حرج وتعوزه الحجة فى الدفاع عنه فيلجأ الى المزاح ليمهد لنفسه مفرا فى ضجة من السرور بدلا من الشماتة والازدراء لذلك قالت :

ــ أعرف لهما تأثيرا ساحرا فى كل من يتصل بك ، ياسين . . فهمى . . حتى كمال ، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبى ؟

فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج :

ــ كيف أخاطبه فى هذا الشأن وأنا لا تقع على عيناه حتى يطير ما فى رأسى ؟ !

عند ذاك ــ وبعد أن تهربوا تباعا من المهمة الخطيرة ــ لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم تعفهم من احساس بالذنب ، بل لعلها كانت أول دافع اليه ، حيث أن الانسان يركز تفكيره فى النجاة عند الخطر حتى اذا ظفر بالنجاة عاد ضميره يناوشه ، كالجسم الذى يستنفد حيويته كلها فى العضو المريض حتى اذا ما استرد صحته توزعت حيويته بالتساوى على الأعضاء التى أهملت الى حين ، وكأن خديجة أرادت أن تتخفف من هذا الاحساس فقالت :

ــ ما دمنا نعجز جميعا عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا ست أم مريم . .

وما أن نطقت باسم « مريم » حتى لحظت فهمى بحركة عكسية فالتقت عيناهما لحظة قصيرة فى نظرة لم يرتح الشاب لايحائها فأشاح عنها بوجهه متظاهرا بعدم الاكتراث ، ذلك أن اسم مريم لم يجر على لسان أمام فهمى منذ نبذت فكرة خطبتها ، اما مراعاة لعواطفه ، واما لأن مريم اكتسبت معنى جديدا بعد اعترافه بحبها سلكها فى زمرة المحرمات التى لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن ، بالرغم من أن مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة

بجهل ما دار بشأنها وراء الأبواب .. ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد أن يغطي على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه الى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتحريض :

ـ هذا رجلنا الحق ، هو وحده الذي يستطيع ان يرجو والده ليعيد اليه أمه !..

لم يحمل كلامه محمل الجد أحد ، واولهم كمال نفسه ، بيد ان قول ياسين وثب الى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضي عائدا من المدرسة ، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في أمه المنفية ، فتوقف عن السير صوب درب قرمز ، والتفت الى طريق النحاسين مترددا وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وتألم ، ثم غير طريقه متجها نحو النحاسين في خطوات متباطئة دون ان يجمع عزمه على رأي ، يسوقه العذاب الذي يعاني لفقد أمه ، ويرجعه الخوف الذي يركبه لمجرد ذكر ابيه فضلا عن مخاطبته او التوسل اليه ، لم يكن يتصور انه يستطيع ان يقف بين يديه محادثا في هذا الأمر ، ولم تغب عن شعوره المخاوف القسية بأن تحيق به لو فعل ، ولم يصمم على شيء الا انه رغم هذا كله واصل السير البطيء حتى لاح لعينيه باب الدكان كأنما ينزع الى ارضاء قلبه المعذب ولو ارضاء عقيما ـ كالحدأة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته ـ وتدانى من الباب حتى وقف على بعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يستقر على رأي ، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليا واذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعا وهو يغرق في الضحك كذلك ، فأذهلته المفاجأة ، فتسمر في مكانه مستشرفا وجه أبيه الضاحك الطليق في انكار ودهشة لا توصفان ، لم يصدق عينيه وخيل اليه أن شخصية جديدة قد حلت في جسم ابيه ، او ان هذا الرجل الضاحك ـ على ما به من شبه بأبيه ـ شخص آخر يراه لأول مرة ، شخص يضحك ، ويغرق في الضحك ، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس ، واستدار السيد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلع اليه بذهول فأخذته الدهشة لموقفه وهيئته على حين استردت اساريره بسرعة مظهر الجد والرزانة ، ثم سأله وهو يتفرس في وجهه .

— ماذا جاء بك ؟!

وللحال دبت فى اعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس — رغم ذهوله — فتقدم من أبيه ومد يده الصغيرة الى يده وتطامن عليها حتى لثمها فى أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة ، فسأله السيد مرة أخرى :

— أتريد شيئا ؟!

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به الا ان يقول مؤثرا السلامة « انه لا يريد شيئا وانه كان فى طريقه الى البيت » ولكن السيد استبطأه فلاح فى وجهه الضيق وقال بخشونة :

— لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد . .

ونفذت خشونة الصوت الى قلبه فارتعد ، وانعقد لسانه فكأن الكلام قد التزق بسقف حلقه ، فازداد الأب ضيقا وهتف بحدة :

— تكلم . . . هل فقدت النطق ؟!

وتجمعت قوته كلها فى ارادة واحدة وهى أن يخرج من صمته بأى ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلا كيفما اتفق له :

— كنت عائدا من المدرسة الى البيت . .

— وماذا اوقفك هنا كالمعتوه ؟!

— رأيت . . رأيت حضرتك فأردت أن اقبل يدك . .!

فتجلت فى عينى السيد نظرة استرابة ، وقال بجفاء وتهكم :

— اهذا كل ما هنالك !. . اوحشتك لهذا الحد ! الم تستطع ان تنتظر الى الصباح لتقبل يدى اذا أردت ؟! . . اسمع . . اياك وان تكون قد عملت عملة فى المدرسة . . . سأعرف كل شىء . . . فقال كمال بسرعة واضطراب :

— لم أعمل شيئا وحياة ربنا . .

فقال الرجل بنفاد صبر :

— اذن تفضل . . ضيعت وقتى بلا مناسبة . . غر من وجهى . .

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدميه من الاضطراب ، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحول عينى أبيه عن عينيه ، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة :

— رجع نينه الله يخليك . . .

وأطلق ساقيه للريح . .

— ٣٥ —

كان السيد يحتسى قهوة العصر فى حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع لا يسمع :

ــ جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك . .

فتساءل السيد متعجبا :

ــ حرم السيد محمد رضوان ؟. ماذا تريد ؟. .

فقالت خديجة :

ــ لا اعرف يا بابا . .

فأمرها بادخالها وهو لا يمسك عن التعجب ، ومع ان مجىء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته ــ لشأن يتعلق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهن وبين ازواجهن من أصدقائه ــ لم يكن مع ندرته بالجديد عليه الا أنه استبعد أن يكون ما دعا هذه السيدة الى مقابلته واحد من هذه الأسباب . وخطرت على ذهنه ، وهو يتساءل ، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجه ، ولكن اى علاقة ثمة بين هذا السر الذى لا يمكن ان يتعدى دائرة اسرته وبين هذه الزيارة !؟ ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال ان تكون الزيارة لسبب يمت اليه بيد انه كان ولم يزل مجرد جار ، لا تربطه به الا صلة الجيرة التى لم ترتفع يوما لمرتبة الصداقة ، فاقتصر تزاورهما قديما على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده مرات ، ثم لم يعد يطرق بابه الا فى الأعياد ، على ان ست أم مريم ليست بالغريبة عليه ، فانه ليذكر انها قصدت دكانه مرة لابتياع بعض الحوائج ، وهناك عرفته بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديرا بحسن الجوار ، ومرة اخرى التقى بها عند باب بيته اذ صادف خروجه قدومها الزيارة مصطحبة كريمتها وعند ذاك أدهشته بجسارتها حين حيته قائلة « مساء الخير يا سى السيد » ، اجل عامه اختلاطه بالأصدقاء أن بينهم من يتسامح فيما يتشدد هو فيه متطرفا من التزام الآداب المتوارثة للأسرة ، فلا يرون بأسا من ان تخرج نساؤهم للزيارة او للاستبضاع ، ولا يجدون حرجا فى توجيه تحية بريئة كالتى وجهتها ام مريم اليه ، ولم يكن ــ رغم حنبليته .. بالذى يطعن فيما يرتضون لأنفسهم ولنسائهم ، بل لم يكن يسىء الظن حتى ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم فى العربات للتنزه فى الخلوات أو لغشيان الملاهى البريئة مكتفيا فى مثل

هـذه الحال بترديد قوله : « لكم دينكم ولى دين » ، أى انه لا ينزع الى تطبيق آرائه على الناس تطبيقا أعمى ، الى انه يحسن التمييز حقـبا بين ما هو خـير وما هو شر ، الا أنه لا يفتح صدره لـكل « ما هو خـير » ضالعا فى ذلك مع طبيعته التقليـدية الصارمة حتى أنه عد زيارة زوجه للحسـين جريمة قضى فيهـا بأقسى عقوبة أصدرها فى حيـاته الزوجية الثانية ، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بمـا ينبه الانزعاج دون أن يسىء بأخلاقها الظن . وسـمع خارج باب الحجرة نحنحة فأدرك أن القادمة تنذره بالدخول ؛ ثم دخلت ملتفـة فى ملاءتها ، مستورة الوجه ببرقع أسود تتوسط عروسه الذهبيـة عينين مكحولتين دعجـاوين وتدانت منـه بجسم جسيم لحيم مترنح الأرداف ، فنهض السـيد لاستقبالها وهو يمد يده قائلا :

ـ اهلا وسهلا ، شرفت البيت واهله .

فمدت له يدها بعد أن لفتها فى طرف الملاءة أن تنقض وضوءه وقالت :

ـ ربنا يشرف قدرك يا سى السيد ..

ودعاها للجلوس فجلست ، ثم جلس وهو يسألها مجاملة :

ـ كيف حال السيد محمد ؟ ..

فقالت متنهدة بصوت مسموع كأن السؤال حرك اشجانها :

ـ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ربنا يلطف بنا جميعا ..

فهز السيد رأسه كالآسف وتمتم :

ـ ربنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية ..

واعقب حديث المجـاملات صمت قصـير فأخذت السـيدة تتهيأ للحديث الجدى الذى جاءت من اجله كما يتهيأ المطرب للغنـاء بعد الفراغ من عزف المقـدمة الموسيقية على حين غض السـيد بصره تحشما تاركا على شفتيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر :

ـ يا سـيد أحمد ، أنت فى المروءة مثـل يضرب فى الحى كله ، فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعا مروءتك .

فتمتم السـيد بصوت حيى وهو يتساءل فى نفسـه « ترى ما وراء هذا كله ؟! .. » :

ـ أستغفر الله ..

ـ المسألة التى جئت الساعة لأزور اختى ست ام فهمى فمـا هالنى الا أن أعلم بأنها ليست موجودة فى بيتها وأنك غاضب عليها ..

وامست المراة لتسبر أثر كلامها ولتسمع رأى السيد فيـــه ، ولكنه لاذ بالصمت كانه لا يجـد ما يقوله ومع أنه شـعر بعدم ارتيــاح الى فتح هذا الموضوع الا ان ابتسامة الترحيب ظلت معلقة بشفتيه ..

ـ هل توجد ست أكمل من ست أم فهمى ؟!.. ست العقل والحياء ، جارة عشرين عاما وأكثر ، لم نسمع خلالها منها الا ما يسر الخاطر ، فمــا عسى يمكن أن تجنى مما تستحق عليه غضب رجل عادل مثلك ؟!..

فثابر السيد على صمته متجاهلا تساؤلها ، ثم دارت براسه خواطر زادت من عدم ارتياحه .. ترى أجاءت زيارة المراة للبيت اتفاقا أم انهــا استدعيت بتدبير مدبر ؟!.. خديجة ؟.. عائشة ؟ .. امينة نفسها ؟.. انهم لا يلون الدفاع عن أمهم ، هــل ينسى كيف تجرأ كمال على الصراخ فى وجهه مطالبا بعودة أمه ، الأمر الذى عرضه فيما بعـــد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من يافوخه ؟!

ـ يا لها من سيدة طيبة لا تستأهل عقابا ... ويا لك من سيد كريم لا يليق به العنف ، ولـكنه الشيطان اللعين اخزاه الله ، وما أجدر نبلك بافساد كيده ..

وشعر عند ذلك بأن الصمت غدا أثقل من أن يحتمل مجاملة للزائرة فتمتم قائلا باقتضاب متعمد :

ـ ربنا يصلح الحال ..

فقالت أم مريم بحماس متشجعة بما أصابت من نجاح فى اســتدراجه الى الـكلام :

ـ لشـــد ما يعز على أن تترك جارتنــا الطيبة بيتها بعــد ذلك العمر الطويل من الستر والكرامة ..

ـ ستعود المياه الى مجاريها ، ولكن لكل شىء ميعاد ..

ـ أنت أخى ، بل أعز من الأخ ، ولن أزيد على هــذا كلمة واحدة ..

جد جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسـجله كما يسجل المرصد الزلزال البعيد مهما تدق حركته . خيل اليه وهى تقول « أنت أخى » أن صوتها رق وعذب ، فلمــا قالت « بل اعز من الأخ » جهر الصوت بحنـــان دافىء نشر فى الجــو المحتشم نفحــة طيبــة ، فتعجب وتســاءل ، ولم يعد يطيق غض بصره على الشــك فرفعه مستأنيا ... واسترق الى وجهــا النظر فوجدها ـ على غير ما توقع ـ تتطلع اليــه بعينيها الدعجــاوين ، فجــاش صدره وخفض بصره مســتعجلا بين

الدهشة والحرج ثم قال مواصلا الحديث كى يغطى على تأثيره :

ــ أشكرك على ما أوليتنى من أخوة ..

وعاد يتساءل ترى أكانت تتطلع اليـه هكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره اليها تطلعها اليه ؟.. وما القول فى أنها لم تغض بصرها عنـد التقاء العينين ؟ .. ولكنه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلا لنفسه ان ولعـه بالنسـاء وخبرته بمعاشرتهن أرهفا حاسة سوء الظن بهن عنـده ، وأن الحقيقة بلا ريب أبعد ما تكون عن تصوره ، أو لعـل المرأة من النساء اللاتى يفضن الحنان طبعا وسجية فيظنـه من لا يعرفهن غزلا وما هو بالغزل . ولكى يتحقق من صدق رأيه ــ لأنه لم تزل ثمة حاجة الى التحقق ــ رفع بصره مرة أخرى فما هاله الا أن يراها رانية اليه ، فتشجع هـذه المرة وثبت عليهـا عينيه قليلا فلم تزل ترنو اليه باستسلام جسور حتى غض بصره فى حيرة شاملة ، وعند ذاك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول :

ــ سأرى بعد هذا الرجاء ما اذا كنت حقا أثيرة عندك ..

أثيرة ؟!.. لو قيلت هذه الكلمة فى غير هـذا الجو المشبع بالحساسية المكهرب بالشك والحيرة ، لمرت دون أن تترك أثرا ، أما الآن ؟! .. وعاود النظر فى غير قليـل من الحرج فقرأ فى عينيهـا بعض المعانى التى عابثت ظنونه ، هل صـدق احسـاسه ؟ وهل يمكن هـذا حال استشفاعها لزوجه ؟.. ولـكن كيف يعجب من كان فى مثل خبرته بالنسـاء ؟ .. سيدة لعوب ذات بعل مشلول ، وسرت فى وجدانه وثبات بهيجـة ملأته حرارة وزهوا ، ولـكن متى نشأت هذه العاطفة ؟، أهى قديمة وكانت تتحين الفرص ؟.. ألم تزر دكانه مرة فلم ينـد عنها ما يريب .. ولـكن الدكان ليست بالمـكان الذى تطمئن مثلها اليـه فى بث هوى مكتم غير مسبوق بتمهيـد كما فعلت زبيـدة العالمة ، أم هى عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السـانحة فى الغرفة الخالية ؟.. لو صح هـذا فهى « زبيدة » أخرى فى لباس سـيدة مصونة ، وليس غريبا أن يجهل أمرها ــ وهو العليم ببنـات الهوى ــ ما دام يحرص الحرص كله على احترام الجيران احتراما مثاليـا ، وأيا كان الأمر فكيف يجيبها ؟ . . « أنت آثر عندى مما تظنين ؟.. » قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيـه تحية استجابة لدعائها ، كلا انه لا يريد هـذا ، انه يأباه كل الاباء ، لا لأنه لم يشبع بعد من زبيدة ، ولـكن لأنه لا يقبـل بحال أن يحيد عن مبـادئه فى تقديس الأعراض عامة ، وما يمس الأصدقاء والجيران منها خاصة . لهذا

لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن ان يخزى بهـا امام صديق أو جار أو احد من الأطهـار على افراطه فى العشـق والصبوات ، ولم يزل دأبه أن يخاف الله فى لهوه كما يخـافه فى جده فلا يبيح لنفسـه الا ما يراه مباحا أو فى حدود الهفوات . لا يعنى هـذا انه اوتى ارادة خارقة تعصمه من الأهواء ، ولـكنه لهج بالهوى المبـدول ، وصان طرفه عن الحرمات حتى انه لم يتعمد النظر الى وجه امراة من حيه طوال عمره ، على انه مما يذكر له انه صد مرة عن هوى متـاح رحمة بأحد معارفه ، اذ جاءه يوما رسول يدعوه الى لقاء أخت ذاك الرجل ـ أرملة نصف ـ فى ليـلة سماها فتلقى السـيد الدعوة صامتا وصرف الرسول متلطفا كعادته ثم قاطع الطريق الذى يوجد به البيت أعواما متواصـلة . ولعـل أم مريم كانت أول تجربة ـ عرضت لمبادئه ـ يكابدها بعينيه ، ومع أنهـا أعجبته الا أنه لم يستجب لنوازع الهوى ، وغلب صوت الحكمة والوقار ، صائنا سمعته التى يتحدث بها الناس عن مواطن المؤاخذة ، كأن هـذه السمعة الطيبـة آثر عنـده من اقتناص لذة مواتية ، متعزيا فى نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميـات مأمونة العواقب . وهـذه الروح الراعية للعهد المخلـصة للاخوان لا تزايله حتى فى مغانى اللهو والشهوات فلم يؤخذ عليـه ابدا انه سطا على خليـلة صاحب أو طمح بطرف الى خليـلة صديق ، مؤثرا الصـداقة على الأهواء ، لأنه كما اعتـاد أن يقول « الصديق ود دائم والعشيقة هوى عابر » ، ولهذا قنع بانتقـاء خليلاته ممن يجدهن بلا خليل ، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينهض لانتهـاز فرصته واحيـانا يستأذن الخليل القديم قبـل ان يتودد الى من كانت خليلته ، مواصلا العشق فى سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صـفوه أحن النفوس . بمعنى آخر انه نجح فى التوفيق بين « الحيوان » المتهالك على اللذات وبين « الانسان » المتطلع الى المبادىء العاليـة توفيقـا ائتلافيا يجمعهمـا فى وحدة منسجمة لا يطغى احد طرفيهـا على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة فى يسر وارتياح ، كما وفق من قبـل فى الجمع بين التدين والغواية فى وحدة خاليـة من الاحسـاس بالذنب والكبت معا ، غير انه لم يكن يصـدر فى وقائه عن اخلاص مجرد للأخلاق ولـكن ـ الى هـذا أو قبل هذا ـ عن رغبته التليدة فى أن يظل حائزا للحب متمتعـا بالسمعة العطرة ، الى أن غزواته المظفرة فى العشق هونت عليـه الاعراض عن الحب الموسوم بالخيـانة أو النذالة ، وفضلا عن هـذا وذاك فانه الم

يعرف الحب الحقيقى الذى كان خليقا بأن يدفعه الى احدى اثنتين : فاما الاذعان للعاطفة القوية دون مبالاة بالمبادىء ، واما الوقوع فى ازمة عاطفية خلقيـة حادة لم يقدر عليـه الاكتواء بنـارها . فلم يكن يرى فى أم مريم الا صـنفا لذيذا من الطعام لن يضيره - اذا هدده تنـاوله بسوء الهضم - أن يعدل عنه الى غيره من الأصناف المأمونة الشهية التى تحفـل بها المائدة ، لذلك أجابها برقة قائلا :

- شفاعتك مقبولة ان شاء الله وستسمعين ما يسرك عما قريب ..

فقامت المرأة وهى تقول :

- ربنا يكرمك يا سى السيد ..

ومدت له يدا بضة فمد لها يده وهو يغض بصره فخيل اليه - وهى تسلم - أنها ضغطت قليـلا على يده ، وجعل يتساءل أهـذه طريقتها المتادة فى التسليم أم انهـا تعمدت الضغط على يده ، وحاول أن يتـذكر كيفية تسـليمها عند اسـتقبالها ولكن الذاكرة لم تسـعفه ، وقضى اكثر الوقت الذى سـبق عودته الى الدكان وهو يفكر فى المرأة ، حديثهـا ، ولينها ، وتسليمها ..

- ٣٦ -

تيزه حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك .

رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها :

- لمـاذا ؟ !

ولـكن أعلنت نبراته الغاضـبة ونظراته الثـائرة على أنه لم يقصد الوقوف عند مدلول « لمـاذا » وكأنه أراد ان يقول لهـا « لم اكد أفرغ من وسيط الأمس حتى جئتنى بوسيط جديد اليوم ، من قال لك أن هذه الحيل تجوز على ؟ .. وكيف تجسرين أنت واخوتك على المكر بى ؟ »

واصفر وجه خديجة وهى تقول بصوت متهدج :

- لا أدرى والله ..

فحرك رأسه حركة كأنها تقول لها « بل تدرين وأدرى أنا أيضـا ولن يجرك مكرك الا الى أوخم العواقب » ثم قال ساخطا :

- خلّيها تتفضـل ، لن أشرب قهوتى براحة بال بعـد الآن ، أصل حجرتى محكمة وقضاة وشهود ، وهذه هى الراحة التى أجدها فى بيتى ، لعنة الله عليكم اجمعين !..

اختفت خديجة قبل ان يتم كلامه كما يختفى الفار اذا قرعت سمعه درقعة ، وظل السيد لحظات متجهما حانقا ، حتى خطرت على ذهنه صورة خديجة وهى تنسحب خائفة فعثرت قدمها بقبقابه وكاد رأسها يصطدم بالباب ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة اشفاق مسحت غضبته المتعسفة وقطرت على صدره عطفا ، يا لهم من أطفال يأبون أن ينسوا أمهم ولو دقيقة واحدة ، واتجه بصره الى الباب وهو يتهيأ لاستقبال الائرة بوجه انبسطت أساريره كأنه لم يصب غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها ، ولكن لم يكن له حيلة فيما يركبه من غضب ـ وهو فى بيته ـ لأتفه الأسباب أو بلا سبب على الاطلاق ، وفضلا عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصة لا يرتقى اليها أحد من النساء اللاتى يترددن على البيت من حين لآخر ، حرم المرحوم شوكت ، والمرحوم شوكت من قبل ، أسرة ارتبطت مع أسرته بآصرة الود الخالص من عهد الجدود ، كان للراحل منزلة الأب من نفسه ، ولم تزل أرملته عنده ـ وعند أسرته بالتبعية ـ بمنزلة الأم ، هى التى خطبت له أمينة بنفسها ، وتلقت أبناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا ، والى هذا كله فآل شوكت أناس صداقتهم شرف ، لا لأصلهم التركى فحسب ، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوى وبين الصورين ، فاذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال ، ولعل الأمومة التى تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هى التى جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والحرج ، فليست هى بالتى تلتزم الاحترام فى مخاطبته ، ولا بالتى تتعب فى استعطافه ، فضلا عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرراتها من شيخوختها ومكانتها معا ، أجل ليست هى . .

وأمسك عن أفكاره لدى سماعه وقع خطواتها ، ثم نهض وهو يقول بترحيب :

ـ أهلا وسهلا ، زارنا النبى . .

اقتربت منه سيدة طاعنة فى السن ، تدب على مظلة وهى ترفع اليه وجها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكد يحجب منه شيئا برقعها الأبيض الشفاف ، وتلقت تحيته بابتسامة جلت عن أسنانها الذهبية ، وسلمت ، ثم اتخذت مجلسها الى جانبه بلا كلفة وهى تقول :

ـ من يعش ير ، حتى أنت يا زين الرجال ! . . وحتى هذا البيت

تحدث فيه هـذه الأمور التى لا يطيب التحـدث عنها ! .. شخت ورب الحسين وبادرك الخرف ..

واسترسلت فى الكلام مطلقـة العنان للسانها يقول ويعيـد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتهـا أو التعقيب عليها ، حدثتـه كيف جاءت للزيارة ، وكيف اكتشفت غياب زوجه « ظننت بادىء الأمر أنها خرجت فى زيارة فدققت صدرى بيدى دهشة وقلت ماذا حدث للدنيـا ؟! .. وكيف سمح لهـا السيد بالخروج مستهينا بالشرائع الالهيـة والقوانين البشرية والفرامانات العثمانية !... » بيد أنهـا سرعان ما عرفت الحقيقة كلها « فثبت الى رشـدى وقلت الحمد لله الدنيـا بخير ، هذا حقا هو السيد ، وهذا أقل ما ينتظر منه » ثم غيرت لهجتها السـاخرة وراحت تؤنبه على قسوته ، ولم تقتصد فى الرثاء لزوجه التى تعدها آخر امرأة تستحق عقابا ، وجعلت كلما هم بمقاطعتها تصيح به « هس ، ولا كلمة ، دع حديثـك الحلو الذى تحسن تنميقه فلن أخدع به ، انى اريد عمـلا صالحا لا قولا مزوقا » وصـارحته بأنه يغالى فى المحـافظة على أسرته مغالاة خرقت المألوف ، وانه يجمـل به ان يأخذ نفسه بشىء من الهوادة والرفق ، استمع السيد اليهـا طويلا ، ولما سمحت له بالـكلام — بعد أن أعياها الـكلام — شرح لهـا وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحار ، ولا مكانتها عنده من أن يؤكد لهـا بأن سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحول عنها وان وعدها فى النهاية — كما وعد أم مريم من قبـل — خيرا ، وظن ان آن للجلسة أن تنفض ولكنه ما يدرى الا وهى تقول :

— غياب أمينة هانم مفاجأة غير سارة لى لأنى كنت أريدها لأمر هام جدا ، ولأن الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحتى ، ولا أدرى الآن ان كان يحسن بى أن أتكلم فيما أردت الـكلام فيه أم أنتظر عودتها ! ..

فقال السيد مبتسما :

— كلنا تحت أمرك ..

— وددت لو كانت هى أول من يسمعنى وان كنت لم تترك لهـا من الأمر شيئا ، ولـكن لئن فاتنى هذا فعزائى أنى أهيىء لها فرصة سعيدة للعودة ..

فاحتار السيد فى فهم حديثها وحدج اليها متسائلا :

— ما وراء هذا ؟

فقالت وهى تنكت السجادة بسن مظلتها :

- لا اطيل عليك ، لقد وقع اختيارى على عائشة لتكون زوجا لخليل ابنى ..

ودهش السيد دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقع فركبه الارتباك ، بل الانزعاج ، لبواعث غير خافية ، أدرك من اول وهلة أن تصميمه القديم على الا يزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى سيرتطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسعه اهمالها .. رغبة عالنته بها من لا تجهل تصميمه ذاك مما دل على أنها ترفضه سلفا وتأبى أن تنزل عند حكمه ..

- مالك صامتا كأنك لم تسمعنى ؟!..

وابتسم السيد ارتباكا وحياء ، ثم قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريثما يقلب الأمر على وجوهه :

- هذا شرف عظيم لنا ..

فرمته السيدة بنظرة كأنما تقول له « ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام » وقالت بلهجة هجومية :

- لا حاجة بى الى الضحك على بأجوف الكلام ، لن أرضى بغير الموافقة التامة ، لقد ندبنى خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندى عروس هى خير ما يمكن أن تظفر به فسر لاختيارى ولم يعدل بمصاهرتك شيئا .. فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة ، منى أنا ، بالصمت والتهرب ؟! الله ... الله ..

الام يقع فى هذه المشكلة المعقدة التى لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب احدى ابنتيه بصدمة قاسية ؟! .. ونظر اليها كما يستجدى عطفها على موقفه ، وغمغم :

- ليس الأمر كما تتصورين ، رغبتك فوق العين والرأس ، ولكن ..

- آه من لكن ! ... لا تقل انك قررت الا تزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى ، من أنت حتى تقرر هذا او ذاك ؟.. دع ما لله لله وهو أرحم الراحمين ، ان شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن اخوات صغار تزوجن قبل الكبار فلم يحل زواجهن دون زواج اخواتهن بأحسن الأزواج ، وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجا صالحا عند ما يشاء الله ... الام تقف حائلا بين عائشة وبين حظها ؟.. أليست هى الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك ؟!

قال لنفسه : اذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا تختارينها ؟! .. وهم باحراجها كما أحرجته ولكنه خاف أن ترميه باجابة تتضمن اساءة

ـ ولو بحسن نية ـ لخديجة وبالتـــالى له هو ، وقال بصوت ملؤه الجد والاهتمــام :

ـ ليس الا أننى أشفق على خديجة .

فقالت بحدة كأنما هى المطالبة لا هو :

ـ كل يوم تقع أمور كهذه دون أن تريك أحدا ، ان الله يكره من عبده العنــاد والمكابرة ، اقبــل رجائى وتوكل على الله . لا ترفض يدى فانى ما مددتها الى أحد قبلك ..

فدارى السيد انفعاله بابتسامة وقال :

ـ هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة ... فقط امهلينى قليلا ريثمــا اراجع نفسى وأرتب امورى ، وستجدين رأيى عنــد حسن ظنك ان شاء الله ...

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث :

ـ لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر ممــا اخذت ، ثم انه كلمــا طال الأخذ والرد خيـــل الى انك لا تتقبــل رغبتى بقبــول حسن ، ومثلى من تطمع اذا قالت لك أريد أن تبــادرها بنعم دون لت وعجن ، فلن أزيد عما قلت الا كلمة واحدة : خليــل ابنى وابنك وعائشة بنتك وبنتى ..

وقامت فقــام السيد ليودعها ، لم يكن يتوقع الا كلمة توديع وتحية ؛ ولكنها أبت الا أن تذكره بوصاياها جمــلة . وكأنما خافت أن يفوته شىء منهــا فأعادتها تفصــيلا ، وما يدرى ـ أو ما تدرى ـ الا وهى ترجــع لتأييد بعض آرائهــا وتوكيد البعض الآخر ، ثم غلبهــا تداعى الأفــكار فاسترسلت فيــه بلا ممانعة حتى أعادت على مسمعه جل ما قالت عن الخطبــة ، والى هـــذا كله لم تشأ أن تنهى ذاك الحــديث دون أن تودع حديث الأم المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث واذا بتداعى الأفــكار يغلبهــا مرة اخرى فتسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصــابه ، ثم أوشــك أن يضحك فى النهــاية وهى تقول له : « لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر ممــا أخذت » وأوصلها الى البــاب مشفقا فى كل خطوة من أن تتوقف عن المسير وتشتبك فى الـكلام كرة أخرى ، ثم عاد أخيرا الى مجلســـه وهو يتنفس من الأعمــاق ، عاد مغتما مكتئبا ، قلب رقيق ، أرق ممـــا يظن الكثيرون ، بل أرق مما ينبغى ، فكيف يصدق هـــذا من لا يرونه الا مكشرا او صاخبا أو ضاحكا ساخرا !... أن مســة حزن تلذع فلذة من كبده خليقة بأن تنغص العيش كله وتطين وجه الحياة فى عينيه ، ولـكم يسعده أن يجود بكل غال فى سبيل اســعاد فتاتيه سواء هذه التى يرى فى وجهها

الجميل وجه أمه أو تلك التي لم تصب من الحسن الا لونا شاحبا ، كلناهما من نبض قلبه وعصارة روحه ، بيد ان الزوج الذى تقدمه حرم المرحوم شوكت لقية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فتى فى الخامسة والعشرين ، ذو دخل شهرى لا يقل عن الثلاثين جنيها ، حقا انه ككثير من الأعيان لا عمل له ، وحقا أن حظه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة القراءة والكتابة ، ولكنه يتصف بجملة من خلال ابيه فى الطيبة وكرم الأخلاق ، ما عسى أن يفعل ؟.. يجب ان يحسم امره لأنه لم يألف التردد ولا الشورى ولا يقبل ان يبدو أمام أهله — ولو للحظة قصيرة — كمن لا رأى قاطعا له ، ألا يشاور خاصته المقربين ؟ .. انه لا يرى غضاضة فى مشاورتهم كلما جد أمر ، والواقع أن سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشاكل قبل ان تطير بهم الخمر الى الدنيا التى لا تعترف بالهموم والمشاكل ، ولكنه على قدر ما يستبد فى باطنه برايه فلا يحيد عنه ، فهو من الذين يلتمسون فى الشورى ما يؤيد رايهم لا ما يعدل بهم عنه ، ولكنها حتى فى هذه الحال عزاء ومتنفس ، ولما ضاق الرجل بافكاره هتف قائلا :

— من يصدق أن ما بى من هم لا يحتمل ما هو الا نتيجة لخير اكرمنى به الله ؟! ..

— ٣٧ —

لم يكن لأمينة من عمل فى ايام منفاها الا الجلوس الى جانب امها والاسترسال فى الحديث ، فى كل ما يخطر على البال من احاديث تجاذبها الماضى البعيد والماضى القريب والحاضر ، ما بين الذكريات العزيزة والمأساة الراهنة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنت الى حياتها الجديدة كعطلة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خيالية ، فى عالم الذكريات ، بيد أن مرور الأيام دون وقوع الشيء الذى تخاف وما بلغها من شفاعة ام مريم وحرم المرحوم شوكت لدى السيد ، كل اولئك ثبت قلبها وروح عن نفسها ، الى أن زيارات الأبناء المسائية التى لم تنقطع يوما واحدا طلت جوى صدرها بنفحات أمل متجدد ، ومع أن الزمن الذي يتغيبونه عنها فى البيت الجديد لم يزد كثيرا عن نظيره فى البيت القديم — فى كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم الا حين فراغهم فى جلسة المساء —

الا انها باتت تشتاق اليهم اشتياق المغترب فى بلد بعيــد الى احباب فرق الدهر بينه وبينهم ، اشتياق من حرم عليــه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم ، والاشراف على مواطن جدهم ولهوهم ، كأن الجسم كلما قطع فى طريق الفراق قيراطا كابده القلب أميالا ، ودأبت العجوز على أن تقول لها كلما وجدت منها صمتا أو آنست فى حديثها الشرود :

ــ الصــبر يا امينة ، انى أرثى لحالك . الأم غريبــة ما ابتعدت عن ابنائها ، غريبة ولو حلت البيت الذى ولدت فيه ...

اجل انهــا غريبة ، كأنه ليس البيت الذى لم تعرف حياتهـــا الأولى ســواه موطنا ، وكأنها ليست الأم التى لم تكن تطيق البعــــد عنها لحظة واحدة ، لم يعد « بيتها » ، ما هو الا منفى تنتظر بين جدرانه على لهف العفو من السماء . وجاء العفو بعــد طول انتظار ، حمـــله الأبناء ذات مســاء . دخلوا عليها وفى أعينهم لمعة كسنا البرق خفق لهــا فؤادها خفقة اهتز لهـــا الصدر كله حتى أشفقت من أن تكون قد ذهبت فى تأويلها الى ابعد مما تحتمل ، ولــكن كمال جرى نحوها وتعلق بعنقهـــا ثم هتف بها وهو لا يتمالك نفسه من الفرح :

ــ البسى ملاءتك وهيا بنا ...

وقهقه ياسين قائلا :

ــ جاء الفرج (ثم هو وفهمى معا) دعانا أبى وقال لنا اذهبــا فعودا بأمكما ...

وغضت بصرها لتــدارى فرحتها الغــامرة . ما اعجزها عن كتمان ما يضطرب فى نفســـها من شتى العواطف ، كأن وجهها مرآة شــديدة الحساسية لا تترك كبيرة ولا صغيرة مما فى اعماقهــا الا سجلته . لشد ما ودت أن تتلقى النبــأ السعيد بهدوء خليــق بأمومتها ، ولــكن الفرح استخفها فضحكت اساريرها ونطقت بابتهــاج صبيانى ، وفى نفس الوقت تولاها حيــاء لم تدر له ســببا . وطال جمودها فى مكانها فنفــــد صبر كمال فشــدها من يدها راميــا بثقله الى الوراء حتى طاوعتــه ناهضة ، ووقفت قليلا فى ارتباك غريب وما تدرى الا وهى تلتفت الى امها متسائلة

ــ اذهب يا أمى ؟

بدا السؤال الذى ند عنها فى نغمة الارتباك والحياء ــ غريبا ، فابتسم فهمى وياسين ، ودهش كمال وحده فيما يشبه الانزعاج وراح يؤكد لها نبأ العفو الذى جاءوا به ، أما الجدة فقد شعرت بشعورها كله وحدست

باطنهـا فرق قلبها وتحاشت أن تظهر الانكار لسؤالها ولو بابتسـامة خفيفة ، وقالت بلهجة جدية :

ــ الى بيتك مصحوبة بسلامة الله .

فذهبت أمينة لترتدى ملاءتها وتصر ثيابها وكمال فى أعقابهـا ، وهنا خاطبت الجدة الشابين متسائلة بلهجة انتقادية خففتها بابتسامة رقيقة :

ــ اما كان الأخلق بأبيكما أن يأتى بنفسه . . . ؟!

فأجابها فهمى كالمعتذر قائلا :

ــ انت أدرى يا جدتى بطبع أبينا . . .

على حين قال ياسين ضاحكا :

ــ فانحمد الله على ما كان . .!

فهمهمت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنما ترد على همهمتها :

ــ على أى حال السيد أحمد رجل ولا كل الرجال .

وغادروا البيت ودعاء الجـدة لهم بالبركة يتردد فى آذانهم ، وقطعوا الطريق معا لأول مرة فى حياتهم حتى بدا المنظر فى أعينهم بالغـا فى غرابته فتبـادل فهمى وياسين نظرات باسمه . وتذكر كمال يوم سـار ــ كما يسـير الآن ــ ممسكا بيـد امه يقودها من عطفة الى عطفـة ، ثم ما تلى ذلك من آلام ومخاوف لا يحيط بها الـكابوس نفسه فتعجب طويلا ، بيد انه تناسى سريعا احزان المـاضى فى فرحة الساعة ، ووجد من نفسه ميلا للدعابة فقال لأمه ضاحكا :

ــ تعالى نخطف أرجلنا الى سيدنا الحسين . .!

فضحك ياسين قائلا بلهجة ذات معنى :

ــ رضى الله عنه ، انه شهيد يحب الشهداء .

ولاحت لهم المشربية وشبحان يتحركان وراء خصـاصها فهفا قلب الأم اليهمـا فى حنو واشـتياق ، ثم وجدت وراء البـاب أم حنفى فى استقبالها فغمرت يدى سيدتها بالقبل ، والتقت فى فنـاء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلقتا بها كالأطفال ، ورقوا السـلم فى مظاهرة صاخبة ، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقروا جميعا فى حجرتها فتبـادروا الى نزع ملابسها ــ رمز الفراق البغيض ــ وهم يضجون بالضحك ، فلمـا جلست بينهم كانت تلهث من الانفعـال والتأثر . واراد كمال أن يعبر عن فرحه بها فلم يجد خيرا من أن يقول لها :

ــ هذا اليوم أعز عندى من يوم المحمل نفسه .!

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير فى مجلس القهوة . فعاودوا السمر فى جو من المسرة ضاعف من بهجته ما سبقه من أيام فراق وكآبة كما تزداد لذة اليوم الدفىء يجىء فى أعقاب أسبوع من الزمهرير ، ولم تنس الأم - التى استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا - أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرجة من حجرة الفرن حتى اللبلاب والياسمين ، كما سألت كثيرا عن الأب . وكم سرها أن تعلم انه لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها ؛ فمهما يكن من أمر الراحة التى تهيأت له فى غيابها فثمة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمله بلا ريب عناء سيزول بعودتها ، عودتها التى تكفل له - وحدها - الحياة التى يألفها ويرتاح اليها ..! الشىء الوحيد الذى لم يخطر لأمينة على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت فى هذه العودة بالذات مبررا لاجترار الحزن والأسى !.. ولكن هكذا كان ؛ فهذه القلوب التى شغلت بحزن الأم عن أحزانها عادت الى التفكير فى اشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم كالمغص الشديد الطارىء ننسى به رمدا مزمنا حتى اذا ذهب عادتنا آلام الجفون ، عاد فهمى يقول لنفسه « لكل حزن - فيما يبدو - نهاية ، هذه أمى قد رفع عنها الهم . ولكن حزنى يبدو كأن لانهاية له » ؛ ورجعت عائشة الى أفكارها التى لايطلع على سرها أحد ، تتراءى لها الأحلام وتلم بها الذكريات وان عدت بالقياس الى أخيها اهدأ حالا واسرع الى النسيان خطوة ؛ ولكن أمينة لم تكن تقرأ الأفكار فلم ينغص عليها صفوها منغص ، ولما آوت الى حجرتها ليلا تبين لها أن النوم لا يجد متسعا فى نفسها التى افعمها الفرح فلم تذقه الا لماما حتى انتصف الليل فغادرت الفراش الى المشربية تنتظر كعهدها مسرحة البصر من خصاص النوافذ الى الطريق الساهر حتى جاءت العربة تتهادى حاملة بعلها الى بيته . خفق قلبها بشدة ، وتورد وجهها حياء وارتباكا ، كأنها ستلقاه لأول مرة ، وكأنها لم تفكر طويلا فى هذه اللحظة ... لحظة اللقاء المنتظر ، كيف تقابله ؟ .. كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة ؟.. ما عسى أن تقول له أو يقول لها !. او يسعها أن تتصنع النوم !. ولكنها لا تجيد التمثيل قط ولا تطيق ان يدخل عليها وهى مستلقية ، بل لا يسعها أن تهمل واجب الخروج الى السلم بالمصباح لتضىء له ، وأكثر من هذا كله أنها بعد ظفرها بالعودة وزوال السخط عنها - شاعت أريحية الرضا فى قلبها فعفت عما سلف بل وحملت نفسها الذنب كله حتى رأت بعلها - بالرغم من أنه لم يعن

بالذهاب الى بيت أمها لمصالحتها ـ حقيقا بالاسترضاء ، فتناولت المصباح ومضت الى السلم ومدت ذراعهـا من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين بفؤاد خافق حتى صعد اليها » لقيته برأس مطأطأ فلم تر وجهه عند اللقاء ، ولم تدر أى تغير طرأ عليه حين مرآها ، حتى سمعته يقـول لها بلهجة طبيعية لا أثر فيها من المـاضى القـريب الأسيف :

ـ مساء الخير ...

ففمغمت :

ـ مساء الخير يا سيدى ...

وذهب الى الحجرة وهى فى اثره رافعة يدها بالمصباح . وبدا يخلع ملابسه صامتا فتقدمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردد أنفاس الراحة . ومع أنهـا ذكرت صباح القطيعة المشـئوم حين نهض لارتداء ملابســه وقال لها بجفاء « ســأرتدى ملابسى بنفسى » الا ان ذكراه خطرت عارية عن احاسيس الألم واليـأس التى غشـيتها وقتـذاك ، وشـعرت وهى تتعهده بهذه الخدمة التى لم يسمح بها السـواها بأنهـا تسترد أعز ما تملك فى الوجود . واتخذ مجلسه على الكنبة فتربعت على الشـلته عند قدميه دون أن ينبس احدهمـا بكلمة ، وكانت تتوقع أن يشيع « الماضى الأسيف » بكلمة ، نصيحة أو تحذير او ما شابه ذلك ، وعملت لذلك ألف حساب ، ولكنه سألها ببساطة :

ـ كيف حال امك ؟

فأجابته وهى تتنهد بارتياح :

ـ بخير يا سيدى وتهديك التحية والدعاء .

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيما يشبه عدم الاكتراث :

ـ حرم المرحوم شـوكت فاتحتنى برغبتها فى اختيار عائشة زوجا لخليـل ...

فرفعت اليه أمينة عينيها فى دهشة ناطقة بأثر المفاجأة ، ولكنه هز كتفيه استهانة ، وكأنما خاف ان تدلى برأى يتفق أن يكون موافقا لقراره الذى لم يعلم به احد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه اخذ برأيها فسبق قائلا :

ـ فكرت فى الأمر طويلا فانتهى بى التفـكير الى الموافقة ، لا أريد ان اعترض حظ البنت اكثر مما فعلت ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ...

— ٣٨ —

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل . وكادت لا تصدق أذنيها حين زف اليها الخبر ، هل حقا وافق أبوها ؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلما ذا دعابات قاسية ؟. لم يكن قد فات على الخيبة التى منيت بها الا قرابة اشهر ثلاثة ، ومع أن وقعها فى نفسها كان شديدا قاسيا الا انه مضى يخف ويهون مع الأيام حتى امسى ذكرى شاحبة تستثير — اذا استثيرت — حزنا رقيقا غير ذى خطورة ، كل شىء فى هذا البيت يخضع خضوعا أعمى لارادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هى بالسيطرة الدينية أشبه . حتى الحب نفسه — بين جدرانه — يسترق خطاه الى القلوب فى حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس ، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد ، اذ لا استبداد هنا الا لتلك الارادة العليا ، ولذلك فعندما قال الأب « لا » استقر قوله فى اعماق نفسها وآمنت الفتاة ايمانا راسخا ان كل شىء قد انتهى حقا ، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع ، كأن « لا » هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار . غير مجد اى اعتراض عليها ، ولا محيد من اتخاذ موقف موافق لها ، وعمل هذا الايمان من ناحيته — بشعور وبغير شعور منها — على انهاء كل شىء فانتهى . على أنها تساءلت فيما بينها وبين نفسها : اذا كانت الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة أشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذى هفا الفؤاد اليه ؟ . . الا ينطوى حظها السعيد نفسه — تبعا لذلك — على معاكسة غير مفهومة ؟ بيد انه تساؤل ظل فى طى الكتمان ، لم يطلع عليه احد ولا أمها نفسها ، لأن اعلان الفرح بالعريس — كشخصية معنوية فحسب — عد استهتارا يجافى الحياء ، فما بالك باظهار الرغبة فى رجل بالذات !. . ولكن بالرغم من هذا كله ، وبالرغم من أن العريس الجديد كان مجهولا لديها الا فيما حدثت عنه امه فى جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى أيما سعادة ، ووجدت عواطفها الظامئة قطبا تنجذب اليه فى هيمانها ، كأن حبها نوع من « القابلية » أكثر منه تعلقا برجل بالذات ، فاذا استبعد رجل وحل محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبعها ، ومضى كل شىء فى سبيله ، وقد يكون رجل آثر

عندها من آخر ولكن ليس الى الحد الذى يفسد معه طعم الحياة أو يدفع الى التمرد والعصيان ، ولما طابت نفسا ورف قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو أختها ـ كشأنها فى مثل هذه الحال ـ عطف ورحمة غير مشوبين ، فودت لو كانت سبقتها الى الزواج ، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع :

ـ وددت لو تقدمتنى الى بيت الزوجية ! ... ولكنها القسمة والنصيب ، وكل آت قريب ..

ولكن خديجة ـ التى تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف ـ تلقت قولها بامتعاض شديد لم يخف عليها . وقبل ذلك اعتذرت لها أمها قائلة برقتها وحيائها المعهودين :

ـ تمنينا جميعا أن يكون دورك السابق ، وعملنا على هذا اكثر من مرة ، ولكن لعل عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذى عاق حظك الى اليوم ، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله ، وكل تأخيرة فيها خيرة ..

ووجدت من ياسين وفهمى نفس العطف يبديانه تارة بالكلام المباشر ، ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة حلت ـ ولو الى حين ـ محل المزاح القارص الذى كان مألوفا بينها وبينهما او بينها وبين ياسين خاصة ، والحق انه لم يعدل بحزنها على سوء حظها الا نرفزتها من العطف الشائع فى جوها ، لا لنفور من العطف مركب فى طبعها ، ولكن لأن مثلها مثل المصاب بالانفلونزا يضار بالتعرض للهواء الطلق الذى ينعشه عادة وهو صحيح ، فما كانت تأباه لعطف تعلم أنه بديل غير مجد لأمل ضائع ، ولعلها ارتابت ـ الى هذا كله ـ فى البواعث التى تدفعهم الى اغداق العطف عليها ، ألم تكن امها الوساطة دائما بين الخاطبات وبين أبيها ؟ فمن يدريها أنها كانت تقوم بالوساطة اداء لواجب ربة البيت لا سعيا وراء رغبة خفية فى تزويج عائشة ؟! واليس فهمى الذى حمل رسالة ضابط قسم الجمالية ؟.. ألم يكن بوسعه ان يعدل به عن رأيه من وراء وراء ؟!

واليس ياسين .. ولكن بأى وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو اقرب منه اليها ؟.. فأى عطف هذا ؟! بل أى رياء وأى كذب ! لذلك برمت بالعطف ، وذكرت به الاساءة لا الاحسان ، فامتلأت حنقا وامتعاضا ولكنها طوتهما فى الأعماق ان تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها أو تعرض نفسها ـ هكذا صور لها سوء ظنها ـ لشماتة الشامتين ، على أنه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها لأن الكتمان فى هذه الأسرة ـ

خاصة فيما يتعلق بالعواطف ـ عادة متأصلة وضرورة اخلاقية طبعت عليه فى ظل الارهاب الأبوى ، وبين الحنق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذابا متصلا وجهدا مطردا . وأبوها ؟!.. ماذا عدل به عن رأيه القديم ؟!.. أهانت عليه بعد اعزاز ؟!.. هل نفد صبره فى انتظار زواجها فقرر التضحية بها وتركها للأقدار ؟! لشد ما تعجب لتخليهم عنها كأنها شيء لا يكون : نسيت فى ثورتها مواقفهم السابقة فى الدفاع عنها فلم تذكر الا « خيانتهم » الأخيرة ، على أن غضبتها العامة هذه لم تكن شيئا بالقياس الى ماتجمع فى صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحنق ! كرهت سعادتها ، وكرهت أكثر مداراتها لهذه السعادة ، وكرهت جمالها الذى بدا فى عينيها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع فى عين المطارد ، ثم كرهت الحياة التى لم تعد تدخر لها الا اليأس ، وتتابعت الأيام لتزيدها حزنا على حزن بما حملت الى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت فى الجو كله من بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها فى غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات فى البركة الآسنة ، ثم شرع السيد فى تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلسات الأسرة المسائية ، تعرض عليها انواع من الأثاث والثياب فتطرى شيئا وتعرض عن شيء ، أو توازن بين لون ولون ، فى اهتمام ونسوا نسه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة ، وحتى هى نفسها اضطرت ـ مجاراة لما تتظاهر به من رضى ـ الى المشاركة فى نشاطهم وحماسهم ومناقشاتهم التى لا تنتهى . بيد أن هذا الموقف العاطفى المعقد ، الذى يبدو لعين الغريب عن الأسرة كنذير شر لا تحمد عواقبه ، تغير فجأة حين اتجه التفكير الى تفصيل ثياب العروس ، وبالتالى حين تعلقت الأبصار بخديجة وتركز فيها الاهتمام كله والأمل كله . وقد توقعت هذا الواجب كأمر لامفر منه ، يحنقها قبوله أشد الحنق ولايسعها رفضه والا فضحت خبيئتها ، ولكنها ، حين تطلعت اليها الأبصار فأوصتها أمها بأختها خيرا ورنت اليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء وقال فهمى لعائشة على مسمع منها « لن تكونى عروسا حقا حتى تحيك خديجة ثياب العرس » ، وقال ياسين معلقا على قوله : « صدقت .. هذه الحقيقة فوق الجدل » ، حين حدث هذا كله فتر حنقها وعقل ثورتها الحياء فعلقت عواطفها الطيبة المطمورة ، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من

البذور الكامنة تحت الطين . ولم ترتب فى بواعث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل فى بواعث العطف « الزائف » لشعورها بصدقه من ناحية ولأنه اتجه الى براعمها التى لاشك فيها من ناحية اخرى ، فكأنه اعتراف جامع بأهميتها وخطورة شأنها ، وبأن هذه السعادة — التى أبت أن تكون من نصيبها — لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هى فيها ، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تخففت الى اقصى حد ممكن من انفعالاتها السوداء ، ان الانفعالات السوداء تلم بأنفس هذه الأسرة كما تلم بغالبية البشر ولكنها لا تظفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستنقع ، منهم من قابليته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال ، ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيام من شتاء مصر يطلخم سحابها حتى تمطر رذاذا وما هى الا ساعة أو بعض ساعة حتى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة ، لا يعنى هذا أن خديجة نسيت أحزانها ولكن السماحة صفتها من الضغينة والحقد ، ويوما فيوما لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من اهلها يقدر ما عتبت على بختها حتى نصبته فى النهاية هدفا لامتعاضها وتذمرها ، ذلك البخت الذى قتر عيها فى الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكدر غدها بالقلق والمخاوف ، واستسلمت اخيرا — كأمها — للمقادير . عجز جانبها الحامى الموروث عن ابيها ، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيئتها ، عن معالجة حظها العاثر ، فوجدت السلامة فى أن تلوذ بالجانب السلمى الموروث عن امها فاستسلمت للمقادير ، كالقائد الذى تعييه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعا ذا حصانة طبيعية ليثبت فيه فلوله ، او يدعو الى الصلح والسلام ، وراحت تشكو بثها فى الصلاة ومناجاة الرحمن ، والحق أنها كانت — منذ صباها — تجارى امها فى تدينها ومحافظتها على الفرائض بمثابرة دلت على يقظة عاطفتها الدينية ، لا كعائشة التى تلم بالعبادة فى نوبات حماسية متباعدة ولا تطيق المداومة عليها ، وطالما تعجبت خديجة — وهى بمعرض المقارنة بين حظها وبين حظ اختها — من سوء الجزاء الذى تثاب به على اخلاصها ، وحسن الجزاء الذى تثاب به الأخرى على تهاونها . . « انى احافظ على الصلاة اما هى فلم تعلق المحافظة عليها يومين متتاليين ، وانى أصوم رمضان كله وأما هى فتصوم يوما أو يومين ثم تتظاهر بالصوم على حين تنسل خفية الى المخزن فتملأ بطنها بالنقل حتى اذا أطلق مدفع الافطار هرعت الى المائدة قبل الصائمين ! » . وحتى من ناحية الجمال لم تسلم

العائشة بدون قيد ولا شرط نعم انها لم تجهر برأيها لأحد . بل لعلها تؤثر كثيرا أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحفزين ولكنها كانت تطيل النظر الى وجهها فى المرآة وتناجى نفسها قائلة « عائشة جميلة بلاشك ولكنها نحيلة ، السمانة نصف الجمال ، انا سمينة ، واكتناز وجهى يكاد يغطى على كبر أنفى ، لم يبق الا ان يشد بختى حيله .. » على أنها فقدت ثقتها بنفسها فى الأزمة الأخيرة ، ومع أنها عاودت كثيرا تلك المناجاة عن الجمال والسمانة والبخت الا أنها عاودتها هذه المرة لتذرى — أمام نفسها — احساسها القلق بعدم الثقة كما نلجأ أحيانا الى المنطق لنستمد منه الطمأنينة على أمور — كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية — لا تمت الى المنطق بسبب .

ولم تنس أمينة — رغم كثرة مشاغلها كأم للعروس — خديجة ؛ او أن فرحها للعروس كان يذكرها بحزنها على اختها كما تذكرنا الراحة التى نحظى بها بفعل مخدر بالألم الذى سيعاودنا بعد حين ، وكأن زواج عائشة قد أثار مخاوفها القديمة عن خديجة فأرسلت — التماسا للطمأنينة من أى سبيل — أم حنفى الى الشيخ رءوف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها ، وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيدتها أن الشيخ قال لها « ستحملين الى رطلين من السكر عما قريب » ومع أنها لم تكن أول بشرى من هذا النوع تزف اليها عن خديجة الا أنها أملتها خيرا ورحبت بها كمسكن للقلق الذى لا يزايلها ..

— ٣٩ —

ألم يئن الأوان يا بنت المركوب ؟! ذبت يا مسلمين ، ذبت كالصابونة ولم يبق منى الا رغوة ، هى تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة ، تدللى ... تدللى يا بنت المركوب ، ألم نتفق على هذا الميعاد ؟ ولكن لك حق .. فردة ثدى من صدرك تكفى لخراب مالطة ... وفردة أليه تطير مخ هندنبرج ، عندك كنز ، ربنا يلطف بى ، ربنا يلطف بى وبكل مسكين مثلى يؤرقه الثدى الناهد والعجيزة المدملجة والعين المكحولة ، العين المكحولة فى الآخر ، اذ رب ضريرة ريا الروادف كاعب الثديين خير ألف مرة من عجفاء مسحاء مكحولة العينين ، يا بنت العالمة وجارة التربيعة .. تلك لقنتك أصول الدلال وهذه تمدك بأسرار الجمال ، لهذا

ينهد ثدياك من كثرة من عبث بهما من العشـــاق » اتفقنا على الميعاد لست أحلم ، افتحى النافذة ، افتحى يا بنت المركوب » افتحى يا أجمل من اقشعرت لها سرتى » ومص الشفة ورضع الحلمة لانتظرن حتى مطلع الفجر ، ستجدينني طوع بنانك ، ان اردت أن اكون مؤخر عربة الكارو الذى تتأرجحين عليه اكنه » ان أردت ان أكون الحمار الذى يجر العربة اكنه ، يا واقعتك يا ياسين ، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد » يا شماتة الاستراليين فيك يا انا يا طريد الأزبكية وحبيس الجمـالية » الحـرب يا هوه » شـنها غليوم فى أوروبا ورحت ضحيتها أنا فى النحاسـين ، افتحى النـافذة يا روح أمك » افتحى يا روحي انا .. » هكذا جعل ياسين يحادث نفسه وهو جالس على الأريكة بقهوة سى على ، وعيناه تتطلعان الى بيت زبيدة العالمة خلل الـكوة المطلة على الغـورية ، كلمـا شكه الجزع غرق فى احلامه وخواطره فترفه جزعه وتهيج أشواقه معا ، كبعض المنومات الطبية التىتعالج الأرق وتتعب القلب ، كان تقدم خطوة موفقة فى مغازلة زنوبة العوادة خرج بها من دور التحضــير ــ ملازمة قهوة سى على مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو والابتسام وفتل الشارب وتلعيب الحاجب ــ الى دور المفاوضة والتأهب للعمل ، حدث ذلك فى عطفة التربيعة الطويلة الضيقة المسـقوفة بالخيش الملتوية ذات الدكاكين الصـغيرة المتلاصقة على الجانبين كخـلايا النحل . ولم تكن التربيعة بالجديدة عليه ، كيف وهى سوق النسوان من جميـع الطبقات يتقاطرن عليها لابتياع ما خف حمله وجلت فوائده من مختلف صنوف العطارة ذوات البهجة والجمال والنفع ، فهى هدفه كلما خلا طريقه من هدف يجذبه اليه ، وهى مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهلا ــ بحكم الرحمة والرغبة معا ــ من طرف الى طرف كأنما يسـتعرض الدكاكين لانتقاء حاجة وهو فى الحقيقة يتصفح الوجوه والأجسام ما تنحسر عنه البراقع وما تضيق به الملاءات » ما يرى جملة ومايرى تفصيلا ، مايسطع هنا وهنـاك من روائح زكية ، ما ينـد من حين لآخر من أصـوات أو يوسوس من ضحكات ، ملتزما عادة حدود الأدب لغلبة العناصر الطيبة على الزائرات » قانعا بالمشاهدة والموازنة والنقد ، لاقطا من المرئيـات صورا ممتازة يزين بها متحف ذاكرته ، فلا يفوق سعادته شيء اذا ظفر بلون بشرة صاف لم يره من قبل ، أو بلحظ عين لم يتعرض لمثـــله ، او لثدى عجيب فى نهوده ، أو لعجيزة خرقت المألوف فى ضـخامتها او حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول « فاز بالسبق اليوم نهد الست

التى كانت واقفة أمام الدكان الفلانية » أو « هذا يوم الكفل الرابى رقم ٥ » أو « يا لها من حقيبة ويا لها من حقيبة .. هذا يوم الحقائب المشرفة » اذ تأدى به مزاجه الى التهالك على جسم المرأة متجاهلا شخصيتها ثم الى تركيز العناية فى أجزاء من الجسم متجاهلا جملته . وكأنه فى هذا كله ينعش آماله ويجددها أبدا كرجل لا يقدم على النسوان غاية فى دنياه ـ عند الفرص المحتملة المدخرة ليوم أو لغد ـ الى ما يسنح له فى هذه الجولات الجنسية من صيد طيب فى أحوال نادرة ، ففى ذات أصيل ـ وهو بمجلسه تحت الكوة بقهوة سى على ـ رأى العوادة تغادر البيت بمفردها فنهض من توه وتبعها ، ومالت الى عطفة التربيعة فمال وراءها ، ثم وقفت أمام دكان فوقف الى جانبها ، وانتظرت حتى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدل بذلك « التجاهل » على أنها فطنت لوجوده ـ كما لا بد أن تكون حدست متابعة لها من بادىء الأمر ـ فهمس قريبا من أذنها « مساء الخير » فواصلت النظر الى الأمام الا أنه لمح بجانب فيها انحراف ابتسامة ، ردا لتحيته ، أو مكافأة له على طول متابعته لها مساء بعد مساء ، فتنهد تنهد الراحة والظفر مطمئنا الى جنى ثمرة صبره فسال لعاب شهوته كما يتحلب ريق الجائع النهم اذا تطايرت الى أنفه رائحة الشواء الذى يهيأ له ورأى عن حكمة أن يتظاهر بأنهما جاءا معا فأدى ثمن مشترياتها من الحناء والمغات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنه ـ بأداء هذا الواجب اللذيذ ـ يكتسب حقا ألذ وأمتع ، غير مكترث لما بدا منها من الميل الى الاكثار من المشتريات حين اطمأنت الى أنه سيدفع الثمن . وفى طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق « ياست الحسن والجمال قضيت العمر كما تشهدين وراءك ، وجزاء المحب « اللقاء فقط ؟ » فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة فى تهكم « اللقاء فقط ؟ » فكاد يضحك بروحه وجسمه كحاله اذا أخذته نشوة فرح ولكنه بادر الى احكام اغلاق فيه أن يحدث ضجة تلفت الأنظار وأجابها هامسا « اللقاء ولوازمه ! » فقالت بلهجة انتقادية « الواحد منكم يطلب بكل بساطة « اللقاء » .. كلمة صغيرة .. ولكنه يعنى بها عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس الا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز والمأذون ، أليس كذلك يا حضرة الأفندى الذى يضاهى الجمل طولا وعرضا ؟ ! » فتورد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال « يا له من تأديب مهما يكن من قسوته فانه من شفتيك كالشهد ، أليس هكذا العشق

يا ست الحسن مذ خلق الله الأرض ومن عليهـــا ؟ » فقالت وهى ترفع حاجبيها حتى حاذيا طرف عروس البرقع فبدت كيعسوب باسط جناحيه « ومن أدرانى بالعشق يا جملى ؟.. لست الا عوادة ، ترى هل للعشق لوزام أيضا ؟ » فقال وهو يغالب الضـحك « هى ولوازم اللقـــاء شىء واحـد » « بلا زيادة ولا نقصـــان ؟ .. » « بلا زيادة ولا نقصـــان » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة ؟! .. » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة » لعلها التى يسمونها الزنا ؟! » « بلحمه وعظمه ! » فندت عنها ضحكة ثم قالت « اتفقنا ... انتظر حيث تنتظر كل مساء بقهوة سى على وعندما افتح النافذة قم الى البيت » انتظر مساء ومساء ومساء « مساء خرجت مع الجوقة على الكارو ، ومساء ذهبت مع العالمة فى حانطور ومساء لم يبد على البيت اثر للحياة ، وها هو ينتظر وقد اعيا أعصاب راسه طول النظر الى الشباك . ومر موهن من الليل فاغلقت الدكاكين واقفر الطريق وشمل الغورية ظلام » ووجد ــ كما يقع له كثيرا ــ فى أقفار الطريق واظلامه مثارا غريبا لمكمن الشهوة فى جسده فازداد جزعا على جزع . بيد انه لكل شىء نهاية حتى الانتظار الذى يبدو وكان لا نهاية له فترامى اليه من ناحية الشباك الغارق فى الظلمة طقطقة نفخت فى حواسه روح أمل جديد كما تنبعث روح الأمل فى نفس التائه فى الغطاب اذا ترامى الى سمعه أزيز الطيارة التى يحدس انها جاءت للبحث عنـه بين الثلوج ، ولاحت فرجة يشـــع منها ضوء « ثم تنور شبح العوادة وسط الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابرا الطريق الى بيت العالمة ودفع الباب دون ان يطرقه فانفتح كأن يدا رفعت مزلاجه فمرق الى الداخل ليجد نفسه فى ظلمة دامسة لم يهد معها الى موقع السـلم فلزم موقفه ليأمن الاصـطدام او العثار ووثب الى راسه سؤال لا يخلو من قلق « ترى أدعته زنوبة على غير علم من العـالمة ؟.. وهل تبيح لهـا العالمة الاجتماع بعشاقها فى بيتها ؟ ولكنه ابرز لسانه استهانة لأن رادعا لم يكن ليثنيه عن مغامرة ، ولأن ضبط عاشق فى بيت تقوم جدرانه على مهج العاشـــقين ليس مما تحـاذر عواقبه وانقطع عن التفكير حين لاح لعينيه ضوء شاحب يهبط من اعلى « ثم لمحه يترانح على الجدران التى وضحت رويدا فتبين موقفه على بعد ذراع من اولى درجات السلم عن يمينه ، وما عتم ان رأى زنوبة قادمة وبيدها مصباح فمضى نحـوها فى سكرة من الشوق وضغط فى حنان على سـاعدها امتنانا ورغبة حتى ضحكت ضحكة رقيقة اوحت على رقتها بانها لاتحاذر « وتساءلت بمكر :

ـ طال انتظارك ؟

فمس سوالفه بأنامله وهو يقول بصوت شاك :

ـ شاب شعرى الله يسامحك (ثم بصوت خافت) الست هنا ؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت :

ـ نعم .. فى خلوة مع رفيق قد الدنيا ..

ـ الا تغضب أذا علمت بحضورى فى هذه الساعة ؟

فاستدارت وهى تهز منكبيها استهانة ورقت فى الدرج وهى تقول :

ـ وهل أنسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك ؟

ـ اذن لا ترى بأسا فى اجتماعنا ببيتها ؟

فحركت رأسها حركة راقصة وقالت :

ـ العلها ترى كل البأس فى عدم اجتماعنا ..!

ـ عاشت .. عاشت ..

فاستطردت فى لهجة تنم عن الفخر قائلة :

ـ لست عوادة فحسب ، أنا بنت أختها . وهى لا تضن على بغال .. تقدم بسلام ..

ولما بلغا الدهليز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودف فأنصت ياسين قليلا ثم تساءل :

ـ خلوة أم حفلة ؟

فهمست فى أذنه :

ـ خلوة وحفلة معا . عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج ؛ لا يطيق ان يخلو مجلســـــه ساعة من العود والدف والكأس والضحك .. وعقبى لك ..

ومالت الى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها ، ووضعت المصباح على كنصول ثم وقفت امام المرآة لتلقى نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وســـدد عينيه المنهومتين الى الجســـم المشتهى الذى بدا لناظريه متجردا عن الملاءة «ول مرة ، سددها بقوة وتركيز وحركهما فى أناة وتلذذ من فوق لتحت ومن تحت لفوق . ولكنه قبل ان ينفذ نية من عشرات النوايا التى اعتلجت فى صدره قالت زنوبة كأنما تصل ما انقطع من حديثها :

ـ رجل لا نظير له فى لطفه وطربه ، أما كرمه فحدث عنه من اليوم الى الغد .. هكذا يكون العشاق والا فلا ..

لم يغب عنه فى إشارتها الى « كرم » عشيق العالمة من معان ، ومع

انه سلم من بادىء الأمر بأن غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة الا أن تلميحها ـ الذى بدا له مبتذلا ـ ضايقه ، فلم يسعه الا أن يقول مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس :

ـ لعله رجل واسع الثراء !

فقالت وكأنها تجيبه على مناورته :

ـ الثراء شيء والكرم شيء آخر ... رب ثرى بخيل ..!

فتساءل لا عن رغبة فى المعرفة ولكن تفاديا من الصمت الذى خاف أن يفضح استياءه

ـ ترى من يكون هذا الرجل الكريم ؟

فقالت وهى تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته :

ـ انه من حينا ولابد أنك تسمع عنه .. السيد احمد عبد الجواد ..

ـ من ..!

فالتفتت نحوه دهشة لترى ما أفزعه فألفته متصلب القامة جاحظ العينين فسألته مستنكرة :

ـ مالك ؟.

كان تلقى الاسم الذى نطقت به كأنه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فند عنه التساؤل فى نبرات صارخة من الفزع وهو لا يدرى ، وغاب عما حوله لحظات مليئة بالذهول ، ثم تراءى له وجه زنوبة فى حالة من الدهشة والانكار فخاف افتضاح أمره وركز ارادته كلها فى الدفاع عن موقفه فعمد الى التمثيل يدارى به فزعه فضرب كفا بكف كأنما لا يصدق ما قيل عن الرجل لظنه الوقار به وتمتم مستغربا :

ـ السيد احمد عبد الجواد !.. صاحب دكان النحاسين ؟

فحدجته بنظرة انتقاد من لازعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة :

ـ نعم هو .. فماذا استصرخك كأنك عذراء تفض بكارتها ؟..

فضحك ضحكة آلية وقال كالداهش وهو يحمد الله فى سره على أنه لم يذكر لها اسمه كاملا يوم التعارف :

ـ من يصدق عن هذا الرجل الوقور الورع ؟!

فرمته بنظرة ارتياب ثم قالت ساخرة :

ـ أهذا ما أفزعك حقا ؟ .. ولا شيء غيره لا !.. أظننته من المعصومين ؟.. وماذا عليه من هذا ؟.. هل يكمل الرجل الا بالعشق ؟!

فقال بلهجة المعتذر :

ـ صدقت .. لا شيء يستحق الدهش فى هذه الدنيا (ثم ضاحكا).

عصبية) تصـــورى هذا الرجل الوفور وهو يطارح الســــلطانة الغرام ويشرب الخمر ويطرب للغناء ..!

فقالت وكأنها تحمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة :

ـ ويلعب بالدف بيد ولا يد عيوشـــة الدفافة وينثر النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكا ، وليس عجبا ـ بعـــد هذا كله ـ أن يرى في دكانه مثالا للجـــد والوقار فالجد جد واللهو لهو . وساعة لربك وســـاعة لقلبك ...

يلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة !.. ينثر النكات فيقتل من حوله ضحكا !.. من عسى أن يكون هذا الرجل ؟!

أبوه ؟! .. السيد احمد عبد الجواد ؟!.. الصارم الجبار الرهيب التقى الورع ؟!.. الذى يقتل من حوله رعبا ؟!

كيف يصـــدق ما سمعت اذناه ؟!.. كيف ، كيف ؟!.. الا يكون ثمة تشابه فى الأسماء والا علاقة بين أبيه وبين هذا العاشـــق الدفاف ؟!.. ولـــكن زنوبة وافقت على انه صاحب دكان « النحاســـين » وليس فى النحاســـين من دكان تحمـــل هذا الاسم الا دكان أبيـــه !.. رباه هل ما ســـمعه حقيقة أو انه يهذى ؟!.. لشـــد ما يود أن يطلع على الحقيقة بنفســـه ، أن يرى بعينيه دون وســـيط ـ ، رغبة تملكته لحظتئذ فبدا تحقيقها كأخطر شيء فى الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم الى الفتاة وهو يهز رأسه هزة حكيم كأنما تقول « يا لها من أيام كلها عجائب » ثم سألها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده :

ـ الا أستطيع أن أراه من حيث لا يرانى ؟

فقالت معترضة :

ـ امرك عجيب وما الداعى الى هذا التجسس !

فقال برجاء :

ـ منظر يستحق المشاهدة فلا تحرمتنى منه ..!

فضحكت باستهانة وقالت :

ـ عقل طفل فى جسم جمل ، أليس كذلك يا جملى ؟.. ولكن لا عاش من خيب لك رجاء .. انزو فى الدهليز وسأدخل عليهما بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحا حتى أرجع ..

وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خافق وانزوى فى ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت العوادة سيرها الى المطبخ ، وبعد قليـــل عادت حاملة طبقا من العنب فاتجهت الى الباب الذى ينبعث منه الغناء

فنقرت عليه ، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت دون أن تغلقه وراءها . هناك بدا مجلس الطرب فى صدر الحجرة تتوسطه زبيدة محتضنة العود وهى تلعب بالأوتار بأناملها وتغنى « يا مسلمين يا أهل الله » وعلى كثب منها جلس « ابوه » دون غيره - وقد اشتد خفقان قلبه لدى رؤيته - متجردا من جبته مشمرا عن ساعديه راعشا الدف بين يديه متطلعا الى العالمة بوجه يقطر بشاشة وبشرا . لم يلبث الباب مفتوحا الا ريثما رجعت زنوبة ، دقيقة أو دقيقتين ، ولكنه راى فيهما منظرا عجبا ، حياة غامضة ، قصة طويلة عريضة ، استيقظ فى اعقابها كالذى يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقلة زلزال عنيف ، راى فى دقيقتين عمرا كاملا ملخصا فى صورة كمن يرى فى حلم هنيهة صورة جامعة لأحداث شتى يستغرق وقوعها فى عالم الحقيقة اعواما طويلة ، رأى اباه حقا ، أباه دون غيره من البشر ، ولكن لا كما تعود ان يراه ، فلم يسبق له أن رآه متجردا من جبته فى جلسة مريحة منسابة مع سجيتها ، ولا راى شعره الفاحم ثائر الأطراف كأنما جاء يعدو حاسر الرأس ، ولا راى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر ، ولا راى - اى والله - الدف بين يديه يرعش باعثا شخشخته الراقصة المتقطعة بالنقر الرشيق ، ولا راى - ولعله اعجب ما راى - هذا الوجه الضاحك المتألق الريان بالود والصفاء الذى اذهله كما اذهل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكان يوم قصدها مدفوعا برغبته فى الافراج عن أمه ، راى هذا كله فى دقيقتين ولما اغلقت زنوبة الباب وعادت الى حجرتها لبث بموقفه يستمع الى الغناء وشخشخة الدف برأس دائر ، نفس الصوت الذى استمع اليه حال دخوله البيت ، ولكن اى تغير اعتور الأثر الذى ينطبع منه على نفسه ، اى معان وصور جديدة ينقلها الآن الى وجدانه ! كرنين جرس المدرسة يهش له الطفل اذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب فى اذنيه نذيرا لمتاعب جمة اذا سمعه وهو ضمن تلاميذها . ونقرت زنوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فأفاق من غيبوبته ومضى اليها وهو يحاول ان يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطربا أو ذاهلا فدخل وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ..

- هل أنساك نفسك ما رايت ؟

فقال بلهجة تشى بالرضا والارتياح :

- منظر نادر ، وغناء بديع ..

- اتحب أن نفعل مثلهما ؟

ــ فى ليلتنا الأولى ؟! .. كلا .. لا أحب أن أخلط بك شيئا آخر ولو كان الغناء نفسه ..؟

ولئن تكلف بادىء الأمر الحديث ليبدو امامها ــ وامام نفسه على السواء ــ هادئا طبيعيا فقد انتهى الى الانهماك فيه بلا تكلف ثم الى استرداد حاله الطبيعية بأسرع مما قدر . كالذى يتصنع هيئة الباكى فى مأتم فيستخرط فى البكاء . على أنه ربما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه « أعجب بها من حال لم تخطر لى على بال من قبل : أنا هنا مع زنوبة وأبى فى الحجرة القريبة مع زبيدة . كلانا فى بيت واحد ! » ولكنه سرعان ما يهز كتفيه ويستطرد فى حديثه مع نفسه « كيف أحمل نفسى مشقة العجب لوقوع شيء باعتباره بعيدا عن التصديق ما دمت المسه واقعا !.. انه هنالك فمن السخف أن اتساءل ذاهلا هل يمكن تصديق هذا .. فلأصدق ولا اتعجب .. وماذا عليه من هذا ! » ولم يشعر الى تفكيره بارتياح فحسب ولكنه فرح به فرحة فاقت كل تقدير ؛ لا لأنه كان بحاجة الى مشجع ليواصل حياته الشهوية ، ولكن لأنه ــ كأكثرية الغارقين فى الشهوات المحرمة ــ يستأنس الى الشبيه ، فكيف أن وجده فى شخص أبيه ــ القدوة التقليدية ــ الذى طالما أزعجه ؛ بشعور وبلا شعور منه ، أن يجد نفسه واياه على طرفى نقيض . تناسى كل شيء الا فرحته ، كأنها أعز ما ظفر به فى حياته ؛ وشعر نحو أبيه بحب واعجاب جديدين ــ غير الحب والاعجاب اللذين اكتسبهما قديما تحت ستار كثيف من الاجلال والخوف ــ حب واعجاب ينبعان من أعماق النفس ويختلطان بجذورها الأولى ؛ بل كأنهما وحب الذات والاعجاب بها شيء واحد ، لم بعد الرجل بعيدا عزيز المنال مغلق الأبواب ولكن دانيا قريبا قطعة من نفسه وقلبه ، أبا وابنا ، روحا واحدا ؛ ليس الرجل الذى يرعش الدف فى الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه ، كما يكون وكما يحب أن يكون ، وكما ينبغى أن يكون ؛ لا يفرق بينهما الا عبارات ثانوية من العمر والتجربة « هنيئا لك يا والدى ؛ اليوم اكتشفتك ، اليوم عيد ميلادك فى نفسى : يا له من يوم ويا لك من أب لم يكن قبل الليلة الا نتيما ، اشرب واطرب والعب بالدف لعبا ، ولا يد عيوشة الدفافة ، انى فخور بك ، هل تغنى أيضا يا ترى ؟.. »

ــ الا يغنى السيد عبد الجواد أحيانا ؟

ــ الا زال فكرك مشغولا به ؟! يا ويل الناس من الناس !.. بل يغنى احيانا يا جملى .. يشترك فى الهنك اذا سكر ..

ـ وكيف صوته ؟

ـ غليظ جميل كعنقه ..

«الى هذا الأصل ترجع الأصوات التى تغنى فى بيتنا ، الجميع يغنون ، أسرة عريقة فى الطرب ، ليتنى اسمعك ولو مرة ، لا احفظ لك فى ذاكرتى الا الزعق والنهر ، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا « يا ولد ـ يا نور ـ يابن الكلب » اريد أن أسمع منك « الوداد فى الملاح صدف » أو « حبيت جميل » كيف تسكر يا أبى ؟ كيف تعربد ؟ ينبغى أن اعرف لاحتذى مثالك وأحيى تقاليدك ، كيف تعشق ؟ كيف تعانق ؟ .. »

وانتبه الى زنوبة فرآها أمام المرآة وهى تسوى اهداب شعرها بأناملها وقد لاح أبطها من فرجة الفستان املس ناصعا يتصل منحدره باصل نهد كقرصة العجين فسرت فى بدنه سكرة الهياج وانقض عليها كأنه فيل ينقض على غزال ..

— ٤٠ —

وقفت ثلاث سيارات تطوع بتقديمها بعض الأصدقاء امام بيت السيد احمد فى انتظار العروس وحاشيتها لحملهن الى بيت آل شوكت بالسكرية ، كان الوقت أصيلا وقد انحسرت اشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت العروس ، ولم تكن ثمة مظاهر تدل على عرس ، اللهم الا الورود التى ازينت بها اولى السيارات الثلاث فلفتت انظار اصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارة ، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا ونقل الجهاز وعقد القران فلم تنطلق من البيت زغرودة أو تعلق ببابه زينة أو تشى بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التى تفاخر الأسر باعلانها ، فى امثال هذه المناسبات وتتعلل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والزغاريد ، تم كل شىء فى صمت وهدوء فلم يدر به احد الا الأقارب والأصدقاء وخاصة الجيران ، وابى السيد أن يتزحزح عن تزمته أو أن يسمح لأحد من آل بيته بان يتزحزح عنه ولو ساعة واحدة ، وفى ظل هذا الجو الصامت غادرت العروس والمدعوات البيت رغم احتجاج ام حنفى على الخرجة الصامتة ، فمرقت عائشة الى السيارة فى سرعة خاطفة كأنما تخاف أن يشتمل

فستان العرس أو قناعه الحريرى الأبيض الموشى بالفل والياسمين تحت نظرات المتطلعين ، وتبعتها خديجة ومريم وبعض الفتيات ، واستقلت الأم وبعض النسوة من الأهل والجارات السيارتين الأخريين - على حين اتخذ كمال مجلسه الى جانب سائق سيارة العروس ورغبت الأم في ان يمضي الركب الى السكرية عن طريق الحسين لتلقى نظرة جديدة على مقامه الذى كلفها الشوق اليه قبل ذلك غاليا ولتستوهب صاحب المقام البركة لعروسها الحسناء ، فاخترقت السيارات الطرق التى قطعتها هى ذلك اليوم مع كمال ، ثم مالت الى الغورية عند المنعطف الذى كادت تلقى فيه حتفها حتى وقفت بهن عند بوابة المتولى أمام مدخل السكرية الذى يضيق عن دخول السيارات ، وترجلن جميعا ودخلن العطفة فطالعتهن معالم الزينات وهرع اليهن غلمان الحارة هاتفين وتعالت الزغاريد من بيت آل شوكت ، أول بيت الى يمين الداخل — حيث ازدحمت نوافذه برءوس المطلات المزغردات ، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه ابراهيم شوكت وياسين وفهمى ، وتقدم خليل مبتسما من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تبد حراكا حتى بادرت مريم الى يدها فشبكتها بساعده ، ثم سار بها الى الداخل مارا بحذاء الفناء المزدحم والورد والملبس ينهال على اقدامها وعلى أقدام من تبعنها من حاشية العروس حتى واراهن باب الحريم ، ومع أن قران عائشة بخليل تم قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر الا أن منظر اشتباكهما وسيرهما معا لاقى من ياسين وفهمى — والأخير خاصة — دهشة مقرونة بالحياء وشعورا بالانكار اشبه كأن جو أسرتها لا يهضم حتى طقوس حفلات الزفاف المشروعة ، وبدا هذا الأثر بصورة اوضح عند كمال الذى جعل يجذب أمه من يدها فى انزعاج وهو يشير الى العروسين اللذين يتقدمان الجميع على السلم كأنه يستعديها على دفع شر فظيع ، وخطر للشابين ان يسترقا النظر الى وجه أبيهما ليريا اى اثر تركه ذلك المنظر الفريد ، فشملا المكان بنظرة سريعة ولكنهما لم يقفا له على اثر ، لم يوجد عند المدخل ولا فيما يلى هذا من فناء البيت الذى اصطفت به الأرائك والمقاعد واقيمت فى صدرد منصة الغناء والواقع أن السيد خلا الى نفر من خاصة أصدقائه بمنظرة الفناء فلم يفارقها مذ حل بالبيت مصمما على ألا يفارقها حتى ختام الليلة مبتعدا بنفسه عن « الجمهور » الصاخب خارجها ، لم يكن أشد احراجا لنفسه من الظهور بين آله فى ليلة زفاف ، اذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابته

فى يوم خالص السرور ، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كثب انطلاقهم مع دواعى الفرح . وفضلا عن هـذا وذاك لم يكن أكره لديه من ان يرى - بينهم - على غير ما عهدوا من وقار صارم ، ولو كان الأمر بيده لتم الزفاف فى صمت شامل ولكن حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحاته فى هـذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته ، وابت الا ان تحييها ليلة حافلة فاتفقت على احيائها مع العالمة جليلة والمغنى صابر . وبدا كمال لفرط ابتهاجه بما أتيح له من حرية وسرور كأنه عريس الليلة ، وكان احد افراد قلائل أبيح لهم التنقل كيفما شاءوا بين الحريم فى الداخل وبين مجلس الطرب فى فناء الدار . لبث طويلا مع أمه بين النساء منقلا طرفه بين زيناتهن وحليهن مصغيا الى دعاباتهن واحاديثهن التى يستأثر الزواج بخلاصتها ، أو منصتا معهن الى العالمة جليلة التى تصدرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشد العلقاطيق وتعاقر التراب جهارا ، فاستأنس الى الجو الضاحك لغرابته وجاذبيته - والأهم من هذا كله - لوجود عائشة على حال من التبرج لم يحلم بها من قبل ، وشجعته امه على البقاء ليظل تحت رعايتها ، بيد أنها عدلت عن موقفها بعد حين واضطرت الى ان تحثه همسا على الانتقال الى مجلس اخويه لأمور لم تتوقع حدوثها . من ذلك ما بدا من اهتمامه بعائشة ، بفستانها حينا وبزواقها حينا آخر ، فخيف منه على هندامها ، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانية صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمه مرة وهو يشير الى امرأة من آل العريس قائلا : « انظرى يانينه الى أنف هذه الست . . اليس أكبر من انف ابله خديجة » او ما فاجأ به الجميع وجليلة تغنى من الاشتراك مع التخت فى ترديد « يامه حلوه . . ومنين اجيبها » حتى دعته العالمة الى الجلوس بين افراد تختها ، بهذا وغيره جذب الأنظار اليه فأخذت المدعوات فى مداعبته ولكن امه لم ترتح الى الضجة التى اثارها ، وآثرت على كره منها - اشفاقا على البعض من عبثه واشفاقا عليه من اعين المعجبات - أن تحمله على مغادرة المكان ، انضم الى مجلس الرجال ، وتردد بين الصفوف ، ثم وقف بين فهمى وياسين حتى ختم صابر دور « بس ليه تعشق يا جميل » واستأنف تجواله حتى مر بالمنظرة فأغراه حب الاستطلاع بالنظر الى داخلها فمد رأسه وما يدرى الا وعيناه تلتقيان بعينى والده فتسمر فى مكانه وعجز عن استردادهما ، ورآه احد أصدقاء أبيه - السيد محمد عفت - فناداه فلم يجد بدا من تلبية النداء ليتفادى من اغضاب أبيه فتدانى من الرجل

على كره وخوف حتى وقف أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين الى جانبيه كأنه عسكرى فى طابور ، وصافحه الرجل قائلا :

ـ ماشاء الله .. فى أى سنة يا عم ؟

ـ سنة ثالثة رابع ..

ـ عال .. عال .. سمعت صابر ؟

ومع أنه كان يجيب على أسئلة محمـــد عفت الا أنه راعى من بادىء الأمر أن تــكون اجاباته بحيث ترضى أباه ... فلم يدر كيف يجيب على السؤال الأخير أو أنه تردد قبل أن يعد الاجابة ولكن الرجل بادره متلطفا :

ـ الا تحب الغناء ؟

فقال الغلام بتوكيد :

ـ كلا ...

وبدا من بعض الحاضرين مايدل على أنهم سيعلقون على هذه الاجابة ـ آخرماينتظر من شخص ينتمى الى عبد الجواد ـ مازحين ـ ولكن السيد حذرهم بعينيه فأمسكوا ، أما السيد محمد عفت فعاد يسأله :

ـ الا تحب أن تسمع شيئا ؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه :

ـ القرآن الشريف ..

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأت له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلا :

ـ أن صح هذا فالغلام ابن زنا ..

فضحك السيد احمد عبد الجواد وقال وهو يشير الى حيث كان يقف كمال ...

ـ هل رأيتم امكر من ابن الكلب الذى يدعى التقوى أمامى !.. رجعت مرة الى البيت فترامى الى صوته وهو يغنى « ياطير يا اللى على الشجر »

فقال السيد على :

ـ آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه الى صابر وشفتاه تتحركان مع الغناء فى انسجام تام ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسه ..

على حين خاطب محمد عفت السيد أحمد متسائلا :

ـ المهم ان تخبرنا هل اعجبك صوته فى دور « يا طـير يا اللى على الشجر » ؟..

فضحك السيد قائلا وهو يشير الى نفسه :

ـ ذاك الشبل من هذا الأسد !

فهتف الفار قائلا :

ـ الله يرحم اللبؤة الكبيرة التى انجبتكم ..

غادر كمال المنظرة الى الحارة وكأنه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق ، وما لبث أن استعاد ارتياحه فتمشى مزهوا بملابسه الجديدة ، مغتبطا بحريته التى جعلت من المكان كله ـ فيما عدا المنظرة المخيفة ـ مجالا مباحا لقدميه دون معترض او رقيب ، فأى ليلة هـذه فى الزمان ! شىء واحد جعل ينغص عليه صفوه كلما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة الى هذا البيت الذى باتوا يدعونه « بيتها » هذا الانتقال الذى نفذ على رغمه دون أن يستطيع احد اقناعه بوجاهته أو فائدته ، تساءل طويلا كيف يسمح ابوه به وهو الذى لا يسمح لظل امراة من آله بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكا عاليا ، وساءل امه فى عتاب ، كيف تفرط فى عائشة لحد النزول عنها للغير فأجابته بأنه سيكبر يوما ويأخذ مثلها من بيت ابيها فتشيع اليه بالزغاريد ، وسأل عائشة هل يسرها حقا أن تهجرهم فأجابت أن لا ، ولكن الجهاز حمل الى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التى لا يطيب له الرى الا من موضع شفتيها ، حقا ان الفرح الراهن ينسى أشياء ما كان يتصور انه ينساها لحظة ولكن خاطرة الأسى تغشى فؤاده الجذل كما تغشى السحابة الصغيرة وجه القمر فى ليلة صافية السماء ، ومن عجب أن سروره بالغناء تلك الليلة فاق أى سرور عداه ، كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء والرجال فى مرحهم المطلق أو حتى عيش السراى والالمظية على مائدة العشاء ، ولئن أدهش اهتمامه الجدى بسماع جليلة وصابر الذى لا يتفق مع سنه كل من لاحظه من النساء والرجال فلم يدهش احدا من اسرته التى تعرف سوابقه فى الغناء مع معلمته عائشة كما تعرف حسن صوته الذى تعده احسن اصواتها بعد عائشة وان كان صوت الأب ـ الذى لايسمعونه الا مزمجرا ـ أحسنها جميعا ، وقد استمع كمال طويلا الى جليلة وصابر ولكنه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف تخته أحب الى قلبه وأخذ لنفسه ، فرسخت منه فى ذاكرته جمل غنائية مثل « تعشق ليه ... علشان كده » جعل يرددها بعد ليلة الزفاف طويلا فى سقيفة اللبلاب والياسمين فوق سطح بيتهم ، وشاركت أمينة وخديجة كمال فى بعض ما أتيح له من أسباب السرور والحرية ، فلم يسبق لهما ـ مثله ـ أن شهدا ليلة كتلك الليلة بما حفلت من انس وطرب ومرح ، وابهج امينة خاصة مالاقت من الرعاية والمجاملة بصفتها ام العروس ، هى التى لم

تنعم فى حياتها برعاية او مجاملة ؛ حتى خديجة اختفى همهـا فى انوار الفرح كما تختفى الظلمة عند اشراق الصباح نسيت احزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة والأحاديث الطلية ؛ وازدادت لها نسيانا بفضل حزن جديد خالص الطوية منشؤه شعورها بفراق عائشة الوشيك ؛ شعور أثمر حبا وعطفا خالصين فتوارت الأحزان القديمة امام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد امام الأريحية ، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحب منه جانبا ويكره جانبا أن تتوارى - ساعة الفراق مثلا - الكراهية للجانب امام الحزن على الجانب الآخر ؛ هذا الى ماشاع فى نفسها من ثقة حين تبدت فى زينة اضفت على جسمها ووجهها سواء لفت اليها انظار بعض النساء فلهجن بالثناء عليها ثناء ملأها أملا واحلاما عاشت بها زمنا رغدا ..

وجلس ياسين وفهمى جنبا لجنب : يراوحان بين السمر والسماع . وجعل خليل شوكت - العريس - ينضم اليهما بين ساعة واخرى كلما وجد فرجة بين اشغال ليلته الشاقة المتعة ؛ وبالرغم من الجو المشبع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت فى عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له أن يروى ظماه ولو بكأس أو بكأسين ؟ لذلك مال مرة على اذن خليل شوكت - وكان صديقا للأخوين وهمس قائلا :

- أدركنى قبل أن تضيع الليلة ...

فقال له الشاب وهو يغمز له بعينيه مطمئنا :

- أفردت مائدة فى حجرة خاصة لأمثالك من الأصدقاء ..

عند ذاك اطمأن باله وعاودته حيويته للسمر والدعابة والسماع ؛ لم يكن فى نيته أن يسكر ؛ ففى مثل هذا المكان الحافل بالأهل والمعارف يعد القليل من الخمر فوزا كبيرا ؛ خاصة وأن والده وان انزوى فى المنظرة - غير بعيد ، فلم يكن وقوفه على أسرار حياته بمزحزحه عن مكانته التقليدية من نفسه ، لم يزل قائما بحصنه الحصين من المهابة والاجلال ؛ ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية ، حتى السر الذى أطلع عليه خفية لم يفكر فى البوح به لانسان ولا لفهمى نفسه أقرب القريبين اليه ؛ لهذا كله قنع من بادىء الأمر بكأس او بكأسين يتملق بهما رغبته الجامحة . ويتهيأ بهما لتذوق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرات التى لم يعد لها عنده طعم بغير شراب . فهمى بخلاف ياسين - لم يجد ، أو لم يطمئن الى انه سيجد ريا لظمئه ، ثار شجنه من حيث لاينتظر عند مجىء العروس ،

ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خلى فوقع بصره على مريم وهى تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة الثغر بابتسامة تحية للمكان كله ، لاهية بالزغاريد والورود عنه ، وقد شف قناعها الحريرى عن ديباجة وجهها الصافى ، فاتبعها نظره بقلب خافق حتى واراها باب الحريم ، ثم عاد الى مجلسه مزلزل النفس كأنه قارب تعرض بغتة لاعصار ، بيد انه كان قبل رؤيتها هادىء النفس لاهيا بشجون السمر شأن السالى الناسى ؛ والحق تمر به اوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كأن قلبه يستجم من العناء ، والكن ما ان تخطر خطرة او تهفو ذكرى ، او يجرى اسمها على لسان ، أو او ، حتى يخفق فؤاده ألما ، ويفرز الحسرة تلو الحسرة ، كالضرس المسوس الملتهب تجىء عليه فترة فيسكن ألمه حتى اذا هرس لقمة أو مس جسما صلبا انفجر به الألم وهنالك يقرع الحب اضلعه من الداخل كأنما يروم متنفسا ، صائحا بأعلى صوته انه لا يزال حبيسا لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان . طالما تمنى لو يعمى عنها الراغبون حتى يستوى على قدميه رجلا حر التصرف فى تقرير مصيره . وقرب امنيته كر الأيام والأسابيع والأشهر دون ان يتقدم لها خاطب ، ولكنه لم ينعم بالطمأنينة الحقة ، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبانه الحين بعد الحين ينغصان صفوه ويكدران احلامه ويخلقان له ضروبا من الآلم والغيرة ان تكن وهمية فليست دون الواقع - فيما لو تحققت - ضراوة وقساوة ، حتى بات التمنى نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق والخوف وبالتالى الآلم والغيرة ، فود كلما اشتد به العذاب لو يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله بعد ذلك يبلغ باليأس ما لم يبلغ بالأمانى العابثة من الراحة والسلام ، ولكنه لم يستسلم للشجن فى مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء ، الا انه كان تلقى من منظر مريم وهى تسير وراء أخته « اترا » لايمكن ان يمضى بلا رد فعل محسوس ولما لم يسعه أن يجترىء به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه - بطريقة عكسية - بالاغراق فى الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة ، على انه كان كلما خلا الى نفسه ولو لحظات شعر فى اعماقه بعزلة قلبية عما حوله ، وأدرك مع مرور الوقت أن رؤيته مريم وهى تخطر فى معية العروس قد هيجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة مهموما ذا قابلية للأرق ، وانه لن ينعم على الأقل هذه الليلة - بصدر مستقر ، وان شيئا مما يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع من مخيلته صورتها او الابتسامة التى حيت بها جو الاستقبال الحار المشبع بالزغاريد والورود ، ابتسامة

عذبة صافية وشت بقلب خلي متشوف للهدوء والسرور : ابتسامة لا يوحي رواؤها بأنه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلصات الألم ، فحز منظرها قلبه وكاشفه بأنه يكابد الألم منفردا ويحمل متاعبه وحده ، ولكن الا يقهقه هو الآن عاليا . يحرك رأسه مع الأنغام كالمنبسط الطروب ؟ . . الا يجوز أن يخدع الناظر بحاله ويظن به ما ظن هو بها ؟ . . وجد في تفكيره شيئا من العزاء ولكن ليس أوكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه « الا يحتمل أن أشفى كما شفى فلان الذى اصيب به قبلى ، وما ابث أن ذكر رسالتها التى عاد بها كمال اليه منذ أشهر وهى قل له انها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار . . وتساءل كما تساءل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات ؟ . . . اجل لا يستطيع انسان مهما بلغ به التعنت أن يؤاخذها على كلمة منها ، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تتضمنه من عقل وحكمة ولكن هذا نفسه ما أشعره بالعجز حيالها وما احنقه بالتالى عليها ، اذ يندر ان يرضى العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبعها الحدود ، وعاد الى الحاضر ، الى مجلس الطرب الى الحب الهائج ، ليست رؤيته لها وحدها التى رجته هذه الرجة العنيفة ، فلعل ذلك لأنه رآها لأول مرة ، فى مكان جديد — فناء بيت آل شوكت — بعيدا عن داره التى لم يرها خارج نطاقها من قبل ، كان وجودها الدائم فى المقام القديم قد سلكها فى آلية العادة اليومية على حين بعث ظهورها المفاجىء فى المكان الجديد — ذلك الظهور الذى خلقها فى عينيه خلقا جديدا — حياة جديدة فى وجدانه ، ايقظت الحياة الأصلية الكامنة ، ثم تعاونتا معا على احداث هذه الرجة العنيفة ، ولعل ذلك ايضا لأن وجودها بعيدا عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة اقامت بينه وبينها سدا من اليأس ، وجودها فى جو من الحرية والانطلاق ، وعلى حال لم يعهدها من التبرج والحركة ، وجودها فى بيئة الزفاف وما توحى به من خواطر الحب والوصال ، كل أولئك اطلقها من قمقمها الى حيث يراها القلب املا غير عسير وكأنها تقول له « انظر اين تراني الآن ، ماهى الا خطوة اخرى فتجدنى بين ذراعيك » ولكن ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهما فى احداث تلك الرجة العنيفة ، ولعل ذلك ايضا لأن رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخا فى نفسه وتغلغلا فى حياته ونشوبا فى ذكرياته ، فان الصور تتعمق فى أنفسنا باندماجها فى مختلف الأماكن التى تمتد اليها تجاربنا ، وكما اقترنت مريم قديما بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكمال وتسميع الكلمات

الانجليزية ومجلس القهوة وحديثه مع امه فى حجرة المذاكرة والرسالة التى عاد بها كمال فبتقترن منذ الليلة بالسكرية وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك مما ينثال على سمعه وبصره وكافة حواسه ومثل هذه العملية .. لا يمكن أن تتم دون أن تشارك فى احداث الرجة العنيفة التى دوخته . وحدث فى فترة الاستراحة ان ترامى صوت العالمة الى مجلس الرجال من النوافذ المطلة على الفناء وهى تغنى « حبيبى غاب » فنشبط الى السماع باهتمام شديد وجمع حواسه كلها فى النغمات ، لا لأن صوت جليلة اعجبه ولكن لظنه أن مريم تنصت اليها فى تلك اللحظة لأن الجملة الغنائية تخاطب اذنيهما فى وقت واحد معاً ، لأنها ألفت بينهما على حال واحدة من الانصات وربما من الاحساس ، لانها خلقت لهما موعداً يلتقيان فيه بروحيهما ، وحمله هذا كله على احترام الصوت وحب النغمات كى يجتمع بها فى احساس واحد ، وحاول طويلا ان ينفذ الى نفسها بالرجوع الى نفسه ، ان يتلمس ذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تأثره ، ليعيش فى ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران ، وحاول الى هذا أن يستخبر الجمل الغنائية عن آثارها فى النفس المحبوبة : ماذا تركت فى قلبها جملة « حبيبى غاب » أو « بقى له زمان ما يعاتش جواب » ؟ ترى هل غاصت فى لجج الذكريات ؟ .. أو لم تنحسر موجة منه عن وجهه ؟ .. الم ينقبض قلبها لشكة الم او لحزة حسرة ؟ أم لها سادرا طوال الوقت لا يجد فى النغمة الا فرحة الطرب ؟ ... وتصورها وهى تهب انتباهها للنغم سافرة متبرجة الحيوية أو ثغرها يفتر عن ابتسامة كتلك التى لمحها على شفتيها عند مجيئها فآلمته لانه توسم فيها رمز السلو والنسيان ، او وهى تحادث احدى أختيه كما يحلو لها كثيرا وهو ما يحسدهما عليه على حين لا يجدان فيه الأمر الذى يدهشه لحد الانزعاج الا حديثا عاديا كسائر الأحاديث التى يشتبكان فيها مع غيرها من فتيات الجيران ، اجل طالما عجب لموقف اختيه منها ، لا لأنهما لا يكترثان لها فالحق انهما يحبانها ، ولكن لأنهما يحبانها انما يحبان غيرها من فتيات الجيران كأنها مجرد « فتاة » من فتيات الجيران ، وكيف يلقيانها بترحيب عادى دون ان يضطرب لهما نفس كما يلقى هو أى فتاة عابرة أو أيا من اقرانه طلبة مدرسة الحقوق ، وكيف يتحدثان عنها فيقولان « مريم قالت او مريم فعلت » وينطقان بالاسم كما ينطقان بأى اسم .. أم حنفى مثلا كأنه ليس الاسم الذى لم ينطق به على مسمع من غيره الا مرة أو مرتين وهو يعجب لموقعه من اذنه او كأنه ليس الاسم الذى

لا ينطق به فى وحدته الا كما ينطق بالأسماء المبجلة المنقوشة فى خيـاله بتهاويل الأحلام التى لا ينطق بأحدها حتى يردف « رضى الله عنـه » أو « عليه السلام » . . كيف اذن عطل الاسم ـ بل الشخص نفسـه ـ عندهما من سحره وقدسـينه ؟! . . وعند ما انتهت جليـلة من الأغنية تعالى الهتاف والتصفيق فركز فيـه انتباهه باهتمام لم تحظ الأغنية نفسها بمثـله لأن حنجرة مريم ويديها اشتركت فيـه ، وتمنى لو كان بوسـعه أن يميز صوتها من تلك الأصـوات وان يفرز تصفيقها من ذلك التصفيق ولـكن لم يكن ذلك بأسـهل من تمييز صـوت موجة بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشـاطىء ؛ على أنه وهب حبـه للهتاف كله والتصفيق كله بلا تمييز كالأم التى يترامى الى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التى يتبعها ابنها فتدعو لهم جميعا بالبركة والسلامة .

لم يكن أشبه بفهمى فى عزلته الباطنية ـ وان اختلفت الأسباب ـ من أبيه الذى لزم المنظرة بين نفر من خاصة خلانه ؛ حتى الأصدقاء الذين لم يطيقوا التوقر ، والغناء يجلجل فى الخارج ، انفضوا من حوله وتفرقوا بين المستمعين يطربون ويلهون ، فلم يبق معـــه الا النفر الذين مجلسه أحب اليهم من اللهو نفســـه فلبثوا جميعا فى رزانة غير معهـودة كأنما يؤدون واجبا أو يشهدون مأتما ؛ هـذا ما قدروه من قبل ، حين دعاهم السيد الى ليـلة الزفاف ، لـما خبروه من طبيعته المزدوجة التى عرف بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته ، ولم يفتهم وجه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هـذا الذى يحتفلون فيـه « بليلة زفاف » وبين مجالسهم المسائية المعربدة التى لا يحتفلون فيهـا بشىء ! ولما عتموا أن جعلوا من توقرهم موضوعا للمزاح الخفيف الهادىء فمـا أن علا صوت السـيد عفت مرة وهو يضحك حتى بادره السيد الفـار واضعا سـبابته على شفتيه كأنمـا يأمره بخفض صوته وهمس فى أذنه محذرا زاجرا نحن فى فرح يا رجـل ! . . ومرة أخرى وكان الصمت قد غلبهم مليا فاذا بالسيد على يقلب عينيه فى وجوههم ثم يقول رافعا يده الى رأسه كالشاكر « شكر الله سعيكم » وعند ذاك دعاهم السيد الى اللحاق بصحبه فى الخارج ومشاركتهم لهوهم ولـكن السيد عفت خاطبه بلهجة تنم عن شـديد العتاب قائلا : نتركك فى مثل هـذه الليلة ؟! . . وهل يعرف الصديق الا عند الضيق فما تمالك السيد أن ضحك قائلا : ما هى الا عدة ليالى زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جميعا . . على ان ليلة الزفاف تضمنت فى نظر السيد أحمد معانى أخرى غير التوقر

الاجبارى فى مجلس أنس وطرب ، معانى تخصه وحده .كاب ذى طبيعة خرقت المألوف من الطبائع ، فلم يزل يجد لفكرة زواج كريمته احساسا غريبا لا يرتاح اليه وان لم يقره عقله أو دينه ، لا يعنى هذا انه .ود الا تتزوج كريمتاه ، فالحق انه كسائر الآباء جميعا رجا الستر لفتاتيه ، ولكن لعله تمنى كثيراً لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا « الستر » ولعله تمنى لو كان الله قد خلق البنات على طبيعة لا تحتم الزواج ، أو لعله تمنى فى الأقل او لم يكن انجب اناثا قط ، أما وتلك أمانى لم تتحقق ولا سبيل الى تحقيقها فلم يكن بد من أن يرجو الزواج لفتاتيه ولو كما يرجو الانسان احيانا — ليأسه من دوام العمر — ميتة شريفة .او ميتة مريحة ! طالما افصح عن نفوره هذا بسبل متباينة سواء عن شعور أو لا شعور ، فربما حدث بعض خلصائه قائلا : « تسألنى عن انجاب الاناث ؟ . . انه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر الى الله واجب على اى حال ، لا يعنى هذا انى لا أحب ابنتى فالحق انى أحبهما كما أحب ياسين وفهمى وكمال سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطرى وانا اعلم بأنى سأحملهما يوما الى رجل غريب مهما يبد لى من ظاهره فالله وحده المطلع على باطنه ؟ . . ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهى بعيدة عن رعاية ابيها ؟ . . وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوما وقد مات أبوها فلجأت الى بيت أخيها لتعيش عيشة المنبوذين ؟ ! لست أخاف على أحد من ابنائى لأنه مهما يحدث لأيهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة أما البنت . . . اللهم احفظنا ! أو يقول فيما يشبه الصراحة « البنت مشكلة حقا . . الا ترى انا لا نألو أن نؤدبها ونهذبها ونحفظها ونصونها ؟ . . ولكن الا ترى انا بعد هذا كله نحملها بأنفسنا الى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء . . الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه . . » وتجسم هذا الاحساس القلق الغريب فى النظرة الانتقادية التى والى بها خليل شوكت « العريس » نظرة متعسفة عيابة ابت أن ترجع قبل أن تظفر بعيب يرضى تعنتها ، كأنه ليس من آل شوكت الذين الفت بينه وبينهم اسباب المودة والولاء من قديم الزمان ، أو كأنه ليس الشاب الذى شهد له كل من رآه بالرجولة والجمال والوجاهة ، لم يسعه أن ينكر مزية من مزاياه ، ولكنه وقف طويلا عند وجهه الريان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطاب له أن يستدل بهما على ما تركه الفراغ فى حياته من حيوانية قائلا لنفسه « ما هو الا ثور يعيش ليأكل وينام ! » لم يكن اعترافه بمزاياه

اولا ثم فحصه عن اى عيب ليلصقه به اخيرا الا منطلقا عاطفيا يعكس ما يكمن فى نفسه من رغبة فى تزويج الفتاة ونفور من فكرة الزواج : فالاعتراف مهد الى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفس عن العاطفة العدائية ، كمدمن الأفيون الذى تستذله لذته وترعبه خطورته فينشده بكل سبيل وهو يلعنه ، بيد أنه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين أصدقائه الحميمين يتسلى بالحديث حينا وبالسماع من بعيد حينا آخر ، ففتح صدره للرضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة ، حتى نظرته الانتقادية لخليل شوكت استحالت احساسا ساخرا غير مشوب بالحنق .

وعند ما دعى المدعوون الى الموائد افترق فهمى وياسين لأول مرة فقاد خليل شوكت الأخير الى المائدة الخاصة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكن ياسين بدا حذرا مقدرا للعواقب فأعلن قناعته بكاسين وقاوم بشجاعة — أو بجبن — تيار الشراب المتدفق حتى اذا ما لسعته النشوة الأولى فهيجت ذكرياته عن لذة النشوات ووهنت ارادته فرغب فى الاستزادة من النشوة الى القدر الذى لا يخرجه عن حدد الأمان فتناول كأسا ثالثة ثم فر بنفسه عن المائدة الا أنه — على سبيل الاحتياط او لأنه لم يزل عينا فى الجنة وعينا فى النار — اخفى زجاجة مملوءة حتى النصف فى مكان خفى للرجوع اليها عند الضرورة القصوى . وعادوا الى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها الى الجو المحيط سرور محرر من القيود . .

وفى الحريم كان السكر قد بلغ بالعالمة جليلة حد السلطنة ، واذا بها تقلب عينيها فى وجوه المدعوات وتتساءل :

— من منكن حرم السيد أحمد عبد الجواد ؟

فجذب تساؤلها الأنظار وأثار اهتماما شاملا حتى غلب الحياء أمينة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحملق فى وجه العالمة بحيرة وانكار ، ولما اعادت العالمة التساؤل تطوعت حرم المرحوم شوكت بالاشارة الى أمينة وهى تقول :

— ها هى حرم السيد أحمد ففيم يا ترى التساؤل ؟

فتفحصتها العالمة بعينين ثاقبتين ثم اطلقت ضحكة رنانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى :

— حسنناه وحق بيت الله ، ان ذوق السيد لا يجارى .

وبدت امينة كالعذراء المتعثرة فى حيائها ، بيد أن الحياء لم يكن كل

ما تعانيه ، ساءلت نفسها فى حيرة وانزعاج عمـــا يعنيه حديث العالمة عن حرم « السيد أحمـــد عبد الجواد » وعن اطرائهـا ذوق السيد بلهجـة لا يدعيها لنفسـه الا الخبير به ، وشاركتها شـعورها عائشة ، وخديجة التى رددت عينيها بين العـالمة وبين بعض الفتيـات من صديقاتها كأنما تسائلهن عن رأيهن فى « هذه المراة السكيرة » ، ولـكن جليـلة لم تأبه لما أثاره كلامهـا من انزعاج فحولت عينيهـا الى العروس وتفحصتها كما تفحصت امها من قبل ثم ارعشت حاجبيها وهى تقول باعجاب :

ــ قمر ورسول الله ، انت بنت أبيك حقـا ، ومن ير هاتين العينين يذكر من توه عينيه .. (ثم مقهقهة) .. اراكن تتساءلن من اين لهـذه المراة معرفة السيد احمـد ؟! .. انى اعرفه من قبـل ان تعرفه زوجه نفسها ، انه ربيب حينـا وقرين صباى ، وكان والدانا صـديقين ، أم تحسبين العـالمة لا اب لهـا ؟ .. كان ابى شـيخ كتاب من أهل البزكة ، ما رايك يا زينة الستات .. ؟!

- وجهت السؤال الأخير الى أمينة فدفعهـا الخوف وما طبعت عليه من لين وتودد الى أن تجيبها ــ وهى تقاوم ما ركبها من ارتباك ــ قائلة :

ــ رحمه الله ، كلنا أبناء حواء وآدم ..

فجعلت جليلة تحرك راسها يمنة ويسرة وهى تضيق عينيها كأنما بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتها نهايته ، او لعـل راسها السكران وجد فى هذه الحركة رياضة التذ بها ، ثم استطردت قائلة :

ــ وكان رجـلا غيورا ، ولـكنى نشأت بفطرتى لعوبا لا ابالى كأنمـا وضعت الغنج فى المهد ، كنت اضحك الضحكة فى الدور الأعلى تضطرب لها جوانح الرجال فى الشارع ، فما يبلغه صوتى حتى ينهال على ضربا ويرمينى بشر الصفات ، ولـكن ما حيلة التاديب فيمن قدرت عليها فنون العشق والطرب والدلال ؟! .. ضاع التاديب هبـاء ، ومضى الرجل الى الجنـة ونعيمها ، وقضى على بأن اتخـذ مما رمانى به من شر الصـفات شـعارا لى فى الحياة .. هى الدنيـا .. ربنا يطعمكن خيرها ويكفيكن شرها .. ولا حرمنا الله جميعا من الرجال سواء فى الحلال او فى الحرام ..

وعزف الضحك فى جنبـات الحجرة حتى غطى على تأوهات الدهشة التى ندت هنـا وهناك ، ولعل ما استثاره قبـل اى شىء آخر هو وجه التناقض بين الدعاء الاباحى الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحى ــ فى ظاهرها على الأقل بالجد ــ والتاسى ، او بين ما تقنعت به المراة من ستار الجد والرزانة وما جهرت به اخيرا من مزاح مكشوف ، حتى امينة نفسها

- وعلى رغم ارتباكها - ما تمالكت أن ابتسمت وأن نكست وجهها لتوارى ابتســــامتها ، على أن النســـاء كن يستجبن - فى مثل هــذا المجلس - لدعابات مهرجات العوالم ويرحبن بمزاحهن وان خدش الحياء احيــانا كأنما ينفس به على طول تزمتهن ، وواصلت العالمة السكرانة حديثها قائلة :

- وكان جعــل الله الجنة مثواه سليم الطوية ، وآى ذلك انه جاءنى يوما برجل طيب مثــله وأراد أن يزوجنى منه (وكركرت ضاحكة) . . أى زواج يا عمر ؟! . . وماذا بقى للزوج بعد ما كان مما كان ! . . وتاب لنفسى انفضحت يا جليلة ووواقعتك كحل . .

وأمسكت مليــاً لتسنزيد من التشــويق ، أو لتتمتع أكثر بصمت الانتباه المركز فيها الذى لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه ، ثم عادت تقول :

- ولكن الله ســلم فادركتنى النجاة قبل الفضيحة المتوقعة بأيام اذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزول ، وكان للمرحوم أخ عواد عند العــالمة نيزك فعلمنى العود ، ثم طاب له صوتى فعلمنى الغنـــاء ، واخذ بيــــدى حتى ضمنى الى تخت نيزك التى حلت محلهـــــا بعد وفاتها ، ومارست الغنــاء دهرا عرفت فيـــه من العشاق مائة و . . (وقطبت وهى تتذكر بقية العــدد ثم التفتت الى الدفافة وسألتها : وكم يا فينو ؟

فبادرتها الدفافة قائلة :

- وخمسة فى عين من لا يصلى على النبى . .

وتعالى الضحك مرة اخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكتن الضاحكات ليصــفو الجو العالمة ولــكنها نهضت بغتــة واتجهت نحو باب الحجرة غير ملقيــة بالا الى اللاتى تســاءلن عن وجهتها دون ان يحظين بجواب ، ولــكن احدا لم يلح عليهــا فى السؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنها صاحبة نزوة اذا نادتها لبت دون مراجعــة ، وهبطت السلم الى باب الحريم ثم مرقت منه الى فناء الدار ، ولــما جذب ظهورها المفــاجىء بعض الأنظـــار القريبة تلبثت بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميــع فتستمتع بما يحــدثه منظرها فيهم من اهتمــام طمعت فى أن تتحدى به صابرا وهو فى ذروة التطريب ، وتحققت رغبتها اذ سرت عدوى الالتفات نحوها - كالتثاؤب - من فرد الى فرد وتردد اسمها على الألسن ، ثم شعر صابر نفســه - رغم انهماكه فى الغنـــاء - بالفجوة الفجائيــة التى فصلت بينه وبين جمهـــوره فمد بصره الى الهــدف الذى استشرفته الأعين حتى استقر على العالمة وهى تنظر اليه من بعيــد برأس مائل الى

الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر الى الامساك عن الغناء وأشار الى تختته فتوقف عن العزف ، ثم رفع يديه الى رأسه تحية لها ! . .

كان صابر خبيرا بنزوات جليلة — وعلى خلاف الكثيرين — عالما بطيبة قلبها ، ومقدرا فى الوقت نفسه الخطر معاندتها ، فأظهر لها التودد بلا تحفظ ، ونجحت حيلته فانطلقت اسارير المراة بالبشر وهتفت به « واصل غناءك ياسى صابر فما جئت الا لسماعه » فصفق المدعوون وعادوا الى صابر مهللين على حين اقترب منها ابراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقى الذى دعاها الى المجىء وسألته بدورها بصوت ترامى الى الكثيرين ومنهم — وهو الأهم — ياسين وفهمى .

— مالى لا ارى السيد احمد عبد الجواد ؟! . . أين يختبىء الرجل ؟

فأخذ ابراهيم شوكت بيدها وسار بها الى المنظرة باسما ، على حين تبادل فهمى وياسين نظرة ملئت دهشا واستغرابا وشيعاها بعينين متسائلتين حتى واراهما الباب ، ولم يكن السيد دون ابنيه دهشا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطر فحدجها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمة ذات معان ، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة :

— مساء الأنس يا رجال . .

وركزت عينيها فى السيد فما تمالكت ان اغربت فى الضحك وهى تتساءل ساخرة :

— هل اخافك مجيئى ياسيد أحمد ؟!

فأشار السيد الى الخارج محذرا وهو يقول لها جادا :

— اعقلى يا جليلة ، ماذا حملك على المجىء الى هنا تحت انظار الناس جميعا ؟!

فقالت كالمعتذرة وان لم تزايلها بسمة ساخرة :

— عز على الا اهنئك على زواج كريمتك . .

فقال السيد فى ضيق :

— لك الشكر ياستى ، ولكن أما فكرت فيما يثيره مجيئك لدى من يشهده من ظنون ؟

فضربت جليلة كفا بكف وقالت فيما يشبه العتاب :

— هذا احسن ما عندك لى من استقبال !. . (ثم موجهة الخطاب الى صحبه) . . اشهدكم يا رجال على الرجل الذى لم يكن يبتل صدره حتى

يغرز فردة شاربه فى صرتى ، انظروا اليه كيف لا يطيق الآن رؤيتى ..
فلوح السيد لها بيــده كأنما يقول لها « لا تزيدى الطين بلة » وقال برجاء :
ــ علم الله ما بى استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين ..
هنالك قال السيد على كأنما ليذكرها بما لاينبغى لها أن تنساه :
ــ لقد عشتما حبيبين وافترقتما صديقين ، وليس بينكما تأر ، ولكن اهله فوق وابناءه فى الخارج ..
فقالت متمادية فى اغاظة السيد :
ــ لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وانت بركة فسق !
فرماها بنظرة احتجاج قائلا :
ــ جليلة .. ! .. لا حول ولا قوة الا بالله .
ــ جليلة أم زبيدة يا ولى الله ؟!
ــ حسبى الله ونعم الوكيل ..
فأرعشت له حاجبيها كما أرعشتهما لعائشة من قبل ولكن على سبيل التهكم لا الاعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادىء جاد كالقاضى ينطق بالحكم :
ــ سيان عندى أن تعشق زبيدة أم غيرها من النساء ولكن يؤسفنى وراس أمى أن تتمرغ فى التراب بعد أن غرقت حتى ذنيك (مشيرة الى نفسها) فى القشدة ..
عند ذاك نهض السيد محمد عفت ــ وكان من أقرب المقربين اليهــا ــ وقد خاف أن يتمــادى بها السكر الى ما لا تحمــد عقباه فتنــاول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامسا فى أذنها :
ــ حلفتك بالحسين الا مارجعت الى مستمعاتك المنتظرات على نار ..
فطاوعته بعد ممانعة ولــكنها التفتت نحو الســيد وهى تبتعد رويدا وقالت :
ــ لا تنس أن تبلغ تحيــاتى الى القارحة ، ونصيحتى اليــك ــ بحق الأخوة ــ أن تغتسل بعدها بالكحول لأن عرقها مصاص للدماء ..
شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظ الذى قضى بأن ينكشف أمام كثيرين ــ خاصة أهله ــ ممن عرفوه مثالا للجد والرزانة « أجل لم يزل ثمة أمل فى الا يبلغ الحادث أحدا من آله ولكنه أمل ضعيف » ولم يزل ثمة رجاء فى الا يفهموه اذا بلغهم ــ بما طبعوا عليه من براءة ــ على حقيقته ولكنه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب ، بيــد أنه على أسوأ الفروض لا

يحق له أن يجزع لأن خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية اخرى أثبت من أن يزعزعهما مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها . وفضلا عن هذا فان احتمال انكشاف أمره لدى احد من ابنائه أو لديهم جميعا لم يكن عنده يوما بالغرض المستحيل ، ولكنه لم يقلق لذلك أكثر مما ينبغي ؛ لثقته بقوته ، ولأنه لم يعتمد في تربيتهم على القدوة والاقناع فيخاف إنحرافهم عن الجادة تبعا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها ، ولأنه استبعد أن يطلعوا على شيء من أمره قبل ان يبلغوا أشدهم أى حين لا يهمه كثيرا أن ينكشف لهم سره ، ولكن شيئا من هذا لم يستطع ان يلطف من أسفه على ما وقع ، حقا لم يخل من سرور ومن تيه جنسي ، اذ أن مجيء امرأة كجليلة بنفسها الى مجلسه لتهنئه أو لتعابثه أو حتى لتتهكم بعشقه الجديد « حادث » له مغزاه الهام في الأوساط التي تشهد لياليه ، وظاهرة لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئا ، ولكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدا عن هذه البيئة العائلية !

أما ياسين وفهمي فلم تتحول عيناهما عن باب المنظرة منذ ولجته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمد عفت . دهش فهمي دهشة بكرا دار لها رأسه كياسين حين سمع زنوبة وهي تجيبه قائلة « انه من حينا ولا بد انك تسمع عنه .. السيد أحمد عبد الجواد .. » على حين ركب ياسين حب استطلاع نهم فادرك — في سعادة أيقظت في قلبه نشوة الاعجاب والمشاركة الوحدانية التي شعر بها نحو أبيه في حجرة زنوبة — أن جليلة مغامرة أخرى في حياة أبيه التي بات يؤمن بأنها سلسلة ذهبية من المغامرات ، وان الرجل فاق كل ما تصوره خياله عنه ، ولبث فهمي يأمل ويرجو ان يعتم بين حين وآخر بأن العالمة انما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلق بدعوتها الى احياء فرح عائشة حتى جاء خليل شوكت وأخبرهما ضاحكا بأن جليلة « تداعب السيد » وبأنها « تتودد اليه تودد الصديق للصديق » وعند ذلك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سر ووثبت نشوة الشراب به الى الادلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على اذن اخيه قائلا وهو يغالب ضحكة « كتمت عنك أشياء تحرجت من البوح بها في حينها ، أما وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها » ومضى يقص عليه ما سمع وما رأى في بيت زبيدة العالمة ، وفهمي يقاطعه من آونة لأخرى قائلا في ذهول « لا تقل هذا .. » « هل فقدت وعيك » ، « كيف تريدني على ان أصدقك »

حتى أتى الشاب على قصته بكل تفاصيلها ؛ لم يكن فهمي ـ بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية ، على استعداد لفهم ـ بله هضم ـ السيرة الخفية التي تنكشف له لأول مرة خاصة وان والده نفسه كان من أركان عقيدته ودعائم مثاليته ، ولعل ثمة وجها من التشابه بين شعوره وهو يعاني هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين ـ أن صدق الخيال ـ وهو ينتقل من مستقر الرحم الى مضطرب الحياة ؛ ولعله لو كان قيل له ان جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المئذنة اسفل بنائه والضريح عاليه ، أو كان قيل له أن محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للانجليز لما كان هذا أو ذاك بأدعى الى انكاره وانزعاجه . « أبي يذهب الى بيت زبيدة ليشرب ويغني ويضرب الدف ! .. أبي يذعن لمداعبة جليلة وتوددها ! .. أبي السكر الزنا ، كيف اجتمعت الثلاث ! .. اذن هو غير الأب الذي عرفته في البيت مثالا للورع والقوة ! .. أيهما الصحيح ؟ .. كأني أسمعه الآن وهو يردد : الله أكبر .. الله أكبر . فكيف ترديده الغناء ! .. حياة تمثيل ورياء ! .. ولكنه صادق ، صادق اذا رفع رأسه للدعاء ، صادق اذا غضب .. أيكون أبي رذيلة أم يكون الفسق فضيلة !.. »

ـ ذهلت ؟! .. ذهلت أنا أيضا عندما نطقت زنوبة باسمه ؛ ولكن سرعان ما استسخفت نفسي وسألتها ماذا عليه من هذا ؟! .. كفر ! .. هكذا الرجال جميعا أو هكذا يجب أن يكونوا ..

« هذا القول جدير بياسين حقا .. ياسين شيء وأبي شيء آخر .. ياسين ! .. ما ياسين ! ؟ .. ولكن كيف يحق لي أن أردد هذا الآن وأبي ، أبي نفسه ، لا يختلف عنه في شيء ان لم يفقه تدهورا .. كلا ليس تدهورا .. ثمة أمر أجهله .. أبي لا يخطيء .. غير قابل للخطأ .. فوق الشبهات .. وعلى أي حال فوق الاحتقار .. »

ـ ما زلت ذاهلا ؟ !

ـ لا أتصور شيئا مما قلت .. !

ـ لماذا ؟ .. اضحك وافهم الدنيا ، يغني وماذا في الغناء من عيب ؟ ويسكر وصدقني ان السكر ألذ من الأكل ، ويعشق والعشق كان ملهاة الخلفاء ، اقرأ ديوان الحماسة والأخبار التي بهامشه ، ليس على أبينا حرج ، اهتف معي ليحيي السيد أحمد عبدالجواد ؛ ليحيي أبونا ، سأتركك لحظة ريثما أزور ـ لهذه المناسبة ـ الزجاجة التي أخفيتها تحت الكرسي .

بعودة العائلة الى التخت شاع في الحريم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد فانتقل من لسان الى لسان حتى تناهى الى الأم وخديجة وعائشة ،

(١٦)

ومع انهن كن يسمعن شيئا كهذا لأول مرة الا أن سيدات كثيرات ـ ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من أسباب المودة ـ تلقين النبأ في غير ما دهش وغمزن باعينهن باسمات شأن الذى يعرف أكثر مما يقال ، ولكن واحدة منهن لم تسول لها نفسها الخوض في الموضوع اما لأن الخوض فيه جهارا أمر لا يجمل بهن أمام كريماتهن واما لأن دواعى المجاملة أملت عليهن بأن يمسكن عنه حيال أمينة وكريمتيها ، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة « حذار يا أمينة هانم فالظاهر ان عين جليلة زاغت الى السيد احمد ! » فابتسمت امينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها ، لأول مرة تلمس دليلا محسوسا على ما قام بنفسها قديما من شكوك ، ومع أنها ألفت الصبر والتسليم بما قدر عليها الا أن ارتطامها بدليل محسوس حز في قلبها فاحست عذابا لا عهد لها به وجرحا داميا في صميم كبريائها ، وارادت امرأة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأم العروس فقالت « من يكن لها وجه كوجه ست أم فهمى قسامة فلا يحق لها أن تخشى زيغان عين زوجها الى امرأة أخري ! » فاهتزت جوانحها للثناء وعاودتها ابتسامتها الحبيبة ووجدت ـ على اى حال ـ بعض العزاء عما تعانيه من الم صامت ، الا انه لما بدات جليلة اغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجىء وشعرت ثوانى بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمته بقوة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب . هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيهما عما يعنيه الأمر كله ، بيد أن دهشهما لم يقترن بانزعاج كما حدث لفهمى ولا بألم كما حدث لأمهما ، ولعلهما وجدا في قيام امرأة كجليلة من تختها وتكبدها مشقة النزول الى مجلس أبيهما لتحيته وتحادثه شيئا مثيرا للاعجاب حقا ، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية في استطلاع وجه أمها فاسترقت اليها النظر ومع أنها رأتها تبتسم الا أنها فطنت من أول وهلة الى انها تكابد ألما وارتباكا فتنغص عليها صفوها وأحست بضيق ومالبثت أن حنقت على العالمة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كله ..

ولما ازفت ساعة الزفة نسى كل همه ، أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة في ثوب الزفاف لا تبرح الأذهان ..

*

بدت الغورية متلفعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العرس عائدة الى النحاسين . سار السيد احمد فى المقدمة وحده ، وتبعه على بعد أمتار فهمى وياسين الذى أفرغ ما فى وسعه كيما يتمالك نفسه ويتحكم فى مشيته أن بخونه وعيه الزائغ من فرط الشراب . ثم جاءت فى المؤخرة أمينة وخديجة وكمال وأم حنفى ، انضم كمال الى القافلة على رغمه فلولا الحادى الذى يتقدمها لوجد سبيلا الى عصيان يد والدته وانقلب راجعا الى حيث غادروا عائشة ، وجعل لهذا يتلفت بين خطوة واخرى صوب بوابة المتولى ليودع أسيفا محزونا آخر ما لاح من مظاهر الفرح ، ذلك المصباح المضيء الذى رقى عامل فى سلم خشبى اليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكرية ، لشد ما يقطع قلبه أن ينظر الى أسرته فيجدها قد تخلت عن أحب أفرادها اليه بعد أمه ، ورفع بصره الى والدته وسألها هامسا :

ـ متى تعود أبلة عائشة الينا ؟

فأجابته بمثل صوته :

ـ لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة ، ستزورنا كثيرا ونزورها كثيرا ..

فهمس مرة أخرى محنقا :

ـ ضحكتم على .. !

فأشارت بيدها الى الأمام ، فى اتجاه السيد الذى كادت تبتلعه الظلمة ومطت شفتيها هامسة « هس » ، ولكنه كان مشغولا باستحضار صور مما مر به فى بيت العرس الى مخيلته ، رأى أنها متناهية فى غرابتها وفيما بعثته فى نفسه من حيرة فجذب يدها اليه ليبتعد بها عن خديجة وأم حنفى ثم همس متسائلا وهو يشير الى الوراء :

ـ أما علمت بما يدور هنالك ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ نظرت من ثقب الباب ..

فانقبض قلب الأم جزعا لأنها حدست أى باب يعنى ولكنها سألته مكذبة نفسها :

ـ أى باب ؟

ـ باب غرفة العروس ..!

فقالت المرأة بانزعاج :

ـ ياله من عيب أن ينظر الانسان من ثقوب الأبواب ..!

فهمس من فوره :

ــ ما رأيته أعيب ..

ــ اخرس ..

ــ رأيت ابلة عائشة وسى خليل يجلسان على الشيزلنج .. وهو ..

فلكزته فى كتفه بشدة حتى أمسك ثم همست فى اذنه :

ــ يجب أن تخجل مما تقول ، او سمعك أبوك لقتلك ..

ولكنه قال باصرار وبلهجة من يشعر بانه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن ان تتصور هى وقوعها :

ــ كان يتناول ذقنها بيده ويقبلها ..

ولكزته مرة اخرى بقسوة لم يعهدها من قبل فادرك انه اخطأ حقا وهو لا يدرى وسكت خائفا ، ولكنه عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية الأسرة ــ وقد تخلفت عنهما أم حنفى لتسك الباب وتضببه وتترسه ــ ألح عليه ما يكابد من حيرة ورغبة فى الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء :

ــ لماذا يقبلها يا نينة ؟

فقالت له بحزم :

ــ اذا عدت الى هذا أخبرت والدك .. !

— ٤١ —

آوى ياسين الى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة ، ما كاد يخلو الى فهمى ويأمن الرقباء ــ سرعان ما غط كمال فى نومه عقب وضع رأسه على المخدة مباشرة ــ حتى جمحت به رغبة فى العربدة كرد فعل للجهد العصبى الذى بذله طوال السهرة ، خاصة فى طريق العودة ، كيما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه ، ولكنه وجد الحجرة أضيق من أن تتسع لعربدته فمال الى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمى وهو ينزع ملابسه وقال ساخرا :

ــ قارن بين خيبتنا وبين براعة أبينا !.. حقا انه لرجل ..

وعلى رغم ما حرك هذا الكلام من الم فهمى وحيرته الا انه قنع بان يقول وهو يرسم على شفتيه المتعضتين شبه ابتسامة :

ــ البركة فيك فأنت نعم الخلف ..

ــ أيحزنك أن يكون والدنا من كبار القناصة ؟

— وددت لو لم تمتد يد التغيير الى صورته الماثلة فى نفسى .

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه فى سرور :

— الصورة الحقيقية ابهى وامتع ، أعظم من اب هو المثل الأعلى . آه لو رأيته وهو قابض على الدف والكأس بين يديه تزهر ! عفارم . . عفارم يا سيد أحمد !

فتساءل فهمى فى حيرة :

— وحزمه وتقواه ؟!

فقطب ياسين ليركز فكره فى المسألة ولكنه وجد نفسه فى حال الجمع بين الأضداد أروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعا بالاعجاب وحده :

— ليس ثمة مشكلة على الاطلاق ، عقلك الرعديد وحده الذى يخلق المشكلة من العدم ، ابى حازم ومؤمن ويحب النسوان ، شىء بسيط واضح مثل ١ + ١ = ٢ ، ولعلى أشبه الناس به على وجه التقريب لأنى مؤمن واحب النسوان وان قل نصيبى من الحزم ، أنت نفسك مؤمن وحازم وتحب النسوان ، ولكن بينا تحقق ايمانك وحزمك اذا بك تنكص عن الثالثة (ثم ضاحكا) والثالثة هى الثابتة !

لعله نسى عند آخر كلامه باعث الاعجاب الذى دفعه الى الاسترسال فيه ، فجاء قوله دفاعا عن ابيه فى الظاهر فقط ، اما فى الحقيقة فلم يكن الا تعبيرا عن شعور وهاج هاج به دمه المخمور ، عن شهوة جامحة ركبته عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم ، شهوة أرثها خيال مكهرب بالشراب ، فرغب جسده فى الحب رغبة جنونية عجزت ارادته عن شكمها او ملاطفتها ، ولكن اين يجد مطلبه ؟ . . هل يتسع له الوقت ؟ . . زنوبة ؟! . . ماذا يحول بينه وبينها ؟ . . طريق قصير ، ضجعة قصيرة ، ثم يعود فينام نوما عميقا هادئا ، هش للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له يراجعه فاندفع الى تحقيقها بلا تردد ، وما لبث ان قال لأخيه :

— الجو حار ، سأصعد الى السطح لأتنسم هواء الليل الرطيب . .

وغادر الحجرة الى الدهليز الخارجى ، ومضى يهبط السلم متلمسا طريقه فى ظلمة غاشية ، محاذرا غاية الحذر أن يند عنه صوت . ترى كيف يستطيع الوصول الى زنوبة فى هذه الساعة من الليل ؟ . . هل يطرق الباب ؟ . . ومن عسى أن يجىء لفتحه ؟ . . وبم يجيبه اذا سأله عن مقصده ؟ . . واذا لم يستيقظ احد لفتح الباب ؟ . . أو اذا جاء الخفير البراقبه بتطفله المعروف ؟ عامت هذه الخواطر على سطح مخه كالفقاقيع ثم انداحت غارقة فى تيار الخمر الجارف فلم يتجهم لها كعوائق

ينبغى تقدير عواقبهـا ولكنه ابتسم لهـا كدعابات مما قد يؤنس وحشة مغامرته ، ثم جاورها خيـاله طائرا الى حجرة زنوبة المطلة على مفرق الغورية والصنادقية فتخيلها فى قميص النوم الأبيض الشفاف الذى يتقوس مطـاوعا فوق النهـدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجن جنونه وود لو يثب فوق الدرجات لولا الظلمة الغاشية . خرج ـ بخروجه الى الفنـاء ـ الى ظلمة اخف قليلا بما نفضته النجوم عليها من أضواء خافتة بيد أنها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلا نورا أو كالنور . وعندما خطا خطوتين متجهـا الى البـاب الخارجى فى آخر الفنـاء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضم أمام حجرة الفرن فألقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريبا منـه على جسم منطرح على الأرض فتنوره على ضوء السراج فعرف أم حنفى التى بدت وكأنها استحبت النوم فى الهواء الطلق فرارا من جو حجرة الفرن الخانق . وهم بمواصلة السير ولكن ثمة شيء استوقفه فعطف رأسه مرة أخرى صوب النائمة فأمكنه أن يتبينهـا من موقفه ، الذى لم يفصـله عنها الا بضعة امتـار ، بوضوح غير منتظر ، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التى رسمت فى الهواء بحافة الجلباب الملتصقة بالركبة هرما قائما وكشفت فى نفس الوقت عن فخذها اليسرى التى لاحت عارية فيما يلى الركبة ثم غرقت فى ظلمـة الفرجة التى انحسر عنهـا الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ومع أن احساسه بضيق الوقت ووجوب البدار الى غايته لم يهن الا أنه لم يسترد بصره عن الجسم الملقى غير بعيـد منه ، أو لعـله لم يستطع استرداده وانساق وهو لا يدرى الى تفرسه بامعـان بدا فى يقظة عينيه المحمرتين وانفراج شفتيه المبتلتين ، فاستحالت يقظـة الامين ـ وهى تتفحص الجسم اللحيم الذى شغل فراغا كبيرا كأنه جاموسة مسمنة ـ رغبة مريبة حتى استقر البصر على الفرجة المعتمة ما بين الساق القائمة والسـاق الممدودة ، ثم تحول التيـار المضطرم فى شرايينه من التطلع صوب باب الخروج الى حجـرة الفرن ، وكأنه يكتشف لأول مرة المرأة التى خالطها اعواما طويلة بغير مبـالاة . على أن أم حنفى لم تحظ بسمة واحدة من سمات الحسن ، وبدا وجهها الجهم اكبر من سنها الحقيقية التى لم تكد تجاوز الأربعين ، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان ـ لتنـافره وسوء تنسيقه ـ بالانتفاخ الغليظ اشـبه ، والدلك ، وربمـا اعتبرها العلماء انزوائها فى حجرة الفرن وقديم معاشرته لها التى بدات مع صباه ، لم

يلتفت اليها قط ، بيد أنه كان وقتذاك على حال من الهيجان فقد معها أية قدرة على التمييز فأعمته الشهوة ، وأى شهوة ؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لألوانها ، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح ، والمثل عندها فى « الأزمات » سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه فى القمامة ، عند ذاك بدت له مغامرته الأولى — زنوبة — محفوفة بالمتاعب مجهولة العواقب ، ولم يعد « الوصول » اليها فى هذه الساعة من الليل . وطرق الباب ، وما يقول لفاتحه ، والغفير » دعابات يبسم لها ؛ ولكن عوائق حقا يجدر به أن يتفادى منها . تقدم فى خفة وحذر فاغرا فاه . ذاهلا عن كل شىء الا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذى بدا لعينيه النهمتين وكأنه أخذ أهبته لاستقباله ، حتى توقف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ، ثم انحنى عليها قليلا قليلا بلا وعى تقريبا ، وباغراء شديد من الداخل والخارج معا ، وما يدرى الا وهو ينبطح فوقها . لعله لم يتعمد الذهاب الى هذا الحد دفعة واحدة ، ولعله هم بشىء من التمهيد كان لا ينبغى أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة ، ولكن الجسم الذى انبطح عليه اضطرب اضطرابة فزع شديدة وندت عنه صرخة مدوية — سبقت يده التى رامت كتمها — فمزقت السكون الشامل ولطمت مخه لطمة قوية ردت اليه وعيه فأطبق راحته على فمها وهو يهمس فى أذنها بقلق وخوف بالغين :

— أنا ياسين ، أنا ياسين يا أم حنفى ، لا تخافى ..

وطفق يكرر قوله حتى اطمأن الى وعيها اياه فاسترد راحته ؛ ولكن المرأة — التى لم تمسك عن المقاومة قط — تمكنت أخيرا من أن تنحيه عنها ، فاستوت جالسة وهى تلهث من الجهد والانفعال ثم سألته بصوت أزعجه ارتفاعه أيما ازعاج :

— ماذا تريد ياسى ياسين ؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء :

— لا ترفعى صوتك هكذا ، قلت لك لا تخافى ، ليس ثمة ما يدعو الى الخوف بتاتا ..

فعادت تسأله بجفاء وان خفضت من صوتها قليلا :

— ماذا جاء بك ؟

فجعل يربت على يدها متوددا وهو يتنهد فى شبه ارتياح لم يخل من عصبية كأنما رأى فى خفضها لصوتها امارة مشجعة وقال لها :

— ماذا أغضبك ؟ لم أرد بك سوءا (مبتسما ابتسامة وشت بها نبراته) هلمى الى حجرة الفرن ..

فقالت المرأة بصوت مضطرب ولكنه ذو دلالة حازمة :

ـ كلا يا سيدى ، اذهب الى حجرتك ، اذهب ، الله يلعن الشيطان ..

لم تزن أم حنفى كلماتها بميزان ولكنها ندت عنها كما اقتضى الحال ، لعلها لم تعبر أصدق التعبير عن رغباتها ، ولكنها عبرت تماما وبغير شعور منها عن شدة المفاجأة ، مفاجأة لم تسبق يوما بتمهيد من أى نوع كان ، التى انقضت عليها فى نومها كما تنقض الحداة على الفرخ ، فصدت الشاب وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقى فى الصد أو الزجر ، بيد أنه أساء فهمها فامتلأ حنقا وثارت برأسه الخواطر .. « ما العمل مع بنت الكلب هذه ! لا يمكن أن أتراجع بعد أن كشفت نفسى وتماديت الى حد الفضيحة ، لا بد مما أريد ولو لجأت الى القوة » وفكر بعجلة فى أنجع وسيلة للتغلب على ما تراءى له من مقاومة ولكنه ــ قبل أن يتخذ قرارا ــ سمع حركة غريبة ، لعلها حركة أقدام ، آتية من باب السلم ، فوثب قائما وهو من الفزع فى نهايته ، مزدردا شهوته كما يزدرد اللص فص الماس المسروق اذا بوغت فى مكمنه واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز العتبة مادا ذراعه بالمصباح . تسمر فى مكانه مختطف الدم مستسلما ذاهلا يائساً . أدرك من توه أن صرخة أم حنفى لم تضع هباء ، وأن النافذة الخلفية لحجرة الأب كانت له بالمرصاد ، ولكن ماجدوى الادراك المتأخر !..

لقد وقع فى فخ القضاء والقدر . وجعل السيد يتفرس فى وجهه بقسوة ، صامتا ، مطيلا الصمت ، وهو ينتفض غضبا . ودون أن يحول عنه عينيه القاسيتين أشار بيده الى الباب يأمره بالدخول ، ومع أن الاختفاء كان أحب اليه فى تلك اللحظة من الحياة نفسها الا أنه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرك ساكنا ، فضاق صدر الأب ولاحت فى عبوسته بوادر الانفجار ثم زمجر صائحا وعيناه ــ اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه ــ ترسلان شررا ..

ـ اطلع يا مجرم يابن الكلب .

فما ازداد الا استمساكا بجموده حتى هجم عليه السيد فقبض على ذراعه بيمناه وشد عليها بغلظة ثم جذبه بشدة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الخارقة فكاد يقع على وجهه ، وتمالك توازنه وهو يتلفت وراءه فزعا ، وفر بنفسه وثبا لا يبالى ظلمة ..

- ٤٢ -

علم بفضيحة ياسين شخصان ــ غير أبيه وام حنفى ــ هما ست امينة وفهمى ، سمعا صرخة أم حنفى ، فشاهدا من نافذتيهما مادار بين الشاب وبين السيد ، ثم حدسا ما هنالك دون حاجة الى كبير ذكاء ، على أن السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وسألها مدققا عما تعلم من اخلاق « أم حنفى » فدافعت أمينة عن خادمتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذكرت السيد بأنه لولا «صرختها» ما درى احد بما كان فقضى الرجل ساعة وهو يسب ويلعن ، سب ياسين ، وسب نفسه لأنه « ما كان ينبغى أن ينجب أطفالا ليكدروا صفوه بأهوائهم الشريرة » واستفاض به الغضب فسب البيت واهله جميعا ! . . وظلت امينة صامتة كما واصلت صمتها فيما بعد كأنما لم تدر شيئا ، كذلك تجاهل فهمى الأمر كله ، تظاهر بالاستغراق فى النوم حين عاذ أخوه الى الحجرة لاهثا عقب الموقعة الخاسرة ، ولم يبد منه فيما بعد ما ينم عن علمه بشيء ، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذل ومهانة اكراما لاحترام يكنه له بصفته اخاه الأكبر ، احترام لم تذهبه كله ، ماتكشف له من استهتاره ومجونه أو ماتقدم هو به عليه من علم وثقافة ، او ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بالزام احد من اخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة ، اجل لم يزل يكن له احتراما لعل حرصه على الابقاء عليه راجع الى ما يأخذ به نفسه من تأدب وجد ورزانة أكسبته مظهرا أكبر من سنه ، بيد أن خديجة لم يفتها أن تلاحظ ــ غداة الواقعة ــ أن ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها بأنه لما يهضم عشاء الفرح ، وشعرت الفتاة ــ بسوء ظنها الطبيعى المرهف بأن ثمة علة لتخلفه غير عسر الهضم فسألت أمها ولكنها لم تجد جوابا شافيا ، ثم رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل ايضا ، لا بدافع من حب الاستطلاع أو الأسف ، ولكن أملا أن يجد فى الجواب مايبشره بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين ، وكاد الأمر ينسى لولا أن ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك فى مجلس القهوة المعهود ، ومع أنه اعتذر لفهمى والأم بارتباطه بميعاد الا أن خديجة قالت بصراحة « فى الأمر شيء ، لست عبيطة . . اقطع ذراعى ان لم يكن ياسين متغيرا » . وعند ذاك اضطرت الأم أن تعلن غضب السيد على ياسين لسبب لم تعلمه . .

وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتى أمينة وفهمى اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع ، وظل ياسين على تجنبه لمائدة أبيه حتى دعى ذات صباح الى مقابلته قبل الفطور . لم تفجأه الدعوة ، وان أزعجته رغم ذلك - فكم توقعها يوما بعد يوم لاستيثاقه من أن أباه لا يمكن أن يقنع من زلته بتلك الجذبة العنيفة التى كادت تلقيه على وجهه ، وأنه لا بد عائد اليها بطريق أو بآخر ولعله توقع أيضا معاملة لن تليق بحال بموظف مثله مما حمله حينا على التفكير فى مغادرة البيت الى حين أو الى الأبد ، أجل لا يجمل بأبيه - أبيه كما عرفه فى بيت زبيدة خاصة - أن يلقى زلته بهذا العنت كله ، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لا تليق برجولته فالأكرم له أن يفارقه ، ولكن الى اين؟ . . أليس الا ان يعيش عيشة مستقلة بمفرده ، ولن يعجزه هذا ، بيد أنه قلب الأمر على مختلف وجوهه ، قدر النفقات وتساءل عما يبقى له بعدها لملاذه ، لقهوة سى على وحانة كوستاكى وزنوبة ، هنالك فتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفىء شعلة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة ، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه « لو طاوعت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليدا خبيثا لا يليق بأسرتنا . مهما يقل أبى أو يفعل فهو أبى وهيهات ان تضام حيال تأديبه » ثم قال بصراحته التى يصطنعها اذا غلبته روح الدعابة « شيئا من التواضع يا ياسين بك ، دعنا من الكرامة وحياة أمك ، أيهما أحب اليك كرامة سيادتك ام كونياك كوستاكى وسرة زنوبة » هكذا عدل عن التفكير فى مغادرة البيت ولبث ينتظر الدعوة المتوقعة حتى وقعت فجمع نفسه ومضى كارها متوجسا ، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدا عن مجلس أبيه من غير أن يجرؤ على التسليم عليه ، وانتظر والقى السيد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول :

- ما شاء الله ! . . طول وعرض ، شارب وقفا ، اذا رآك الرائى فى الطريق قال لنفسه باعجاب نعم الرجل ونعم الابن ، فليت القائل يجىء الى البيت ليراك على حقيقتك . .

ازداد الشاب ارتباكا وحياء ولكنه لم ينبس بكلمة ومضى السيد يتفحصه بسخط ثم قال باقتضاب وبلهجة جافة آمرة :

- قررت أن تتزوج . . !

ودهش ياسين دهشة لم يكد يصدق معها اذنيه ، كان يتوقع سبا ولعنا فحسب ولكن لم يخطر له على بال انه سيسمع قرارا خطيرا يغير مجرى حياته كله فما تمالك ان رفع عينيه الى وجه أبيه حتى اذا ما التقتا بعينيه

الزرقاوين الحادتين خفضهما متورد الوجه لائذا بالصمت : وفطن السيد الى أن ابنه بوغت بهذا القرار « السعيد » بدلا من المعاملة الفظة التى كان يتوقعها فثار حنقه على الظروف التى أملت عليه أن يلقاه بجانب دمث خليق بتكذيب ظنه بجبروته المعروف فبث حنقه فى نبرات صوته . وهو يقول عابسا :

— الوقت ضيق وأريد أن اسمع جوابك ..

ما دام الرجل قد قرر أن يزوجه فهو يأبى الا أن يسمع جوابا واحدا . ولا مانع من أن يسمعه الجواب الذى يريد ؛ لا طاعة لأمر فحسب . ولكن تلبية لرغبته هو أيضا ، أجل ما كاد والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصور له « عروسا » حسناء امرأة تكون ملك يمينه ورهن اشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوشك أن يفضحه صوته وهو يقول :

— الرأى رأيك يا بابا ..

— تريد أن تتزوج أم لا ؟.. انطق ..

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له ماليا :

— مادامت هذه هى ارادتك فانى موافق على العين والرأس .

فخفف السيد من خشونة لهجته وهو يقول :

— سأطلب لك كريمة صديقى السيد محمد عفت تاجر الأقمشة بالحمزاوى، لقية ظفرها برقبة تور مثلك .

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مداهنا :

— ولكنى بفضلك أصير كفئا لها .

فرمقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها الى أعماق مداهنته وقال :

— من يسمع كلامك لا يتصور فعالك يا منافق .. أغرب عن وجهى ..

وهم ياسين بالتحرك ولكنه أوقفه باشارة من يده ثم تساءل مستدركا كأنما عرض التساؤل له اتفاقا :

— أظنك حوشت المهر ؟

لم يحر جوابا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيد وتساءل مستنكرا ..

— ولكنك عشت رغم توظفك فى كفالتى كما كنت تعيش وانت تلميذ فماذا صنعت بمرتبك ؟

فلم يزد على أن حرك شفتيه دون أن ينبس فحرك الأب رأسه ممتعضا وذكر قوله اله منذ عام وتصف وهو يوصيه لمناسبة توظفه « لو طالبتك الآن بأن تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلا مسئولا ماخرقت المالوف بين الآباء والأبناء ولكنى لن أطالبك بمليم واحد كى أهيىء لك فرصة للاقتصاد

مقدار من المال تجده بين يديك اذا دعت الحاجة اليه ،.ودل ذلك التصرف من جانبه على ثقته بابنه ، والحق أنه لم يتصور أن يجنح أحد من ابنائه — بعدما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين — الى هوى من الأهواء الجامحة التى تبدد المال ، لم يتصور ان ينقلب ابنه « الصغير » سكيرا ماجنا ، فالخمر والنساء التى يراها فى حياته هو لونا من اللهو لا يمس رجولة ولا يؤذى ايمانا تنقلب اذا « لوثت » أحدا من ابنائه جريمة لا تغتفر ، ولذلك فان زلة الشاب التى كشفها فى فناء البيت طمأنته بقدر ما اغضبته لأن ام حنفى فى نظره لا يمكن أن تغرى شابا ان لم يكن تحمل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفة .. أجل لم يشك فى براءة ابنه بيد انه ذكر مالاحظه كثيرا من ولعه بالأناقة وتخيره النفيس من البدل والقمصان واربطة الرقبة وكيف لم يرتح الى ذلك وحذره الاسراف ولكن تحذيرا هينا ، اما لأنه لم ير فى الأناقة جريمة ، واما لأن تشبه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه الذى لا يرى بأسا فى أن يكرره ابناؤه — حركا فى صدره العطف والتسامح ، ولكن كيف كانت نتيجة ذالك التسامح ؟.. هى ما وضح له الآن من تبذيره تعوده فى التافه من الكماليات . ونفخ الرجل مغيظا محنقا وقال له محتدا :

— اغرب عن وجهى .

غادر ياسين الحجرة مغضوبا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلته كما توقع وهو ذاهب الى الحجرة تبذيره الذى لم يكربه من قبل فسلم اليه نفسه بلا تفكر ولا تدبر ، ينفق ما فى جيبه حتى يفرغ غارقا فى ساعته ، متعاميا عما يسمونه « المستقبل » كأنه شىء لا وجود له ، ومع انه غادر الحجرة مرتبكا وجلا لنهرة أبيه الا انه لم يخل من ارتياح عميق اذ أدرك ان تلك النهرة لا تعنى طرده فحسب ولكن أيضا ان السيد سيتكفل بنفقات زواجه ، ومضى كالطفل الذى يضيق أبوه بالحاحه فى طلب قرش فينقده اياه ويدفعه خارجا فينسى شدة الدفعة فى فرحة الظفر ولبث الأب ساخطا وراح يردد « ياله من حيوان ، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ » اغضبه اسرافه كأنه لا يتخذ هو من الاسراف شعارا له فى الحياة ، ولكنه كان لا يرى بأسا فى اسرافه كسائر اهوائه — مادام لا يفقره وينسيه واجباته او يدهور شخصيته ، ولكن كيف يضمن أن يصمد امامه ياسين ؟.. فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه عن استبداد وانانية فحسب ولكن شفقا عليه وان دل شفقة هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلوان من غرور وزايله الغضب كعادته — بنفس السرعة التى ركبه بها ، فصفت نفسه وانبسطت اساريره واخذت الأمور تتبدى له بوجه جديد لطيف مسماح ..

« تريد أن تتشبه بأبيك يا نور .. اذن لا تأخذ جانبا وتهمل الجوانب الأخرى » كن احمد عبد الجواد كله ان استطعت أو فالزم حدودك . أحسبتني حقا سخطت على تبذيرك لانى كنت أرجو ان ازوجك بنقودك ؟! .. خسئت .. انما رجوت ان اجدك مقتصدا كى أزوجك بنقودى على وفرة النقود لديك ، هذا هو الرجاء الذى خيبت وهل حسبتنى لم أفكر فى اختيار زوجة لك الا بعد ضبطك متلبسا بالزنا . وأى زنا .. زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك ؟!.. كلا يا بغل انى أفكر فى سعادتك منذ توظفت ، كيف لا وانت أول من جعلنى أبا ... وأنت شريكى فى العذاب الذى أصلتنا اياه امك اللعينة ؟! .. ثم أليس من حقى أن افرح بك خصوصا وأنه على آن انتظر طويلا حتى أفرح بالنور الآخر أخيك أسير العشق وبا ترى من يعيش ؟! .. » فى اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قص على السيد محمد عفت « جريمة » ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التى كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمته للشاب ـ الواقع أن الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتحة ياسين ـ وكيف قال له الرجل « الا ترى أنه يجمل بك أن تغير من معاملتك لابنك كلما قارب سن الرشد خاصة اذا توظف وصار رجلا مسئولا ؟ .. » ثم ضاحكا) الظاهر أنك من الآباء الذين لا يرتدعون حتى يجهر أبناؤهم بالثورة عليهم » وكيف أجابه بثقة قائلا : « هيهات أن تتعرض الرابطة بينى وبين أبنائى لتغير الزمن » صدرت عنه الاجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا حد لها ، على أنه اعترف له بعد ذلك أن معاملته تتغير فى الواقع بتغير الأحوال وان عمل من جانبه على الا يفطن أحد الى نية التغيير الباطنة ثم قال : « الحق انى لا اقبل أن أمد يدى الآن على ياسين ولا حتى على فهمى ، والحق انى حذبت ياسين تلك الجذبة تحت تاثير غضب ثائر ومن غير أن أقدر المدى الذى ذهبت اليه » ثم استطرد قائلا وهو يكر الى فترة من الماضى البعيد « كان أبى رحمة الله عليه يلتزم فى تربيتى شدة تهون الى جانبها شدتى معأبنائى ولكنه سرعان ما غير من معاملته لى منذ أن دعانى الى معاونته فى الدكان ، ثم استحالت معاملته صداقة أبوية منذ تزوجت أم ياسين ، وقد بلغ بى الاعتزاز بالنفس أن عارضت فى زواجه الأخير لكبره من ناحية وحداثة سن العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لى « أتعارضنى يا ثور .. وما دخلك فى هذا الشأن ؟.. انى أقدر منك على ارضاء أية امرأة » فما تمالكت أن ضحكت

وطيبت خاطره معتذرا » ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل القائل« اذا كبر ابنك آخه » فشعر — ربما لأول مرة فى حياته — بتعقد مهمة الأبوة كما لم يشعر به من قبل . فى نفس الأسبوع أذاعت الأم خطبة ياسين فى مجلس القهوة ، كان فهمى قد علم بها عن طريق ياسين نفسه ، أما خديجة فما تمالكت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظنا منها ان الغضب انما وقع نتيجة لرغبة ياسين فى الزواج قياسا على ما كان بين الأب وفهمى فلسبب نفسه فصرحت برايها كالمتسائلة فقال ياسين ضاحكا وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وارتباك :

— الحق أن ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة ..

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح :

— بابا معذور فى غضبه لأن حضرتك لا يمكن أن تشرفه أمام صديق كبير مثل السيد محمد عفت ..

فجاراها ياسين فى سخريتها قائلا :

— وسوف يزداد موقف أبى حرجا اذا ما علم السيد الكبير المذكور بأن العريس أختا مثل حضرتك !

عند ذاك تساءل كمال :

— هل سيتركنا ياسين كما تركتنا أبله عائشة ؟

فقالت له امه باسمة :

— كلا ولكن ستنضم الى بيتنا اخت جديدة هى العروس ..

ارتاح كمال الى هذه الاجابة التى لم يكن يتوقعها ، ارتاح الى بقاء « راويته » الذى يمتعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولكنه عاد يتساءل لماذا لم تبق عائشة ايضا ؟ . فأجابته امه بأن العادة قضت بان العروس تنتقل الى بيت العريس وليس العكس ، لم يدر من سن هذه العادة وكم تمنى لو كان العكس هو المتبع ولو يضحى بياسين ولطائفه بيد انه لم يستطع أن يجهر برغبته فافصح عنها بنظرة ناطقة رنا بها الى امه ، فهمى وحده الذى اثار الخبر أشجانه لا لأنه لم يشارك ياسين فرحته ولكن لأن سيرة الزواج غدا من شأنها ان توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النصر حزن أم فقدت ابنها .. فى موقعة ظافرة ..

— ٤٣ —

تحرك الحانطور مقلا الام وخديجة وكمال فى طريقه الى السكرية . أيكون زواج عائشة ايذانا بعهد جديد من الحرية ؟ أيقدر لهم اخيرا ان يطلعوا على نور الدنيا من حين لآخر وأن يتنفسوا هواءها الطليق ؟! . بيد أن أمينة لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث ؛ فالذى حرم عليها زيارة أمها الا فيما ندر قادر على أن يحرم عليها زيارة ابنتها كذلك ولم تنس انه مضت أيام كثيرة على زواج الفتاة زارها خلالها الأب وياسين وفهمى وحتى أم حنفى دون أن يؤذن لها هى بزيارتها أو تواتيها شجاعتها على الاستئذان للزيارة ، تحرزت من تذكيره بأن لها ابنة فى السكرية يجب أن تراها ، ولازمت الصمت وان لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها . على أنه لما ضاق صدرها بآلام التصبر استجمعت ارادتها وسألته :

— أن شاء الله يكون سيدى عازما على زيارة عائشة قريبا لنطمئن عليها ؟..

فطن السيد الى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحنق عليها ، لا لأنه كان قرر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة . ولكن لأنه ود — كشأنه فى مثل هذه الحالة — أن يصدر السماح منه منحة غير مسبوقة بطلب أن تقوم بنفسها شبهة بأن طلبها ذو أثر فى استصدار السماح ؛ فكره أن تسعى الى تذكيره بهذا السؤال الماكر ، ومن قبل فكر فى الأمر بضيق فأحنقه أن يجده ضرورة لا محيص منها ، ولذلك هتف بها حانقا :

— عائشة فى بيت زوجها ولا حاجة بها الى أحد منا ، على اننى زرتها كما زارها اخواها فماذا يقلقك عليها ؟!

غاص قلبها فى صدرها وجف ريقها يأسا وقهرا ، اما السيد فقد تعمد أن يلزم الصمت كأنه انتهى من الأمر كله معاقبة لها على ما عده مكرا منها لا يغتفر ، ثم أهملها طوال الوقت وهو يختلس النظر الى ما غشى أساريرها من كمد ، حتى حان وقت انصرافه الى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب :

— اذهبى غدا الى زيارتها .. !

تدافع دم الانشراح الى الوجه الذى لا تخفى بصفحته خافية فبدت فى سرور الطفل فما عتم أن عاوده حنقه فصاح بها :

- لن تريها بعد ذلك الا اذا سمح لها زوجها بزيارتنا ..!

فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهدا حملته وهى تشاور خديجة فى مفاتحته فقالت بعد تردد واشفاق :

- هل يسمح سيدى بأن آخذ معى خديجة ؟

فهز رأسه كأنما يقول « ما شاء الله .. ما شاء الله .. » ثم قال لها محتدا :

- طبعا .. طبعا .. ! ما دمت قد قبلت أن ازوج ابنتى فيجب ان تنضم أسرتى الى أبناء الشوارع !. خذيها « ربنا يأخذكم جميعا ..

تم لها فوق ما تطمع من السرور فلم تلق بالا الى الدعاء الأخير الذى ألفت سماعه ... وأكثر - فى أوقات غضبه او تظاهره بالغضب على السواء ، كانت تعلم بأنه من طرف لسانه وانه أبعد ما يكون من قلبه ، مثله كمثل القطة تبدو ، حين تحمل صغارها ، وكأنها تلتهمها . تحقق الرجاء وانطلقت العربة بهم فى طريقها الى السكرية . بدا كمال ، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة أمه واخته وركوبه الحانطور ، أوفر الثلاثة سرورا « وكأنه لم يستطع كتمان فرحه أو أنه رغب فى اعلانه على الملأ أو لعله أراد لفت الأنظار الى شخصه وهو يتخذ مجلسه فى الحانطور بين امه واخته فما اقتربت العربة من دكان عم حسنين الحلاق حتى وقف بغتة هاتفا « يا عم حسنين .. انظر ! » فنظر الرجل اليه ولما لم يحد ـد وحده غض بصره فى عجلة مبتسما فذابت الأم خجلا وارتباكا وجذبته من طرف جاكتته أن يعيد الكرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤنبه على فعلته « الجنونية » . بدا بيت السكرية - وليس كذلك بدا فى حلة الأنوار ليلة الفرح - عتيقا هرما ولكن دل عتقه نفسه فضلا عن نضخامة بنيانه ونفاسة أثاثه على السؤدد والجاه ، فآل شوكت اسرة « قديمة » وان لم يبق لهم من عزة القدم - خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستكبار على التعليم - الا الاسم . وقد أقامت العروس بالدور الثانى على حين نزلت حرم المرحوم شوكت - ومعها ابنها الأكبر ابراهيم - الدور الأول لعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلم فبقى دور ثالث شاغرا لم يسعهم أن يشغلوه وأبوا أن يسكنوه . ولما أدخلوا شقة عائشة هم كمال ، منطلقا مع سجيته كما لو كان فى بيته ، بأن يجوس خلالها كى يعثر بنفسه على اخته مستمتعا بلذة المفاجأة التى تخيلها وهو يرقى فى السلم ولكن امه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما يدرى الا والخادم تقودهم الى حجرة الاستقبال ثم تتركهم وحدهم ! شعر بانهم يعاملون معاملة

« الغرباء » أو « الضيوف » فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردد فى جزع « أين عائشة ؟ . . لماذا نبقى هنا ؟ » فلا يسمع الا كلمة «هس» وتحذيرا من منعه من الزيارة مرة أخرى اذا علا صوته ! . . ولكنه سرعان ما زايله الألم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بابتسامة غطى سناها على أضواء حلتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلق بعنقها ، فتبودل التسليم بينها وبين أمها وأختها وهو على ذلك الوضع !.. بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة أهلها ، حدثتهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمى ، وكيف غلبها الشوق اليهم على خوفها من أبيها فواتتها الجرأة على ان ترجوه السماح لهم بزيارتها !.. قالت « لا أدرى كيف طاوعنى لسانى حتى تكلمت !.. لعل مظهره الجديد الذى لم يتراء لى به من قبل هو الذى شجعنى ، بدا لطيفا وديعا باسما ، أى والله باسما ، على أننى ترددت رغم ذلك طويلا ، خفت أن ينقلب فجأة فينتهزنى ، ثم توكلت على الله ونطقت ! » فسألتها أمها عن رده كيف كان فقالت « قال لى باقتضاب : ان شاء الله ، ثم استطرد مسرعا بلهجة جدية تنم عن تحذير : ولكن لا تظنى المسألة لعبا فكل شىء بحساب . فخفق قلبى ورحت أدعو له طويلا توددا واسترضاء ! » ثم رجعت الى الوراء قليلا فوصفت حالها عند ما قيل لها « السيد الكبير فى حجرة الاستقبال » قالت « ركضت الى الحمام فغسلت وجهى لأزيل كل أثر للمساحيق حتى تساءل سى خليل عما يدعو الى ذلك كله ولكنى قلت له : أدركنى ، لا أستطيع أن ألقاه بفستان صيفى يكشف عن ذراعى ! .. ولم أبرح موضعى حتى تلفعت بشال كشميرى ! » ثم قالت « ولما علمت نينة .. (ضاحكة) أعنى نينة الجديدة .. لما قص عليها سى خليل ما جرى ضحكت وقالت له : انى أعرف السيد أحمد تمام المعرفة .. هو هذا واكثر (ثم ملتفتة الى) ولكن اعلمى يا شوشو انك لم تعودى من آل عبد الجواد ، انت الآن شوكتية فلا تبالى الآخرين .. » . أصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحب والاعجاب فحملق كمال فيها كما فعل فى ليلة الزفاف وتساءل محتجا « لماذا لم تكونى تبدين هكذا وانت فى بيتنا ؟ » فأجابته على الفور ضاحكة « لم أكن وقت ذاك شوكتية » حتى خديجة رمقتها بعين الحب ، انقطعت بزواج الفتاة دواعى الملاحاة التى كانت تنشب بينهما بسبب الاختلاط ، ومن ناحية أخرى لم يبق من الاحساس بالحنق الذى ركبها عند السماح بزواج الفتاة

قبلها الا اثر باهت حملته « بختها » من دون الفتاة ، فلم يعد ينطوى قلبها الا على الحب والشوق ، لشد ما تفتقدها كلما آنست من نفسها حاجة الى أنيس تفضي اليه بذات نفسها . ثم تحدثت عائشة عن البيت الجديد ، عن المشربية التى تطل على بوابة المتولى ، والمآذن التى تنطلق عن قرب ، وتيار السابلة الذى لا ينقطع ، كل شيء حولها يذكرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وابنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانوية « ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثم بشيء من الفتور) وان كان المحمل لا يمر تحتها كما اخبرنى سى خليل ! » وواصلت حديثها « تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل : شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل ، أولئك جيرانى الجدد ، الا أن ضارب الرمل أسعدهم حظا ، لا تسألوا عن أفواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء أمامه مستخبرين عن طوالعهم ، كم وددت لو كانت مشربيتى أوطأ كيما أسمع ما يقول لهم ، والذ منظر منظر سوارس القادمة من الدرب الأحمر اذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من الغورية فضاق عنهما مدخل البوابة وركب كل سائق راسه متحديا الآخر أن يتراجع ليفسح السبيل ، يبدأ الكلام لينا بعض اللين فيحتد ، ثم يخشوشن ، ثم تهدر الحناجر بالسباب والشتائم ، وتجيء فى أثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغص بها الطريق ولا يدرى احد كيف يعود الحال الى ما كان عليه « هناك اقف وراء الخصاص اكاتم الضحك وأتأمل الوجوه والمناظر » وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم ، حجرة الفرن والمخزن وحماتها سيدة الفناء والجارية سويدان « لا أجد لى عملا فلا اذكر المطبخ حتى تحمل الى صينية الطعام » وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة « نلت ما طالما تمنيته ! » لم يجد كمال فى الحديث شيئا ذا بال الا انه احس فى نغمته العامة بما يوحى « باستقرار » المتحدثة فداخله الانزعاج وسالها :

ــ ألن تعودى الينا ؟ . .

فملأ الحجرة صوت يقول :

ــ لن تعود اليكم ياسى كمال . .

واذا بخليل شوكت يدخل ضاحكا وهو يرفل بجسمه الربعة فى جلباب حرير أبيض . كان ذا وجه بيضاوى ممتلىء ، ابيض البشرة ، فى عينيه جحوظ خفيف وفى شفتيه غلظة ، اما راسه الكبير فينتهى بجبين ضيق يفترق عند قمته شعر أسود كثيف يشبه فى لونه وتسريحته

شعر السيد ، تلوح فى عينيه نظرة طيبة وخمول لعلها أثر للراحة والفراغ والرضى . انحنى على يد الأم ليقبلها فجذبتها بسرعة فى خجل وارتباك وهى تتمتم شاكرة ثم سلم على خديجة وكمال وجلس وكأنه — على حد تعبير كمال فيما بعد — واحد منهم . وانتهز الغلام فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرس فى وجهه طويلا ذاك الوجه الغريب اصلا الذى برز فى محيط حياتهم ليحتل مكانا مرموقا يؤهله لأن يكون أقرب الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قرينا لوجه عائشة . كلما خطر هذا على باله جر وراءه ذاك كما يجر الأبيض الأسود . تفرس فيه طويلا وهو يردد فى نفسه قوله الممتلىء ثقة « لن تعود اليكم يا سى كمال » فوجد نحوه انكارا ونفورا وحقدا كادت تتمكن من قلبه لولا أن قام الرجل فجأة ومضى الى الخارج ثم عاد حاملا صينية فضية ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدم له باسما — وان كشف افترار ثغره عن سنتين ركبت احداهما الأخرى — نخبة من أشهى الأصناف . وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة عى ذراع رجل استدلوا بمشابهته بخليل على أنه أخوه الأكبر ، ثم وكد استدلالهم تقديم الأرملة بقولها « ابراهيم ابنى .. ألم تعرفوه بعد ؟ ! » وعند ما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسمة « نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأول مرة ... لا بأس .. ! » فطنت أمينة الى أن المرأة تشجعها وتهون عليها الأمر فابتسمت ، ولكن ساورها شىء من القلق وتساءلت ترى هل يوافق السيد على مقابلتهما لهذا الرجل — وان عد عضوا جديدا فى الأسرة كخليل سواء بسواء — بغير نقاب ؟ .. وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها ايثارا للسلامة ؟ ..

كان ابراهيم وخليل أشبه بالتوأمين لولا فارق السن ، على أن اختلافهما بدا أقل من القليل بالقياس الى اختلاف عمريهما ، والحق انه لولا قصر شعر رأس ابراهيم ، ولولا شاربه المفتول ، لما كان ثمة ما يميزه عن خليل ، كأنه لم يبلغ الأربعين ، أو كأن شبابه ومظهره لا يتأثران بكرور الأعوام ، لذلك ذكرت أمينة ما حدثها به السيد مرة عن المرحوم شوكت من أنه « كان يبدو أقل من عمره الحقيقى بعشرين عاما أو يزيد » أو قوله عنه « انه رغم طيبته ونبله كان كالحيوان لا يسمح لفكره أبدا بأن ينغص عليه صفوه ! » ، أليس عجيبا أن يبدو ابراهيم فى الثلاثين مع انه تزوج فى صدر شبابه وانجب طفلين ثم ماتت زوجه وطفلاه ؟! ولكنه مرق من تجربته القاسية سالما لم يمس ، ثم عاود الحياة مع أمه فى خمول ودعة

وفراغ شأن آل شوكت جميعا ، راق خديجة أن تسترق النظر — كلما أمنت أعين الرقباء — الى الشقيقين ، الى أوجه الشبه العجيبة بينهما ، بيضاوية الوجه وامتلائه ، جحوظ العينين الواسعتين ، البدانة ، الخمول ، فحرك كل أولئك السخرية الكامنة فى نفسها حتى ضحكت افكارها ومضت تدخر فى ذاكرتها من الصور ما تعود اليه اذا ضمها مجلس القهوة ومالت جريا على سنتها فى التهكم الى العبث والاضحاك ، والى هذا فكرت باهتمام فى اختيار اسم وصفى عياب لهما على مثال الأسماء الوصفية التى تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بأمهما التى تطلق عليها « المدفع الرشاش » لتناثر ريقها عند الحديث . واسترقت مرة نظرة الى ابراهيم فما راعها الا أن تلتقى عيناها بعينيه الواسعتين وهما تتفرسان فى وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضت بصرها فى حياء وارتباك ، وتساءلت فى خوف المريب عما عسى أن يظنه بنظرتها ، ثم وجدت نفسها تفكر بقلق فى منظرها وما يمكن أن يتركه فى نفسه من اثر . ترى ايسخر من أنفها كما سخرت من بدانته وخموله ؟ ! . . . واستغرقها التأمل والقلق . . .

سئم كمال الجلسة التى وان تكن جمعته بعائشة الا انها جمعته بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تحقق — عدا ما منحت من حلوى — شيئا من رغابه ، فانتقل الى جوار العروس وأبدى لها اشارة فهمت منها أنه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة ، ظنته قانعا بمجالستها فى الصالة ولكنه جذبها من يدها الى حجرة النوم ورد الباب وراءهما حتى ارتج . انطلقت أساريره ولمعت عيناه ، وتطلع اليها طويلا ثم تصفح الحجرة ركنا ركنا وهو يتشمم رائحة الأثاث الجديد مازجها أريج زكى لعله بقية مما انتشر من أيدى المتطيبين وصدورهم ، ثم رنا الى الفراش الوثير ، الى النمرقتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها « ماهما ؟ » فأجابته « وسادتان صغيرتان » فسألها « أتتوسدينهما ؟ » فقالت باسمة « كلا هما للزينة فقط » فأشار الى الفراش متسائلا « أين تنامين ؟ » فأجابت باسمة أيضا « فى الداخل » فسألها كأنه متوكد من انه ينام معها « وسى خليل ؟ » فأجابت وهى تقرص خده برقة « فى الخارج . . » عند ذاك التفت صوب « الشيزلنج » بغرابة ، وسار اليه وجلس ، ودعاها الى الجلوس جنبه فجلست ، وما لبث ان غاب فى الذكريات غاضا بصره ليخفى نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد أمه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر اليها بما رأى من ثقب الباب .

راودته نفسه على أن يبوح لها بسره ، أن يسألها عنه ، تحت ضغط اغراء لا يخلو من قسوة ، ولكن الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقله فشكم رغبته على رغمه ، ثم رفع اليها عينين صافيتين وابتسم اليها ، فابتسمت اليه ومالت نحوه فقبلته ، ثم نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة :

ــ لأملأن جيوبك بالشيكولاتة ...

- ٤٤ -

تصايح الغلمان المتجمهرون أمام باب البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين ، وتميز صوت كمال وهو يهتف « هلت سيارة العروس » ورددها ثلاثا فخرج ياسين ــ وهو فى كامل زينته وأبهته ــ من بين الجماعة الواقفة عند مدخل الفناء ومضى الى الطريق فوقف أمام الباب متجها صوب النحاسين فرأى موكب العروس وهو يتقدم على مهل كأنه يتبختر . فى تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة وعلى رغم الأعين المحملقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت ، بدا ثابتا غير هياب مفعما رجولة وفحولة ، لعل مما أيده فى ثباته احساسه بأنه محط الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين فى حال تخجل منها الرجولة ، ولعله أيضا علمه بأن أباه منكمش فى مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء ــ التى تضم آل العروسين من الذكور ــ بحيث لا تمتد اليه عيناه ، فوسعه أن يتمالك نفسه وهو يرنو الى السيارة الموشاة بالورود التى تحمل اليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وان لم تقع عيناه عليها بعد ، أو الأمل الذى صاغه بأحلامه الظامئة لسعادة لا تقنع بما دون الدوام . وتوقفت السيارة أمام باب البيت على راس ذيل طويل من السيارات فأخذ أهبته للاستقبال السعيد وقد استجدت عنده الرغبة فى أن يستشف النقاب الحرير ليرى وجه عروسه لأول مرة ، ثم فتح باب السيارة وترجلت جارية سوداء فى الأربعين قوية البنية لماعة البشرة نجلاء العينين فاستدل بما يلوح على حركاتها من الثقة والادلال على انها الجارية التى تقرر الحاقها بخدمة العروس فى بيتها الجديد ، تنحت جانبا ووقفت منتصبة القامة كالديدبان ثم خاطبته بصوت كرنين النحاس وهى تبتسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة :

ــ تفضل خذ عروسك ...

فتقدم ياسين من باب السيارة ومال الى الداخل قليلا فرأى العروس في حلتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيب مفتنة للجوارح فتاه في جو الحسن منبهرا ، ومد لهـا ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما يكل بصر طالع نورا ساطعا ، وعقل الحياء العروس فلم تبد حراكا فتطوعت التى الى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة :

— تشجعى يا زينب ...

دخلا جنبا لجنب وهى من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها فقطعا الفناء بين صفين من المنتظرين يتبعهما المدعوات من آلها اللواتى تعالت زغاريدهن كأنهن لا يبالين السيد أحمد وقيامه على ذراع منهن ، هكذا لعلعت الزغاريد فى البيت الصامت لأول مرة وعلى مسمع من سيده الجبار ، فلعلهـا وقعت من آذان أهله موقع الدهشة ، بيد أنها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شماتة بريئة مرحة روحت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذى قضى بألا يكون زغاريد ولا غناء ولا لهو وبأن تمضى ليلة زفاف الابن البكر كما تمضى غيرها من الليالى وتبادلت أمينة وخديجة وعائشة النظرات متسائلات باسمات وتكأكأن على خصـاص نافذة مطلة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد فى نفس السيد فرأينه يحادث السيد محمد عفت ضاحكا فتمتمت امينة قائلة : « لن يسعه الليلة الا أن يضحك مهما يبد مما لا يروقه ! » وانتهزت أم حنفى الفرصة السانحة فاندست بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زغرودة قوية مجلجلة غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت — فى ظل الارهاب — من فرص المرح والمسرة على عهد خطبتى عائشة وياسين ، وأقبلت على سيداتها الثلاث وهى تزغرد حتى استغرقن فى الضحك ثم قالت لهن « زغردن ولو مرة فى العمر .. انه لن يدرى الليلة من المزغرد ! » . رجع ياسين بعد ايصال العروس الى باب الحريم فالتقى بفهمى الذى لاحت على شفتيه ابتسامة موحية بالحرج والاشفاق لعلها اثر مما خلفته فى نفسه هذه الضجة البهيجة « المحرمة » ، وكان يخالس أباه النظر ثم يرده الى وجه أخيه ضاحكا ضحكة مقتضبة مغضوضة ، فما كان من ياسين الا أن قال له بلهجة لا تخلو من استياء :

— اى استنكار فى أن نحيى ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد ؟! .. وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالمة أو مغن ؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التى لم تجد الى الافصـاح عنها من سبيل الا أن تحرض ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على أبيـه ، ولـكن

السيد اعتذر وأبى الا أن تكون ليلة زفاف صامتة وان تقتصر مسراتها على العشاء الفاخر . وعاد ياسين يقول آسفا :

ـ لن أجد من تزفنى فى هذه الليلة التى لن تتكرر ابد الدهر ! . . . سأدخل حجرة العرس غير مشيع بالأناشيد والدفوف كأننى راقص يهز جذعه دون إيقاع . .

ثم لاحت فى عينه ابتسامة مرحة ماكرة فقال :

ـ الذى لا شك فيه أن أبانا لا يطيق « العوالم » الا فى بيوتهن !

مكث كمال فى الدور الأعلى الذى أعد لجلوس المدعوات ساعة ثم نزل باحثا عن ياسين فى الدور الأول الذى هيىء لاستقبال المدعوين ولكنه وجده فى فناء البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذى أقامه الطاهى فأقبل نحوه مسرورا ادلالا بأداء المهمة التى عهد بها اليه وقال له :

ـ فعلت كما امرتنى فتبعت العروس حتى حجرتها وتفحصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها . .

فانتحى به جانبا وهو يسأله باسما :

ـ هه ؟ . . كيف عودها ؟

ـ فى عود أبله خديجة . .

ضاحكا . .

ـ فى هذه الناحية لا بأس ؟ . . أتعجبك كعائشة ؟

ـ كلا . . أبلة عائشة أجمل كثيرا . . !

ـ يخرب بيتك أتريد أن تقول انها كخديجة ؟

ـ كلا انها أجمل من أبلة خديجة . .

ـ كثيرا ؟!

فهز رأسه مفكرا فسأله الشاب بلهفة :

ـ حدثنى عما أعجبك فيها ؟ . .

ـ انفها صغير كأنف نينة . . وعيناها كعينى نينة أيضا . !

ـ ثم ؟ . .

ـ لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة جدا . .

ـ نحمده . . ربنا يبشرك بخير . .

وخيل اليه أن الغلام يغالب رغبة فى معاودة الكلام فسأله فى شىء من القلق :

ـ هات ما عندك ولا تخف !

فقال كمال وهو يغض بصره :

— رأيتها تخرج منديلا ثم .. تتمخط !

والتوت شفتاه تقززا كأنما كبر عليه أن تند تلك الفعلة عن عروس فى ريق فتنتها فما تمالك ياسين أن ضحك قائلا :

— لحد هنا عال ، ربنا يجعل العواقب سليمة !

ألقى نظرة كئيبة على الفناء الخالى الا من الطاهى وصبيانه ؟ وبعض الأولاد والبنات فتخيل ما كان ينبغى أن يوجد من معالم الزينة وسرادق الطرب ومجلس المدعوين ، من قضى بهذا ؟ .. ابوه ! .. الرجل الذى يفوح عرقه بالمجون والعربدة والطرب .. اعجب به من رجل يحل لنفسه اللهو الحرام ويحرم على بيته اللهو الحلال . وراح يتخيل مجلس السيد كما رآه فى حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدرى الا وقد وثبت الى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى ، تلك هى التشابه بين طبيعتى أبيه وامه ! طبيعة واحدة فى شهوانيتها وجريها وراء اللذة فى استهتار لا يقيم وزنا للتقاليد ، ولعل امه لو كانت رجلا لما قصرت عن أبيه فى اللهج بالشراب والطرب أيضا ! لذلك انقطع مابينهما — أبيه وامه — سريعا ، فما كان لمثله أن يطيق مثلها وما كان لمثلها أن تطيق مثله ، بل ماكانت الحياة الزوجية لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراهنة ! . ثم ضاحكا ضحكة لم يتح لها روعه من هذه « الفكرة الغريبة » روحا من السرور « عرفت الآن من أكون ، لست الا ابن هذين الشهوانيين ، وما كان لى ان اكون غير ما كنت ! » . فى اللحظة التالية تساءل ترى ألم يخطئه الصواب عند اغفال دعوة أمه الى زفافه ؟! تساءل رغم اصراره على الاعتقاد بانه لم يتنكب عن الصواب ، لعل اباه رام اراحة ضميره حينما قال له قبل ليلة الزفاف بعدة ليال « أرى أن تبلغ أمك ، ولك ان شئت أن تدعوها الى شهود زفافك » ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد ، فما يتصور ان يرضى أبوه له بأن يذهب الى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذى اتخذته أمه زوجا لها من بعد أزواج كثيرين ، وأن يتودد اليها على مرأى منه بان يدعوها الى شهود زفافه ، لا كان الزفاف ، ولا كانت اى سعادة فى هذه الدنيا ان حملته يوما على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة .. تلك الفضيحة .. تلك الذكرى المخزية ! وما كان منه الا أن أجاب اباه وقتذاك قائلا : « لو كان لى أم حقا لكانت أول من ادعو الى زفافى ! » . انتبه فجأة الى الأولاد والبنات وهم يرنون اليه ويتهامسون فخص البنات بنظرة وسألهن بصوت جهورى ضاحك « هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات ؟ » واتجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس « اياك

وان تستسلم غدا للحياء بين المدعوين والا عرفوا الحقيقـة المرة وهى أن اباك الذى زوجك ونقـد مهرك وجملة تكاليف ليلتـك ، ولـكن تحرك بلا توقف ، تنقل بين حجرات المدعوين ، ضاحك هذا وكلم ذاك ، اطلع وانزل ، تفقد المطبخ ، اهتف وازعق ، لعلك توهم النـاس بأنك حقـا رجل الليـلة وسيدها ! » فمضى ضاحكا وفى نيته أن يمتثل النصيحة السـاخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم فى أناقة بديعة ووسامة جذابة وشباب ريق ، ذهب وجاء ، ونزل وطلع ، وان لم يفعل شيئا ، بيـد أن الحركة نفضت عن نفسه طوارىء الفكر فصفت نفسه لمفاتن الليلة . لمـا خطرت العروس على قلبه سرت فى بدنه قشعريرة بهيمية ، ثم ذكر آخر ليـلة قضاها عند زنوبة العوادة منـذ شهر ، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ « يابن الكلب ! .. كتمت الخبر حتى نلت وطرك ! .. (المركب اللى تودى أحسن من اللى تجيب ، .. مع ألف شبشب يابن المركوب » ، لم تعد لزنوبة من أثر فى نفسه ، ولا لغيرها ، أسدل الستار على هذا الجانب من حيـاته الى الأبد ، ربما عاود الشراب فما يظن أن تموت رغبته فيه ، أما النسـاء فلم يتصور أن تزيغ عيناه الى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنانه ، عروسه لذة متجددة ، رى الظمأ الوحشى الذى طالما قلقل كيانه ، ثم راح يتمثل حيـاته المقبلة ، الليلة ، والليالى الآتيات ، الشهر والعام فالعمر كله ، ووجهه يسطع ببهجة ناطقة لحظها فهمى بعين مليئة بحب الاستطلاع والغبطة الهادئة وغير قليل من الأسى . وجاء كمال الذى كان يتراءى فى أى مكان فجـأة وخاطب ياسين والبشر يتألق فى وجهه قائلا :

ـ الطاهى قال لى أن الحلوى تزيد على حاجة المدعوين والمدعوات وانه سيتبقى منها مقدار وفير ...

- ٤٥ -

زاد مجلس القهوة وجها جديدا بانضمام زينب اليه ، وجهـا زكا بريق الشباب وفرحة العرس ، وفيما عدا هـذا ، وفيما عدا فرش الحجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين فى الدور الأعلى بجهـاز العروس ، فلم يحدث زواج ياسين تغييرا يذكر فى النظام العـام للبيت سواء من الناحية السياسية التى ظلت خاضعة بكل معانى الكلمة لسلطان السيد واراداته أو من الناحية الادارية الداخليـة التى ظلت وحدة تابعة لهيمنة الأم كما كان الحال قبل الزواج . التغيير الجوهرى حقا كان الذى طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فدقت رؤيته على الحواس ، اذ لم يكن من اليسـير ان تشغل زينب مكانة الزوجة للابن البـكر وأن يجمعهما وبقية أفراد الأسره بيت واحد من دون أن يطرأ على العواطف والمشـاعر تطور ذو شأن . رمقتها الأم بنظرة امتزج فيهـا الرجاء بالحذر ، هـذه الفتاة التى قضى عليها بأن تعاشرها دهرا طويلا ربما امتد حتى نهاية العمر ، اى انسـان تكون ؟ .. ماذا تخبىء وراء ابتسامتها الرقيقة ؟ .. بالجملة اسـتقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنا جديدا فيؤمله ويحـاذره ، اما خديجـة فعلى رغم المجـاملات التى تبودلت بينهما جعلت تسـدد نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السـخرية وسوء الظن ، منقبـة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها الى البيت وفوزها بالزواج من أخيها الا ضيقا خفيا ، فلما اعتكفت الفتـاة فى حجراتها الأيام الأولى من الزواج ساءلت خديجة أمها وهمـا فى حجرة الفرن « ترى هل حجرة الفرن مكان غير لائق « بها » ؟ » ومع أن الأم وجدت فى تهجمها ترويحـا عن حيرة ظنونها الا أنها اتخذت موقف الدفاع عن الفتـاة واجابتها قائلة « صبرك ، لم تزل عروسـا فى بدء عهدها الجديد ! » فتساءلت الأخرى بلهجة تشى بالاستنكار « ومن ذا الذى قضى بأن نكون خدما للعرائس ؟! » فسألتها أمها وكأنما تطرح السؤال على نفسها هى « أتفضلين أن تسـتقل بمطبخها ؟ » فهتفت خديجة معترضة « لو كان المـال مال ابيها لا مال أبى لجاز هذا ! .. ولكنى اعنى انها يجب أن تعمل معنا » على أنه لمـا قررت زينب ، بعـد انقضاء أسبوع على الزواج ، أن تحمـل بعض الأعبـاء فى حجرة الفرن لم يرحب قلب خديجـة بهذه الخطوة التعـاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية وتقول لأمها : « لم تجىء لتعـاونك

ولـكن لتمارس ما لعلها تدعيـه لنفسها من حق . » أو تقول سـاخرة « طالمـا سمعنا عن آل عفت أنهم من الصـفوة وأنهم يأكلون ما لا يأكل النـاس . . فهل وجدت فى طهيها شيئا عجيبـا لم نسمع به ؟! » بيد أن زينب اقترحت يوما أن تصـنع « الشركسية » باعتبـارها الصنف الأثير على مائدة أبيهـا ـ وهى المرة الأولى لدخول الشركسية فى بيت السـيد ـ فحازت لدى تنـاولها اعجابا شـاملا بلغ أقصاه عنـد ياسين حتى أن الأم نفسها لم تبرأ من لسـعة غيرة أما خديجـة فجن جنونهـا وجعلت تهزأ بالصنف قائلة « قالوا شركسية قلنـا يعيش المعـلم يتعلم ولكن رماذا رأينـا ؟ . . أرزا وصلصة فى هيئـة بوليتيكا ، طعمها لا هنـا ولا هناك . . كالعروس تزف الى عريسها فى حلة خلابة وحلى لألاء حتى اذا ما نزعت عنها ثياب العرس بدت فتـاة عادية من نفس الخلطة المعروفة من قبل أى اللحم والعظم والدم ! » ثم ما كاد يمضى على الزواج اسبوعان حتى قالت على مسمع من أمها وفهمى وكمال أن العـروس وان كانت بيضـاء البشرة وذات حظ « معتدل » من الجمـال الا أن دمها ثقيـل كالشركسية سواء بسواء قالت هـذا فى نفس الوقت الذى أكبت فيـه على استظهار دقائق صـنع الشركسية بحذقها المعترف به ! على أن ثمة أحاديث صـدرت عن زينب بحسن نيـة ـ فى الأقل لأن وقت سوء النية لم يئن بعد ـ فأثارت الخواطر وألقت عليها ظلا من الشك اذ طاب لهـا كلما تهيأت مناسبة أن تنوه بأصلها التركى وان التزمت الأدب واللطف كما لذ لها أن تروى لهم بعض ما شاهدت من رحلات فى حانطور والدها وبصحبته الى الملاهى البريئة والحدائق فوقع الحديث كله من نفس الأم موقعا أدهشها الى حد الانزعاج ، عجبت لتلك الحيـاة التى تسمع عنها لأول مرة ، وأنكرتها ، واسـتنكرت فيما بينها وبين نفسها هـذه الحرية الغريبة اسـتنكارا جاوز كل تقدير ، الى أن المبـاهاة بالأصل التركى ـ وان لطفت بالأدب والبراءة ـ سـاءتها كثيرا لأنهـا كانت ـ على تخشعها وانطوائها ـ شـديدة الاعتزاز بأبيها وبعلهـا فترى أنها بهما فى مكانة لا تدانى ، الا أنها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منهـا الا اهتمام الاصغاء وابتسـامة المجاملة ، ولولا حرص الأم الشـديد على السـلام لانفجرت خديجـة حنقا ولساءت العاقبـة ، على أنهـا نفست عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تعكر صفو السلام كتعليقها على أنبـاء الرحلات مثلا ـ وهى التى لم يسعها أن تجهر فيهـا برأيها ـ بالمبـالغة فى اظهار الدهشة ، أو بالهتاف وهى تحملق فى وجه محدثتها « يا خبر ! » :

أو بأن تضرب براحتها على صدرها وهي تقول : « ويراك السابلة وأنت تمشين فى الحديقة ! » ، أو بقولها : « ما كنت أتصور امكان هذا يا ربى ! » وغير ذلك من العبارات التى وان لم تفصح ألفاظهـا عن اساءة الا أن لهجتها المطوطة التمثيلية تضمنت اكثر من معنى كلهجة الزجر التى يصطنعها الأب وهو يتلو القرآن مصليا اذا ما آنس من ابنه غير البعيد عنه اخلالا بالنظام او الأدب وعز عليه زجره صراحة أن يخرج من الصلاة ، لذلك لم تكن تخلو الى ياسين حتى تبادره مروحة عن غيظها الذى عز عليه المتنفس « يا سلام يا سلام على عروسك النزهية ! » فيقول لها ضاحكا « هذه هى الموضة التركية التى تسمو على ادراكك ! » فتذكرها صفة « التركية » بالمباهاة الثقيلة على قلبها فتقول « على فكرة ، ست الدار تباهى كثيرا بأصلها التركى ، لماذا ؟ . . لأن جد جد جد جد جدها تركى !. حذار يا أخى فان خاتمة التركيات الجنون » ولكنه يقول لها مجاريا سخريتها « الجنون أحب الى من وجه انفه يجنن ذا الذوق السليم ! » . تراءى لأعين المتنبئين النقار المتوقع بين خديجة وزينب فى أفق الأسرة فنبهها فهمى الى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شىء من هذرها ، وأشار محذرا اشارة خفية الى كمال الذى داب على التنقل بينهم وبين العروس تنقل الفراشة — حاملة اللقاح — بين الأزهار !. . ولكن غاب عنه — كما غاب عن الأسرة جميعا — أن القدر كان يعمل من جانبه على الحيلولة بين الفتاتين ، اذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم أحد من قبل بأن تتوج بالنهاية التى توجت بها ، قالت العجوز تخاطب الأم على مسمع من خديجة :

— يا أمينة هانم جئتك اليوم خاصة لأخطب خديجة لابنى ابراهيم . .

فرحة بلا تمهيد وان طال انتظارها حتى شق ، فلذلك سجع صوت المراة فى أذنى الأم سجعا جميلا حتى أنها لم تذكر أن قولا — قبله — بل صدرها بندى الطمأنينة والسلام كما بله فكاد ينتخفها الفرح وهى تقول بصوت متهدج :

— ليس لى فى خديجة اكثر مما لك ، هى ابنتك ولتجدن فى حماك اضعاف ما تجد فى بيت أبيها من السعادة . .

استرسل الحديث السعيد الا أن خديجة جعلت تغيب عنه فيما يشبه الذهول ، خفضت عينيها فى حياء وارتباك وقد زايلتها روح السخرية التى طالما توهجت فى حدقتيها ، فشملتها وداعة غير معهودة ثم جرت مع تيار خواطرها . جاء الطلب مفاجاة ، وأى مفاجاة ، فكما بدا عسيرا

فى غيابه بدا غير مصدق فى حدوثه حتى لقد غشيت فرحتها بموجة ثقيلة من الذهول .. « لأخطب خديجة لابنى ابراهيم » .. ماذا دهاه ؟ .. انه على خموله الذى أثار هزءها حسن المحيا وجيه فى الرجال . فماذا دهاه ؟ !..

ــ ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين فى بيت واحد .

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكد الحقيقة ويزكى وجوهها .. ليس ثمة شك .. ابراهيم مثل خليل مالا وجاها فاى حظ ادخرته لها الأقدار . لشد ما أسفت على أن عائشة سبقتها الى الزواج اذ لم تكن تدرى ان زواج عائشة هو الذى قدر له أن يفتح لها ابواب الحظ المغلقة ..

ــ ما أجمل أن تكون السلفة هى الشقيقة فيزول سبب جوهرى من أسباب وجع الدماغ فى الأسر (ثم ضاحكة) فلا تبقى الا حماتها واظن أمرها هينا .. !

ــ ان تكن سلفتها هى شقيقتها فحماتها هى أمها بلا نقصان ...

لم تزل الأمان تتجاملان ، لقد أحبت العجوز وهى تزف اليها البشرى بقدر ما ابغضتها يوم خطبت عائشة !. يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم ، لا تطيق أن تؤجله الى الغد ، لا تدرى ما الدافع الى هذه الرغبة الملحة ؛ لعله قول مريم لها غداة خطبت عائشة « ماذا كان عليهم لو انهم انتظروا حتى تتم خطبتك انت ! » فاغراها وقتذاك سوء ظنها المطبوع باتهام براءته الظاهرة . ولما انصرفت اسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرش والدعابة :

ــ الحق انى مد رأيت ابراهيم شوكت قلت لنفسى ما أجدر هذا الرجل الثور الذى لا يبدو أنه يفرق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يوما على زوجة مثل خديجة ..

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدهشة :

ــ هل عرفت الأدب والحياء اخيرا !

بيد أن وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكر صفوهم الا حين تساءل كمال فى قلق :

ــ أتتركنا خديجة أيضا ؟

فقالت الأم تعزيه وتعزى نفسها :

ــ أليست السكرية بعيدة ..

على أن كمال لم يستطع ان يدلى بما عنده فى حرية كاملة الا حين

انفرد بأمة ليلا فتربع قبالتها على الكنبة وسألها بصوت ينم عن الاحتجاج واللوم :

ـ ماذا جرى لعقلك يا نينة ؟ .. اتفرطين فى خديجة كما فرطت فى عائشة ؟

فأفهمته انها لم تفرط فيهما ولكنها ترضى بما يسعدهما . فقال محذرا كأنما ينبهها الى شيء فاتها ويوشك أن يفوتها مرة أخرى :

ـ ستذهب هى الأخرى ، ربما ظننت أنها ستعود كما ظننت بعائشة ، ولكنها لن تعود ، وستزورك اذا زارتك كالضيفة فما ان تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم ، انى اقولها فى صراحة انها لن تعود ..

ثم محذرا وواعظا فى آن :

ـ ستجدين نفسك وحدك بلا رفيق ، من يعينك على الكنس والتنفيض ؟... من يعينك فى حجرة الفرن ؟ من يجالسنا فى جلسة المساء ؟.. من يضحكنا ؟ .. لن تجدى الا أم حنفى التى سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كله ..

فأفهمته مرة اخرى ان السعادة لن تكون بلا ثمن فقال محتجا :

ـ ومن ادراك أن فى الزواج سعادة ؟!.. اؤكد لك انه لا سعادة مطلقا فى الزواج ، كيف يحظى احد بالسعادة بعيدا عن نينة ؟!

ومردفا بحماس :

ـ ثم انها لا ترغب فى الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل .. لقد صارحتانى بذلك ذات ليلة فى فراشهما .. !

ولكنها قالت له انه لابد للفتاة من أن تتزوج ، فلم يتمالك من أن يقول :

ـ من قال بأنه لا بد للفتاة من أن تذهب الى بيوت الغرباء ! .

ثم ماذا تفعلين او اجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول ذقنها هى الأخرى و ...

عند ذاك زجرته وامرته بالا يتكلم فيما لا يعنيه فضرب كفا بكف وهو يقول منذرا :

ـ انت حرة .. وسترين ! .

فى تلك الليلة لم يغمض لأمينة من يقظة الفرح جفن كأنها السماء المقمرة لا تغشاها الظلماء ، فظلت مستيقظة حتى جاء السيد بعد منتصف الليل ، ثم زفت اليه البشرى فتلقاها بغبطة أطارت عن رأسه

الحمار بالرغم مما فى هذا الرأس من نظريات غريبـــة عن زواج البنات ؛ الا أنه تجهم بغتة متسائلا :

ـ هل أتيح لابراهيم أن يراها ؟!

ســـاءلت المرأة نفسـها ألا يمكن أن يدوم ابتهاجه ــ ونادرا ما يعلنه ــ اكثر من نصف دقيقة ؟.. وتمتمت فى قلق :

ـ أمه ..

فقاطعها محتدا :

ـ لا أسأل عن أمه ، هل أتيح له أن يراها ؟

فقالت وقد ولى عنها السرور لأول مرة فى تلك الليلة :

ـ دخل علينا مرة فى شقة عائشة باعتباره فردا من الأسرة فلم أر فى ذلك من بأس ..

فتساءل مزمجرا

ـ ولكنى لم أعلم بذلك ..

كل شىء ينذر بالشر ، ترى هل يهوى على مستقبل الفتـــاة بضربة قاضية ؟.. على رغمها أغرورقت عينـــاها بالدمع وما تدرى الا وهى تقول مستهينة بغضبته المكفهرة :

ـ سيدى ، حيـــاة خديجة وديعة بين يديك ، هيهات أن يبتسم لها الحظ مرتين ..

فرماها بنظرة قاســـية وراح يهدر مدمدما مهينما مهمهما كأنما رده الغضب الى حالة من حالات التعبير بالأصـــوات التى مر بها أســـلافه الأولون ، ولكنه لم يزد على ذاك شيئا ، لعله أضمر الموافقة من أول الأمر ولكنه أبى أن يسلم بها قبل أن يسجل سخطه كالسياسى الذى يهاجم خصمه ــ وان اقتنع بالغاية التى يستهدفها ــ ذودا عن مبادئه ..

- ٤٦ -

مضى شهر العسل وياسين متفرغ بكليته لحياته الزوجية الجديدة ، لا يصرفه عنها عمل فى النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفية ، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنه لم يكن يغادره الا للضرورة القصوى كابتياع زجاجة كونياك مثلا ، وفيما عدا هذا فلم يجد لنفسه عملا أو معنى أو صفة خارج نطاق الزوجية فاندلق عليها بقوة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظن أنه ينفذ الخطوات الأولى من برنامج ضخم من المتعة الجسدية سيمتد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام . ولكنه أدرك فى الثلث الأخير من الشهر أن تفاؤله لا بد وأن يكون مبالغا فيه على نحو ما أو أن خللا لا يدرى كنهه قد طرأ على حياته ، كان يعانى فى حيرة بالغة ولأول مرة فى حياته ذاك المرض المتوطن فى نفس الانسان الملل . لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لأنه لم يملك هذه او تلك كما يملك زينب الآن بيمينه ويحرزها تحت سقف بيته ، فأى فتور يسخر من هذه « الملكية » الآمنة المطمئنة .. الملكية ذات الظاهر الخلاب المغرى المدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحد اللامبالاة أو التقزز كأنها الشيكولاته المزيفة التى تهدى فى أول ابريل بقشرة من الحلوى وحشو من الثوم ، واى ماساة فى أن تندمج نشوة القلب والجسد فى آلية العادة المنظمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجدة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسدت فى صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعى !.. وراح الفتى يتساءل عما دهى ثورته ، عما هدى شياطينه ، عن ذاك الشبع وأين جاء ، عن تلك الفتنة اين ذهبت ، أين ياسين وأين زينب ، أين الأحلام ، اهذا شان الزواج الم شانه هو ، وكيف اذا تتابعت الشهور فى اعقاب الشهور !.. ليس انه لم يعد له من رغبة فيها ، ولكنها لم تعد رغبة الصائم فى الديك الماكل ، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار ، وضاعف من حيرته انه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رد الفعل او بالأحرى انها تزيد حيوية ورغبة فحينما يظن أن النوم بات واجبا بعد طول التعب لا يدرى الا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفوا حتى قال لنفسه « يا عجبا .. أحلامى عن الزواج تحققت عندها هى ! » . الى هذا كله وجد فى عناقها نوعا من الاحتشام وان طاب له اول الأمر انه جعله

يهيم آخرا فى وديان الذكريات التى ظن انه ودعها الى الأبد . طفت على رأسه من الأعماق « زنوبة » وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشر ببيت فالحق أنه مرق الى عش الزوجيــة عامر القلب بالنية الحسنة ، ولـكن للموازنة والمقارنة والتأمل . وليقتنع أخيرا بأن « العروس » ليست المفتــاح السحرى لدنيا المرأة ، ليس يدرى كيف يخلص حقا للنوايا الحسنة التى فرش بها طريق الزواج . يبدو جانب - على الأقل - من أحلامه الســاذجة عسير التحقيق وهو ظنــه بأنه سيستغنى بأحضــان زوجه عن العــالم الخارجى ، وأنه سيلبد بكنفها العمر كله ، ذاك حلم من أحلام الشهوة فى سذاجتها ، وسيجد من الآن فصاعدا أن الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو اليه ، وأنه بنبغى أن يتلمس وسيلة أو أخرى - الوقت بعد الوقت - ليحسن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته ، حتى المغنى المجيــد اذا اطــال فى تقاسيم الليالى انبعث فى نفس السامع الشوق الى الدخــول فى الدور ، ثم أنه فى الانطلاق من محبســـه فرصة للاختــلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عنــدهم بأجوبة مسكنة للأسئلة الحيرى التى تلح عليه ، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافى لـكل داء .. وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شــاف لكل داء ؟! .. يحسن به من الآن الا يرسم برامج بعيدة المدى . لا يلبث ان تنهار ساخرة من قــدرته على التخييل . ليقنع من تنسيق حيــاته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى اين يرسو ، وليبدأ بتنفيذ أقتراح اقترحته هى - زوجه - عليه بان يخرجا معا .

ما تدرى الأسرة ذات مساء الا وياسين وزوجــه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحدا على مقصدهما بالرغم من أنهما قضيا معهم سهرة المساء . بدا الخروج بالنظر الى وقته المتأخر من ناحية والى وقوعه فى بيت السيد من ناحية أخرى حادثا غريبا أثار شتى الظنون فما عتمت خديجة أن استدعت، نور جارية العروس وسألتها عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنان فى بساطة متناهية :

- ذهبا يا ستى الى كشكش بك ..

فهتفت خديجة وأمها فى نفس واحد :

- كشكش بك !

ليس الاسم غريبا عليهم ، اقتحم ذكره الدور وتغنى بأغانيه كل من هب ودب ولكنه على ذلك يبدو بعيدا كأبطال الخرافات أو كزبلن ابليس السماء . أن يذهب ياسين بزوجه اليه أمر مختلف جدا ليس دونه ان يقال

ذهبا الى محكمة الجنـايات . رددت الأم عينيها بين خديجـة وفهمى وتساءلت فيما يشبه الخوف :

ـ متى يعودان ؟

فأجابها فهمى وابتسامة لا معنى لها تفغم على شفتيه :

ـ بعد منتصف الليل ، وربما قبيل الفجر ...

صرفت الأم الجارية وانتظرت حتى غاب وقع أقدامهـا ثم قالت فى لهوجة وانفعال :

ـ ماذا دهى ياسين ؟! .. كان جالسا بيننا فى كامل عقله .. الم يعد يعمل حسابا لأبيه ؟

فقالت خديجة فى حنق :

ـ ياسين أعقـل من أن يدبر رحـلة كهذه ، ليست قلة العقل عيبه ولـكن به خنـوع لا يليق بالرجال ، أقطع ذراعى ان لم تـكن هي التى حرضته ...

فقـال فهمى مدفوعا برغبة فى تلطيف الجو المتوتر وان نفر بطبعـه الموروث من جراة أخيه :

ـ ياسين ذو ميل قديم الى الملاهى ...

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التى اندفعت قائلة :

ـ لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله ، له أن يحب الملاهى كما يحلو له ، أو أن يواصل السهر فى الخارج حتى مطلع الفجر كلما شاء ، ولكن اصطحاب زوجه المصون معـه فكرة لا يمكن أن تصـدر عن ذاته فلعلها جاءته عن ايحـاء عجز عن مقاومته خصـوصا وانه يبدو مستكينا بين يديها كالقطة الأليفة ، ثم انهـا فيما أرى لا تتورع عن رغبـة كهذه انم تسمعها وهى تروى قصص الرحلات التى شاهدتها بصحبة والدها ؟!. لولا ايحاؤها ما أخذها معه الى كشكش بك ـ يالفضيحة ! ـ فى هـذه الأيام السـود التى ينجحر فيها الرجال فى البيـوت كالفيران رعبـا من الاستراليين ...

لم يقف التعليق على الحادث عند حد لمـا أثاره فى النفوس ـ سواء المهاجمـة أو المدافعـة أو المحايدة ـ من امتعاض ، كمال وحـده تابع النقاش المحتدم فى صمت يقظ من دون أن يفطن الى السر الذى جعل من كشكش بك جريمة نكراء اسـتوجبت ذلك النقـاش كله وذلك الغضب كله ، أليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذى يباع فى الأسواق بجسم متوثب فى دعابة ووجه ضاحك ذى لحية عريضة وجبـة فضفاضة

وعمامة مقلوظة ؟. أليس هو من تنسب اليه الأغانى المرحة التى استظهر بعضا منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوى وكيل ابيه ؟.. فبأى شر يتهمون هـذه الشخصية اللطيفة التى ارتبطت فى خياله بالفكاهة والمرح ؟ .. لعل مطرد هذا الكدر الى اصطحاب ياسين لزوجه لا الى كشكش بك نفسه ، فان كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم فى الانزعاج من جراة ياسين خصوصا وان زيارة امه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تسرح مخيلته ، أجل كان الأجدر بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه « هو » ان كان يريد رفيقا لا سيما وأنه فى عطلة الصيف فضلا عن نجاحه المتفوق فى الدرسة ، وما يدرى الا وهو يقول متأثرا بأفكاره :

ـ ألم يكن الأفضل أن يأخذنى أنا ...؟!

اندس تساؤله فى الحديث كما تندس نغمة غريبة مقتبسة فى لحن شرقى صميم ، فقالت خديجة :

ـ من الآن فصاعدا يحق علينا ان نعذرك على قلة عقلك ...!

فندت عن فهمى ضحكة قائلا :

ـ ابن الوز عوام ...

بيد أن المثل رن فى أذنيه رنينا جافيا وكد اثره السيىء تحديق امه وخديجة فى عينيه باستغراب فانتبه الى خطئه غير المقصود وتداركه قائلا وقد دخله امتعاض وخجل :

ـ اخو الوز عوام !.. هذا ما قصدت اقوله ..

دل الحديث فى جملته على تحامل خديجة على زينب من ناحية . وخوف الأم من العواقب من ناحية أخرى ، بيد أن أمينة لم تعلن ما فى نفسها كله . فى تلك الليلة عرفت فىنفسها أمورا لم تكن تعرفها من قبل . اجل كثيرا ما وجدت نحو زينب انكارا وضيقا ولكنه لم يبلغ أن يكون نفورا او كراهية فعزته الى خيلاء الفتاة بداع وبغير داع ، ولكنهالها اليوم ان تخرق الآداب والتقاليد ، وأن تحل لنفسها مالا يحل ـ فى نظرها هى ـ الا للرجال ، عابت هذا السلوك بين امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران ، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمنا لزيارة بريئة لزين آل البيت لا لكشكش بك ، فمازج انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والغيظ وكأن منطقها غدا يردد فيما بينها وبين نفسها « اما أن تنال الأخرى الجزاء او فلتذهب الحياة هباء » . هكذا تلوث بالحنق والموجدة ـ فى الشهر الأول من معاشرته لامرأة حديدة ـ القلب الطاهر الورع الذى لم يعرف

طوال حياته المحفوفة بالجد والصرامة والتعب الا الطاعة والعفو والصفاء . ولما آوت الى حجرتها لم تدر ان كانت تود — كما دعت بلسانها امام ابنائها — أن يستر الله على « جناية » ياسين ام انها ترجو أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجه جزاءها من الزجر والتأديب ؟ ، بدت تلك الليلة وكأنها لا يعنيها من أمر الدنيا جميعا الا أن تصان تقاليد الأسرة من كل عبث وأن يدفع عنها ما يتحرش بها من عدوان ، بدت غيورا على الآداب الى حد القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة المألوفة فى الأعماق باسم الاخلاص والفضيلة والدين متعللة بها فرارا من ضميرها المتألم كالحلم الذى ينفس عن غرائز مكبوتة باسم الحرية أو غيرها من المبادىء السامية . جاء السيد وهى على تلك الحال من التصميم الا أن منظره بث الخوف فى حناياها فانعقد لسانها ، راحت تتابع حديثه وتجيب على اسئلته بذهن شارد وفؤاد خافق لا تدرى كيف تنفس عما احتدم بخاطرها ، وكلما مر الوقت واقترب ميعاد النوم ألحت عليها رغبة عصبية فى الكلام ، كم ودت او تتكشف الحقيقة بنفسها كأن يجىء ياسين وزوجه مثلا قبل اخلاد أبيه الى النوم فيتنبه السيد بنفسه الى فعلته النكراء فيجبه العروس الرعناء برأيه فى سلوكها بغير تدخل منها هى —الأم— لاشك انه يحزنها بقدر ما يريحها . . انتظرت طويلا فى لهفة وقلق ان يطرق الباب الكبير ، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى تثاءب السيد وقال لها بصوت متراخ :

— اطفئى المصباح . . .

حاقت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت بصوت خافت مضطرب كأنها تناجى نفسها :

— تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه !

فحملق السيد فى وجهها وتساءل فى عجب :

— وزوجه ؟ . . أين ذهبا ؟

ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف ، من السيد ونفسها معا ، ولكن لم تجد بدا من ان تقول :

— سمعت الجارية تقول انهما ذهبا الى كشكش بك !

— كشكش !

عزف الصوت عاليا فى شراسة وتطاير الشرر من العينين اللتين ألهبهما الكحول ، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزمجرا مدمدما حتى طار النوم عن راسه فأبى أن يزايل مجلسه حتى يعود « الضالان » فانتظر وهو يغلى من الحنق ، ولما كان غضبه ينعكس على نفسها رعبا فقد ارتعبت كما

لو كانت هى المذنبة ، ثم غصت بالندم على ما بدر منها ندم عاجلها مبادرا عقب البوح بسرها مباشرة كأنها لم تبح الا كى تندم ، فلم تكن لتبخل بغال مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع ان تصلح خطأها ، وقست على نفسها بلا تحفظ فاتهمتها بالوقيعة والشر ، ألم يكن الأجدر بها ان تتستر عليهما على ان تنبههما الى خطئهما غدا ان كانت تريد الاصلاح حقا لا الانتقام ؟ .. ولكنها اذعنت لعاطفة شريرة ، عن عمد وسوء نية ، فهيأت للفتى وعروسه نكدا لم يدر لهما بخلد وجرت على نفسها ندما بات يحرق نفسها المعذبة حرقا بلا رحمة ، وراحت تدعو الله — خجلى من ذكره — ان يلطف بهم جميعا ، مضى الوقت تقرع دقائقه قلبها بالألم حتى انتبهت على صوت السيد وهو يقول متهكما بمرارة :

— جاء سى كشكش ...

فأرهفت السمع وهى تتطلع بناظريها الى النافذة المفتوحة المطلة على الفناء فترامى اليها صرير الباب الكبير وهو يغلق ، وقام السيد وغادر الحجرة فقامت بطريقة آلية ولكنها تسمرت فى مكانها جبنا وخزيا وضربات قلبها تتدافع حتى سمعت صوته الجهير وهو يخاطب القادمين قائلا « اتبعانى الى حجرتى » فتناهى بها الخوف فتسللت من الحجرة هاربة . عاد السيد الى مجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب ، فحدج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلا ياسين ثم قال بحزم وان نقى نبراته من الغلظة والجفاء :

— اصغ الى يا بنية جيدا ، ابوك اخى او اوثق صلة ومودة ، فانت ابنتى كخديجة وعائشة على السواء ، ما قصدت ابدا ان اكدر صفوك ولكن ثمة امور أعد السكوت عنها جريمة لا تغتفر ، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هذه الساعة من الليل ، لا تحسبى أن فى وجود زوجك معك عذرا عن هذا السلوك الشاذ فان الزوج الذى يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقبل من العثرات التى هو للأسف أول دافع اليها ، ولما كنت على يقين من براءتك أو بالأحرى من انه لا ذنب لك الا انك جاريته على هواه فرجائى اليك ان تعاونينى على اصلاح امره بالا تستسلمى الى غواياته مرة اخرى ...

وجمت الفتاة واستحوذ عليها الذهول ، وعلى انها كانت تحظى فى كنف **أبيها بقسط من الحرية الا انها لم تجد من نفسها شجاعة على مناقشة** الرجل بله معارضته ، كان اقامتها فى بيته شهرا اعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لارادته التى يفرق حيالها كل حى فى البيت ، احتج باطنها بان

اباها نفسه استساغ اكثر من مرة ان يصطحبها الى السينما ، وانه لا يحق له منعهــا من شيء سمح به زوجها ، الى اقتناعها بأنها لم تخرق ادبا أو تهتك حرمة ، قال باطنها هذا واكثر بيد أنها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة حيال عينيه الملزمتين بالطاعة والاحترام وانفه الكبير الذى بدا ــ وهو يرفع رأسه ــ كأنه مسدس مسدد نحوها ، فانكتم حديثها الباطنى تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنكتم الأمواج الصــوتية فى جهـــاز الإستقبال بالمذياع باغلاق مفتــاحه ، ثم ما تدرى الا وهو يســألها وكأنه يتمادى فى تحديه لها :

ــ ألك اعتراض على قولى ؟

فهزت رأسها بالنفى ورسمت شفتاها حرف « لا » دون أن تنطق به فقال لها :

ــ اتفقنا ، تفضلى الى حجرتك بسلام . .

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيد صوب ياسين الذى اخــفى عينيه فى الأرض ، ثم قال وهو يهز رأسه فى أسف شديد :

ــ الأمر جد خطــير ولــكن ماحيلتى ؟! . . لم تعد طفــلا والا لكسرت راسك ، ولكنك واأسفاه رجل وموظف وزوج ايضا وان كنت لا تتورع عن العبث برباط الزوجية ، فما عسى أن أصنع بك ؟ . . أهذه نهاية تربيتى لك ؟ . . (ثم بصــــوت أذهب فى التأسف) . . ماذا دهاك ؟ . . . أين الرجولة ؟ . . أين الكرامة ؟ . . يعز على والله أن أصدق ما وقع .

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلم فظن صمته خوفا وشعورا بالخطأ ــ اذ لم يتصور أن يكون مابه سكر ــ ولكنه لم يجد فى ذاك عزاء ، بدا الخطأ افظع من أن يترك بلا علاج حاسم ، فاذا لم يكن من ســبيل الى العلاج القديم ــ العصا ــ فلا أقل من الحزم والا انتثر سلك الأسرة جميعا ، قال :

ــ ألم تعلم بأنى أحرم على زوجى الخروج ولو لزيارة الحســين ؟ . . كيف اذن سولت لك نفسك أن تأخذ زوجك الى ملهى داعر لتسهر فيه الى ما بعد منتصف الليل ؟ . . يا احمق انت تدفع بنفسك وبزوجــك الى الهاوية فأى شيطان ركبك ؟

وجد ياسين فى الصمت آمن ملاذ ان تفضحه نبراته أو أن يسترسل فى الحديث بطلاقة مريبة تنم فى النهاية على سكره ، لا سيما وان خيــاله اصر على التسلل ــ هازئا بالموقف الخطير ــ من الحجرة فانطلق الى آفاق بعيدة بدت لرأسه الثمل راقصــة تارة ومترنحة اخرى ، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعث فى نفسه من الرهبة أن يسكت الأنغــام التى

غناها المهرجون فى المسرح فكانت تثب الى ذهنه ـ على رغمـه ... بين لحظة واخرى كالاشباح فى ليل المرعوب هامسة :

أبيع هدومى عشان بوسـة　　من خدك القشدة ياملبن
يا حـلوة زى البسبوسـة　　يا مهلبية كمان واحسن

تغيب تحت تاثير الخوف ثم تطفر راجعة ، ولـكن اباه ضاق بالصمت فصاح به غاضبا :

ـ انطق حدثنى عن رأيك فانى مصمم على الا يمر الحادث بسلام !..

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهيبا مضطربا ثم قال وهو يبـذل قصارى جهده ليتمالك نفسه :

ـ كان والدها يعاملها بشيء من التسامح ... (ثم متعجلا) ولكنى أقر بأنى أخطأت ...

فصاح السيد مغضبا ومتجاهلا الجملة الاخيرة :

ـ لم تعد في بيت أبيها ، عليهـا أن تحترم آداب الأسرة التى صارت عضوا فيها ، أنت زوجها وسيدها وبيدك وحدك أن تصورها فى أى صورة تشاء ، خبرني عن المسئول عن ذهابها معك انت ام هى ؟ ..

شعر على سكره بالفخ المنصوب له ولكن الخوف دفعـه الى التوارى فغمغم :

ـ لما علمت بنيتى فى الخروج توسلت الى أن أصطحبها ...

فضرب السيد كفا بكف وهو يقول :

ـ اى رجل فى الرجال انت ؟.. كان الجواب الخليق بها لطمة !... انه لا يفسد النساء الا الرجال وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء ...

ثم محتدا :

ـ وتذهب بها الى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا ..؟

تخايلت لعينيـه الصور التى أفسدها تعرض أبيـه له على رأس السلم وعادت الانغام تتجاوب فى راسه « ابيع هدومى .. » ولـكن ما يدرى الا والرجل يقول متوعدا :

ـ لهذا البيت قانون أنت تعرفه فوطن نفسك على احترامه مارغبت فى البقاء فيه ...

- ٤٧ -

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة فائقة كأن التزيين خير مهمة تؤديها في الحياة على أكمل الوجوه، فبدت خديجة عروسا حقا تأخذ أهبتها للانتقال الى بيت العريس وان ادعت ــ جريا على عادتها فى التقليل من شأن الخدمات التى يؤديها لها الغير ــ ان اكبر الفضل فى اظهارها بالظهر اللائق انما يعود الى سمانتها هى قبل كل شيء ! على أن « جمالها » لم يعد مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتفق له أن رآها بعينيه ، بيد أن جميع مظاهر السعادة التى أحاطت بها لم تستطع أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذى دب فى أعماقها لوشك البين ، حنين خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحب شيء فى الوجود كحبها لآلها وبيتها جميعا من الوالدين المعبودين الى الدجاج واللبلاب والياسمين ، حتى الزواج نفسه الذى طالما تحرقت فى انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهون عليها مرارة الفراق ، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهية عن حب البيت واعزازه ، وربما غلب عليها الضجر فى مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأن الحب كالصحة ، يهون فى الوصال ويعز عند الفراق ، فلما أن اطمأنت على مستقبلها أبى قلبها أن ينتقل من حياة الى حياة دون جزع شديد كأنما يكفر عن اثم أو يضن بغال ، تطلع كمال اليها صامتا ،لم يعد يتساءل هل تعودين ، بعد أن عرف أن التى تتزوج لاتعود الا انه خاطب شقيقتيه مغمغما (سوف أزوركما كثيرا عقب الخروج من المدرسة » فرحبتا به معا بيد انه لم تعد تغرر به الآمال الكاذبة ، كثيرا مازار عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة . يجد مكانها اخرى متبرجة تلقاه بتودد بالغ يشعره بالغربة ثم لا يكاد يخلو اليها حتى يدركهما زوجها الذى لا يغادر البيت قانعا من الوان التسلية بسجائره وغليونه وعود يعبث بأوتاره بين حين وآخر ، لن تكون خديجة خيرا من عائشة ، فليس له من رفيق فى البيت الا زينب ، وهى لاتتودد اليه كما يجب الا بمشهد من امه كأنما تتودد اليها هى فاذا غابت الأم تجاهلته كأنه لايكون ! ومع أن زينب لم تشعر بانها ستفقد عزيزا بذهاب خديجة الا انها استنكرت الجو الرزين الصامت الذى يغشى يوم الزفاف ، فتعللت بذلك لتفصح عما تكنه لروح السيد السيطرة من حنق وغيظ فراحت تقول متهكمة « ما رأيت بيتا

يحرم فيه الحلال كبيتكم هذا .. حكم ! » غير انها لم تشـأ ان تودع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوهت كثيرا بمقدرتها ، وأنها « ست بيت » خليقة بأن يهنأ عليهابعلها ، فآمنت عائشة على قولها وأردفت قائلة :

ـ لا عيب فيها الالسانها !.. ألم تجربيه يازينب ؟

فما تمالكت أن ضحكت قائلة :

ـ لم أجربه والحمد لله ولكنى سمعته وغيرى يجربه .

وتعالى الضحك ، وخديجة أولى الضاحكات ، حتى رأين الأم ترهف السمع بغتة هاتفة « هس » فأمسكن مرة واحدة ، فترامى اليهن صوات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزعجة :

ـ مات السيد رضوان !

كانت مريم وأمها قد اعتذرتا من عدم شهود الزفاف لاشتـداد المرض على السيد محمد رضوان فلم يكن غريبا أن تستـدل خديجة بالصوات على موت الرجل ، وغادرت الأم الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثم عادت وهى تقول بأسف سديد :

ـ مات الشيخ محمد رضوان حقا .. ياله من موقف حرج !

فقـالت زينب :

ـ عذرنا واضح كالشمس ، لم يعد فى وسعنا تأجيل الزفاف أو منع العـريس من الاحتفال بليلته فى بيته وهو بحمد الله بعيد ، أما أنتم فهل تطالبون بأعمق من هذا الصمت البليغ ؟!

لكن خديجة شردت فى خواطر أخرى انقبض لها قلبها خوفا فتطيرت من النبأ المحزن وغمغمت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ يا لطيف يارب ..

فقرأت الأم أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنها أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارىء أو أن تترك ابنتها تستـكين له فقالت باستهـانة متصنعة :

ـ لا شـأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيـده ، والتشاؤم من عند الشيطان ...

انضم ياسين وفهمى الى المجتمعات بحجرة العروس بعد أن فرغا من ارتداء ملابسهمـا فاخبر الام بان السيد ناب عن الاسرة ـ بالنظـر الى ضيق الوقت ـ فى تقديم واجب العزاء الى آل السيد رضوان ، ثم حـدج ياسين الى خديجة وقال ضاحكا :

ـ أبى السيد رضوان أن يبقى فى الدنيا بعد رحيلك عن جواره ..

فردت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها فمضى يتفحصها بعناية وهو يهز راسه متظاهرا بالرضى ثم قال متنهدا :

ــ صدق من قال « لبس البوصة تبقى عروسة » ...

فقطبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثم نهرته قائلة :

ــ اسكت ، انى متطيرة من موت السيد رضوان فى يوم زفافى ..

فقال ضاحكا :

ــ لا ادرى أيكما جنى على صاحبه ؟

ثم وهو يواصل الضحك :

ــ لا خوف عليك من موت الرجل ، لا تشغلى فكرك به ، ولكنى اخاف عليك من لسانك فهو الأحق بأن تتطيرى منه ، ونصيحتى التى لا امل ترديدها أن تنقعيه فى شراب مشبع بالسكر حتى يحلو ويصلح لمخاطبة العريس ...

عند ذلك قال فهمى متلطفا :

ــ مهما يكن من أمر السيد رضوان فيوم زفافك لم يخل من بركة طال انتظار الأرض لها، الم تعلمى بأن الهدنة قد أعلنت ؟..

فهتف ياسين :

ــ كدت انسى هذا !.. ليس زفافك المعجزة الوحيدة فى يومنا هذا ، حصل ما لم يحصل منذ اعوام فانتهت الحرب وسلم غليوم ..

فتساءلت الأم :

ــ هل يذهب الغلاء والاستراليون ؟

فقال ياسين ضاحكا :

ــ طبعا .. طبعا .. الغلاء والاستراليون ولسان خديجة هانم

لاح التفكير فى عينى فهمى ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ــ غلب الالمان !.. من كان يتصور هذا ؟!.. لا امل بعد اليوم فى ان يعود عباس أو محمد فريد كذلك آمال الخلافة قد ضاعت ، لايزال نجم الانجليز فى صعود ونجمنا فى افول فله الامر ..

فقال ياسين :

ــ اثنان كسبا الحرب هما الانجليز والسلطان فؤاد ، فلا أولئك كانوا يحلمون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يحلم بالعرش ...

وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكا :

ــ وثالث لا يقل حظه عن السابقين هو عروستنا التى ما كانت تحلم بالعريس ...

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت :

ـ تأبى أن أغادر البيت من غير أن الدغك

فتراجع وهو يقول :

ـ من الخير ان اطلب الهدنة فلست اعظم شأنا من غليوم اوهندنبرج .

ثم نظر الى فهمى الذى لاح فى وجهه التفكير بحال لايتفق مع المناسبة السعيدة فقال له :

ـ اطرح السياسة وراء ظهرك وتهيأ للطرب ولذيذ المآكل والمشارب ..

ومع أن خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت على قلبها أحلام واحلام الا أن ذكرى قريبة ـ من ذكريات الصباح فحسب ـ الحت عليها من شدة تأثيرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون ، تلك دعوة أبيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذى يعد مبدأ حياة جديدة فى حياتها ، قابلها بلطف ورحمة كانا بلسما شافيا من وعكة الحياء والرهبة التى اعترتها حتى تعثرت فى مشيتها ، ثم قال لها برقة وقعت من نفسها موقعا غريبا لاعهد لها به ـ ربنا يسدد خطاك ويهيىء لك التوفيق وراحة البال ، وما من نصيحة تسدى اليك خير من أن أقول :

اقتدى بأمك فى كل كبيرة وصغيرة ..

واعطاها يده فقبلتها ثم غادرت الحجرة لاتكاد ترى ما بين يديها من الانفعال والتأثر ، وجعلت تردد طول الوقت « كم انه لطيف رقيق رحيم ! » ثم تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله « اقتدى بأمك فى كل كبيرة وصغيرة » وتقول لأمها التى اصغت اليها بوجه متورد وعينين مرتعشتين « الا يعنى هذا أنه براك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة ؟... (ثم ضاحكة) ياللك من امرأة سعيدة الحظ ! ولكن من عسى أن يصدق هذا كله ؟ كأنى كنت فى حلم سعيد ! اين كان يدخر هذا العطف الجميل ؟! »

ثم دعت له طويلا حتى اغرورقت عيناها بالدموع ..

وجاءت أم حنفى تعلنهم بوصول السيارات ...

- ٤٨ -

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل ، على أن خديجة تركت فراغا لم يسد فكأنها استلت روحه وسلبته حيويته وحرمته مزايا لا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار ، او كما قال ياسين لنفسه « كانت فى مجلسنا كالملح فى الطعام ، ليس الملح فى ذاته لذيذا ولكن مالذة الطعام من دونه ؟ » .. بيد أنه لم يجهر برايه مجاملة لزوجه اذ أنه لم يزل — على خيبة أمله فى الزواج التى لم يعد لها من دواء فى البيت — يشفق من جرح مشاعرها على الأقل كيلا تسىء الظن بسهره المتواصل ليلة بعد اخرى فى « القهوة » كما يزعم لها . ولئن كان مزاحه يفوق جده ، ان كان ثمة جد ، الا انه فقد النديم الذى طالما طارحه الدعابة وهيأ له دواعيها فلم يبق له الا ان يقنع بالقليل فى هذه الجلسة التقليدية ، ها هو يتربع على الكنبة ، يحسو القهوة ، ويمد بصره الى الكنبة المقابلة له فيرى الأم وزوجه وكمال مستغرقين فى احاديث لا طائل تحتها ، ولعله يتعجب للمرة المائة من رزانة زينب المحتشمة فيذكر مارمتها به خديجة من « ثقل الدم » ويسلم بوجهة نظرها !.. ثم يفتح ديوان الحماسة أو غادة كربلاء ويقرأ ، أو يقص على كمال شيئا مما قرأ ، ويلتفت الى يمينه فيرى فهمي متوثبا للحديث ، عن اى شيء يا ترى ، محمد فريد ، مصطفى كامل ؟.. لا يدرى ولكنه سيتكلم بلا ريب ، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسماء المنذرة بالمطر . هل ينكشه ..؟ كلا ، لاحاجة به الى ذلك ، ها هو يستقبله باهتمام شديد ويحدجه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله :

— ألم تبلغك انباء جديدة ..؟

يسأله هو عن انباء جديدة ! عندى أنباء لا عد لها .. الزواج اكبر خدعة ، الزوجة تنقلب بعد اشهر شربة زيت خروع ، لا تحزن على مافاتك من مريم ايها السياسى الغر ، اتريدانباءاخرى ؟!.. لدى منهاالكثير لكنها على وجه اليقين لا تهمك البتة ، ثم ان الشجاعة تخوننى اذا سولت لى نفسى اذاعتها على مسمع من زوجى ، وما يدرى الا وهو يستشهد — فى سره طبعا — بقول الشريف :

عندى وسائل شوق لست اذكرها   لولا « الرقيب » لقد بلغتها فاك

ثم تساءل بدوره :

- أي أنباء جديدة تعني ؟..
فقال فهمي باهتمام شديد :
- ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كله وهو أن وفدا مصريا مكونا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا توجه أمس الى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال ..

رفع ياسين حاجبه في اهتمام ولاحت في عينيه نظرة شك مقرونة بالدهشة . لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وان لم يجد وراء الاسم في نفسه شيئا ذا بال اللهم الا ذكريات غامضة اقترنت بحوادث اتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك في قلبه - الذي لا يكاد يعبأ بالأمور العامة - أثرا عاطفيا يدل عليها ولو من بعيد ، الا أن الاسمين الآخرين كانا يقعان في أذنه لأول مرة ، بيد أن غرابة الأسماء ليست شيئا يذكر الى جانب الحركة التي قام بها أصحابها ان صح ما يقول فهمي ، اذ كيف يتصور أن يطالب الانجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة باستقلال مصر ؟!.. وسأله :
- ماذا تعرف عن هؤلاء السادة ؟

فقال فهمي بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يود لو كان هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطني :
- سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية ، وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي عضوان بها ، الحق أني لا أعرف شيئا عن الآخرين ، أما سعد فأكاد أكون عنه فكرة لا بأس بها مما ترامى الي عن كثيرين من زملائي الطلبة الوطنيين الذي يختلفون فيه كثيرا ، منهم من يعده ذنبا من أذناب الانجليز ولا شيء أكثر من هذا ، ومنهم من يقر له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه الى مصاف رجال الحزب الوطني أنفسهم ، ومهما يكن من شأن فالخطوة التي أقدم عليها مع زميليه - ويقال انه كان الداعي اليها كذلك - عمل مجيد لعله لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفي المبرزين من الوطنيين وعلى رأسهم زعيمهم محمد فريد ...

بدا ياسين جادا أن يظن به الآخر استهانة بحماسه وردد قائلا وكأنه يسائل نفسه :
- المطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال !..
- وسمعنا أيضا أنهم طالبوا بالسفر الى لندن للسعي الى الاستقلال ، وانهم لهذا القصد قابلوا السير ريجينالد ونجت نائب الملك !..

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساريره وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء :

ـ الاستقلال !.. أتعني هذا حقا ؟.. ماذا تعني ؟

فقال فهمي بلهجة عصبية :

ـ أعني اخراج الانجليز من مصر ، أو الجلاء كما عبر عنه مصطفى كامل ودعا اليه ..

يا له من أمل !.. لم يكن السعي الى حديث السياسة من طبعه ولكنه يقبل دعوة فهمي كلما دعاه اليه ، اتقاء لتكديره ، وطلبا لنوع طريف من التسلية ، وربما ثار اهتمامه بين الحين والحين وان لم يبلغ درجة الحماس ، بل ربما شاركه أمانيه بطريقة سلبية هادئة ، ولكنه أثبت طوال حياته بأنه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة العامة ، كأنه لا غاية له وراء التنعم بطيبات الحياة ولذاتها ، لذلك لم يجد في نفسه استعدادا للأخذ بهذه الأقوال مأخذ الجد وتساءل مرة أخرى :

ـ هل يقع هذا في حدود الامكان حقا ؟

فقال فهمي بحماس لا يخلو من لوم :

ـ لا يأس مع الحياة يا أخي !..

فأثارت هذه الجملة ، في نفسه ما تثيره أمثالها من ميل الى السخرية بيد انه تساءل متظاهرا بالجد :

ـ وكيف لنا بأن نخرجهم ؟

ففكر فهمي قليلا ثم قال عابسا :

ـ لهذا طلب سعد وزميلاه السفر الى لندن !

تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وعيها كله كي تفهم أقصى ما يسعها فهمه منه كدأبها كلما ثار حديث في الشئون العامة البعيدة كل البعد عن اللغو المنزلي ، تلك الأمور تشوقها ، وتدعي القدرة على فهمها ، ولا تتردد اذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها في أحايين كثيرة من الاستهانة المشربة بالعطف ، ولكن لم يكن شيء ليحطم مجاديفها أو يصدها عن الاهتمام بهذه الشئون « الكبيرة » التي يبدو أنها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التي تدفعها الى التعلق بدروس كمال الدينية أو مناقشة مايلقى عليها من معلوماته الجغرافية والتاريخية على ضوء معارفها الدينية أو الأسطورية ، وقد اكسبها هذا الجد شيئا من الالمام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمد فريد وأفندينا المبعد ، أولئك الرجال الذين ضاعف من حبها لهم اخلاصهم

للخلافة الأمر الذى قربهم فى نظرها ـ كشخص يقدر الرجال بحسب منازلهم الدينية ـ من مراتب الأولياء الذين تهيم بهم ، ولما أن ذكر فهمى ان سعدا وزميليه يطلبان السفر الى « لندن » خرجت عن صمتها فجأة متسائلة :

ـ أى بلاد الله لندن هذه ؟

فبادرها كمال قائلا باللهجة المنغومة التى يسمع بها التلاميذ دروسهم :

ـ لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاب وعاصمتها الكاب . .

ثم مال على أذنها هامسا « لندن بلاد الانجليز » فتولت الأم الدهشة وقالت مخاطبة فهمى :

ـ يذهبون الى بلاد الانجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا من مصر ؟!. . ليس هذا من الذوق فى شىء !. . كيف تزورنى فى بيتى وانت تضمر طردى من بيتك ؟!

إضجرت مقاطعتها الشاب فنظر اليها باسما معاتبا فى آن ولكنها ظنت انها بسبيل اقناعه فاردفت قائلة :

ـ وكيف يطلبون اخراجهم من ديارنا بعد اقامة طالت هذا الدهر كله؟! لقد ولدنا وولدتم وهم فى بلادنا فهل من « الانسانية » ان نتصدى لهم بعد ذلك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة ـ وفى بلادهم أيضا ـ اخرجوا ؟!

ابتسم فهمى كاليائس على حين قهقه ياسين اما زينب فقالت جادة :

ـ كيف تواتيهم الجراة على أن يقولوا لهم هذا فى بلادهم !. . هب الانجليز قتلوهم هناك فمنذا يدرى بهم ؟. . الم يجعل جنودهم المشى فى الشوارع البعيدة من المخاطرات غير المأمونة ؟. . فكيف بمن تحدثه نفسه باقتحام ديارهم ! ؟

ود ياسين لو يسترسل مع المراتين فى حديثهما الساذج ارواء لعواطفه الظامئة الى المزاح ولكنه لمس ضجر فهمى فاشفق من اغضابه ، فتحول اليه مواصلا ما انقطع من الحديث وهو يقول :

ـ فى كلامهما حق لم يحسنا التعبير عنه ، خبرنى يا اخى ماعسى أن يصنع سعد حيال دولة تعد الآن سيدة العالم بلا منازع ؟

فوافقت الأم على قوله بايماءة من رأسها كأن الحديث كان موجها اليها وراحت تقول :

ــ كان عرابى باشا أعظم الرجال واشجعهم ، لا يقاس به سعد ولا غيره، وكان فارسا وكان مقاتلا ، فماذا لقى من الانجليز ياولداه ؟.. أسروه ثم نفوه الى بلاد وراء الشمس ...

فلم يتمالك فهمى من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق:

ــ نينة !.. هل تركتنا نتحدث ؟!

فابتسمت فيما يشبه الحياء مشفقة كل الاشفاق من اغضابه فغيرت لهجتها الحماسية كأنما تغيير لهجتها تعلن عن تغييررأيها كله ثم قالت برقة عتذار :

ــ يا سيدى ، لكل مجتهد نصيب ، فليذهبوا فى رعاية الله ، وعسى أن حظوا بعطف الملكة الكبيرة ..

فما يدرى الشاب الا وهو يسألها فى غرابة :

ــ اى ملكة تقصدين ؟

ــ الملكة فيكتوريا يابنى ، أليس هذا اسمها ؟.. طالما سمعت أبى وهو يتحدث عنها ، هى التى أمرت بنفى عرابى ولكنها أعجبت بشجاعته كثيرا فيما قيل ..

فقال ياسين ساخرا :

ــ اذا كانت قد نفت عرابى الفارس فهى اجدر بان تنفى سعدا العجوز!

فقالت الأم :

ــ مهما يكن من امرها فهى لم تزل امراة يحمل صدرها ولاشك قلبا رقيقا فاذا احسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتوددون اليها جبرت بخاطرهم .

وجد ياسين سرورا كبيرا فى منطق الأم التى جعلت تتحدث عن الملكة التاريخية كما لو كانت تتحدث عن ام مريم او غيرها من الجارات ، ولم يعد يرغب فى مجاراة فهمى ، فسألها باغراء :

ــ خبرينا عما يحسن ان يقولوه لها ؟

فاعتدلت المرأة فى جلستها مسرورة بهذا السؤال الذى اقر لها بالجدارة « السياسية » ومضت تفكر باهتمام لاح فى تقارب حاجبيها فى صيغة مناسبة لأول «مفاوضة» بيد أن فهمى لم يمهلها حتى تتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء :

ــ الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد ، لا تتعبى نفسك بلا طائل !..

انتبه ياسين عند ذاك الى غاشية المساء الزاحفة من خلال خصاص النوافذ فادرك انه آن له ان يودع المجلس ليمضى الى سهرته . ولما كان

يعلم حق العلم بأن ظمأ فهمى الى الحديث لم يرو بعد فقد رغب فى ان يقدم له اعتذارا عن ذهابه فى صورة تأبيد من نوع ما للنبأ لذى اخذ بلبه فقال له وهو ينهض :

- انهم رجال يدركون بلا شك خطورة ما اقدموا عليه فلعلهم اعدوا له الوسيلة الناجحة ، فلندع لهم بالتوفيق .

وغادر المجلس وهو يشير الى زينب لتلحق به فتجهز له ملابسه . فشيعه فهمى بنظرة لا تخلو من غضب ، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه لمتأججة ، لشد ما تثير أحاديث الوطنية أكبر الأحلام فى نفسه ، فى دنياها الساحرة نتراءى لعينيه دنيا جديدة ، ووطن جديد . وبيت جديد ، وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسا ولكن ما ان يفيق على هذا الجو الخانق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين أضلعه نار الحسرة والألم فتروم فى قهرها متنفسا - أيا ما كان - تنطلق منه الى السماء ، ود فى تلك اللحظة بكل قوته لو ينطوى الليل فى غمضة عين ليجد نفسه مرة أخرى فى مجمع الطلاب من اخوانه فيروى ظمأه الى الحماس والحرية ويسمو فى وقدة حماسهم الى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد . اقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعد اليوم بحق سيدة العالم ، وهو نفسه لايدرى على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد ، ولايدرى ماذا يمكن أن يصنع ، ولكنه يشعر بكل مافى قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله ، ربما لم يجده ماثلا فى عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كامنا فى قلبه ودمه ، فما اجدره ان يبرز الى ضوء الحياة والواقع او فلتمض الحياة عبثا من العبث وباطلا من الأباطيل ..

- ٤٩ -

بدأ الطريق اما مذكان السيد أحمد - كعادته - مكتظا بالسابلة والمركبات ورواد الدكاكين المتراصة على الجانبين الا أن هامته ازدانت بشفافية مقطرة من جو نوفمبر اللطيف الذى حجبت شمسه وراء سحائب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنها بحيرات من نور ، لم يكن شىء فى السماء ولا فى الأرض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد أن يراه كل يوم ، ولكن نفس الرجل ، والأنفس

الموصولة بنفسه وربما انفس الناس جميعا تعرضت لموجة عاتيــة من الانفعال والشعور حرجت بها عن طورها أو كادت حتى قال السيد انه لم يمر به أيام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم باحساس واحد . فهمى الذى يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبــداه هو بالحديث نقل اليه فى اسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد انائب الملك ، وفى مساء اليوم نفسه ، وفى مجلس الطرب ، اكد نفر من الصحاب أن الخبر حقيقة لا يرتقى اليها الشك ، وفى دكانه حدث أكثر من مرة ان خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق فى حديث المقابلة ، بل مايدرى هذا الصباح الا والشيخ متولى عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات واخذ نصيبه من السكر والصابون وابى الا ان يعلن نبأ الزيارة بلهجة من يزف البشرى لأول مرة ولما سأله السيد ــ مداعبا ــ عما يظن ان تكون نتيجة الزيارة أجاب الشيخ « محال !... محال ان يخرج الانجليز من مصر ، اتحسبهم مجانين كى يجلوا عن البلد بلا قتال !.. لابد من قتال ، ولا قتال لنا ، فلا سبيل الى اخراجهم ، فلعل رجالنا يوفقون ولو الى ابعاد الاستراليين حتى يعود الأمن الى سابق عهده ، والسلام ! » ، أيام انباء ومشاعر فياضة صادفت فى السيد رجلا ذا قابلية شديدة لعدوى الأشواق الوطنية والسياسية فبات على حال من الانتظار والتوقع جعلته يقبل بانفعال على قراءة الجرائد التى بدت فى الأغلب وكأنها تصدر فى بلد غريب لا انفعال فيــه ولا توثب ، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلهف عما وراءهم من جديد ، وعلى تلك الحال استقبل السيد محمد عفت حين دخل الدكان مهرولا ، لم تكن نظرة القادم الحادة ولا حركته النشطة مما يوحى بانه مجرد زائر قد عرج الى الدكان لاحتساء قهوة أو رواية ملحة ، فوجد السيد فى مظهره ما تجاوب مع نفســه القلقة المشوقة فبادره قائلا والآخر يشق طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوى على قضاء حوائجهم :

ــ صباحنا ناد ، ماذا وراءك ياسبع ؟

اتخذ السيد محمد عفت مجلسه اصق المكتب وهو يبتسم ابتسامة وشت بالعجب كان قول السيد «ماذا وراءك» وهو نفس السؤال الذى يتكرر كلما لاقى احدا من صحبه ــ اقرار باهميته فى هذه الايام البالغة فى اهميتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى ، كان السيد عفت دائما همزة الوصل بين جماعتــه الأصليـــة المكونة من تجــار وبين من انضم اليهــا بمضى الزمن من موظفين ممتــازين

ومحامين وان تفرد السيد أحمد بمنزلة الاعزاز الأولى بفضل شخصيته وسجاياه ، غير أن صلة القربى هذه التى لم تفقد شيئا من حظوتها قط لدى أصدقائه التجار الذين يتطلعون الى الموظفين وذوى الألقاب بنظرة ملؤها الاكبار ، صلة القربى هذه قد زادت خطورة فى هذه الايام التى بات فيها « الخبر الجديد » أهم من الماء والغذاء !.. بسط السيد عفت صحيفة كانت مطوية بيمينه ثم قال ـ خطوة جديدة . لم اعد ناقل انباء فحسب ولكنى بت رسولا أحمل اليك والى غيرك من الأكرمين هذا التوكيل السعيد ..

وأعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسما « اقرأ » فتناولها السيد وقرأ :

« نحن الموقعين على هذا قد انبنا عناحضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ومحمدمحمودباشا وأحمدلطفىالسيدبك . ولهم أن يضموا اليهم من يختارون ، فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حينما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما »

فتهلل وجه السيد وهو يتلو أسماء أعضاء الوفد المصرى الذى سمع بهم فيما سمع من أنباء الحياة الوطنية التى ترددها الألسن . وتساءل :

ـ ماذا تعنى هذه الورقة ؟

فقال الرجل بحماس :

ـ الا ترى هذه الامضاءات ؟.. وقع تحتها بامضائك وادع جميل الحمزاوى ليوقع بامضائه أيضا هذا توكيل من التوكيلات التى طبعها الوفد ليوقعها الشعب فيتخذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصرية .. أمسك السيد بالقلم ووقع بامضائه فى سرور تجلى فى تألق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة نمت عن شعوره بالسعادة والخيلاء اذ يوكل عن نفسه سعدا وزملاءه ، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حرنوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة . ودعا الحمزاوى فوقع بامضائه كذلك ، ثم التفت الى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد :

ـ المسألة جد فيما يبدو ..!

فضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال :

ـ غاية الجد ، كل شىء يسير بقوة وتصميم ، أما علمت بما دعا الى طبع هذه التوكيلات ؟.. قيل ان « الرجل » الانجليزى تساءل عن الصفة التى

كلمه بها سعد باشا وزميلاه فى صباح ١٣ نوفمبر الماضى فما كان من الوفد الا ان عمد الى هذه التوكيلات ليثبت انه يتكلم باسم الأمة ..

فقال السيد بتأثر :

ـ لو كان محمد فريد بيننا ماعدا هذا

ـ لقد انضم الى الوفد من رجال الحزب الوطنى محمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ...

ثم هز منكبيه كأنما لينفض عنهما الماضى كله ثم قال :

ـ كلنا نذكر سعد بما كان يثير من ضجة عظيمة على عهد توليه لنظارة المعارف ثم الحقانية ، مازلت أذكر ترحيب اللواء به من حين ترشيحه للوزارة وان لم انس حملاته عليه بعد ذلك ، بل لا أنكر أننى ملت مع انتقاد المنتقدين له لشدة تعلقى بالمغفور له مصطفى كامل ، ولكن سعد اثبت دائما أنه جدير باعجاب المعجبين ، اما حركته الأخيرة فهى خليقة بأن تحمله من القلوب فى أعز مكان ...

ـ صدقت ، حركة مباركة ، لندع الله أن يتولاها بتوفيقه

ثم باهتمام :

ـ ترى أيؤذن لهم فى السفر ؟.. وماذا تراهم فاعلين اذا سافروا ..؟

طوى السيد محمد عفت التوكيل ثم نهض وهو يقول :

ـ ما الغد ببعيد ...

فى طريقهما الى باب الدكان غلبت روح الدعابة السيد فهمس فى اذن صاحبة :

ـ كأنى لشدة سرورى بهذا التوكيل الوطنى ثمل يعل الكاس الثامنة بين فخذى زبيدة ..!

فحرك محمد عفت راسه فى تاثر كأن الصورة التى جسمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد أسكرته ، وغمغم :

ـ ياما بكره نسمع ...

ثم غادر الدكان والسيد يترنم فى أعقابه مبتسما :

ـ وبعده نشوف ..!

ثم عاد الى مكتبه واثر المزاح منبسط فى اساريره وانفعال الحماس فى قلبه لا يخمد ، شأنه فى كل ما يعرض له من مهام الحياة بعيدا عن داره ، فهو يجد الجد كله كلما دعا الداعى الى الجد ولكنه لا يتردد عن تلطيف جوه بالمزاح والدعابة كلما لاحنا له صادرا فى ذلك عن طبع لا يملك معهما حيلة وان بدا ذا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما ، فلا جده بقاهر مزاحه

ولا مزاحه بمفسد جده ، ولما كانت دعابته ليست ترفا مما يدور على هامش حياته ، ولكن ضرورة تتوزعها كالجد سواء بسواء . فلم يسعه يوما الاقتصار على الجد الخالص أو تركيز همته فيه ، وبالتالى قنع دائما من « وطنيته » بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة الذى آنس اليه فلا يرضى عنه بديلا . لذلك لم يدر له بخلد أن ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطنى على شدة تعلقه بمبادئه . ولا حتى أن يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته . أليس فى ذلك اهدار لوقته « الثمين » ليس الوطن فى حاجة اليه على حين يتلهف هو على كل دقيقة منه لينفقها فى أسرته او تجارته أو على الخصوص لهود بين الأحباب والخلان ؟!.. ليكن اذن وقته خالصا لحياته . وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه بل وماله كلما تيسر اذ لم يكن يضن به اذا وجب التبرع لغرض من الأغراض ، والى ذلك فلم يشعر مطلقا بأنه مقصر فى واجبه على نحو ما ، وعلى العكس عرف بين صحبه بالوطنية ، اما لأن قلوبهم لم تسخ بعواطفها كما سخا قلبه ، واما لأن الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا الى حد التبرع بالمال مثله ، فتميز بوطنيته ، وعرف هو ذلك فأضافه الى بقية مزاياه التى يباهى بها سرا فى أعماق قلبه ، ولم يتصور أن الوطنية يمكن أن تطالبه بأكثر مما يجود به ، ذلك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يضق — على ازدحامه — بالعاطفة القومية ، وهى وان قنعت بالقلب مجالا لحيويتها الا انها كانت قوية عميقة تشغل النفس وتهمها ، لم تجئه عرضا ولكن نشأت مع صباه فيما تلقته أذناه من أحاديث البطولة التى رواها السلف عن عرابي ، ثم اتقدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه ، وكم كان منظرا فريدا — أهاج التأثر والضحك معا — يوم رؤى وهو يبكى كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل ، تأثر صحبه لأن أحدا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم أغرقوا فى الضحك فى مجلس الطرب الليلى حين تذاكروا المنظر اذ لم يكن من اليسير أن يرى «رب الضحك» وهو يجهش بالبكاء ! اليوم ، بعد سنى الحرب الخامدة ، بعد موت الزعيم الشاب ونفى خليفته ، بعد انقطاع الأمل من عودة أفندينا ، بعد هزيمة تركيا ، وانتصار الانجليز ، بعد هذا كله ، أو بالرغم من هذا كله ، تسرى أنباء عجيبة حاملة حقائق كالأساطير .. مواجهة الرجل الانجليزى بمطالب الاستقلال ، امضاء التوكيلات الوطنية ، التساؤل عن الخطوة التالية ، قلوب تنفض عن جوهرها الغبار ، انفس تشرق بالآمال ، ماذا وراء هذا كله ؟!.. ان خياله السلمى الذى ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى ، وانه يتعجل الليل ليهرع

الى مجلس الطرب حيث باتت الأحاديث السياسية «مزة» الشراب والطرب فائتلفت مع جملة المغريات التي تجذب حنانه الى سهراته كزبيدة وحب الاخوان والشراب والطرب وانها لتبدو فى ذاك الجو الخلاب عذبة الروح لطيفة التناول تغنى القلب بشتى عواطف الحماس والحب من دون أن تستأديه مالا طاقة له به ! . . وانه لبفكر فى هذا كله اذ اقترب منه جميل الحمزاوى وهو يقول :

ـ أما سمعت عن الاسم الجديد الذى أطلق على بيت سعد باشا .؟. انهم يدعونه « بيت الأمة » . .

ومال الرجل نحوه ليفضى اليه كيف نما اليه الخبر

- ٥٠ -

فى نفس الوقت الذى شغل فيه الوطن بالمطالبة بحريته كان ياسين دائبا بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك ، فان انطلاقه الى سهراته الليلية ـ بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيما اعقب الزواج من اسابيع ـ لم يفز به بلا نضال . ثمة حقيقة كثيرا مارددهالنفسه كاعتذارعن سلوكه الجديد ، هى أنه لم يكن يتصور ـ وهو فى اسكرة حلم الزواج ـ انه سيرتد الى حياة التسكع بين القهوة وحانة كوستاكى ، اعتقد مخلصا انه ودع ذاك الى الأبد مضمرا لحياته الزوجية احسن النوايا ، حتى دهمته الخيبة المستعصية فى الزواج كله فجزعت أعصابه عن تحمل الملل او الحياة الفارغة كما دعاها ؛ وفزع بكل قوة نفسه الدالة الحساسة الى الترفيه والتسلية والنسيان ، الى القهوة والحانة ، لا كحياة لهو عابرة كما ظنها فى الماضى والزواج امل مدخر ، ولكن كحياة هى كل ما تبقى له من متعة بعد أن غدا الزواج خيبة مريرة ، كالذى تشرده الآمال عن وطنه فيرده الاخفاق اليه تائبا ، بيد أن زينب التى عهدت عنده التودد الحار والتملق النهم ، بل الاعزاز الذى بلغ به يوما ان ذهب بها الى مسرح كشكش بك مستهينا بالسياج المسلح من التقاليد الصارمة الذى يضربه ابوه حول الأسرة . . زينب هذه كابدت من انصرافه عنها الى منتصف الليل ليلة بعد أخرى وعودته ثملا يترنح صدمة عز عليها احتمالها فما تمالكت أن كاشفته بأحزانها ، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة فى حياته الزوجية لا يمكن أن تمر بسلام ، فتوقع من بادىء الأمر المعارضة على أى لون جاءت،

عتابا ام خصاما واعد العدة المناسبة ليحسم موقفه بقوة متمثلا بقول ابيه له ليلة ضبطه راجعا من كشكش بك « انه لايفسد النساء الا الرجال . وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء » فما تشكت حتى قال لها : « لا داعى للحزن ياعزيزة ، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال . هكذا الرجال جميعا ، والزوج المخلص يحافظ على امانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها ، ثم اننى اتزود من السهرة ترويحا عن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا منعة كاملة » ولما عرضت بسكره محتجة بأنها « تخاف على صحته » ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقة والحزم « كل الرجال يسكرون ، ان صحتى تتحسن بالسكر (ثم ضاحكا مرة أخرى) سلى أبى او اباك ! » الا انها همت بالاسترسال فى مناقشته جريا وراء امل كاذب فشد حبل الحزم متشجعا بمثله الذى هون عليه مالم يكن يهون من اغضابها فراح ينوه بماللرجال من حق مطلق فى أن يفعلوا ما يشاءون ، وماعلى النساء من واجب الطاعة والتزام الحدود « انظرى الى امرأة ابى هل رأيتها اعترضت يوما على تصرف لأبى ؟ . . على ذاك فهما زوجان سعيدان واسرة مطمئنة . ينبغى الا نعود الى هذا الموضوع » . . لعله لو كان ترك الى شعوره وحده ما اصطنع فى خطابها ما اصطنع من سياسة فان خيبته فى الزواج جعلته يجد نحوها أحيانا ما يشبه الرغبة فى الانتقام ، واحيانا اخرى نوعا من الكراهية المتقطعة وان لم يكف عن الرغبة فيها بين هذا وذاك . ولكنه راعى عواطفها اكراما — او خوفا — من ابيه الذى علم بعظيم تعلقه بأبيها السيد محمد عفت ، والحق لم يكن يكربه شىء كاشفاقه من أن تشكوه الى ابيها فيشكوه هذا بدوره الى ابيه حتى لقد صمم جادا ، اذا وقع شىء مما يحاذر ، أن يستقل بمسكن مهما تكن العواقب ولكن مخاوفه لم تتحقق ، اثبتت الفتاة رغم عرتها انها امرأة « عاقلة » كانها من طراز امرأة ابيه نفسها ، قدرت موضعها حق قدره ونزلت عند حكم الواقع ، مطمئنة — لبعلها — بما يردده دائما من اخلاصه وبراءة سهراته ، قانعة من الألم والحزن ببيتهما فى دائرة الأسرة الضيقة — مجلس القهوة — من دون أن تظفر بتأييد جدى ، وكيف لها بذاك فى بيئة ترى الخضوع للرجال دينا وعقيدة ، بل لعل الست امينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح اليه من استئثار غريب ببعلها ، لأنها لم يكن يسعها أن تتصور النساء الا على مثالها هى ولا الرجال الا على مثال زوجها ، فلم تر فى استمتاع ياسين بحريته عجبا ولكن شكوى زوجه بدت هى العجب ، فهمى وحده قدر

احزانها فتطوع لترديدها على مسمع من ياسين ولو انه ايقن من بادىء الأمر انه يدافع عن قضية خاسرة ، ولعل ما شجعه على ذاك كان كثرة تلاقيهما فى قهوة احمد عبده بخان الخليلى ، تلك القهوة التى تقع تحت سطح الأرض كأنها كهف منحوت فى جوف جبل ، مسقوفة بربوع الحى العتيق ، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة ، وباحتها التى تتوسطها نافورة صامتة ، ومصابيحها التى تقاد ليل نهار ، وجوهاالهادىء الحالم الرطيب ، كان ياسين قد مال الى هذه القهوة لدنوها من حانة كوستاكى من ناحية ولاضطراره الى هجر قهوة سى على بالغورية بعد قطع زنوبة من ناحية اخرى ؛ ثم لما خصت به القهوة الجديدة من طابع اثرى صادف هوى من نفسه الميالة للشعر ، أما فهمى فلم يعرف طريق المقاهى لخلل طرا على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لنداء تلك الايام الذى دعا الطلبة وغيرهم الى التجمع والتشاور ، فاختار ونفر من زملائه قهوة احمد عبده ـ لنفس ميزاتها الأثرية التى جعلتها بمأمن من العيون ـ للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ وانتظار الحوادث ، كثيرا ما التقى الأخوان فى حجرة من الحجرات الصغيرة ولو لحين قليل اى حتى يصل زملاء فهمى أو يأزف ميعاد ياسين للانتقال الى حانةكوستاكى ، وفى مرة من هذه المرات اشار فهمى الى كدر زينب مبديا دهشته لسلوك اخيه الذى لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة ، ضحك ياسين ضحك رجل يرى لنفسه الحق كل الحق فى أن يضحك من سذاجة الآخر الذى ارتضى أن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهله ، بيد انه لم يشأ أن يبرر سلوكه مباشرة ، مؤثرا أن ينفس عن صدره بما يعن له من قول ، قال مخاطبا الشاب :

ـ رغبت يوما فى الزواج من مريم ، ولست اشك فى انك حزنت جد الحزن لموقف ابيك الذى منع تلك الرغبة من ان تتحقق . . اقول لك ، وانا ادرى بما اقول ، انك لو علمت وقتذاك بما يخفى الزواج وراء سطحه لحمدت الله على الفشل . .

دهش فهمى لحد الانزعاج لأنه لم يتوقع ان يباغت فى أول جملة يخاطب بها بألفاظ تجمع بين « مريم » و « الزواج » و « الرغبة » ، افكار لعبت على مسرح صدره أدوارا لا تنسى ولا تمحى آثارها ، فلعله بالغ فى اظهار دهشته ليخفى ما اثارت الذكريات فى نفسه من الشجن والتأثر ، ولعله

لذاك لم يستطع أن ينبس بكلمة . فتابع ياسين حدبته وهو يلوح بيـده سأما ومللا قائلا :

ـ ما كنت أتصور أن ينجلى الزواج عن هذا الخواء . انه فى الحق لا يعدو ان يكون حلما كاذبا ، وقاسيا ككل شيء خبيث الخداع !

بدا له قوله عسير الهضم مثيرا للريب كما يخلق بشاب تتدفق ينابيع حياته الوجدانية نحو هدف واحد لا يتمثل له الا فى صورة « زوجـة » وتحت مقولة « الزواج » فعز عليه ان يتناول اخوه المستهتر مقولته المقدسة بهذه المرارة الساخرة ، وتمتم فى دهشة بالغة :

ـ ولكن زوجك سيدة .. كاملة ..!

فهتف ياسين ساخرا :

ـ سيدة كاملة ! هو ذاك ، اليست كريمة رجل فاضل ؟.. وربيبـة اسرة كريمة ؟.. جميلة ؟.. مهذبة ؟.. ولكنى لا ادرى اى شيطان موكل بالحياة الزوجية يجعل من جميع المزايا السالفة اعراضا تافهة لا يلقى اليها ببال تحت ضغط الملل المسقم كأنها بعض ما نصدق على الفقر من صفات النبل والسعادة كلما تراءى لنا أن نعزى فقيرا عن فقـره .!

فقال فهمى ببساطة وصدق :

ـ لا أفهم حرفا مما تقول ..

ـ انتظر حتى تعرف بنفسك ..

ـ لماذا اذن يصر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة ..؟

ـ لأن الزواج ـ كالموت ـ لا ينفع معه التحذير ولا الحذر ..

ثم مستطردا وكأنه يخاطب نفسه :

ـ لشد ما عبث بى الخيال فسما بى الى عوالم تفوق مباهجها الأحلام ، وطالما ساءلت نفسى هل يجمعنى حقا بيت واحد بغادة حسناء الى الأبد ؟! ياله من حلم !.. ولكنى أؤكد لك بأنه ليست ثمة مصيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسناء الى الأبد ..

غمغم فهمى فى حيرة رجل يعز عليه ـ فيما يكابد من أشواق الشباب ـ تصور الملل :

ـ لعله بدت لعينيك اشياء وراء الظاهر الذى لا يعاب !

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة :

ـ لا أشكو الا الظاهر الذى لا يعاب !... شكواى فى الحق منصبة على الجمال نفسه !.. هو .. هو الذى مللت لحد السقم ، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأول مرة ثم لا تزال ترده وتستعمله حتى يستوى عندك

والفاظ مثل « الكلب » و « الدودة » و « الدرس » وسائر الأشياء المبتذلة ، يفقد جدته وحلاوته ، وربما نسيت معناه نفسه فغدا مجرد لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله ، ولعله لو عثر عليه الغير فى انشائك اخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم ، ولا تسل عما فى ملل « الجمال » من فجيعة ، اذ انه يبدو مللا بلا عذر مقبول ، وبالتالى قضاء محتوما .. فيتعذر التفادى من يأس ليس له من قرار ، لا تعجب لقولى ، انى عاذرك لأنك تنظر من بعيد ، والجمال كالسراب لا يرى الا من بعيد ..

على مرارة اللهجة شك فهمى فى حقيقة بواعثها اذ انه مال من بادىء الأمر الى اتهام اخيه - لا الطبيعة البشرية - لما عرفه عنه من انحراف السلوك ، الا يجوز أن ترد شكواه فى الحق الى ما لهج به من مجون فى حياته السابقة على الزواج ؟!.. اصر على هذا الظن اصرار رجل يأبى أن يفجع فى اعز آماله ، ولما كان ياسين لا يهتم بآراء اخيه بقدر ما يهتم بالافصاح عما فى صدره هو ، فقد واصل حديثه وهو يبتسم لأول مرة ابتسامة وضيئة :

- اصبحت ادرك موقف ابى حق الادراك !... وافهم ما جعل منه ذاك الرجل العربيد الراكض وراء العشق ابدا !.. كيف كان يتأتى له ان يصبر على طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلنى الملل بعد خمسة اشهر ؟!

فقال فهمى وقد قلق لاقحام ابيه فى الحديث :

- حتى على افتراض ان شكواك صادرة عن تعاسة مركبة فى الطبيعة البشرية ، فالحل الذى تبشر به .. (هم بأن يقول : بعيد عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه ليكون اكثر منطقية فقال) .. بعيد عن الدين ..

فقال ياسين الذى كان يقنع من الدين بالايمان دون اكتراث جدى لأوامره ونواهيه :

- الدين يؤيد رايى ، وآى ذلك انه سمح بالزواج من اربع غير الجوارى اللاتى كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والأغنياء ، فقد فطن اذن الى ان الجمال نفسه - اذا ابتذلته العادة والألفة - مل واسقم وقتل ..

فقال فهمى باسما :

- كان لنا جد يمسى مع زوجة ويصبح مع اخرى فلعلك ان تكون وريثه ...

فتمتم ياسين متنهدا :

- لعلى ...

على ان ياسين — حتى ذاك الوقت — لم يكن اقدم على تحقيق حلم من أحلامه المتمردة ، حتى أنه رجع الى القهوة فالحانة ولكنه تردد قبل ان يخطو الخطوة الاخيرة ، قبل ان ينزلق الى زنوبة او الى غيرها . وما الذى جعله يفكر ويتردد ؟.. ربما لم يخل من احساس بالمسئولية حيال الحياة الزوجية ، وربما لم ينج من تهيب لرأى الدين فى « الزوج الفاسق » الذى توكد لديه انه غير رأيه فى « الشاب الفاسق » .. وربما ايضا ان خيبة أقوى أمل تردد فى جوانبه صدت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق . على ان واحدة من أولاء لم تكن لتقيم فى سبيله عائقا جديا خليقا بأن يقف مجرى حياته ، الا أنه وجد اغراء لا يصمت فى سيرة ابيه التى استحوذت عليه ، وما بدا من زوجه من « حكمة » قرنتها فى ذهنه بامرأة ابيه فينشط خياله الى رسم تخطيط لحياتها المستقبلة معه على مثال حياة الست أمينة مع ابيه ، اجل تمنى كثيرا لو تطمئن زينب الى الحياة التى تقدر عليها كما تطمئن امرأة ابيه الى حياتها ، فيثب هو مثل وثبات ابيه الموفقة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت هادىء وزوجة مستنيمة ، بذاك — وبذاك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة ، بل أنيرة ذات مزايا تفتقد . « فيم تطمح اية امرأة وراء البيت الزوجى والارتواء الجنسى ؟!.. لا شىء ! .. انهن حيوانات اليفة كالحيوانات الاليفة ينبغى ان يعاملن ، اجل لايجوز للحيوانات الأليفة أن تتطفل على حياتنا الخاصة وانما عليها ان تنتظر فى البيت حتى نفرغ لمداعبتها ، أن اكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت ، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد ، خلاصتها فى النهاية عدد محدود من الحركات والأصوات لاتزال تتكرر وتتكرر .. حتى تنقلب الحركة والجمود سيين ، والصوت والصمت توأمين ، كلا كلا ، ما لهذا تزوجت .. ان قيل انها بيضاء ، ألست ذا مآرب فى السمراء ، بل والسوداء .. وان قيل انها مدملجة فما عزائى عن النحيلة والجسيمة ، و انها مهذبة سليلة نبل وكرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو ؟ ! .. الى الأمام .. الى الأمام .. »

- ٥١ -

كان السيد مكبا على دفاتره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غرزى ، فرأى امرأة تشتمل الملاءة اللف منها على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الأسود عن جبين ناصع وعينين مكحولتين ، فابتسمت أساريره فى ترحاب طال تشوقه اليه ، وعرف من تود الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيرا ، ولما كان جميل الحمزاوى مشغولا ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كثب من مكتبه ، فأقبلت المرأة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذى فاضت عنه أعطافها وهى تلقى اليه بتحية الصباح . ومع أن التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذى يتكرر كلما جاءته « زبونة » تستحق التكريم ، فان الجو الذى غشى ركن الدكان من حول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة ، لاحت امارات لها فى الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية ، والنظرة المتربصة فوق سفحى الأنف العظيم من ناحية أخرى ، كهرباء خفية صامتة الا ان نورها الكامن كان متحفزا فى انتظار لمسة كى يسطع ويشعشع ويستعر نارا . . كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التى انجابت عن آمال مهموسة وأحلام مكبوتة ، ولكن لأن وفاة السيد محمد رضوان أثارت منه فكرا وهيجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب فى الطبيعة والأحياء ، زال بموته الشجا الذى اعترض احساسه بالمروءة فأمكنه أن يذكر نفسه بأن المرحوم لم يكن الا جارا ــ لا صديقا ــ ورحل ، كما أمكن شعوره بجمال هذه المرأة الذى أعرض عنه قديما حفاظا على كرامته ان يعبر عن ذاته ويطالب بنصيبه من المتعة والحياة ، الى ان عاطفته نحو زبيدة كان أدركها العطب كالفاكهة فى نهاية موسمها ، فلاقت المرأة منه ــ على خلاف الزيارة السابقة ــ ذكرا متوثبا وعاشقا متحررا . . على أن خاطرة ثقيلة ــ ان تكون الزيارة بريئة ــ مرت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة ، مستشهدا بما ند عنها فى الزيارة القديمة من رقيق الاشارات وبديع الريب ، مؤكدا ظنونه بهذه الزيارة نفسها التى ليس ثمة ما يوجبها ان لم يكن مثل ما يدور بنفسه ، ثم صمم اخيرا على أن يتلمس سبيله كخبير قديم . . فقال لها برقة باسما :

ــ خطوة عزيزة . . !

فقالت فى شىء من الارتباك :

ـ الله يكرمك ، كنت راجعة الى البيت فمررت بالدكان فتراءى لى ان آخذ لوازم الشهر بنفسى ..

فطن الى « اعتذارها » عن المجىء ولكنه أبى ان يصدقه . فان يتراءى لها ان تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئا ان لم يكن وراءه دافع . لا سيما وانها تدرى بالبداهة والفريزة ان مجيئها بعد « مقدمات » الزيارة القديمة خليق بأن يثير فى نفسه الريب ، وان يبدو لعينية « تمحكا » غير خافى الدلالة ، فزادته مبادرتها الى الاعتذار ثقة وقال :

ـ فرصة طيبة لأحييك ولأكون فى خدمتك ..

فشكرته فى اقتضاب أصغى اليه بنصف انتباه اذ شغل بالتفكير فى الكلمة التالية ، لعله كان من الطبيعى ان يعرج على ذكر الزوج الراحل مترحما ولكنه تحاشى هذا الخاطر أن يفسد عليه الجو كله ، ثم تساءل هل يهاجم او يمسك حتى يستدرجها الى الهجوم ؟ .. لكل طريقة لذتها .. بيد انه لم يشأ أن ينسى أن مجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبه ، فاستطرد قائلا وكأنه يتمم حديثه الأول :

ـ بل فرصة طيبة كى أراك .. !

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت على الحياء او الارتباك أو كليهما معا ، ولكنها فضحت قبل كل شىء فطنتها الى ما وراء مجاملته الظاهرة من معان خفية ، على انه رأى فى حيائها استجابة لشعورها الباطنى الذى دفعها الى زيارته اكثر منه استجابة لقوله ، فازداد اطمئنانا الى تخمينه الأول وراح يؤكد ما عناه فى نغمة رقيقة قائلا :

ـ اجل فرصة طيبة كى أراك ..

عند ذاك قالت بلهجة تنم عن عتاب حبيس :

ـ لا اظن انك تعد رؤيتى فرصة طيبة .. !

فوقعت لهجة العتاب من صدره موقع الرضى والسرور ، لكنه قال كالمحتج :

ـ صدق من قال ان بعض الظن اثم ..

فهزت راسها هزة كأنما تقول له « هيهات ان يؤثر فى مثل هذا الكلام » وقالت :

ـ ليس ظنا فحسب ، انى أعنى ما اقول ، انك رجل لا يعوزك الفهم .

وانا كذلك وان توهمت غيره .. فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه .

ومع أن صدور هذا الكلام عن امرأة لم يمض على وفاة زوجها شهران أثار في نفسه شعورا بالسخرية والمرارة ، فانه تطوع لانتحال الأعذار لها ـ الأمر الذى لم يكن ليفكر فيه في ظروف أخرى ـ قائلا لنفسه : ما احرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها ، ثم تخلص من شعوره الطارىء بقوة وقال متصنعا الأسى :

ـ غاضبة علي ؟ ! .. ياله من حظ سيىء لا استحقه .

فقالت في شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والرد :

ـ قلت لنفسي وانا في الطريق اليك « ماينبغي أن تذهبي » .. فلا يحق لى الآن أن الوم الا نفسي !

ـ بعض هذا الغضب يا ست ! .. انى اسائل نفسي عما جنيت .. ؟!

فتساءلت بلهجة ذات معنى :

ـ ما عسى أن تصنع اذا حييت انسانا بتحية فلم يرد بمثلها ولا حتى باسوأ منها ؟ !

فادرك من توه انها تشير الى مابدا منها في الزيارة القديمة من تودد قابله بالصمت ، ولكنه تجاهل الاشارة .. وقال مجاراة لأسلوبها الرمزى:

ـ لعلها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر ..

ـ انه قوى السمع والحواس جميعا ..

فجرت على فمه ابتسامة عجب لم يتمالكها ، قال بلهجة المذنب اذا انشأ يعترف :

ـ لعله لم يردها حياء او تقوى ..

فقالت بصراحة اعجبته وهزت فؤاده :

ـ أما الحياء فلا حياء له ، وأما سائر الأعذار فمن أين للقلوب الصادقة أن تباليها !

فندت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق النظر الى جميل الحمزاوى الذى بدا منهمكا في العمل بين نفر من الزبائن ، ثم قال :

ـ لا احب أن اعود الى الملابسات التى قست علي وقتذاك ، على انه لا يجوز لى أن اياس مادام ثمة ندم وتوبة وعفو !

فتساءلت في انكار :

ـ من يدرينا بالندم ؟

فقال بلهجة حارة برع فى تجويدها عاما بعد عام :
ـ تجرعته طويلا والله شهيد ..
ـ والتوبة ؟
فقال وهو يشقبها بنظرة متوهجة :
ـ أن ترد التحية بعشر أمثالها !
فتساءلت فى دلال :
ـ ومن أراك بأن ثمة عفوا ؟
فقال بلباقة :
ـ أليس العفو من شيم الكرام !
ثم فى نشوة مسكرة :
ـ العفو كثيرا مايكون كلمة السر لولوج الجنة ..
ثم وهو يرنو الى ابتسامة عذبة لاحت فى عينيها :
ـ الجنة التى أعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين بالنحاسين ، ومن جميل التوفيق أن بابها يفتح على عطفة جانبية بعيدا عن أعين الرقباء . والا حارس لها .. !

وفطن الى أن حارس الجنة السماوية سمى « المرحوم » الذى كان حارسا للجنة الأرضية التى يتلمس طريقه اليها ، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المرأة قد فطنت الى نفس الحقيقة الساخرة ولكنه وجدها مهومة فيما يشبه الحلم فتنهد وهو يستغفر الله فى سره . وكان جميل الحمزاوى قد فرغ من زبائنه ، فأقبل على السيدة ليقضى حوائجها فسنحت للسيد فرصة للتأمل ، فراح يذكر كيف رغب ابنه فهمى يوما فى خطبة مريم ابنة هذه المرأة ، ثم كيف ألهمه الله الرفض ، وقد اعتقد وقتذاك انه انما ينفذ مشيئة حرمه فحسب ، فلم يدر له بخلد أنه جنب ابنه شر مأساة ينكب بها زوج ، وهل يمكن أن تنهج فتاة الا على مثال أمها ؟.. وأى أم ؟.. امرأة خطيرة ..! قد تكون جوهرة ثمينة عند أمثاله من الصيادين ، ولكنها فى البيوت مأساة دامية ، ترى أى طريق سلكت طوال الأعوام التى عاشها زوجها ميتا حيا ؟ .. كل القرائن تشير الى طريق واحد ، ولعل كثيرين من الجيران يعرفون ، بل لعله لو كان فى بيته من يحسن ملاحظة هذه الأمور لما خفى عليه شىء ، ولما بقيت زوجه على الولاء لها والايمان بها حتى هذه الساعة ، وعاودته رغبة ـ استحوذت عليه أول مرة عقب الزيارة المريبة القديمة ، ولم يجد عندئذ سبيلا آمنا الى تحقيقها دون اثارة الريب ـ وهى أن يحول بين المرأة المستهترة وبين

بيته الطاهر ، الآن يرى الظرف مهيأ — لاتصاله المنتظر بها — لتحقيق رغبته ، وذلك بأن يوحى لها بقطع أسبابها بزوجه رويدا منتحلا ما يعن له من اعذار حقيقة ببلوغ الهدف دون مساس بكرامتها ، هذه المرأة التى باتت أقرب ماتكون الى فؤاده وأبعد ماتكون عن احترامه فى لحظة واحدة ! .. ولما انتهى الحمزاوى من اعداد حوائجها نهضت مادة يدها الى السيد فسلم باسما وهو يقول بصوت خافت :

— الى اللقاء ...

فغمغمت وهى تهم بالانصراف :

— نحن فى الانتظار ..

غادرته اوفر سعادة ، نشوان بالظفر والعجب ، ولكنها خلقت له أيضا هما لم يكن ، هما جديرا بأن يحتل مكانا بارزا من مشاغله اليومية ، سوف يتساءل من الآن فصاعدا عن آمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذى يتساءل به عما فعلت السلطة العسكرية وعما يبيت الانجليز وعما ينوى سعد ، أجل جد جديد من السعادة يجر وراءه — كالعادة — ذيلا من الفكر . لولا حرصه الشديد على حب الناس له ، ذلك الحب الذى يحظى منه بأسعد سعاداته ، لهان عليه هجر العالمة بعد ان بلى حبه وذوت أزاهره واغرقه الشبع فى مستنقع آسن ، ولكنه يشفق دائما من ان يترك وراءه قلبا حانقا او نفسا حاقدة ، وكم يود كلما ضيق الملل انفاسه لو يبدأه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجورا بدل أن يكون هاجرا ، وكم يود أن تنتهى علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل ، بكدر عابر تغسله هدايا الوداع المنتقاة ، ثم يستحيل الى صداقة وطيدة ، فهل تتقبل زبيدة — التى يظن انها ليست دونه شبعا — اعتذاره بقبول حسن ؟ .. وهل يطمع فى ان تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر ؟. هل تثبت انها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلا ؟ . هذا ماينبغى أن يفكر فيه طويلا وان يهيىء له انجع الذرائع . وتنهد تنهدة طويلة كأنما يشكو ما جعل الحب فانيا لايدوم ليكفى القلب متاعب الاهواء ثم شرد به الخيال طاويا النهار فتراءى له وهو يدب فى الظلماء متلمسا سبيله الى البيت الموعود ، والمرأة تنتظر بيدها سراج ...

- ٥٢ -

أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية . فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها

كان فهمى يملى الكلمات ، كلمة كلمة . فى أناة وبصوت واضح النبرات والأم وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الاملاء الجديد الذى اتكب كمال على كتابته ، مركزا وعيه فى الفاظه من دون ان يفقه معنى كلمة مما كتب صوابا او خطأ . لم يكن غريبا ان يلقى فهمى على شقيقه الصغير درسا فى الاملاء أو غيرها فى جلسة القهوة ، ولكن موضوع الاملاء بدا جديدا حتى للأم وزينب ، أما ياسين فنظر الى أخيه مبتسما وقال :

ـ أرى هذه المعانى قد ملكت عليك نفسك .. فلم يفتح الله عليك باملاء لهذا الغلام المسكين الا خطبة سياسية وطنية ينفتح لها المغلق من ابواب السجون ..

فبادر فهمى الى تصحيح رأى أخيه قائلا :

ـ هى من خطبة سعد أمام أساطين الاحتلال فى جمعية الاقتصاد والتشريع ..

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة :

ـ وكيف كان ردهم عليه ... ؟

فقال فهمى بانفعال :

ـ لم يجىء ردهم بعد ، والكل يتساءل عنه فى حيرة وقلق ، انها غضبة مزمجرة فى وجه أسد لم يؤثر عنه الحلم أو العدل ..

ثم وهو يتنهد مغيظا محنقا :

ـ كان لابد من غضبة بعد أن منع الوفد من السفر ، وبعد أن استقال رشدى باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته ..

ثم مضى الى حجرته مسرعا ، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها الى أخيه وهو يقول :

ـ ليست الخطبة كل ما عندى ، اقرأ هذا المنشور الذى يوزع سرا متضمنا رسالة الوفد الى السلطان .

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ :

ـ يا صاحب العظمة ...

يتشرف الموقعون على هذا اعضاء الوفد المصرى ان يرفعوا الى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلى :

لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادىء الحرية ,والعدل اساسا للصلح وأعلنوا أن الشعوب التى غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها فى حكم نفسها أخذنا على عاتقنا السعى فى استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها امام مؤتمر السلام مادام أن الحق الأقوى قد زال من ميدان السياسة ، وما دامت بلادنا قد اصبحت بزوال السيادة التركية حـــرة من كل حق عليها لأن الحماية التى أعلنها الانجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة ، ولم تكن فى الواقع الا ضرورة حربية تزول بزوال الحـــرب ، اعتمادا على هذه الظروف وعلى ان مصر غرمت كل ماقدرت عليه من المغارم فى صف القائلين بحماية حرية الامم الصغرى ، لايكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادىء التى أسس عليها .

عرضنا رغبتنا فى السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدى باشا ، فوعد بمساعدتنا على السفر وتوقا منه باننا انما نعبر عن رأى الامة كافة .. فلمــا لم يســمح لنا بالسفر ,وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقــوة القانون ، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الامة الاسـيفة ، ولما لم يستطع دولته ان يحتمل مسئولية البقاء فى منصبه فى حين ان الشـعب يصادر فى مشيئته ، استقال هو وزميله صاحب المعالى عدلى يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما .

ولقد كان الناس يظنون انه كان لهما فى وقفتهما الشريفــة دفاعا عن الحرية عضد قوى من نفحات عظمتكم . لذلك لم يكن ايتوقع احــد فى مصر ان يكون اخر حل لمســألة سفر الوفد قبول استقــالة الوزيرين ، لأن فى ذلك متابعة للطامعين فى اذلالنا وتمكينا للعقبة التى القيت فى سبيل الادلاء بحجة الامة الى المؤتمر ، وايذانا بالرضى بحـكم الاجنبى علينـــا الى الابد .

قد نعــلم ان عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية ان تقبـــلوا عرش ابيكم العظيم الذى خلا بانتقال اخيكم المغفور له السلطان حسـين ، ولكن الامة من جهة اخرى كانت تعتقد ان قبولكم لهذا العرش فى زمــن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شـــانه ان يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم ، غير ان حل المسألة بقبول اســتقالة الوزيرين اللذين اظهرا احترامهما لارادةالامةلايمكن ان يتفق مع ماجبلتم

عليه من حب الخير لبلادكم . والاعتداد بمشيئة شعبكم . لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا الى الامة فى هذا الظرف العصيب انما تطلب منكم - با ارشد ابناء محررها الكبير محمد على - ان تكونوا لها العون الاول على نيل استقلالها . مهما كلفكم ذلك . فان همتكم ارفع من ان تحددها الظروف . كيف فات مستشاريكم ان عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة وطنية ان يخلفه فى مركزه ؟!.. كيف فاتهم ان وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟!

عفوا مولانا قد تكون مداخلتنا فى هذا الامر وفى غير هذا الظرف غير لائقة .. ولكن الامر قد جل الآن عن ان يراعى فيه اى اعتبار غير منفعة الوطن الذى أنت خادمه الامين . ان لمولانا أكبر مقام فى البلاد فعليه اكبر مسئولية عنها ، وفيه اكبر رجاء لها ، وانا لانكذبه النصيحة اذا تضرعنا اليه ان يتعرف راى امته قبل ان يتخذ قرارا نهائيا فى امرالازمة الحالية ، فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق احد فى رعاياه من اقصى البلاد الى اقصاها الا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الامة وبين طلبتها مسئولية لم يتحر مستشارو مولانا امرها بالدقة الواجبة . لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا واخلاصنا لمولانا ان نرفع لسدته شعور امته التى هى الآن اشد ماتكون رجاء فى استقلالها واخوف ماتكون من ان تلعب به ايدى حزب الاستعمار ، والتى تطلب اليه بحقها عليه ان يغضب لغضبها ويقف فى صفها فتنال بذلك غرضها .. وانه على ذلك لقدير .. »

رفع ياسين رأسه عن المنشور وفى عينيه ذهول وفى قلبه نبض جديد من التأثر ، بيد انه هز راسه قائلا :

- يا له من خطاب !.. لا احسبنى استطيع ان أوجه مثله الى ناظر مدرستى دون ان ينالنى العقاب الرادع !

فرفع فهمى منكبيه استهانة وقال :

- الأمر قد جل الآن عن ان يراعى فيه اى اعتبار غير منفعة الوطن !

ردد العبارة عن ظهر قلب كما وردت فى المنشور . فلم يتمالك ياسين ان يقول ضاحكا :

- احفظت المنشور !.. ولكنى لا اعجب لهذا ، كأنك كنت تترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كى تلقى اليها بكل قلبك ، ولعلى لا اخلو

من مثل شعورك وآمالك ، ولكنى لا أقرك على الاحتفاظ بهذا المنشور .. خصوصا بعد استقالة الوزارة وتحرش الاحكام العرفية ..

فقال فهمى فى فخار :

ـ انى لا احتفظ بها فحسب ، ولكني اقوم بتوزيعها ما سمح الجهد !

فاتسعت عينا ياسين فى قلق وهم بالكلام .. ولكن الام كانت اسبق اليه منه فقالت بانزعاج

ـ لا اكاد اصدق اذنى ، كيف تعرض نفسك للشر وانت سيد العقلاء؟!

لم يدر فهمى كيف يجيبها ، ولكنه شعر بما جره عليه تهوره من حرج ، لم يكن اشق عليه من محادثتها فى هذا الامر ، كانت السماء اقرب اليه من أقناعها بان تعريض نفسه للخطر فى سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كله لا يساوى فى نظرها قلامة ظفره ، بل قد بدا له ان اخراج الانجليز من مصر ايسر من حملها على الاقتناع بوجوب اخراجهم او اغرائها ببغضهم ، فما ان يدور الحديث حول ذلك حتى تقول ببساطة: « لماذا تكرههم يابنى ؟ .. اليسوا اناسا مثلنا لهم أبناء وامهات ؟ ! » فيقول لها بحدة : « ولكنهم يحتلون بلادنا ! » .. وتحس بحدة الغضب فى نبراته فتلوذ بالصمت وهى تدارى نظرة اشفاق لو نطقت لقالت له « لاعليك من هذا » .. ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها : « لاحياة لقوم اذا حكمهم اجنبى » فقالت له فى استغراب « ولكننا لانزل احياء رغم انهم يحكموننا من زمن بعيد ، وقد انجبتكم جميعا فى ظل حكمهم !.. انهم يابنى لايقتلون ولا يتعرضون للمساجد ولا تزال امة محمد بخير ! » فقال الشاب يائسا «لو كان سيدنا محمد حيا مارضى ان يحكمه الانجليز» فقالت بلهجة الحكيم « هذا حق ، ولكن اين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ .. كان الله يعينه بملائكته .. » فهتف بها حانقا « سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله » ولكنها هتفت وهى ترفع ذراعيها كانما تدفع بلاء لا دافع له « لا تقل هذا يابنى ، استغفر ربك ، اللهم رحمتك وغفرانك ! » .. هذه هى ، فكيف يجيبها الآن وقد استشعرت فى توزيع المنشور خطرا يتهدده ؟ .. لم يسعه الا ان يركن الى الكذب فقال متصنعا الاستهانة :

ـ ما اردت الا المزاح فلا تنزعجى للا شىء ..

فعادت المراة تقول بنبرات تنم عن ضراعة :

ـ هذا ما اومن به يابنى ، هيهات ان يخيب ظنى فى أرشد الراشدين،

مالنا نحن وهذه الامور ! اذا راى باشواتنا أن يخـرج الانجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم .

بدأ كمال طوال الحديث وكأنه يحاول ان يتذكر أمرا ذا بال . فما أن بلغ الحديث تلك النقطة حتى صاح :

ـ مدرس العربى قال لنا بالأمس أن الأمم تستقل بعزائم أبنائها ..!

فهتفت الأم ساخطة :

ـ لعله قصد بخطابه كبار التلاميذ ، ألم تحـدثنى يوما بان عنـدكم تلاميذ قد طرت شواربهم ؟

فتساءل كمال بسذاجة :

ـ وأخى فهمى أليس تلميذا كبيرا ؟

فقالت الأم بحدة على غير مألوفها :

ـ كلا ، ليس أخوك كبيرا ، انى أعجب لذلك المدرس كيف سولت له نفسه أن يتحدث اليكم فى غير الدرس ! .. اذا شاء ان يكون وطنيا حقا فليوجه هذا الكلام الى ابنائه فى البيت لا الى أبناء الناس !..

كاد الحديث يحمس ويستمر لولا ان سنحت كلمـة عابرة فغيرت مجراه ، أرادت زينب أن تتودد الى الأم بتأييدها فى دفاعها فحملت على مدرس العربى ونعتته بأنه « مجاور حقير جعلت الحـكومة منه رجـلا ذا شأن فى غفلة من الزمان » .. ولكن ما ان سمعت الأم هذه الاهانة توجه الى « المجاور » حتى أفاقت من انفعالها وأبت أن تسـكت عنها رغم أنها قيلت تأييدا لها ، مدفوعة بكل ما تنطوى عليه نفسها من اجلال لذكرى أبيها فتحولت الى زينب وقالت بهدوء :

ـ أنت يا ابنتى تحقرين أشرف ما فيه ، الشيوخ خلفـاء الرسـل ، انما يلام الرجل على خروجه عن حدود وظيفته الشريفة ، الا ليته قنع بان يكون مجاورا وشيخا !..

ولم يفت ياسين سر تحول الأم المفاجىء ، فبـادر بالتدخل ليمحـو الأثر الذى تركه دفاع زوجته البرىء ..

— ٥٣ —

— انظر الى الطريق ، انظر الى الناس ، من يقول بعد هذا أن الكارثة لم تقع ؟!

ولكن السيد احمد لم يكن فى حاجة الى مزيد من النظر ، الناس يتساءلون ، ويرجفون ، وأصحابه يخوضون فى الحديث خوضا حارا تجاوبت فيه الحسرة مع الحزن مع الغضب ، الى ان الخبر قد تردد على السنة كافة من مر به من الاصدقاء والزبائن ، اجمع الكل على ان سعد زغلول وصفوة اصحابه قد اعتقلوا وسيقوا الى مكان مجهول فى القاهرة او خارجها ، قال السيد محمد عفت وهو محتقن الوجه بدم الحنق :

— لا تشكوا فى صحة الخبر فان لأخبار السوء رائحة تزكم الأنوف .. الم يكن هذا متوقعا بعد خطاب الوفد للسلطان ؟.. او بعد رده على الانذار البريطانى بذلك الخطاب الجبار الى الوزارة الانجليزية ..؟!

فقال السيد بوجوم شديد :

— يعتقلون الباشوات الكبار ! .. ياله من حدث مخيف ، ترى ماعسى ان يصنعوا بهم ؟

— الله وحده يعلم ، البلد يختنق فى ظل الحكم العرفى ..

ودخل عليهم السيد ابراهيم الفار تاجر النحاس مهرولا وهو يهتف لاهثا :

— اما سمعتم بآخر الأنباء ؟! .. مالطة !

وضرب يدا بيد وراح يقول :

— النفى الى مالطة ، لم يعد احد منهم بيننا ، نفوا سعد واصحابه الى جزيرة مالطة ..

وهتف الجميع فى نفس واحد :

— نفوهم !..

اثار « النفى » فى نفوسهم ماخامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة اسيفة عن عرابى باشا ونهايته ، فتساءلوا وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع : ايجرى نفس المصير على سعدزغلول وصحبه ؟ ... اينقطع حقا ما بينهم وبين الوطن الى الأبد ؟.. اتموت هذه الآمال الكبار وهى لا تزال فى مهد الازهار ؟.. وشعر السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل ، حزن

ثقيل غليظ شاع فى صدره كما يشيع الغيان . فعانى تحت وطأته خمودا وهمودا واختناقا . وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة . ناطقة بغير لسان ، صارخة بلا صوت ، ثائرة بلا صخب ، وفى الريق مرارة واحدة ، ثم جاء فى اثر الفار صاحب وثان وثالث مرددين نفس النبأ . آملين أن يجدوا عند الآخرين مسكنا لما يستعر فى نفوسهم . فلا يظفرون الا بالحزن الصامت والوجوم الكئيب والثوران الكظيم

ــ هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس ؟

فلم يحر احد جوابا ، ولبث المتسائل يقلب عينيه فى الوجوه دون جدوى. لا جواب تأوى اليه النفس من مضطربها وان ابت أن تسلم جهارا بما يميتها خوفا ، نفى سعد .. هذا حق ، ولكن هل يعود سعد ولو بعد حين ؟ .. وكيف يعود سعد ؟ .. أية قوة تعيده ؟ .. لن يعود سعد . فأين تذهب هذه الآمال العراض ؟ .. لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة حارة عميقة يأبى استحواذها عليهم أن يسلمهم لليأس ولكنهم لا يدرون كيف يعللون النفس ببعثها من جديد .

ــ ولكن أليس ثمة أمل فى أن يكون الخبر شائعة كاذبة !

لم يعر أحد القائل التفاتا ، فى حين لم يحفل هو بهذا التجاهل لانه لم يقصد بقوله فى الحق الا تلمس مهرب ــ ولو وهمى ــ من اليأس الخانق

ــ أسره الانجليز .. ومن ذا يغالب الانجليز !

ــ رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة باهرة ، ومضى ..

ــ كالحلم .. وسوف ينسى فلا يبقى منه الا ما يبقى من حلم عند الضحى ..

وهتف هاتف بصوت أبحه الألم :

ــ الله موجود !..

فهتفوا بصوت واحد :

ــ نعم .. وهو أرحم الراحمين

ذكر اسم الله فكان كالقطب المغطس ، جذب اليه شواردهم وجمع افكارهم التى شتتها اليأس . فى مساء ذلك اليوم ــ ولأول مرة منذ ربع قرن أو يزيد ــ بدا مجلس الاخوان مجافيا للهو والطرب يغشاه الوجوم ، وتتجه احاديثه جميعا الى الزعيم المنفى ، قهرهم الحزن ، وان يكن وجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة فى الشراب مثلا ، فقد غلب الأولى على الثانية احتراما للشعور العام ومجاراة للموقف ، بيد أنه لما طال بهم مطال الحديث حتى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه الصمت ،

وما لبث أن ركبهم قلق خفي وشي بحكة الادمان التى تئن فى أعماقهم فبدوا وكأنهم ينتظرون اشارة الجسور الذى يتقدم الصفوف ، ولكن السيد محمد عفت قال فجأة :

— آن لنا ان نعود الى بيوتنا ..

لم يكن يعنى ما يقول ، ولكن كأنما أراد ان ينذرهم بأنهم اذا تركوا الوقت يمضى كما مضى فلن يبقى أمامهم الا أن يعودوا الى بيوتهم ، وكانت المعاشرة الطويلة لقنتهم دقيق التفاهم بالاشارة فتشجع على عبد الرحيم بائع الدقيق بهذا الانذار الخفى وقال :

— أنعود الى البيوت دون كأس يخفف من بلاوى هذا اليوم !

فأحدث قوله فى النفوس ما يحدثه الجراح فى أهل المريض اذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول : « الحمد لله .. نجحت العملية » ، الا أن الذى تنازعه الحزن والرغبة فى الشراب قال فيما يشبه الاحتجاج متسترا على ما اثلج صدره من ارتياح :

— نشرب فى مثل هذا اليوم ؟!

فحدجه السيد أحمد بنظرة ذات معنى ، ثم قال متهكما :

— دعهم يشربون وحدهم وهلم بنا الى الخارج يا ابن .. الكلب ..

ندت عنهم ضحكات لأول مرة ثم جاءوا بالقوارير وكأنما اراد السيد ان يعتذر عن هذا السلوك فقال :

— ان اللهو لا يغير ما بقلوب الرجال !.

فأمنوا على قوله ، كانت اول ليلة يترددون طويلا قبل الاستجابة الى نداء الصبوات ، وما لبث السيد أن قال متأثرا بمنظر القوارير :

— انما ثار سعد لاسعاد المصريين لا لتعذيبهم فلا تخجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب

لم يكن الحزن مما يمنعه من المزاح ، بيد ان الليلة لم تهنا بصفاء خال من الكدر ، حتى وصفها السيد فيما بعد بأنها «ليلة مريضة تداووا فيها بجرعات من الخمر ! »

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدى فى جو من الوجوم لم تعهده من قبل ، انطلق فهمى فى حديث ثورى طويل والدموع فى عينيه ، واستمع ياسين آسفا حزينا ، وودت الأم أن تبدد الكآبة او تخفف البلاوى ولكنها اشفقت من انقلاب غرضها عليها ، ثم ما لبثت عدوى الحزن أن انتقلت اليها فرق قلبها للشيخ العجوز الذى انتزعوه من بيته وزوجه الى منفى بعيد ، قال ياسين :

ـ امر محزن ، رجالنا جميعا ، عباس ومحمد فريد وسعد زغلول .. مشردون بعيدا عن الوطن ..

فقال فهمى بانفعال شديد :

ـ يا لهم من أوغاد هؤلاء الانجليز !.. نخاطبهم باللغة التى كانوا يستعطفون بها الناس فى محنتهم فيجيبون بالانذارات العسكرية والنفى والتشريد ..

لم تطق الأم أن ترى ابنها منفعلا على تلك الحال فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقة واستعطاف :

ـ ارحم نفسك يابنى ، ربنا يلطف بنا !

ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجا فصاح دون أن يلتفت اليها :

ـ اذا لم نقابل الارهاب بالغضب الذى يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم ، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذى قدم نفسه فدية لها يعانى عذاب الأسر ..!

فقال ياسين متفكرا :

ـ من حسن الحظ أن الباسل باشا بين المنفيين انه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظن رجاله يسكتون على نفيه ..

فقال فهمى بحدة :

ـ والآخرون ..؟ أليس وراءهم رجال أيضا ؟.. انها ليست قضية قبيلة ولكنها قضية الأمة كلها ..

جرى الحديث بلا توقف وما يزداد الا حدة وعنفا ولكن المرأتين لاذتا بالصمت اشفاقا ورهبة ، لم تستطع زينب أن تدرك بواعث هذه الثورة العاطفية فلم تفهم لها معنى ، نفى سعد ورجاله معه ، ومن المؤكد أنهم لو عاشوا كما يعيش « عباد الله » ما فكر أحد فى نفيهم ، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، أرادوا أمورا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمة ضرورة تدعو اليها ، ومهما يكن من أمرهم فماذا يبعث فهمى على هذا الغضب الجنونى كأن سعدا أبوه أو أخوه ؟!.. بل ماذا يبعث ياسين ـ وهو الرجل الذى لا يأوى الى فراشه الا مترنحا من السكر ـ على هذا الأسف ؟!.. أيحزن حقا من كان مثله على نفى سعد أو غيره من الناس ؟!.. كأن حياتها فى حاجة الى مزيد من التنغيص حتى يعكر فهمى عليها صفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التى لا معنى لها ، جعلت تفكر فى هذا كله وهى تلحظ زوجها من آن لآخر متعجبة ساخطة ولسان حالها يقول له : « ان كنت صادقا حقا فى حزنك فلا تذهب هذا

المساء — هذا المساء فقط الى الحانة ! » ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، كانت احكم من ان تلقى بأفكارها الباردة فى هذا التيار النارى ، فى هذه الناحية الأخيرة شابهتها الأم التى سريعا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وان هان ، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهى تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج ، ولكنها كانت اعظم من زوج ياسين ادراكا لبواعث هذه العواصف فان راسها لم يخل من ذكرى عرابى كما أن قلبها لم يخل من اسف على افندينا ، اجل لم تكن كلمة « المنفى » عاطلة من المعانى فى نفسها ، بل لعلها خلت من الأمل الجدير بأن يداعب شخصا كفهمى فقد اقترنت فى ذهنها — كما اقترنت فى ذهن زوجها واصحابه — باليأس من العودة ، والا فاين افندينا ؟.. ومن اجدر منه بالعودة الى وطنه ؟.. ولكن أيظل فهمى على حزنه ما امتد النفى بسعد ... ترى اى نحس فى هذه الأيام يأبى الا أن يبيتهم بنبأ ويصبحهم بنبأ حتى زلزل أمنهم وكدر صفوهم ؟! كم تتمنى ان يعود السلام الى ربوعه ، وان تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كله ، وان تنبسط اسارير فهمى ويلذ الحديث ، كم تتمنى ...

— مالطة ..! هذه هى مالطة !

هكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع راسه عن خريطة البحر الابيض وقد ثبت اصبعه على رسم الجزيرة ونظر الى اخيه بظفر وسرور كانما عثر على سعد زغلول نفسه ، ولكنه وجد منه وجها متجهما كالحا ، لا استجاب الى ندائه ولا اعاره أدنى اهتمام فباخ الغلام واعاد بصره الى رسم الجزيرة فى ارتباك وحياء ، ومضى يتأمله طويلا وهو يقيس ببصره المسافة بينه وبين الاسكندرية وبينه وبين القاهرة ويتخيل صورة مالطة الحقيقية ما شاء له الخيال ، ومنظر أولئك الرجال الذين يتحدثون عنهم وهم مسوقون اليها ، ولما كان قد سمع فهمى وهو يقول عن سعد ان الانجليز انتزعوه على اسنة الرماح فانه لم يسعه أن يتصوره الا محمولا على اسنة الرماح ، لا متألما أو صارخا كما يتوقع فى مثل تلك الحال ولكن « ثابتا كالطود » كما وصفه اخوه أيضا فى مرحلة اخرى من الحديث ، وكم ود لو يستطيع ان يسائل اخاه عن كنه ذلك الرجل الساحر العجيب الذى يثبت على اسنة الرماح كالطود . ولكنه حيال ثورة الغضب التى التهمت سلام المجلس كله اجل تحقيق رغبته الى فرصة انسب ، واخيرا ضاق فهمى بمجلسه بعد ان أيقن ان مابصدره من عاطفة اكبر من أن تروح عنها محادثة اخيه فى هذا المكان الذى يقف

من شعوره موقف المتفرج ان لم يكن موقف الانكار . نازعته نفسه الى الاجتماع باخوانه فى قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه الى الاعراب عما يضطرم فى قراراتها من الاحساس والرأى ، هناك يسمع أصداء الغضب المتقد فى قلبه ويستأنس بايحاءاته الجسورة الملتهبة فى جو باهر من التعطش الى الحرية الكاملة . مال الى اذن ياسين وهمس :

ـ الى قهوة احمد عبده ..

فتنفس ياسين من الأعماق لأنه كان بدأ يتساءل وهو من الحرج فى غايته ـ عن وسيلة لبقة ينسحب بها من المجلس ، ليمضى الى سهرته . دون ان يزيد من غضب فهمى اشتعالا . لم يكن مابه من أسف تصنعا . أو لم يكن تصنعا كله ، هز النبأ الخطير قلبه ، ولكنه لو ترك الى نفسه لتناساه بغير جهد كبير ، ولما فرض على أعصابه مافرض من تكلف مجاراة لفهمى ومجاملة له واحتراما لغضبه الذى لم يسبق له أن رآه على مثله من قبل ، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه : « حسبى اليوم مابذلت من جهد فى سبيل الحركة الوطنية فان لبدنى على حقا »

— ٥٤ —

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمى عينيه ، كانت الحجرة مغلقة النوافذ ، فى شبه ظلام الا مالاح من نور باهت وراء خصاص النوافذ ، ترامى الى أذنيه همس أنفاس كمال المترددة فعطف راسه الى فراشه القريب ، ثم انسالت عليه ذكريات الحياة ، هذا صباح جديد ، انه يستيقظ من نوم عميق سلمه الى تعب شمل النفس والجسم ، وانه لا يدرى ان كان يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لايستيقظ أبدا ، لا يدرى ولا أحد يدرى ، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولا وعرضا ويرقص فى أركانها ، يالعجب ، هاهى أمه تعجن كعهدها منذ قديم ، وها هو كمال يغط فى نومه ويتقلب فى أحلامه ، وذاك ياسين يدل وقع قدميه فوق سقف الحجرة على انه انتزع نفسه من الفراش اما أبوه فلعله الآن منتصب القامة تحت ماء الدش البارد ، وهاهو نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن طلائعه فى رقة بالغة ، كل شىء يواصل حياته المعهودة كأن شيئا لم يحدث ، كأن مصر لم تنقلب رأسا على عقب ، كأن الرصاص لايعزف

باحثا عن الصدور والرءوس .. كأن الدم الزكى لايخضب الأرض والجدران ، واغمض الشاب عينيه وهو يتنهد مبتسما الى تيار مشاعره الزاخر بما يحمل فى موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وايمان ، حقا لقد حيى فى الأيام الأربعة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل ، أو انه لم يعرفها الا أطيافا فى احلام اليقظة ، حياة طاهرة رفيعة، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر فى سبيل شىء باهر اثمن منها واجل ، تتعرض للموت بلا مبالاة ، وتستقبله بعناد ، وتهجم عليه باستهانة ، واذا افلتت من مخالبه مرة عادت اليه كرة اخرى متنكبة عن ذكر العواقب جانبا ، شاخصة طوال الوقت الى نور رائع عنه لاتحيد ، مدفوعة بقوة لاقبل لها بها ، مسلمة مصيرها لله وهى تشعر به محيطا بها كالهواء يغمرها من كل جانب ، هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة ، وجلت كغاية حتى وسعت السماوات والأرض ، تآخى الموت والحياة فكانا يدا واحدة فى خدمة امل واحد ، هذه تؤيده بالجهاد وذاك يؤيده بالفداء ، او ان الانفجار الرهيب لم يقع لمات غما وكمدا ، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادىء الوئيد على اطلال الرجال والآمال ، كان لابد من انفجار ينفس عن صدر الوطن وصدره كالزلزال الذى ينفس عن ابخرة باطن الأرض المتجمعة ، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فالقى بنفسه فى خضمها .. متى حدث هذا ؟ .. وكيف حدث ؟ .. كان راكبا ترام الجيزة فى طريقه الى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوحين بقبضاتهم ، نفى سعد وهو يعبر عن قلوبنا فاما ان يعود سعد ليواصل جهاده واما ان ننفى معه، وانضم الراكبون من الأهالى اليهم فى الحديث والوعيد حتى الكمسارى اهمل عمله ووقف ينصت ويتكلم ، يالها من ساعة !.. فيها اشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من الحزن واليأس قاتمة ، فأيقن أن هذه النار المتقدة لن تخمد ولن تبرد ، ولما اقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظا صاخبا مرعدا فسبقتهم قلوبهم اليه ، ثم هرعوا الى زملائهم تحدثهم نفوسهم بحدث وشيك ، وما لبث أن انبرى احدهم مناديا بالاضراب !.. شىء جديد لم يسمع من قبل ، بيد انهم هتفوا بالاضراب وهم يتابعون كتب القانون وجاءهم ناظرهم المستر والتون فى لطف غير معهود ونصحهم بالدخول الى الفصول فكان الجواب أن صعد شاب منهم الى أعلى السلم المفضى الى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر الا الانسحاب ، انصت الى الخطيب بمجامع روحه وعيناه شاخصتان الى عينيه وقلبه

يتابع دقاته فى سرعة ونشاط ، كم ود لو يصعد الى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر ، ولكنه لم يكن ذا استعداد قوى للخطابة فقنع بأن يردد غيره هواتف نفسه ، وتابع الخطيب بانتباه حماسى حتى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعا فى نفس واحد « يحيا الاستقلال » ثم تابع الانصات باهتمام بث الهتاف فيه حيوية جديدة حتى انتهى الخطيب الى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين «لتسقط الحماية» ووالى الاصغاء بجسم متصلب من الانفعال وهو يعض على اسنانه ليحبس الدمع الذى زوره جيشان نفسه حتى اذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين « يحيا سعد » ، هتاف جديد ، وكل شىء جديدا بدا ذلك اليوم . بيد انه هتاف مطرب رجعه قلبه من الأعماق وظل يردده مع دقاته المتتابعة كانه صدى للسانه ، بل هتاف لسانه كان صدى لقلبه ، فانه ليذكر كيف ردد قلبه هذا الهتاف فى صمت مكظوم طوال الليلة السابقة للانفجار التى باتها مغموما محسورا ، كانت عواطفه المكبوتة ، حبه وحماسه وطموحه وتطلعه الى المثل الاعلى واحلامه تائهة مبعثرة حتى انطلق صوت سعد مدويا فانجذبت طائرة اليه كما ينجذب الحمام السابح فى الفضاء الى صفير صاحبه ، ثم مايدرون الا والمستر ايموس نائب المستشار القضائى البريطانى لوزارة الحقانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد « لتسقط الحماية . . لتسقط الحماية » فتلقاهم الرجل ببرود لم يخرق به حد اللطف ونصحهم بالعودة الى دروسهم داعيا اياهم الى ترك السياسة لآبائهم ، هناك تصدى له احدهم قائلا :

— ان آباءنا قد سجنوا ، ولن ندرس القانون فى بلد يداس فيه القانون.

وتعالى الهتاف من اعماق القلوب كهزيم الرعد فانسحب الرجل مسرعا. ود الشاب مرة ثانية لو كان هو القائل ، لشد ماتنثال المعانى على روحه ولكن يسبقه السابقون الى اعلانها فيشتد حماسه ويتعزى بأن فيما ينتظره عوضا عما يفوته ، وجرت الامور سراعا ، دعا الداعى الى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجهوا الى مدرسة المهندسخانة فسرعان ما انضمت اليهم ثم الى الزراعة فهرع طلبتها اليهم هاتفين كأنهم على ميعاد ، ثم الى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت اليها جموع الاهالى وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد ، وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وايمانا بما يلقون فى كل مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديهية ، وما يصادفون من نفوس متحفزة تتصدعت بالغضب حتى وجدت فى مظاهرتهم المتنفس ، تساءل —

ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه - « كيف حدث هذا كله ! ؟ » . . . لم تكن مضت الا بضع ساعات على الصباح الذى شهد قنوطه وانهزامه ، ها هو الان ، قبيل الظهر «يشترك فى مظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كل قلب بأنه صدى لقلبه ، ويردد هتافه ، ويناشده بايمان لا يتزعزع ان يسير الى النهاية ، فاى سرور سروره ، واى حماس حماسه ! . . لقد انطلقت روحه فى سماء من الأمل لاتحدها الآفاق ، نادمة على ما اعتورها من قنوط خجلة بما رمت به الابرياء من ظنون ، وفى ميدان السيدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب . راى مع الرائين جماعات من فرسان البوليس وعلى راسها مفتش انجليزى تتقدم ساحبة وراءها ذيولا من الغبار ، والارض تضطرب تحت وقع السنابك ، انه ليذكر كيف مد بصره نحوهم فى ذهول من لم يسبق له ان وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم ، وتلفت فيما حوله فراى وجوها يلمع فى محاجرها الحماس والغضب فتنهد فى عصبية ولوح بيده هاتفا ، احاط الفرسان بجموعهم ، ولم يعد يرى من الخضم الهائل الذى يضطرب فيه الا رقعة محدودة يفرق بين رءوسها المشرئبة ، ثم ترامى اليهم ان البوليس اعتقل طلابا كثيرين ممن تصدوا لمخالفته او كانوا على راس المظاهرة فللمرة الثالثة ذلك اليوم تمنى ، وكان تمنيه ان يكون بين المعتقلين ولكن من دون ان يخرج من الدائرة التى يتحرك فيها بجهد جهيد . .

على ان ذاك اليوم كان يوم سلام بالقياس الى اليوم الذى تلاه ؛ بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم اضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس باعلامها وحشود من الاهالى لا يحيط بها الحصر ، بعثت مصر بلدا جديدا يبكر الى الاحتشاد فى الميادين للحرب بغضب طال كتمانه ، والقى هو بنفسه بين الجموع فى نشوة فرح وحماس كانه تائه ضال عثر على أهله بعد فراق طويل ، وسارت المظاهرة مسيرا مشهودا مارة بدور المعتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات ، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم : « الانجليز ! » وما لبث ان فرقع الرصاص مغطيا على اصوات الهاتفين فسقط اول القتلى ، وواصل قوم تقدمهم فى حماس جنونى ، وتسمر آخرون ، وتفرق كثيرون يلوذون بالبيوت والمقاهى ، وكان هو ضمن الآخرين ؛ اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسيا كل شىء الا حياته ، ولبث على ذلك زمنا لا يدريه حتى شمل السكون الدنيا جميعا فمد راسه ، ثم قدمه ، ومضى الى حال سبيله غير مصدق بالنجاة وعاد

الى بيته فيما يشبه الذهول ،وفى وحدته الحزينةتمنى لوكان من الذاهبين او فى الاقل من الثابتين ، وفى وقدة الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتكفير ، ومن حسن الحظ أن بدا ميدان التكفير منسعا وقريبا

وجاء الثلاثاء والاربعاء فكانا كالاحدوالاثنين ، ايام متشابهات فىافراحها واحزانها ، مظاهرات فهتاف فرصاص فضحايا ، القى بنفسه فى خضمها جميعا يندفع بحماس ، ويسمو الى افاق بعيدة من الاحساس النبيل . ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة ! ثم ضاعف من حماسه وامله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث ان اضرب عمال الترام وسائقو السيارات والكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة . وترامت الاخبار حاملة البشرى بقرب اضراب المحامين والموظفين . ان قلب البلاد يخفق حيا ثائرا ولن تذهب الدماء هدرا ولن ينسى المنفيون فى منفاهم . لقد زلزلت اليقظة الواعية ارض وادى النيل ..

تقلب الفتى فى فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقات العجن مرة اخرى مقلبا ناظريه فى اركان الحجرة التىاخذت تستبين على النور المشرق رويدا وراء النوافذ المغلقة . امه تعجن ! .. ولن تزال تعجن صباحا بعد صباح ، هيهات ان يشغلها حدث عن التفكير فىاعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الاثاث ، ان كبار الحادثات لا يعطل صغار الاعمال ، وسيتسع صدر المجتمع دائما للجليل والتافه من الامور فيرحب بها جنبا الى جنب ، ولكن مهلا ، ليست ام على هامش الحياة هى التى انجبته والابناء وقود الثورة ، وهى التى تغذيه والغذاء وقود الابناء . الحق ان ليس ثمة شىءتافه فى الحياة.. ولكنالايجىء يوم يهز فيهالحادث الكبير المصريين جميعا فلا تتفرق عنده القلوب كما تفرقت فى مجلس القهوة منذ خمسة ايام ؟.. الا ما ابعد هذا اليوم !.. ثم جرت على شفتيه ابتسامة اذ وثب الى ذهنه هذا السؤال : ما عسى ان يصنع والده اذا علم « بجهاده » المتواصل يوما بعد يوم ؟ . ماذا يصنع ابوه الجبار المستبد وماذا تصنع امه الرقيقة الحنون ؟ » .. ابتسم فى حيرة وهويعلم ان المتاعب التى قد تعترضه فى تلك الحال ليست دون المتاعب التى قد تعترضه اذا نمى سره الى السلطة العسكرية نفسها ..ثم ازاح الغطاء عن صدره وجلس فى الفراش وهو يغمغم « سيان ان احيى او ان اموت ،

الايمان اقوى من الموت ، والموت اشرف من الذل ، فهنيئا لنا الأمل الذى هانت الى جانبه الحياة . اهلا بصباح جديد من الحرية ، وليقض الله بما هو قاض . . . »

- ٥٥ -

لم يعد احد يستطيع الادعاء بان الثورة لم تغير ولو وجها من وجوه حياته ، حتى كمال نفسه عرض لحريته التى تمتع بها طويلا فى ذهابه الى المدرسة وايابه منها طارىء ثقيل ضاق به كل الضيق وان لم يستطع له دفعا ، ذلك ان الام امرت ام حنفى بان تتبعه فى ذهابه الى المدرسة وعند ايابه منها ، والا تتخلى عنه بحال كى تعود به الى البيت اذا صادفتها مظاهرة دون ان تدع له فرصة للتلكؤ او مطاوعة نزوات الطيش ، دار راس الام بانباء المظاهرات والاضطرابات وارتج قلبها لحوادث الاعتداء الوحشى على الطلبة فعانت من ذاك الزمن اياما كالحات ملاتها هلعا وجزعا فودت لو تستبقى ابنيها الى جانبها حتى تثوب الامور الى مستقرها ، ولكنها لم تجد الى تحقيق مرادها من سبيل خصوصا بعد ان وعد فهمى - وهو من ثقتها فى « عقله » لا تتزعزع - انه لا يشترك فى الاضراب بتاتا ، وبعد ان رفض الأب فكرة إستبقاء كمال فى البيت لعلمه بأن المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك فى الاضراب ، سلمت الام بذهاب الاخوين الى المدرسة على كره منها ولكنها فرضت على كمال رقابة ام حنفى وهى تقول له : « لو كان بوسعى ان اخرج كما اشاء لتبعتك بنفسى » وقد عارضها كمال بما وسعه من قوة لانه ادرك بالبداهة ان هذه الرقابة التى لن تخفى عن امه خافية من شئونه ستقضى قضاء مبرما على كل ما يتمتع به فى الطريق من الوان العبث والشطارة ، وانها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما : البيت والمدرسة ، الى هذا امتعضت نفسه ، اشد الامتعاض من السير فى الطريق مصطحبا هذه المراة التى ستلفت الانظار حتما ببدانتها المفرطة ومشيتها المتهالكة ، ولكنه لم يسعه الا ان يذعن لرقابتها سيما بعد ان امره ابوه بقبولها ، فصارى ما استطاعه تنفيسا عن صدره انه كان ينتهرها كلما تدانت منه ، وانه حتم عليها ان تتأخر عنه مسيرة امتار ، على تلك الحال مضيا الى مدرسة خليل اغا صباح الخميس وهو خامس ايام المظاهرات

فى القاهرة ، ولما بلغا باب المدرسة اقتربت أم حنفى من البواب وسألته تنفيذا للامر اليومى الذى تلقته فى البيت :

ــ هل يوجد تلاميذ فى المدرسة ؟

فاجابها الرجل بغير اكتراث :

ــ منهم من يدخل ومنهم من يذهب ، والناظر لا يتعرض لاحد . .

كانت هذه الاجابة مفاجأة سيئة لكمال ، كان مهيأ النفس لسماع الاجابة التى باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهى « التلاميذ مضربون » فيعودان الى البيت حيث يمضى سحابة النهار فى حرية حببت الى قلبه الثورة من بعيد ، ونازعته نفسه الى الهرب تفاديا من عواقب الاجابة الجديدة فخاطب البواب قائلا :

ــ انا ممن يذهبون . .

وابتعد عن المدرسة والمرأة فى اثره ، بيد انها سألته : لماذا لا يدخل مع الداخلين فرجاها مترددا لاول مرة فى حياته ــ ان تقول لامه ان التلاميذ مضربون ، وزيادة فى الرجاء والتودد دعا لها ــ وهما يمران بجامع الحسين ــ بطول العمر والسعادة الا ان ام حنفى لم تستطع الا ان تصارح الام بالحقيقة كما سمعتها فانبته الام على كسله وامرت المرأة بان تعود به الى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلقها بلسان حاد راميا اياها بالخيانة والغدر ، لم يجد فى المدرسة الا لداته . . ذوى الاسنان الصغيرة ، أما من عداهم ، وهم الاغلبية الساحقة ، فكانوا مضربين ، والقى فى فصله ، الذى كان يتوافر له من صغار التلاميذ مالم يتوافر لغيره من الفصول ــ نحوا من ثلث التلاميذ ، بيد ان المدرس امرهم بان يراجعوا دروسهم السابقة وانكب هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم فى شبه اضراب فى الواقع . فتح كمال كتابا متظاهرا بالقراءة دون ان يعيره ادنى انتباه فقد ساءه البقاء فى المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو فى البيت يتمتع بالفراغ الذى جاءت به هذه الايام العجيبة بلا حسبان ، ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل ، وهفا خياله الى اولئك المضربين فى الخارج بدهشة واستطلاع ، كثيرا ما تساءل عن حقيقة أمرهم ، أهم كما تدعى امه « متهورون » لا يرحمون انفسهم ولا اهليهم ملقين بارواحهم الى التهلكة ام هم كما يصفهم فهمى ابطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟!. . وكثيرا ما مال الى راى امه لحنقه على التلاميذ الكبار ــ فئة المضربين ــ الذين خلفوا فى نفسه ونفوس اضرابه من التلاميذ الصغار اسوأ الاثار بما ينالهم على ايديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدونهم فى فناء المدرسة

بضخامة اجسامهم وفحة شواربهم ، بيد انه لن يستسلم الى هـذا الراى كل الاستسلام طالما كان لقول فهمى من الاقناع فى نفسه مالا قبل له بالاستهانة به ، ان يسعه ان يسلبهم ما يضفيه عليهم من ضروب البطولة حتى ود لو يطلع من مكان آمن على معاركهم الدامية ، قامت قيامة الدنيا ما فى ذلك من شك ، او فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جماعات الى الاشتباك بالجنود ؟!.. واى جنود ؟!.. الانجليز !.. الانجليز الذين كان يكفى ذكر اسمهم لاخلاء الطرقات !.. ماذا حدث للدنيا وللناس ؟! ذاك صراع عجيب قضى عنفه بان تنقش عناصره الجوهرية فى نفس الغلام بلا وعى أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول . الانجليز . الطلبة . الشهداء . المنشورات ، المظاهرات ، من القوى المؤثرة الموحية فى اعماقه وان وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر . وضاعف من حيرته ان آله استجابوا للحوادث استجابة متباينة واحيانا متناقضة ، فبينا يجد فهمى ثائرا يحمل على الانجليز يحنق قاتل ويحن الى سعد حنينا يفجر الدمع ، اذا بياسين يناقش الاخبار فى اهتمام رصين مشوب بأسف هادىء لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الاشعار والقصص ، ثم السهر حتى منتصف الليل ، إما امه فلا تكف عن دعاء الله ان ينشر السلام ويعيد الامان ويصفى قلوب المصريين والانجليز جميعا ، والادهى من كل اولئك زينب زوجة اخيه التى افزعتها الاحداث فلم تجد من تصب عليه غضبها الا سعد زغلول نفسه متهمة اياه بانه سبب هذا الشر كله ، وانه « لو عاش كما يعيش عباد الله فى دعة وسلام ما تعرض له احد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران » .. لذلك كان حماس الغلام يستعر لفكرة الصراع نفسه ، وحزنه يفيض بفكرة الموت فى ذاته دون ان يكون لنفسه معنى واضحا لما يدور حوله من بعيد او قريب ، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل اغا الى الاضراب — لاول مرة — فسنحت له فرصة طيبة ليشهد مظاهرة عن كثب او يشترك فيها ولو فى فناء المدرسة ، ولكن الناظر بادر الى حجز صغار التلاميذ فى فصولهم فافلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت الى الهتافات العالية فى دهشة ممزوجة بسرور خفى ، لعل مبعثه الفوضى التى نشبت فى كل شىء فعصفت بالروتين اليومى الثقيل بلا رحمة . افلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك فى مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ فى البيت ، وسيبقى مغلولا فى هذه الجلسة المملة ينظر فى الكتاب بعينين لا تريان شيئا ، ويسترق لمسات مع رفيقه على القمطر فى جذر

وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل . ولكن ثمة شيء استرعى انتباهه فجأة ، قد يكون صوتا غريبا بعيدا أو وشا فى الأذن ، ولكى يستوثق من حاسته نظر فيما حوله فرأى رءوس التلاميذ مرفوعة واعينهم تتبادل النظرات ثم تتجه معا صوب النوافذ المطلة على الطريق، انه حقيقة وليس وهما ما استرعى انتباهم ، انها اصوات مندمجة فى صوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد ، الآن وقد أخذت تشتد يمكن ان تسمى ضوضاء ، بل ضوضاء تقترب ، وسرت فى الفصل حركة وتعالى الهمس ثم ارتفع صوت قائلا « مظاهرة ! .. » فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب . وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافا يرعد ويزمجر فى جميع الجهات المحيطة بالمدرسة ، وعادت تقرع اذنيه الاسماء التى ملات ذهنه طوال الايام الماضية:

سعد ... الاستقلال ... الحماية ، وتدانى الهتاف وعلا حتى اطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت قلوب التلاميذ وايقنوا ان الطوفان لابد مغرقهم ، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صبيانى تنكب عن تقدير العواقب فى حمية نزوعه الى الفوضى والانطلاق ، ثم ترامى اليهم وقع اقدام مقبلة فى سرعة وصخب ، ثم فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت الى الحجرة جماعات من الطلبة والازهريين كما تندفع المياه من فوهة الخزان وهم يصيحون « اضراب .. اضراب .. لا ينبغى ان يبقى احد » .. وفى لحظات وجد نفسه غائصا فى موج مصطخب يدفعه امامه دفعا يعطل كل مقاومة وهو من الاضطراب فى غاية. تحرك فى بطء شديد تحرك حبوب البن فى فوهة الطاحونة لا يدرى اين تقع عيناه ، ولا يرى من الدنيا الا اجساما متلاصقة فى ضجة تصك الآذان حتى استدل بظهور السماء فوق راسه على بلوغ الطريق ، واشتد الضغط عليه حتى كادت تكتم انفاسه فصرخ صراخا حادا عاليا متواصلا من شدة الفزع ، وما يدرى الا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهى تشق بين الناس طريقا حتى الصقته بجدار على الطوار ، فراح يلهث ويتلمس فيما حوله منجى حتى عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد انزل بابها الحديدى الى ما فوق العتبة بقليل فهرع اليه ودخل زحفا على ركبتيه ، ولما قام فى الداخل رأى عم حمدان الذى كان يعرفه حق المعرفة وامرأتين وبعض صغار التلاميذ فاسند ظهره الى جدار القائمة التى تحمل الصوانى وصدره يعلو وينخفض بلا توان . وسمع عم حمدان وهو يقول :

ـ ازهريون ، طلبة ، عمـال ، اهالى ... جميع الطرقات المؤدية الى الحسين مكتظة بالبشر .. ما كنت احسب قبل اليوم أن الأرض تستطيع ان تحمل كل هؤلاء البشر ..

احدى المراتين بدهشة :

ـ كيف يصرون على التظاهر بعد ما كان من اطلاق النار عليهم ؟!

المراة الاخرى بحسرة :

ـ ربنا الهادى ، كلهم ابناء ناس يا ولداه ..

فقال عم حمدان :

ـ لم نر شيئا كهذا من قبل ، ربنا يحميهم ..

تفجر الهتاف فى الحناجر يزلزل الجو زلزالا ، حينـا عن قرب كانه يدوى فى الدكان . وحينا عن بعد فى ضوضاء شديدة غير متمايزة كهـزيم الرياح ، وتواصل بلا انقطاع ، فى حركة بطيئة مستمرة دل عليها تفـاوت درجات الشدة والارتفاع بين الأمواج القادمة والذاهبة ، وكلما ظن انه انقطع جاء غيره حتى بدا وكان لا نهـاية له . تركزت حيـاة كمال فى اذنيه وهو يرهف السمع فى اضطراب وقلق ، بيد انه لما تتـابع الـوقت دون وقوع مكروه اسـترد انفاسه ومضى يعـاوده الشـعور بالطمانينة ، ثم وسـعه اخيرا ان يفكر فيما يدور حوله كطارىء لا يلبث ان يزول فتساءل متى يجد نفسه فى البيت ليروى لامه ما وقع له ؟ . « اقتحمت علينـا الفصول مظـاهرة لا اول لهـا ولا اخر ، وما ادرى الا وتيـارها الزاخـر يحيط بى ويجرفنى الى الشارع ، وهتفت مع من هتف : ليحيى سـعد ، لتسقط الحماية ، ليحيا الاستقـلال . ومازلت انتقل من طريق الى طريق حتى هجم الانجليز علينا واطلقوا الرصاص » .. سـتفزع عنـد ذلك لحد البكاء ولا تكاد تصدق انه حى يرزق وستتلو آيات كثيرة وهى ترتجف .. « ومرت رصاصة جنب راسى مازال عزيفهـا يطن فى اذنى ، وتخبط الناس كالمجانين ، وكدت اهلك مع الهالكين لولا ان جذبنى رجل الى دكان ... »

انقطع حبل احلامه على صياح عال غير منتظم ووقـع اقـدام متدافعة فى اضطراب ، فخفق قلبه ونظر فى وجوه من حوله فرآهم محملقين فى الباب كمن يتوقع ضربة على ام راسه ، واقترب عم حمدان مـن البـاب وانحنى حتى نظر من الفرجة فى اسفله ثم تراجع وانزله حتى الصـقه بالارض بسرعة وهو يتمتم فى اضطراب :

ـ الانجـليز .. !

وصاح كثيرون فى الخارج « الانجليز ... الانجليز » ونادى آخرون « الثبات ... الثبـات » وهتف غيرهم « نموت ويحيـا الوطن » . ثم سمع الغلام لأول مرة فى حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب فعرفها بالبداهة وارتعـدت أوصاله ، وما ان ندت عن المراتين صرخة فزع حتى أفحم فى البكاء ، وجعـل عم حمـدان يقول بصوت متهدج « وحدوا الله .. وحدوا الله .. الله .. » ولكن الغلام شعر بالخـوف . باردا كالموت ، يزحف على جسمه كله من قدميه الى رأسه . وتوالت الطلقات ، وصكت الآذان صلصلة عجلات وصهيل خيـل ، تتـابعت الأصوات والحركات فى سرعة فائقة تلاحقها زمجرات وصراخ وأنين فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهـرا فى حضرة الموت .. ثم حل صمت مخيف كالاغماء الذى يعقب تبريح الألم ، تساءل كمال بصوت منهدج مبحوح :

ـ ذهبوا ؟! ...

فوضع عم حمدان سبابته على فيه وهو يغمغم « هس » ... وتلا آية الكرسى « فتلا كمال فى سره ـ اذ خانته قدرته على الكلام ـ « قل هو الله أحد » لعلهـا تطرد الانجليز كما تطرد العفاريت فى الظلام . على ان الباب لم يفتح الا عند الظهر فانطلق الغلام الى الطريق المقفر ثم أطلق للريح ساقيه . وفيما هو يمر بالسلم الهابط الى قهوة أحمد عبده لمح شخصا صاعدا عرف فيه أخاه فهمى فهرع اليه كغريق عثرت يده على أداة النجاة وقبض على ذراعه فالتفت الشاب نحوه فزعا ، ولما عـرفه هتف به :

ـ كمال ؟!... أين كنت فى أثناء الضرب ؟

ولاحظ الغـلام أن صوت أخيه مبحوح مطموس المخارج ، بيد أنه اجابه بقوله :

ـ كنت فى دكان عم حمدان وسمعت الرصاص وكل شىء ...

فقال له بعجلته ولهوجته :

ـ اذهب الى البيت ولا تقل لأحد أنك قابلتنى .. سامع ؟

فسأله الغلام بارتباك :

ـ الا تعود معى ؟!

فقال باللهجة نفسها :

ـ كلا ... ليس الآن ... ساعود فى موعدى المعتاد ، لا تنس انك لم تقابلنى قط ..

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع لغلام راكضا حتى بلغ منعطف خان جعفر ، فرأى شبحا واقفا وسط الطريق يشير الى الأرض ويخاطب نفرا من الرجال فنظر الى حيث يشير فرأى بقعا حمراء ملبسة بالتراب ، وسمعه يقول بلهجة رثائية :

ـ هذا الدم الزكى يستصرخنا الى مواصلة الجهاد ، وقد شاء الله ان يسفك فى رحاب سيد الشهداء لنصل فى الاستشهاد حاضرنا بماضينا ، والله معنا . .

وأحس فزعا يركبه ، فاسترد بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون . .

- ٥٦ -

كانت أمينة تتلمس طريقها الى باب الحجرة خلال ظلمة السحر ، فى حذر وتمهل أن توقظ السيد ، حين ترامى الى اذنيها لغط غريب صاعدا من الطريق يطن طنين النحل . لم يكن يطرق أذنيها فى هذه الساعة التى اعتادت أن تستيقظ فيها الا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمال المبكرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردد فى الصمت الشامل صائحا بين حين وآخر « وحدوه » أما هذا اللغط الغريب فلم تسمعه من قبل ، وحارت فى تفسيره فتطلعت الى معرفة مصدره فمضت بخطوتها الخفيفة الى نافذة بالصالة مطلة على الطريق ثم رفعت خصاصها وأخرجت راسها فوجدت فى الخارج ظلمة مختلطة عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس الى الحد الذى تستطيع معه رؤية ما يجرى تحتها ، بيد أن اللغط ازداد ارتفاعا ، وازداد فى الوقت نفسه غموضا ، حتى تبينت فيه أصواتا آدمية مجهولة النسب . دارت عيناها فى الظلام الذى أخذت تألفه شيئا ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قرمز أشباحا آدمية غير واضحة المعالم ، واشياء على هيئة أهرام صغيرات ، وأخرى كأنها الأشجار القصار ، فارتدت فى حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكمال ، ثم ترددت ، أتوقظه ليرى ما هنالك ويحل لها تلك الألغاز أم تؤجل ذلك الى حين استيقاظه ؟! . . ثم أبت أن تزعجه طاوية رغبتها حتى موعد استيقاظه عند مطلع الشمس الوشيك ، ثم صلت ، ثم عادت مدفوعة

بحب الاستطلاع الى النافذة فأطلت منها . بدا وشى الشروق ناشبا فى غلالة السحر وأضواء الصباح تسيل من ذرى المآذن والقباب . فأمكنها ان ترى الطريق فى كثير من الوضوح وفتشت عيناها عن الأشباح التى راعتها فى الظلام فتبينت حقيقتها وندت عنها آهة فزع وارتدت مهرولة الى حجرة فهمي وايقظته بلا احتراس فانتفض الشاب جالسا فى فراشه وهو يتساءل منزعجا :

ـ مالك يا أماه ..؟

فقالت وهى تلهث :

ـ الانجليز يملأون الطريق تحت بيتنا ..

هب الشاب من فراشه واثبا الى النافذة ورمى ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكرا صغيرا يشرف على رءوس الطرق التى تتفرع عنده ، يتكون من عدد من الخيام ، وثلاث لوريات وشراذم متفرقة من الجند ، وفيما يلى الخيام أقيمت البنادق اربعا اربعا ، كل مجموعة تتساند رءوسها وتفترق قواعدها على هيئة هرم ، وقد وقف الحراس كالتماثيل أمام الخيام وتبعثر الآخرون وهم يتراطنون ويتضاحكون ، ورمى الشاب ببصره ناحية النحاسين فرأى معسكرا ثانيا عند تقاطع النحاسين بالصاغة كما رأى فى الناحية الأخرى من بين القصرين معسكرا ثالثا عند منعطف الخرنفش » ابتدره خاطر أهوج لأول وهلة أن هؤلاء الجنود قد جاءوا للقبض عليه !.. ولكنه ما لبث أن استخفه معتذرا عنه بقومته المزعجة من النوم الذى لم يكد يفيق منه ، وبهذا الاحساس بالمطاردة الذى لم يفارقه مذ شبت الثورة ، ثم وضحت له الحقيقة رويدا وهى أن الحى الذى أتعب السلطة المحتلة بمظاهراته المتواصلة قد احتل احتلالا عسكريا . لبث ينظر خلال الخصاص متفحصا الجنود والخيام والبنادق واللوريات وقلبه يخفق فى رهبة وحزن وحنق ؛ حتى تحول عن النافذة شاحب اللون وهو يتمتم مخاطبا أمه :

ـ انهم الانجليز كما تقولين ، جاءوا للارهاب ومنع المظاهرات فى منابتها ...

وجعل يقطع الحجرة ذهابا وايابا وهو يقول فى سره حانقا « هيهات .. هيهات » حتى سمع أمه تقول :

ـ سأوقظ والدك لأخبره بالأمر ..

قالتها المرأة كآخر ما عندها من حيلة ، كأن السيد ـ الذى يحل لها

جميع مشكلات حياتها ـ كفيل ايضا بأن يجد حلا لهذا المشكل يبلغ به بر الأمان ، ولكن الشاب قال لها بأسى :

ـ دعيه حتى يستيقظ فى وقته ..

فتساءلت المراة فى رهبة :

ـ ماذا نفعل يابنى وهم مرابطون أمام مدخل بيتنا ؟..

فهز فهمى راسه فى حيرة قائلا :

ـ ماذا نفعل ؟!.. ـ ثم بلهجة اكثر ثقة ـ لا داعى للخوف » ليس الا انهم يرهبون المتظاهرين ..

قالت وهى تزدرد ريقا جافا :

ـ اخاف ان يعتدوا على الآمنين فى بيوتهم ..

ففكر قليلا فى قولها ثم تمتم :

ـ كلا .. لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما وقفوا ساكنين حتى الآن ..

لم يكن مطمئنا الى قوله كل الاطمئنان ولكنه وجده اوفق مايقال ، وعادت امه تسائله :

ـ وحتى متى يقيمون بيننا ؟!

بطرف شارد أجابها :

ـ من يدرى ؟!.. انهم ناصبون الخيام فلن يرحلوا سريعا ..

تنبه الى أنها تسأله كما لو كان قائد القوات العسكرية فنظر اليها فى عطف وهو يدارى بسمة ساخرة فرجت ما بين شفتيه المتقعتين ، وفكر لحظة فى مداعبتها ولكن كآبة الموقف صدت نفسه ، فعاوده الجد كما يقع له أحيانا اذا روى ياسين له « نادرة » من نوادر والده تدعوه بطبيعتها الى الضحك ولكن يصده عنه القلق الذى يعتريه كلما اطلع على جانب من شخصية أبيه الخفية ، وسمعا وقع أقدام تهرول نحوهما ، ثم اقتحم الحجرة ياسين تتبعه زينب على الأثر ، وصاح الشاب الذى بدا منتفخ العينين مشعث الشعر :

ـ ارأيتم الانجليز ..؟

وهتفت زينب :

ـ انا التى سمعتهم ثم أطللت من النافذة فرأيتهم وايقظت سى ياسين ..

وواصل ياسين الحديث قائلا :

ـ لقد نقرت على باب والدى حتى استيقظ وأخبرته ولما رآهم بنفسه امر بألا يغادر البيت احد والا يرفع مزلاج البيت ، ولكن ماذا هم

فاعلون ؟.. وما عسى أن نصنع ؟.. الا توجد فى البلد حكومة تحمينا ؟.. تحمينا ؟..

فقال له فهمى :

ـ لا أظنهم يتعرضون لغير المتظاهرين ..

ـ ولكن حتى متى نظل محبوسين فى بيوتنا ؟!.. ان البيوت ملأى بالنساء والأطفال فكيف يعسكرون تحتها ؟

فغمغم فهمى فى ضيق :

ـ سيجرى علينا ما يجرى على غيرنا فلنصبر ولننتظر ..

وهتفت زينب فى عصبية ظاهرة :

ـ لم نعد نسمع أو نرى الا الرعب والحزن ، ربنا على اولاد الحرام..

عند ذاك فتح كمال عينيه فرددهما دهشا فى المجتمعين فى حجرته على غير انتظار ، ثم جلس فى فراشه وتطلع الى أمه بعينين متسائلتين فاقتربت من فراشه وربتت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة ، فسألها الغلام :

ـ ماذا جاء بكم الى هنا ؟

رات أن تبلغه الخبر فى أحسن صورة ممكنة فقالت برقة :

ـ لن تذهب اليوم الى المدرسة ..

فتساءل بابتهاج :

ـ بسبب المظاهرات ؟

فقال فهمى فى شىء من الحدة :

ـ الانجليز يسدون الطريق !

ثم وثب الى النافذة ونظر من خصاصها طويلا ثم عاد وهو يقول شعر كمال بأنه أدرك سر تجمعهم فقلب عينيه فى الوجوه مذهولا ؛ باضطراب :

ـ البنادق اربع اربع ...

ونظر الى فهمى كالمستغيث وتمتم فى خوف :

ـ سيقتلوننا ..؟

ـ لن يقتلوا احدا ، جاءوا لمطاردة المتظاهرين ..

ومضت فترة صمت قصيرة واذا بالغلام يقول وكأنه يخاطب نفسه :

ـ ما اجمل وجوههم ...

فسأله فهمى ساخرا :

ـ هل اعجبوك حقا ؟..

فقال كمال بسذاجة :

ـ جدا ، كنت اتخيلهم كالشياطين ...

فقال فهمي بمرارة :

ـ من يدرى ، لعلك لو رايت الشياطين أعجبك منظرهم ..!

لم يرفع مزلاج الباب فى ذلك اليوم ، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلة على الطريق ولو لتغيير الهواء وادخال الشمس ، ولأول مرة تبسط السيد أحمد فى الحديث على مائدة الافطار فقال بلهجة العليم الخبير ان الانجليز يتشددون فى منع المظاهرات وانهم لهذا احتلوا الأحياء التى تكثر بها المظاهرات وانه رأى أن يمكثوا يومهم فى البيت حتى تتضح الأمور، استطاع الرجل أن يتكلم بثقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال والا يدع منفذا لأحد يتسرب منه الى القلق الذى تفشى فى باطنه مذ هب من فراشه على نقر ياسين ، ولأول مرة كذلك جسر فهمى على مناقشة راى ابيه فقال بأدب :

ـ ولكن ياوالدى قد تظننى المدرسة اذا مكثت فى البيت من المضربين !

لم يكن السيد يعلم شيئا طبعا عن اشتراك ابنه فى المظاهرات فقال :

ـ للضرورة أحكام ، اخوك موظف وموقفه أدق من موقفك ولكن العذر واضح ...

لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية أن يغضبه من ناحية ، ولأنه من ناحية اخرى ـ وجد فى أمره بمنع مغادرة البيت عذرا يبرر به أمام ضميره امتناعه عن الخروج الى الطريق المحتل بالجنود المتعطشين الى دماء أمثاله من الطلبة . انفضت المائدة فأوى السيد الى حجرته ، ومالبثت الأم وزينب أن اشتغلتا بواجباتهما اليومية ، ولما كان اليوم مشمسا ، وهو يوم من أيام مارس الأخيرة التى تكتنز فى اعطافها نسائم دافئة من أنفاس الربيع فقد صعد الأخوة الثلاثة الى السطح وجلسوا تحت عرش اللبلاب والياسمين . ووجد كمال فى خص الدجاج تسلية وأى تسلية فانتقل اليها ، وراح يبذر للدجاج الحب ويطاردها مسرورا بدجدجتها ويلتقط ما يعثر عليه من البيض فى حين راح الأخوان يتحدثان بالأنباء المثيرة التى تتناقلها الألسنة عن الثورة المستعرة فى جنبات الوادى من اقصى شماله الى اقصى جنوبه . تكلم فهمى عما يعلم من قطع السكك الحديد والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات فى شتى المديريات والمعارك التى تنشب بين الانجليز والثوار والمذابح والشهداء والجنازات الوطنية ،

التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعمالها ومحاموها والتى لم يعد بها من وسيلة للمواصلات الا العربات الكارو .
ثم قال الشاب بحرارة :

ــ هذه هى الثورة حقا ؟.. فليقتلوا ماشاءت لهم وحشيتهم فلن يزيدنا الموت الا حياة ...

فقال ياسين وهو يهز راسه عجبا :

ــ ماكنت أتصور ان فى شعبنا هذه الروح المكافحة ..

فقال فهمى وكأنه نسى كيف اشفى على اليأس قبيل نشوب الثورة حتى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها :

ــ بل انه ممتلىء بروح الكفاح الخالد التى تشتعل فى جسده الممد من أسوان الى البحر الأبيض ، استثارها الانجليز حتى ثارت ولن تخمد الى الأبد ..

فقال ياسين وعلى شفتيه ابتسامة :

ــ حتى النساء خرجن فى مظاهرة !...

فتمثل فهمى بأبيات من قصيدة حافظ فى مظاهرة السيدات :

خرج الغوانى يحتججـ ـن ورحت ارقب جمعهنه
فاذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب يسطعن فى وسط الدجنة
واخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهنه

فاهتزت نفس ياسين وقال ضاحكا :

ــ ما كان اجدرنى أنا بحفظها ...

وفكر فهمى فى خاطر طارىء ثم تساءل بحزن :

ــ ترى اترامت انباء ثورتنا الى سعد فى منفاه ؟.. أعلم الشيخ الكبير بأن تضحيته لم تذهب هباء أم تراه غارقا فى يأس المنفى ؟..

- ٥٧ -

لبثوا على السطح حتى الضحى ، وراق للأخوين أن يراقبا المعسكر البريطانى الصغير ، فرأيا نفرا من الجنود قد أقاموا مطبخا وراحوا يعدون الغداء ، وتفرق كثيرون ما بين مدخل درب قرمز والنحاسين وبين القصرين فى خلاء من المارة ، وبين حين وآخر كان يتجمع كثيرون فى طابور على نداء النفير ثم يأخذون بنادقهم ويركبون احد اللوريات الذى ينطلق بهم صوب

بيت القاضي مما دل على قيام مظاهرات في الأحياء القريبة ، وكان فهمي يراقب تجمعهم وذهابهم بقلب خافق وخيال متقد ...

وأخيرا غادر الأخوان السطح تاركين كمال يلهو كيف شاء وحده ، وأويا الى حجرة المذاكرة ، فاقبل فهمي على كتبه يراجع مافاته في الأيام المنقضية ، وتناول ياسين ديوان الحماسة و « غادة كربلاء » وخرج الى الصالة يستعين بهما على قتل الوقت الذي توافر وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود ، كانت الروايات — بوليسية وغيرها — أشد استحواذا على قلبه من الشعر ، ولكنه احب الشعر كذلك ، وعرفه من أيسر سبله ، يفهم مايسهل فهمه ، ويقنع من الصعب بموسيقاه ، فندر أن يلجأ الى الهامش المشحون بالشروح ، وربما حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقه من معناه الا اقله ، او يتصور له معنى لا يمت الى حقيقته بسبب ، او لايدرك له معنى على الاطلاق ، ولكن رغم هذا كله رسب في عقله من صوره والفاظه ما يعد ثروة يتيه بها مثله حتى داب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر ، فاذا عرض له يوما أن يكتب رسالة تهيأ لها تهيؤ الكتاب واقحم عليها من الألفاظ الرنانة ما يعلق بحافظته ، وضمنها ما فتح الله به عليه من مأثور الشعر حتى عرف بين معارفه بالبلاغة ، لا لأنه كان بليغا حقا ، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياعهم حيال غريب محفوظاته . قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذي قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محروما من أسباب الحركة والتسلية ، وربما كانت القراءة خليقة بأن تسعفه على تحمله لو كان به صبر عليها ، ولكنه اعتاد أن يلم بها في رفق ، وفي الأوقات القصيرة التي تسبق خروجه الى سهرته اليومية دون غيرها ، وحتى في تلك الأوقات لم يكن يجد باسا في أن يقطع القراءة بالمشاركة في احاديث مجلس القهوة ، أو يطالع قليلا ثم يدعو كمال ليروي له ما قرأ مستلذا باقبال الغلام على الاصغاء بذاك الشغف المأثور عن الأطفال والغلمان . اذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتي تستطيع أن تؤنس وحشته يوما كيومه هذا ، وقد قرأ ابياتا من الشعر وفصولا من غادة كربلاء ، ومضى يتجرع الملل قطرة فقطرة ، لاعنا الانجليز من اعماق قلبه ، ضجرا برما ضيق الصدر ، حتى حان وقت الغداء ، جمعتهم المائدة مرة اخرى ، وقدمت لهم الأم حساء ودجاجات محمرة وارزا واتممت اطباقها — التي حرمت من الخضر بسبب الحصار المضروب حول البيت — بجبن وزيتون ومش ، واحضرت عسلا اسود بدلا من الحلوى ، ولكن لم يأكل بشهوة الا كمال أما السيد والأخوان فلم يسعدوا بقابلية قوية للطعام

تبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة ، بيد أن الطعام هيأ لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى الخصوص السيد وياسين اللذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتما شاءا وكيفما احبا . وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل الى الدور التحتانى لشهود جلسة القهوة ولكنها كانت جلسة قصيرة اذ ان الام لم يسعها ان تترك السيد وحده طويلا فودعتهم وطلعت اليه . ولبث ياسين وزينب وفهمى وكمال يتسامرون فى جو يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمى ومضى الى حجرة المذاكرة ثم دعا اليه كمال ففودر الزوجان منفردين . « ما عسى ان اصنع من الآن الى ما بعد منتصف الليل ؟ » . . ازعجه هذا السؤال الذى الح عليه طويلا ، وبدا له اليوم كئيبا ذميما منتزعا بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذى يتدفق فى الخارج حافلا بالمسرات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حطبا . لولا الحصار العسكرى لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة احمد عبده . يحسو الشاى الاخضر ، ويسامر معارفه من روادها ويمتع النفس بجوها العتيق الذى يستهوى شعوره بقدمه ويستأسر خياله بحجراته المطمورة تحت انقاض التاريخ . قهوة احمد عبده احب المقاهى الى قلبه ، ولولا الغرض — والغرض مرض كما يقولون — ما اختار غيرها ، ولكنه الغرض الذى جذبه فيما مضى الى الكلوب المصرى لقربه من مقام بائعة الدوم وهو نفسه الذى اغراه بالانتقال بعد ذلك الى قهوة سى على بالغورية لوقوعها امام بيت زنوبة العوادة ، فهو يبدل المقاهى تبعا لغرضه ، بل انه يبدل من تعرض له صداقتهم فيها تبعا له ، ففيما وراء الغرض لا مقهى ولا اصدقاء له ، اين الكلوب المصرى واصحابه ؟ . . اين قهوة سى على ومعارفها ؟ . . من حياته ذهبوا ، ولعله لو صادفه احدهم تجاهله او تهرب منه ، والدور الآن على قهوة احمد عبده وسمارها ، والله وحده يعلم ما يخبئه الغد من مقاهى واصدقاء . على انه لم يكن يمكث بقهوة احمد عبده طويلا فسرعان ما يسترق الخطى الى بقالة كوستاكى أو بالأحرى الى حانته السرية ليحظى بالقارورة الحمراء او « العادة » كما يحلو له أن يدعوها . . اين منه «العادة» هذا المساء الكالح ؟! . . وسرت فى بدنه لتذكر حانة كوستاكى رعدة شهوة ، ثم مالبث ان لاحت فى عينيه نظرة سأم عميقة وتململ تململ السجين . بدا البقاء فى البيت حسرة طويلة زاد من حدة ألمها ما طاف بمخيلته من صور الهناء وذكريات النشوة المقترنة بالحانة والقارورة ، فعذبته الأحلام وضاعفت من وجده ، وقد جرت حنينه اللهوف على موسيقى الخمر الباطنية ولعبها بالرأس ذلك اللعب المدغدغ الحار السار السائل بهجة وافراحا ،

فلم يدرك قبل ذاك المساء أنه أعجز من أن يصبر على هجر الشراب يوما واحدا ولم يحزن لما بدا له من ضعفه وعبوديته ، ولا لام نفسه على اسرافها الذى جر عليه التعاسة لأهون الأسباب ، كان ابعد ما يكون عن لوم نفسه أو السخط عليها ، ولم يذكر من بواعث الله الا الحصار الذى شده الانجليز حول البيت ، وانه يحترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد . ثم لاحت منه التفاتة الى زينب فوجدها تتفرس فى وجهه بنظرة كأنما تقول له حانقة « مالك شاردا ، مالك واجما ، أليس لوجودى أى أثر فى التسرية عنك ! » . . ادرك معناها كله فى لحظة خاطفة التقت فيها عيناهما ، ولكنه لم يستجب لعتابها الحانق الحزين ، وبالعكس لعله أحنقه وأثار ثائرته ، أجل لم يحقد على شيء كما حقد على اضطراره للبقاء معها طوال الليل ، بلا رغبة ، ولا مسرة ، وحتى محروما من النشوة التي يستعين بها على تحمل حياته الزوجية . جعل يسترق اليها النظر ويتساءل فى غرابة أليست هى هى ! . . أليست هى التى خلبت لبى ليلة الزفاف ؟! . . أليست هى التى شغفتنى هياما ليالى وأسابيع ؟! . . . فمالها لا تحرك فى ساكنا ! . . أى شيء طرأ عليها ! . . مالى أتململ برما وسأما فلا أجد من حسنها وأدبها ما يغرينى عن سكرة تأجلت ! ومال ــ كما فعل مرات من قبل ــ الى رميها بالنقص فيما برعت فيه زنوبة ومثيلاتها من ضروب الخدمة والشطارة ، والحق أن زينب كانت أولى تجاربه فى المعاشرة الدائمة ، فلم تطل به معاشرة العوادة ولا بائعة الدوم ، ولم يكن تعلقه بأحداهما بمانعه من التنقل اذا سنحت دواعيه وقد ذكر لحظات حيرته هذه وأفكاره عنها بعد كرور أعوام طوال فعرف من نفسه ومن الحياة عامة ما لم يجر له فى خاطر . وانتبه على تساؤلها :

ــ لعلك غير مرتاح الى البقاء فى البيت . . ؟

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع تساؤلها التهكمى من نفسه موقع الضربة الطائشة من الدمل فاندفع قائلا بصراحة مؤلمة واصرار :

ــ بلى . . .

ومع أنها تحامت النقار من بادىء الأمر الا أن لهجته آذتها أشد ايذاء فقالت بحدة ــ لا ذنب له فى هذا ، أليس عجيبا ألا تطيق التخلف عن سهرتك ولو ليلة واحدة . . فقال متسخطا :

ــ دلينى على شيء واحد يجعل البيت محتملا . .

فقامت غاضبة وهى تقول فى نبرات منذرة بالبكاء :

ــ سأخلى لك المكان لعله يطيب لك . . !

وولت كالهاربة وهو يتبعها بصرا جامدا ، ثم قال لنفسه « يالها من حمقاء لا تدرى أن القدرة الالهية وحدها هى التى تبقى عليها فى بيتى » .
ومع ان الشجار نفس عن حنقه قليلا الا انه كان يفضل الا يقع حتى لا يضاعف من كآبة فراغه ، ولم يكن يعجز عن استرضائها لو اراده ولكن عقله الفتور الذى ران على مشاعره جميعا ، غير أنه لم تمض دقائق حتى شمله هدوء نسبى فرن صدى عباراته القاسية التى وجهها اليها فى آذنيه فاقر بقسوتها ، وبأنه لم يكن ثمة ما يدعو اليها ، وداخله شبه ندم ، لا لعثوره فجأة على ثمالة حب لها فى زوايا قلبه ولكن لحرصه دائما على الا يشذ فى معاملتها عن حد الأدب ــ ربما اكراما لأبيها او خوفا من أبيه ــ حتى فى فترة الانتقال العصبية التى أخذ على نفسه فيها اخضاعها لسياسته بالصلابة والحزم . واعتذر عن اسرافه بالغضب ، ولم يكن الغضب بالانفعال المستغرب فى هذه الأسرة ، فما يركبهم الحلم الا حين قيام الأب بينهم مستأثرا لنفسه من دونهم بكافة حقوق الغضب .
بيد أن غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع الانطفاء ثم يردون الى الوان من الأسف والندم . الى هذا كله خص ياسين بالمكابرة فلم يدفعه اسفه الى مصالحه زوجه بل قال لنفسه « هى التى استثارت غضبى .. ألم يكن بوسعها أن تخاطبنى بلهجة إرق ! » .. انه يحب لها دائما أن تتحلى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواه مطمئنا الى خطوطه الخلفية .
اشتد ضيقه بسجنه بعد اغضابها وانسحابها فغادر المكان الى السطح . وجد الجو لطيفا والليل ساجيا والظلمة شاملة الا أنها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين ، رقيقة فى نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بلآلىء النجوم . وراح يقطع السطح ذهابا وجيئة ما بين السور المطل على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون ، مستسلما لخيالات شتى وفيما هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلل الى اذنيه حفيف ، أو لعله همس ، بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملق فى الظلام متعجبا وهتف متسائلا :
ــ من هنا ... ؟
فجاءه صوت يعرفه حق المعرفة وهو يقول فى نبرات نحاسية :
ــ انا نور يا سيدى ..
تذكر من توه أن نور جارية زوجه تأوى ليلا الى حجرة خشبية لصق خص الدجاج تحوى بعض الكراكيب ، نظر صوب السطح حتى ميز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة من الليل تكاثفت وتجمدت ،

ثم تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطباشير على صورة حالكة السواد ، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترتسم فى مخيلته بطريقة تلقائية ، سوداء فى الأربعين متينة البنيان ، غليظة الأطراف ، ناهضة الصدر ، عبلة الأرداف ، ذات وجه لامع ؛ وعينين براقتين ، وشفتين ممتلئتين . فيها قوة وخشونة وغرابة ، او هكذا بدت له مذ طرأت على بيته . وفجاة ، وعلى حين غرة ، تفجرت فى صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقعات بلا سابق انذار ، ولكن قوية مسيطرة كأنما تركز فيها هدف حياته ، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال ام حنفي ليلة زفاف عائشة ، انبعث فى وجدانه الخامد حياة فوارة ، وانتشر القلق فى دمه حتى تكهرب ، وحل محل الملل والسأم اهتمام حار ثائر جنونى ، كل أولئك فى لمح البصر . ودب النشاط فى مشيته وفكره وخياله، وكف وهو لا يدرى عن قطع السطح من أوله الى آخره مقصرا خط ذهابه وايابه الى الثلثين ثم الى النصف ، وكلما مر بها اضطرب جسمه برغبة عارمة . جارية سوداء . . ؟ خادم ؟ . . وان كانت ، له سوابق غير منكورة ، ليس حتما ان تقع بغيته على طراز زنوبة ، ميزة حسن واحدة تغني كما اغنت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن ابطيها وتلبد الطين على ساقيها . بل الدمامة نفسها ـ مادامت قد ركبت على امرأة ـ اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلع اليها عند ام حنفي او عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوابة النصر ، نور على اية حال ذات جسم مكتنز صلب يوحي ـ لاشك ـ ملمسه بالفتوة والصراع ، الى انها جارية سوداء تعد بطرافة فى الوصال وجدة فى التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفء . وبدا الجو من حوله مهيئا آمنا مظلما فاستحرت رغبته وتوثبت أعصابه واسترسل قلبه فى دقات متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال فى سيره اليها بحيث « يتفق » له أن يحتك بها على نحو ما حين مروره بها ، مؤجلا الجهر برغبته حتى يتاح له جس النبض فى جو من الحذر ان تكون ـ كأم حنفى ـ بلهاء فتتجاوب اركان البيت بفضيحة جديدة ، تقدم فى خطوات وئيدة محملقا صوبها ، يرد بكل ما اضطرم فى صدره من شهوة لو تنفذ كلمات عينيه ـ رغم الظلمة الفاشية ـ الى نفسها ، حتى اقترب منها فاختلطت دقات قلبه ، ثم حاذاها فمس كوعه اعلى جسمها ولكنه واصل سيره كأن ما وقع قد وقع عفوا ، غير أن رعدة سرت فى بدنه عند لمس الموضع الذى لم يتحقق من هويته فى الغيبوبة التي تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند

الافاقة النسبية فى نهاية السطح الا مس طرى غزير الحنان وما ند عن صاحبته من تراجع برىء أيد ما رجحه من عدم ارتيابها فى أمره فاستدار مصمما على اعادة الكرة . أعاد نحوها ثانية ذراعه حتى مس كوعه احدى ثدييها — لم يخطئه احساسه هذه المرة — ثم لم يسحبه كما كان ينتظر من شخص يدعى أنه ضل السبيل ، بل تركه يصافح الثدى الأخرى مصافحة رقيقة لا تبالى دفع الريب ، ومضى وهو يقول لنفسه سندرك غايتى بلا شك ، بل لعلها ادركتها فند عنها ما يوحى بأنها ارادت ان تنتحى جانبا ولكنها ابطأت ، أو بوغتت فذهلت ، على أى حال لم تتقينى باليد . ولم تحرك ساكنا . فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب . لنجرب مرة ثالثة . عاد هذه المرة متعجلا جزعا ، فتثاقل حيالها ، ثم مد كوعه الى الصدر الناهض كقربة صغيرة منتفخة ، ثم حرك ذراعه حركة ناطقة بالتردد والريبة معا ، وهم بمواصلة السير مدفوعا برغبة فى الفرار لولا ان وجد منها استسلاما أو بلادة اغرقت ثمالة وعيه فى تيار من الجنون فتوقف متسائلا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرا متهدجا :

— أهذه أنت يا نور ..؟!

فقالت الجارية وهى تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتى التصق ظهرها بالحائط واوشك هو أن يلتصق بها :

— نعم يا سيدى ..

اراد ان يقول أى كلام يعن له حتى يتمكن من الجهر بما يضطرب فى اعماقه كالملاكم الذى يلوح بقبضته فى الهواء متحينا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وانفاسه تترامى على جبينها :

— لم لم تذهبى الى حجرتك ..؟

فقالت الجارية التى تعثرت فى نطاق حصاره :

— كنت أشم الهواء قليلا ..

وكأنما غلب النهم تردده فمد راحته الى خاصرتها ثم جذبها برفق الى صدره وهى تبدى ممانعة تحول بينه وبين ما يريد ، ثم همس فى أذنها وهو يلصق خده بخدها :

— هلمى الى الحجرة ...

فتمتمت فى ارتباك :

— عيب يا سيدى ...

رنت نبراتها النحاسية فى الصمت رنينا أزعجه ، لم تكن تعمدت أن ترفع صوتها ولكنها — فيما بدا — لا يتاتى لها الهمس أو أن من طبع همسها

الرنين ولو فى أخفض درجاته ، على انه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقد شهوته مِنّ ناحية لخلو لهجتها من الاحتجاج الذى يستوحيه مدلول عبارتها ، فجذبها بيده وهو يغمغم :

ــ تعالى يا حلوة ...

فسلست ليده ، ربما عن رضى وربما عن طاعة ، وهو يغمر خدها وصفحة عنقها بقبلاته مترنحا من شدة الانفعال ، وفى نشوة السرور جعل يقول لها :

ــ ماذا غيبك عنى طول هذه الأشهر !

فأجابته بلهجتها العادية الخالية من أى احتجاج :

ــ عيب يا سيدى ...

فقال وهو يبتسم :

ــ ما أرق ممانعتك ، زيدينى منها ..

ولكنها أبدت شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة :

ــ عيب يا سيدى .. (ثم كالمخذرة) .. الحجرة ملأى بالبق ..

فدفعها وهو يهمس فى قفاها :

ــ انام على العقارب من أجلك يا نور ...

جارية ، هكذا بدت بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معان ، وقفت مستسلمة بين يديه فى الظلام فوضع شفتيه على شفتيها وقبلها بحرقة وتشوق وهى ساكنة مستسلمة كأنها تشاهد منظرا لادور لها فيه حتى قال لها بانفعال « قبلينى » ثم أعاد لصق شفتيه بشفتيها وقبل فقبلته ! ثم طلب اليها أن تجلس فرددت قولها « عيب يا سيدى » الذى بدا مضحكا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة ، وما لبث ان وجد لذة جديدة فى ترددها بين السلبية والاذعان فجد فى طلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظية والاذعان الفعلى فنسى الزمن . ثم خيل اليه ان الظلام من حوله يتحرك أو أن مخلوقات غريبة فى طياته تتراقص ، ربما الجهد أصابه من طول ما لبث أن كان طال لبثه فانه على وجه اليقين لا يدرى كم لبث ، أو لعلها التيارات المتوقدة المتلاطمة فى رأسه تولد من ارتطامها فى بصره انوار وهمية ، ولكن مهلا ، ان جدران الحجرة تتماوج . ناضحة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانا يهتك الاسرار ، ورفع رأسه محملقا فرأى نورا خافتا يتسلل من شقوق الجدار الخشبى مقتحما عليه خلوته ، ثم ارتفع صوت زوجه فى الخارج وهى تنادى الجارية قائلة :

ـ نمت يا نور ؟!.. نور .. ألم ترى سى ياسين ؟

فانتفض قلبه فزعا ووثب قائما واندفع على عجل ولهفه يتخطف ثيابه ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائغ لعله يجد مخبأ بين كراكيبها .ولكن نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صك اذنيه وقع شبشب يقترب فلم تتمالك الجارية من أن تقول بصوت باك :

ـ أنت السبب يا سيدى ، ماذا أفعل الآن ..؟!

فلكزها فى كتفها بقسوة حتى أمسكت ، وحدق فى الباب بفزع ويأس وهو يتقهقر ـ بدافع لا شعورى ـ الى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار ، وتجمد فى موقفه يترقب . تتابع النداء ولا مجيب . ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدمها مصباح وهى تهتف :

ـ نور .. نور ..

فلم يسع الجارية الا أن تخرج من صمتها مغمغمة بصوت شاحب حزين :

ـ نعم يا ستى ...

فقالت زينب بصوت ينم عن الحنق والتعنيف :

ـ ما أسرع أن تنامى يا شيخة !.. الم ترى سى ياسين ؟.. سيدى الكبير أرسل فى طلبه فبحثت عنه فى الدور التحتانى والفناء وها أنا لا أجده فوق السطح ، هل رايته .. ؟

وما اتمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطل على الجارية المرتبكة فى جلستها باستغراب ، ثم بحركة غريزية التفت الى يمينها فوقع بصرها على زوجها الملتصق بالحائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الخزى والهوان ، التقت عيناهما لحظة قبل ان يغض بصره ، ومرت لحظة أخرى فى صمت قاتل ، ثم ندت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهى تهتف ضاربة صدرها بيسراها :

ـ يا فضيحتك السوداء .. أنت !.. أنت !

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولت هاربة وعويلها يمزق الصمت . قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه « انفضحت وما كان كان » ولبث بموقفه ذاهلا عما حوله حتى انتبه الى نفسه فغادر الحجرة الى السطح دون أن يخطر له أن يتجاوزه . لم يدر ماذا يصنع ولا الى أى مدى تذاع الفضيحة ، أتنحصر فى شقته أم تنتقل الى الشقة الأخرى ؟.. ثم راح يوبخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعاه من أن

يلحق بها كى يحصر الفضيحة فى اضيق حدود ، ثم تساءل وهو فى أشد حالات الضيق كيف يتلقى هذه الفضيحة ؟.. هل يسعفه الحزم هنا أيضا ؟.. ربما لو لم يتسرب نبأها الى أبيه ، وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشئومة فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يغادرها وبيده لفة كبيرة ، ثم هرولت نحو باب السطح ومرقت منه ، هز كتفيه استهانة ، وفيما هو يتحسس صدره بيده أدرك انه نسى أن يرتدى الفانلة فعاد الى الحجرة مسرعا ..

— ٥٨ —

فى الصباح الباكر طرق الباب ، وكان الطارق شيخ الحارة ، فقابل السيد احمد وأخبره بانه مكلف من لدن السلطات بابلاغ سكان الأحياء المحتلة بأن الانجليز لن يتعرضوا الا للمتظاهرين وان عليه ان يفتح دكانه ، وعلى التلميذ أن يذهب الى مدرسته والموظف الى وظيفته ، وحذره من حجز التلاميذ أن يغلنوا من المضربين لافتا نظره الى الأوامر المشددة بمنع المظاهرات والاضراب ، بذلك استرد البيت نشاطه الذى يستقبل به الصباح ، وتنفس رجاله الصعداء لاطلاق سراحهم بعد حبس البارحة ، واستروحت النفوس شيئا من الطمأنينة والسلام .
قال ياسين لنفسه تعقيبا على زورة شيخ الحارة : « الأحوال خارج البيت تتحسن أما داخله فهى طين ووحل » ، أجل قضت اكثرية اهل البيت ليلة نكراء احاطت بها الفضيحة ومزق أوصالها النكد ، زينب ، لم يستطع الصبر الذى تغلق به صدرها على حزنها وتذمرها أن يصمد للمنظر المروع الذى راته عيناها فى حجرة جاريتها فتفجر صدرها قاذفا بشواظه كل سبيل ، تعمدت تعمدا ان يقرع عويلها آذان السيد فجاءها مهرولا متسائلا .. وكانت الفضيحة . قصت عليه كل شىء متشجعة بانفعالها الجنونى الذى لعلها لولاه ما واتتها شجاعتها على مواجهته بما قصت لما باتت تجد نحوه من تهيب لم تجد مثله حيال احد من الناس ، انتقمت بذلك لكرامتها الذبيحة ، وللصبر الطويل الذى تجرعته حينا مختارة وحملت عليه فى اكثر الأحايين : « جارية ! خادمة ! فى سن أمه ! وفى بيتى ! ماذا عساه يفعل فى الخارج اذن ؟ » لم تكن تبكى غيرة ، أو لعل الغيرة توارت الى حين وراء حجب كثيفة من التقزز والغضب كما

تتوارى النار وراء سحب الدخان ، وكأنما غدت تؤثر الموت على أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوما واحدا بعد ما كان . أجل هجرت مخدعها فقضت الليل فى حجرة الاستقبال ، يقظى أكثره تهذى هذيان المحمومين ونائمة أقله نوما ثقيلا مريضا مزعجا . أصبحت وهى مصممة على هجر البيت . لعل هذا التصميم وحده الذى وجدت فيه مسكنا لأوجاعها . ماذا بوسع حميها نفسه أن يفعل ؟.. لن يستطيع أن يمنع المنكر بعد أن وقع ، ولن يسعه مهما يكن جبروته أن ينزل بزوجها العقاب الذى يستحقه حتى يستشفى صدرها . أقصى ما يراد أن يزجره ، أن يصب عليه غضبه ، وسينصت ـ الفاسق ـ خافض الرأس كى يواصل فيما بعد سيرته الخبيثة !.. هيهات . لقد رجاها السيد أن تدع الأمر بين يديه ، ونصحها طويلا بأن تعرض عن زلته مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها ، ولكنها لم تعد تحتمل الصبر او العفو . جارية سوداء فوق الأربعين !.. كلا . ستهجره هذه المرة بلا تردد ، ستفضى الى ابيها ببثها كله ، وستبقى فى كنفه حتى يثوب الى رشده ، فاذا جاءها بعد ذلك نادما ، وغير من سلوكه أو فلتذهب هذه الحياة كلها ـ بخيرها وبشرها ـ الى الشيطان ، أخطأ ياسين حين ظنها قد طوت صدرها على كربها عقلا وحكمة ، الحق أنه غلبها الجزع من بادىء الأمر فبثت همها الى أمها ، ولكن الأم اثبتت أنها امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرب الى الأب ، وأوصت ابنتها بالصبر قائلة أن جميع الرجال يسهرون ـ كوالدها مثلا ـ وأنهم أيضا يشربون ، وأنه حسبها أن بيتها عامر بالخير ، وأن زوجها يعود اليها مهما سهر ومهما سكر . أصغت الفتاة الى النصيحة على مضض ، وجاهدت نفسها أيما اجهاد متجملة بالصبر ولم تأل أن تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من أحلامها المريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصا وقد دب الجنين فى بطنها مبشرا بالأمومة المرموقة ربما كمن التذمر فى أعماقها بيد أنها راضت نفسها على التسليم متأسية بأمها تارة وطورا بامرأة سيدها الكبير ، ثم لم يخل الحال من ريبة تختلج فى صدرها بين حين وآخر عما يمكن أن يفعل زوجها فى سهراته الخمرية ، وحدث أن أفضت الى أمها بمخاوفها ، بل لم تخف عنها مالحق بالرجل من فتور فى عواطفه . ولكن الأم الحكيمة أفهمتها أن ذاك الفتور ليس حتما نتيجة لما يقع فى خاطرها ، أنه « شىء طبيعى » وأن الرجال جميعا لديه سواء ، وأنها سوف تقتنع به بنفسها كلما تقدمت بها

تجـــارب العمر .. على أنه حتى لو صـــدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة ؟.. هل ترضى بهجر بيتها لأن زوجها يلم بغيرها من النساء ؟.. كلا ، وألف مرة كلا ، لو تخلت كل امرأة عن مكانها لسبب كهذا لأقفرت البيوت من الفضليات ، والرجل قد يطمح طرفه الى امرأة أو أخرى ولكنه يعود دائما الى بيته مادامت زوجه خليقة بأن تبقى عنـده المرجع الاخير والمأوى الثابت ، والعاقبة للصابرات . ومضت تذكرها بالمطلقات بلا ذنب واللائى يشركهن فى أزواجهن اخريات ، أليس طيش زوجها ــ ان صح ــ خطبا أخف من سـلوك أولئك ؟!.. ثم انه شاب لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومصـيره أن يعقـل فيثوب الى بيته ويشغل بذريتـه عن الدنيا جميعا ، ومعنى هـذا أنه ينبغى لها الصبر حتى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق ؟! رددت المرأة هذا ، وغيره مما يجرى مجراه ، حتى سلس جماح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه . بيد أن واقعـة السطح قضت على كل ما وطنت النفس عليه بضربة قاضية فانهار البنيان جميعا كأن لم يكن ..

ومع أن السيـــد لم يفطن الى هذه الحقيقة المؤسفة فطن الفتاة قد امتثلت لنصيحته ، الا أن غضبته كانت أشـد من أن تمر بسـلام ، وقد احسنت الجارية صنعا بفرارها . أما ياسين فلم يبرح السطح ، لبث يفكر منزعجا فى العاصفة التى تتربص به ، حتى ترامى الى أذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقعة السـياط فدق قلبه ، ولكنه لم يجب ولم يستجب وتسمر يائســا فى مكانه ، وما يدرى الا والرجل يقتحم عليه السطح ثم يقف مدمدما لحظات وهو يتفحص المكان حتى يعثـر على شبحه فيتجه اليه ويقف على كثب منـه شابكا ذراعيه على صدره مصوبا نحوه رأسا متصلبا متعجرفا ، ملتزما الصمت ومطيله كى يطيل له به العذاب والارهاب ، كأنما أراد بصمته أن يعبر له عما يجـد نحوه مما يعيى الألفاظ حمله ، أو انه أراد أن يرمز به الى ما كان يود أن يؤدبه به من مبرح الركل واللكم فمنعه منه استواؤه رجلا وزوجا ، ثم لم يعد يستطيع مع الصمت صبرا فانهال عليه سبا وتعنيفا وهو ينتفض غضبا وهياجا « أنت تتحـــدانى تحت سمعى وبصرى !.. فلتذهب أنت وخزيك الى جهنم .. دنست بيتى يا وغد ، هيهـــات أن يتطهر هذا البيت مادمت فيه .. كان لك قبـل الزواج عـــذر واه فأى عـذر لك الآن ؟ ! » . . « لو أصاب كلامى حيـوانا لأدبه ولـكنه

ينصب على حجــر .. أن بيتـا يضمـك خليـق بأن تستنزل عليه اللعنات » .. نفس عن صـدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنه يوشك أن يذوب في الظلام ، حتى أجهـد الرجل الزعق فولاه ظهره وغادر المكان وهو يلعنه ويلعن أباه وامه ، ومضى الى حجرته يفور بالغضب فـورا . في ثورة الغضب رأى زلة ياسين جريمة تستحق الابادة ، وفي ثورة الغضب لم يعد يذكر أن ماضيه كله صورة مطولة متكررة من زلة ياسين . وأنه لا يزال دائبا على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشب أبناؤه فصار منهم الأزواج والزوجات . لا لأنه في ثورة الغضب ينسى حقا ، ولكن لأنه يحل لنفسـه ما لا يحل لأحد من ذويه ؛ له أن يفعل ما يشاء وعليهم التزام الحدود التى يريدهم على أن يلتزموها فلعل غضبـه على ما في ذنب ياسـين من « تحد » لارادته و « استهانة » بوجـوده و « تشويه » للصورة التى يجب أن يتصور بها أبناءه . كان انعـاف غضبه عالى الذنب نفسـه ، على أن غضبه ــ كما هى عادته ــ لم يستمر طويلا ، ما لبث ان خبا لظاه وخمد توقده فعاوده للهدوء رويدا وان شاب مظهره ــ مظهره فقط ــ الوجوم والأسى ، عنـد ذاك أمكنه أن ينظر الى « جريمة » ياسـين من أكثر من زاوية واحدة ؛ أمكنه أن يتأملها بعقل مستقر فانجلى له قتامها عن مواضع شتى ساخرة تسلى بها عن وحدته الاضطرارية . اول ما ابتـدر ذهنه أن يلتمس للمذنب عذرا ، لا حبا في التسامح فانه يكره التســامح في بيته ؛ ولـكن ليتخذ من ذاك العذر المرجى « مبررا » لخروجه عن ارادته ، كأنما يقول لنفسـه « ان ابنى لم يشق عصا الطاعة .. هيهات ، ولكن عذره كيت وكيت » .. ولكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق ؟.. كلا .. ان الشباب عذر عن الذنب وليس عذرا عن خروجه على ارادته والا لجاز لفهمى بل لكمال أن يتمـاديا في الاستهانة بتعاليمه ، ليلتمس العذر اذن عند رجولته ، هذه الرجولة التى تحـل له أن يستقل بنفسـه عن ارادته ولو شيئا ما وتعفيه هو ــ السيد ــ من تحمل مسئوليـة فعاله ، كأنما يقول لنفسـه : « انه لم يخرج على ارادتى ، هيهات ؛ ولكنه بلغ السن التى لا يعد فيها ذنبه خروجا على ارادتى » .. وغنى عـن القول انه يأبى أن يعترف أمامه بهذا الحق ولن يعفو عنـه لو تجاسر على المطالبة به ، بل انه لا يعترف له به فيمـا بينـه وبين نفسه الا في حال الوقوع في معصيـة تستـوجب مبررا للخروج على ارادته ، ولم ينس

حتى فى تلك الحال ان يذكر نفسه — التماسا للمزيد من الطمأنينة — بأنه أدبه تأديبا غليظا نادرا قل من يستبيحه من الآباء فقوبل بخضوع كامل قليل من يتحمله من الابناء .. وعرج خاطره الى زينب متفكرا ولكنه لم يجد نحوها أى عطف ، لقد واساها اكراما لأبيها العزيز الحبيب ، ولكنه لا يظن أن الفتاة جديرة بأبيها حقا . ما كان يخلق بزوجة كريمة أن تفضح زوجها — مهما تكن الظروف — على النحو الذى فضحت به ياسين !.. اشد ما أعولت ! لشد ما صرخت !.. ماذا كان يصنع هو — السيد — لو أن أمينة فجاته يوما بمثل هذا التصرف ؟!.. ولكن اين هى من أمينة ؟!.. ثم كيف قصت عليه ما رأت دون حياء !.. أف ! أف ! او لم تكن هذه الفتاة كريمة محمد عفت لحق لياسين ان يؤدبها بل لما رضى هو أن تمر هذه الواقعة دون عقاب زاجر ، لقد أخطأ ياسين ولكنها أخطأت خطأ اكبر . ثم عاد الى ياسين سريعا فراح يفكر — بباطن مبتسم — فى الطبيعة الواحدة التى تجمع بينهما ، تلك الطبيعة الموروثة عن الجد بلا ريب ، ومن يدرى لعلها تضطرم الآن فى صدر فهمى تحت قناع التهذيب والاستقامة ، بل ألا يذكر كيف عاد يوما الى البيت على غير انتظار فترامى الى سمعه صوت كمال وهو يغنى « يا طير يا اللى على الشجر » !؟ .. تأخر لحظتذاك وراء الباب لا ليتظاهر بأنه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب — ولكن ليتابع الصوت متذوقا معدنه سابرا طول نفسه ، حتى اذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى الى الداخل طاويا صدره على ابتهاج لم يفطن اليه احد ، كم يلذه ان يرى نفسه مترعرعة من جديد فى حياة ابنائه على الأقل فى ساعات الهدوء والصفاء ، ولكن رويدا .. ان لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها ، أو انه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة اذا روعى المعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ياسين حيوان أعمى .. ينقض مرة على أم حنفى وبضبط اخرى مع نور ، يتمرغ فى التراب دون مبالاة . وما هكذا هو ! اجل انه يدرك مقدار الضيق الذى الم بياسين لاضطراره الى قضاء الليلة فى شبه سجن ، يدرك لأنه كابده هو أيضا كئيبا محزونا كمن فقد عزيزا . ولكن هبه كان يتنزه فى بستان السطح — كما فعل الفتى — فصادف جارية — ولنفترض انها تكون ملبية لذوقه — أكان يقدم على المغامرة ؟ .. كلا . مؤكد كلا ، ولكن اى وازع كان يشكمه ؟ .. لعله المكان ؟ الأسرة ! ولعله العمر الرشيد . آه ، لقد تضايق عند ورود الوازع الأخير على ذهنه ، وخيل اليه انه يغبط ياسين على ريق

شبابه وجنون زلته معا !. مهما يكن من امر فالطبيعتان مختلفتان . لم يكن السيد — كابنه — مغرما بالمرأة بلا قيد ولا شرط . امتازت شهرته دائما بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع ، بل اثرت في ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت الى الميزات الطبيعية المألوفة . كان مغرما بالجمال الأنثوى في لحمه وتبختره واناقته ، فلم تخل جليلة او زبيدة او ام مريم وعشرات غيرهن من ميزة أو اكثر من هذه الميزات ، وفضلا عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب الا بالمنظر البهيج وبالمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء ، فلا يكاد يمضى طويل وقت على عشيقة جديدة حتى تفطن الى هواه فتهيىء له ما تهفو اليه نفسه من جو عذب يعبق فيه الورد والبخور والمسك . وكما كان يعشق الجمال مجردا كان يعشقه كذلك في هالاته الاجتماعية اللألاءة . تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد ، ويلذ له أن ينوه خاصته بعشقه ومعشوقاته الا فيما ندر من أحوال توجب التستر والكتمان كحال أم مريم ، على ان هذا الحب « الاجتماعى » لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال . فالجمال والصيت — في هذا المجال — يسيران جنبا الى جنب كالشيء وظله ، وغالبا ما يكون الجمال اليد الساحرة التى تشق السبيل الى الصيت والمكانة المرموقة ، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تخيب احداهن نزوعه الى الجمال وولعه بالحسن . هذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدراء وهو يردد مستنكرا « ام حنفى !.. نور !. ياله من حيوان » انه برىء من هذا الشذوذ بيد أنه ليس في حاجة الى ان يتساءل طويلا عن مصدره فانه لم ينس بعد تلك المرأة التى انجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة ، انه مسئول عن قوة شهوته أما هى فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة الى الحضيض . وقد عاوده في الصباح التفكير « الجدى » في المسألة فكاد يدعو الزوجين اليه كي يصفى ما بينهما — وما بينه وبين كليهما — من حساب ، ولكنه أرجأ ذلك الى متسع من الوقت أنسب من الصباح ، ولما ساءل فهمى ياسين عما دعاه الى التخلف عن المائدة أجابه مقتضيا « شيء تافه سوف أحدثك عنه فيما بعد » وظل فهمى جاهلا سر غضب أبيه على أخيه حتى علم باختفاء الجارية نور فحدس الأمر كله . شهد الصباح الأسرة على غير مألوفها فقد غادر ياسين البيت مبكرا ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين أن يرفعوا بصرا صوب الجنود والأم من وراء خصاص المشربية تدعو الله أن يقيهم من كل سوء . ولم تشأ

امينة ان تقحم نفسها فى « واقعـة » السـطح فنزلت الى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر ان تلحق بها زينب كالعادة . لم تكن تقرها على غضبتها لكرامتها فعدتها تدليلا اثار استيـاءها ، وجعلت تتساءل « كيف تدعى لنفسها من الحقوق ما لم تدعه امرأة قط ؟ . . »

لا ريب أن ياسين قد اخطأ فدنس البيت الطاهر ولكنه أخطأ فى حق ابيـه وحرمتـه لا فى حقهـا هى . . ألست ملاكا بالقيـاس الى هـذه الفتاة ؟! . . ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها واقنعت نفسها بوجوب الذهاب اليها مواسية فصـعدت الى شقتها ونادتها ، ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على اثر ، ومضت من حجرة الى حجـرة وهى تنادى حتى فتشت البيت ركنا ركنا ، ثم ضربت كفا بكف وهى تقول : « رباه . . هل ارتضت زينب أن تهجر بيتها ؟! . . »

— ٥٦ —

لم تنج أمينة سحابة النهار من قلق ، فان احتمال تعـرض الجنود لأحد رجالها فى ذهابه أو ايابه لم يكد يفارق رأسها . وكان فهمى أول العائدين فتخففت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها رأته متجهما فسألته :

ـ ماذا بك يابنى ؟

فهتف فهمى متأففا :

ـ اكره ان ارى هؤلاء الجنود . .

فقالت المرأة باشفاق :

ـ لا تبد لهم الكراهية ، ان كنت تحبنى لا تفعل . .

ولكنه لم يفعـل بغير استعطافها ، لم يتجاسر على ان يتحداهم ولو بالنظر وهو يتلمس سبيله تحت رحمتهم ، تحاشى أن ينحرف ببصره الى احدهم ، ومضى الى البيت متسـائلا فى سـخرية عما كانوا يفعلونه لو انهم علموا بانه راجع من مظاهرة اشتبـكت مع جنودهم فى شبـه معركة ، او انه وزع فى مطلع اليوم عشرات المنشورات التى تحرض على قـتالهم . جلس يستعرض مالاقاه فى يومه مسـتحضرا اقله كما وقع واكثره كما كان يتمنى ان يكون . هكذا كان رأيه ان يعمـل نهارا وان يحلم مسـاء ، تحـدوه فى الحـالين اسمى العواطف وافظعها ، حب قومه

من ناحية والرغبة فى التقتيل والابادة من ناحية اخرى . احلام يسكر بها وقتا يطول او يقصر ثم يفيق منها على حسرة لاستحالتها وفتور لسخافة تصوراتها ، احلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدم صفوفها كجان دارك ، واستيلاء على سلاح العدو ثم الهجوم عليه . هزيمة الانجليز ، خطبة خالدة فى ميدان الاوبرا ، اضطرار الانجليز الى اعلان استقلال مصر ، عودة سعد من المنفى ظافرا . لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم ، مريم بين شهود الافتتاح التاريخى . اجل كانت احلامه تتوج دائما بصورة مريم رغم انزوائها ــ طوال تلك الايام ــ فى ركن قصى من قلبه الذى شغلته الشواغل كما ينزوى القمر وراء السحب ابان العاصفة. وما يدرى الا وامه تقول له وهى تشد المنديل حول راسها فى ارتباك :

ــ ذهبت زينب الى بيت ابيها غضبانة . .

آه . . كادينسى ما الم بأخيه واسرته فى الصباح . الآن تأكد اليه ماحدسه حين علم باختفاء الجارية نور ، وتحاشى عينى امه حياء ان تقرأ مايدور بخلده خصوصا وانه ايقن باطلاعها على جلية الامر ؛ ولم يستبعد ان تفطن الى ادراكه له او فى الاقل ان ترجحه ، فلم يدر مايقول لاسيما انه لم يعتد فى محادثتها ان يبدى خلاف ما يبطن ، ولم يكن ابغض لديه من ان يقوم المكر مقام الصراحة بينهما ، فقنع اخيرا بان يتمتم قائلا :

ــ ربنا يصلح الحال . . .

لم تنبس امينة بكلمة كأن اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفى جملة اخبارية واخرى دعائية فى معالجته ، وما لبث فهمى ان دارى ابتسامة كادت تفضح تحفظه اذ ادرك ان امه تكابد مثل شعوره وانها تعانى ارتباكا لعجزها الفطرى عن التمثيل ، لم تكن تحسن الكذب ، وحتى اذا اضطرت اليه احيانا كشفتها طبيعة لا تستقر على بساطتها الاقنعة ؛ على ان ارتباكهما لم يطل فما هى الا دقائق حتى رايا ياسين مقبلا نحوهما . حيل اليهما انه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التى تترصد فى البيت وان لم يعلم بعد بمدى ما بلغته ، ولم يدهش فهمى لذلك كثيرا لما يعلمه من استهانته بالمتاعب التى تنوء بغيره من الناس ، ولكن الحقيقة ان ياسين غلبه شعور باهر بانه اجتاز مغامرة ظافرة انسته الى حين جل متاعبه . كان فى طريقه الى باب البيت حين اعترض سبيله جندى كانما انشقت عنه الارض فارتعدت مفاصله وتوقع شرا لا قبل له به او فى الاقل اهانة

جارحة على مرأى من اصحاب الحوانيت والمارة ، ولكنه لم يتردد فى الدفاع عن نفسه ، فقال برقة وتودد مخاطبا الجندى كانما يستأذنه فى المرور :

ـ من فضلك ياسيدى ..

ولكن الجندى طلب عود ثقاب وهو يبتسم ـ اجل يبتسم ـ فذهل ياسين لابتسامته حتى استعصى عليه ان يفهم مراده حتى اعاده ، لم يكن يتصور ان جنديا انجليزيا يبتسم على هذا النحو ، او ـ اذا كان الجنود الانجليز يبتسمون كسائر البشر ـ ان يبتسم له أحدهم فيما يشبه الادب ، فاستخفه سرور اربكه حتى لبث جامدا لحظات لا يحرى جوابا ولا يبدى حراكا ، ثم توثب بكل ما فيه من قوة لاداء هذه الخدمة البسيطة لذاك الجندى العظيم المبتسم ، ولما كان غير مدخن فلا يحمل ثقابا فقدبادر الى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع الى الجندى مادا له يده بها فتناولها الجندى وهو يقول :

ـ اشكرك ..

لم يكن افاق من اثر الابتسامة السحرية فجاء الشكر كقدح البيرة الذى يعل به من استوفى طاقته من الوسكى ، ملأه الامتنان والزهو ، تورد وجهه المكتنز وضحكت اساريره وكأن عبارة « ثانك يو » نيشان سام تقلده على الملأ ، الا انها ضمنت له أن يذهب ويجيء امام المعسكر آمنا » وما كاد الرجل يبدى أول حركة للذهاب ، حتى قال له متوددا من اعماق فؤاده :

ـ حظ سعيد يا سيدى ..

ومضى الى البيت كالمترنح من الفرح . اى حظ سعيد ظفر به هو !.. انجليزى ـ لا استرالى ولا هندى ـ وابتسم له وشكره !.. انجليزى اى رجل يتمثل فى خياله كانموذج لكمال الجنس البشرى ، ربما ابغضه كما يبغضه المصريون جميعا ، ولكنه فى قرارة نفسه يحترمه ويجله حتى ليخيل اليه كثيرا انه من طينة غير طينة البشر ، هذا الرجل ابتسم له وشكره .. ! وقد اجابه اجابات صحيحة مقلدا ما وسعته مرونة شدقيه طريقة النطق الانجليزية فنجح نجاحا باهرا استحق عليه الشكر !.. كيف يصدق ما ينسب اليهم من الاعمال الوحشية !!.. لماذا نفوا سعد زغلول اذا كانوا على هذا الظرف كله ؟! غير ان حماسه فتر بمجرد ان وقع بصره على الست امينه وفهمى واستطاع ان يقرا نظرتهما ، وسرعان ما اتصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه ، انتبه الى انه يواجه مرة اخرى

المشكلة التى هرب منها مع الصباح الباكر . تساءل وهو يشير باصبعه الى فوق :

ـ لماذا لا تجلس معكما ؟ . . الا تزال غضبانة ؟

فتبادلت امينة مع فهمى نظرة ثم تمتمت بارتباك :

ـ ذهبت الى ابيها . . .

فرفع حاجبيه دهشة او انزعاجا ثم سالها :

ـ لماذا تركتها تذهب . .؟

فقالت امينة وهى تتنهد :

ـ تسللت دون ان يشعر بها أحد . .

شعر بانه يجب ان يقول قولا يرضى كرامته امام اخيه وامه فقال باستهانة :

ـ الى حيث . .

وقرر فهمى ان يقاوم رغبته فى اللواذ بالصمت كى يوهم اخاه بانه لم يطلع على سره وبالتالى ان ينفى شبهة اذاعته هذا السر عن امه فسأله ببساطة :

ـ ما الذى دعى الى هذا النكد . .؟!

فحدجه ياسين بنظرة متفحصة ثم لوح بيده الغليظة وهو يمط بوزه كانما يقول له « ليس ثمة ما يدعو الى النكد » ثم قال :

ـ بنات اليوم لم تعد بهن طاقة على حسن المعاشرة .

ثم ناظرا الى ست امينة :

ـ اين هن ستات الامس . .!؟

نكست امينة راسها حياء فى الظاهر ، وفى الحق لتدارى ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التى يتخذها ياسين الان ، صورة المتأمل الواعظ المجنى عليه ، والصورة التى ضبط بها مساء امس فوق السطح ، على ان انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذى سمح له الموقف بان يتظاهر به ، فانه على فداحة الخيبة التى منى بها فى حياته الزوجية لم يفكر لحظةفى قطع هذه الحياة، وجد فيها ملاذاومستقرا ورعاية الى ما بشرت به من ابوة وشيكة رحب بها ايما ترحيب ، تمنى دائما ان تبقى وراء ظهره ليعود اليها من شتى جولاته كما يعود الرحالة فى نهاية العام الى وطنه : ولم يغب عنه ما سيجره عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين ابيه ثم بينه وبين السيد عفت،الى مايلابس هذا كله من فضيحة ستفوح رائحتها حتى تزكم الانوف . . بنت الكلب !. . لشد ما كان مصمما

على ان يستدرجها الى الاعتراف بانها اخطات خطأ اكبر من خطئه ، بل لعله اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين ، فاقسم ليحملنها على الاعتذار وليأخذن نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل ، ولكنها ذهبت .. قلبت خططه رأسا على عقب .. وضعته فى مأزق غير يسير . بنت الكلب !.. وانتزع من تيار افكاره على صوت صراخ يمزق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمى وامه فوجدهما يرهفان السمع باهتمام وقلق ، وتواصل الصراخ فادركوا بسهولة انه صادر عن امرأة ، ولكن تساءلت اعينهم عن الناحية التى يترامى منها وعن سببه : انعى ميت أم عراك أم استغاثة ، وراحت امينة تستعيذ بالله من الشرور جميعا حتى قال فهمى :

ـ انه قريب .. لعله فى طريق بيتنا ..

ونهض فجأة مقطبا جبينه وهو يتساءل :

ـ الا يكون الانجليز قد هاجموا امرأة مارة بالطريق ..؟

وهرع الى المشربية والآخران فى اثره ، بيد أن الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلا على الناحية التى ترامى منها ، فرمى ثلاثتهم بانظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرت على امرأة لفتت الانظار بوقفتها الغريبة وسط الطريق وبمن احاط بها من المارة واصحاب الحوانيت ، على انهم عرفوها لاول وهلة وهتفوا معا :

ـ ام حنفى ...

وتساءلت امينة التى كانت ارسلتها لتعود بكمال من المدرسة :

ـ مالى لا ارى كمال معها ؟!. وماذا يوقفها هكذا كالجماد ..!

ـ كمال .. رباه .. اين كمال ..؟

ثم مدفوعة بشعور غريزى ؟!

ـ هى التى كانت تصرخ .. عرفت الآن صوتها .. أين كمال ؟. أغيثونى ...

لم ينبس فهمى ولا ياسين بكلمة ، استغرقهما تفحص الطريق عامة والمعسكر الانجليزى خاصة حيث رأوا انظار المتجمعين ـ وفى مقدمتهم ام حنفى ـ تتجه ، لم يكن ثمة شك لديهما فى أن أم حنفى هى التى صرخت حتى جمعت الناس حولها ، بل شعرا بالبداهة بانها كانت تستغيث لان ثمة خطرا تهدد كمال ، ثم تركزت مخاوفها فى الانجليز ، ولكن اى خطر هو؟ .. واين كمال ؟.. ماذا حدث للغلام ؟. ان الام لا تكف عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنان خاطرها ، لعلهما فى حاجة الى من

يسكن خاطرهما . . اين كمال ؟ . . ان الجنود ما بين جالس وواقف وماض لطيته ، كل مشغول بشانه كأن شيئا لم يقع وكان احدا من الناس لم يتجمع . وهتف ياسين بغتة وهو يلكز فهمي في كتفه :

ـ الا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين ان كمال يقف بينهم . انظر . . .

فلم تملك الام ان صرخت قائلة :

ـ كمال بين الجنود . . هاهو ياربى . . رباه . . اغيثونى

اربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكى الاذرع ، وقد مرت عينا فهمي اكثر من مرة دون ان تعثر على ضالتها ، في هذه المرة لمح كمال واقفا وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجندى الذى يوليهم ظهره ، خيل اليه انهم سيتقاذفونه بارجلهم كالكرة حتى يقضوا عليه انساه خوفه على اخيه نفسه فاستدار قائلا بنبرات مضطربة :

ـ ساذهب اليه مهما تكن العواقب . .

ولكن يد ياسين قبضت على منكبه وهو يقول بصوت حازم « قف » . . ثم خاطب الام بصوت هادىء باسم قائلا :

ـ لا تخافى . . لو انهم ارادوا ان يصيبوه بسوء ما ترددوا . . انظرى اليه الا يبدو منهمكا فى حديث طويل ؟؟ . ثم ما هذا الشيء الاحمر الذى بيده ؟! . اراهن على انها قطعة من الشيكولاته ! . . هدئى روعك . . انهم يتسلون به و « متنهدا » شد ما افزعنا على لاشيء .

سكن روع ياسين ، وما لبث ان تذكر مغامرته السعيدة مع الجندى فلم يستبعد ان يوجد له من زملائه نظائر فى لطفه ورقته ، ثم راى ان يدعم قوله ويثبته فى فؤاد الام الملتاع فاشار الى ام حنفى التى لم تزل فى موقفها قائلا :

ـ الا تريان ان ام حنفى لم تكف عن الصراخ الا حين لم تجد داعيا له . ها هم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمانينة . .

فغمغمت امينة بصوت مرتعش :

ـ لن يطمئن قلبى حتى يعود الى . .

وتركزت اعينهم فى الغلام ، أو فيما يلوح منه بين آونة واخرى ، غير أن الجنود استردوا اذرعهم المتشابكة وضموا سيقانهم المنفرجة كأنما اطمأنوا الى عدول كمال عن التفكير فى الهرب ، فبدا الغلام بكامل هيئته ، بدا باسما يتكلم كما استدلوا عليه من حركة شفتيه واشارات يديه التى استعان بها

على الافصاح عن افكاره فدل التفاهم بينه وبينهم على انهم يستطيعون الى حد ما استعمال اللغة المصرية ، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له ؟ . . هذا ما لم يستطع احد أن يخمنه ، بيد انهم ثابوا الى رشدهم ، حتى الام نفسها استطاعت اخيرا أن تشاهد المنظر العجيب الذى يمثل تحت ناظريها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل أو استغاثة ، على حين جعل ياسين يضحك قائلا :

ـ الظاهر اننا غالينا فى التشاؤم حينما ظننا ان احتلال هؤلاء الجنود لحينا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهى . .

ومع ان فهمى بدا ممتنا لسلوك الجنود مع كمال ، الا انه لم يرتح الى ملاحظة ياسين فقال دون ان تتحول عيناه عن الغلام :

ـ ربما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للاطفال . . . لاتغل فى تفاؤلك . .

وكاد ياسين يندفع متحدثا عن مغامرته السعيدة ، ولكنه ادرك لسانه فى اللحظة المناسبة فأمسك تفاديا من اثارة اخيه ، ثم قال على سبيل الملاطفة والتودد :

ـ ربنا يخلصنا منهم على خير . .

وتساءلت امينة فى لهفة :

ـ الم يئن لهم ان يدعوه مشكورين . . ؟

ولكن بدا عن دائرة كمال ان ثمة جديدا ينتظر ، فقد تراجع احد الجنود الاربعة الى خيمة قريبة ثم عاد بعد قليل بكرسى خشبى فوضعه امام كمال ، وما لبث الغلام أن وثب الى الكرسى فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين الى أسفل ، كأنما ينتظمه طابور القسم المخصوص ، وقد انحدر طربوشه الى قذاله ـ دون شعور منه فى الغالب ـ كاشفا عن مقدم راسه الكبير البارز . . ماخطبه ؟ . . ماذا وراء هذه الوقفة ؟ . . لم يطل بأحد التساؤل اذ سرعان ماعلا صوته الرفيع وهو ينشد :

يا عزيز عينى بدى أروح بلدى
يا عزيز عينى السلطة خدت ولدى

غناها مقطعا مقطعا بصوته اللطيف والجنود يتطلعون اليه فاغرى الافواه ضاحكى الأسارير تلاحق اكفهم ترديده بالتصفيق ، وكان احدهم قد تأثر بما أدركه من بعض معانى الاغنية فراح يهتف « أروح بلدى . . أروح بلدى » . . فتشجع كمال بما حظى من سرور سامعيه وأقبل يجود من انشاده ويحسن من ترنمه ويعلى من صوته ، حتى ختمت الاغنية بين

التصفيق والاستحسان الذى شاركت فيه الاسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والاشفاق . اجل شاركت الاسرة فى الاستحسان بعد أن شاركت ـ بقلوبها أيضا ـ فى الغناء ، تتبعوه باشفاق وقلق ، دعوا له بالسلامة والاجادة ، خافوا عليه الزلل أو النشاز كأنما يغنى بالانابة عنهم جميعا ، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرته ، وكأن كرامتهم ـ أفرادا ومجموعة ـ امست متعلقة بنجاح الغناء،نسيت امينة فى لجة هذا الشعور مخاوفها ، حتى فهمى لم يكن يفكر فى اثناء ذلك الا فى الغناء وما يرجو له من نجاح ، فلما انتهى بخير تنهدوا من الاعماق وودوا أن يبادر كمال الى العودة قبل ان يطرأ طارىء يفسد عليهم مسك هذا الختام . والظاهر أن الحفلة آذنت بانتهاء فقد قفز كمال الى الارض فسلم على الجنود فردا فردا ورفع يده محييا ثم انطلق يعدو صوب البيت ، فهرولت الاسرة من المشربية الى الصالة لتكون فى استقباله ، أقبل عليها لاهثا مورد الوجه مبتل الجبين تنطق عيناه وأساريره وحركات اعضائه المرسلة بلا اتزان أو غاية بالفرح والفوز ، اترع قلبه الصغير سعادة غامرة ماكان بوسعه الا ان يعلن عنها بكل سبيل ويدعو الآخرين الى الاشتراك فيها ، كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان ، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لان تريه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه . . ولكن الفرح أعماه فهتف بهم :

ـ عندى خبر لن تصدقوه ولن تتصوروه . . .

فقهقه ياسين متسائلا فى سخرية :

ـ اى خبر ياعزيز عينى ؟ !

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنها نورشعشع فجأة فى الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفصحة ناطقة ، بيد أن علمه برؤيتهم لمغامرته عوضه عما ضاع من فرصة ادهاشهم بحديثه العجيب فأغرق فى الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه ، ثم قال وهو يغالب الضحك :

ـ أرأيتمونى حقا . . ؟ !

عند ذاك جاء صوت أم حنفى وهى تقول بنبرات متشكية :

ـ كان الافضل ان يروا تعاستى ! . . علام هذا الفرح كله بعد ان سببت مفاصلى ؟ . . حادثة اخرى كهذه والله يرحمنى . .

لم تكن خلعت ملاءتها فبدت كزكيبة فحم منتفخة ، يعلو وجهها الشحوب والاعياء وتلوح فى عينيها نظرة استسلام غريبة . . فساءلتها امينة :

ـ ماذا حدث ؟ .. ماذا دعاك الى الصراخ ؟ .. لقد لطف الله بنا فلم نشهد شيئا مفزعا ..

فاسندت أم حنفى ظهرها الى ضلفة الباب واخذت تقول :

ـ حدث ما لن انساه ياستى .. كنا عائدين واذا بشيطان من هؤلاء الجنود يقفز امامنا ويشير الى سيدى كمال ليذهب اليه ففزع سيدى وجرى الى درب قرمز ، ولكن جنديا آخر اعترض سبيله فانحرف الى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبى من الخوف وجعلت استغيث بأعلى صوتى وعيناى لاتفارقانه وهو يجرى من جندى الى جندى حتى أحاطوا به .. كدت أموت من شدة الخوف وزاغ بصرى فلم اعد أرى شيئا ، وما أدرى الا والناس قد اجتمعوا حولى ولكنى لم اكف عن الصراخ حتى قال لى عم حسنين الحلاق : « ربنا يكفيه شر اولاد الحرام .. وحدى الله .. انهم يلاطفونه .. » .. آه يا ستى لقد حضرنا سيدنا الحسين ودفع عنا الشر ..

قال كمال معترضا :

ـ لم اصرخ أبدا ..

فضربت ام حنفى صدرها بكفها قائلة :

ـ لقد ثقب صراخك اذنى حتى جننتنى ...

فقال بصوت منخفض كالمعتذر :

ـ ظننتهم يريدون قتلى ، ولكن احدهم جعل يصفر لى ويربت على كتفى ثم أعطانى (وهنا جس جيبه) شيكولاته فذهب عنى الخوف ..

زايل امينة السرور ، لعله كان سرورا زائفا متعجلا ، الحقيقة التى يجب الا تغيب عنها هى أن الفزع ركب كمال دقائق ، وانه يجب أن تدعو ربها طويلا كى ينجيه من عواقبه ، لم تكن ترى فى الفزع مجرد شعور عابر ، كلا ... انه شعور شاذ تكتنفه هالة خفية غامضة تأوى اليها العفاريت كما تأوى الخفافيش الى الظلام ، فاذا احاط بشخص ـ خصوصا الصغار .. مسه بضر سيىء العاقبة ، لذلك فهو يستوجب فى نظرها مزيدا من العناية والحيطة ، تلاوة من القرآن كانت ام بخورا ام حجابا ، قالت بحزن :

ـ افزعوك ! .. قاتلهم الله ..

وقرأ ياسين مايدور فى خاطرها .. فقال مداعبا :

ـ الشيكولاته رقية ناجعة للفزع .. (ومخاطبا كمال) .. هل دار الحديث بالعربى ؟

رحب كمال بالسؤال لانه فتح له مرة اخرى ابواب الخيال والمغامرة ،

منتشلا اياه من مضايقات الواقع ، فقال وقد استعادت اساريره انبساطها:
- كلمونى بعربى غريب ! .. ليتك سمعته بنفسك ..
وراح يحاكى طريقتهم فى الكلام حتى ضحك الجميع ، حتى امه ابتسمت ... فعاد ياسين يسأله وكان يغبطه :
- ماذا قالوا لك ؟
- كلاما كثيرا ! .. ما اسمك ، اين بيتك ، اتحب الانجليز ؟ !
فهمى ساخرا :
- وبم اجبتهم على هذا السؤال الفريد ؟ !
فرمق اخاه كالمتردد .. ولكن ياسين اجاب عنه قائلا :
- طبعا قال انه يحبهم .. ماذا كنت تريد أن يقول .. ؟
على ان كمال استطرد يقول متحمسا :
- ولكنى قلت لهم ايضا ان يعيدوا سعد باشا ..
فلم يتمالك فهمى ان ضحك عاليا .. وسأله :
- حقا ! .. وماذا قالو لك ؟
فقال كمال مستردا ارتياحه بضحك اخيه :
- امسك احدهم باذنى وقال لى « سعد باشا نو .. »
فعاد ياسين يتساءل :
- وماذا قالوا لك أيضا ؟
فقال كمال ببراءة :
- سألونى .. الا يوجد بنات فى بيتنا .. ؟
فتبودلت نظرية جدية بينهم لأول مرة منذ قدم كمال ، ثم سأله فهمى باهتمام :
- وماذا قلت لهم :
- قلت ان ابله عائشة وابله خديجة تزوجتا ، ولكنهم لم يفهموا كلامى فقلت ليس فى البيت الا نينة ، فسألونى عن معنى نينة فقلت : ...
رمى فهمى اخاه ياسين بنظرة كانما يقول : « أرأيت كيف ان سوء ظنى كان فى محله ! » .. ثم قال ساخرا :
- لم يعطوه الشيكولاته لوجه الله
فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلا :
- ليس ثمة مايدعو الى القلق ..
وابى أن يترك هذه السحابة تغشى مجلسهم فسأل كمال :
- وكيف دعوك الي الغناء ؟

فقال كمال ضاحكا :

- فى اثناء الحديث انطلق احدهم يغنى بصوت منخفض ، فاستأذنتهم فى ان أسمعهم صوتى .. !

فقهقه ياسين قائلا :

- يالك من فتى جرىء ! .. ألم يعاودك الخوف وانت بين ارجلهم ؟

فقال كمال فى مباهاة :

- ابدا .. (ثم بتأثر) .. ما اجملهم ! .. لم أر اجمل منهم من قبل . عيون زرق .. وشعر من ذهب .. وبشرة ناصعة البياض .. كأنهم ابله عائشة !

وجرى فجأة الى حجرة المذاكرة ورفع رأسه الى صورة لسعدزغلول ثبتت فى الجدار الى جانب صور الخديو ومصطفى كامل ومحمد فريد .. ثم عاد وهو يقول :

- انهم اجمل من سعد باشا كثيرا ..

فهز فهمى رأسه كالآسف وقال :

- يالك من خائن ! .. اشتروك بقطعة من الشيكولاتة .. لست صغيرا ليغفر لك هذا القول ، من مدرستك من يستشهد كل يوم ، خيبة الله عليك ..

وكانت أم حنفى قد احضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البن .. واخذت امينة تهيىء القهوة الجلسة التقليدية ، عاد كل شىء الى اصله الا ياسين فقد عاود التفكير فى زوجه الغاضبة ، على حين انتحى كمال جانبا واخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المورد اللامع ، بدا ان تعنيف فهمى ضاع فى الهواء اذ لم يكن فى قلبه وقتذاك الا الرضى والحب ...

- ٦٠ -

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها احد . مايدرى السيد احمد الا ومحمد عفت قادم عليه فى الدكان فى اليوم التالى لالتجاء زينب الى بيته . ثم قال قبل ان يسترد يده التى شد عليها السيد بالسلام :

ـ ياسيد احمد .. جئتك برجاء ، يجب أن تطلق زينب اليوم قبل الغد ان أمكن ..

بهت السيد . اجل قد ساءه سلوك ياسين اكبر اساءة ، ولكنه لم يتصور أن يبعث رجلا فاضلا كالسيد محمد عفت الى المطالبة بالطلاق ، لم يتصور ان تدعو هذه « الهفوات » الى الطلاق مطلقا ، بل لم يجر له على بال ان تجىء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة ابدا ، فخيل اليه ان الدنيا انقلبت راسا على عقب ، وابى ان يصدق ان محدثه جاد فى طلبه فقال بلهجته اللطيفة التى طالما استأسرت قلوب اصدقائه :

ـ ليت الاخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وانت تقذفنى بهذه اللهجة القاسية ! .. اصغ الى .. باسم صداقتنا أمنعك من أن تجرى للطلاق ذكرا على لسانك ..

ثم تفرس فى وجهه ليسبر اثر كلامه فيه ، ولكنه وجده متجهما كالحا ينذر بالشر والتصميم ، فبدا يستشعر الخطورة والتشاؤم .. ودعاه الى الجلوس فجلس وما تزداد صورته الا ظلاما ، وانه يعرفه حق المعرفة ، عنيد شديد المراس اذا ركبه الغضب كفر بالمودة والمجاملة فتمزقت على سنان حدته اسباب القربى والعطف جميعا ، قال السيد :

ـ وحد الله .. ولنتحدث فى هدوء ..

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذى توهج به خداه :

ـ صداقتنا فى حرز ، فلندعها جانبا .. ابنك ياسين لايعاشر ، تحققت من هذا بعد ان عرفت كل شىء ، كم تصبرت المسكينة ! .. حضنت همومها طويلا ، اخفت عنى كل شىء ، ثم بثتها جملة حين تصدع صدرها .. يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا ، اهانها ولفظها ، ثم ماذا كانت عقبى صبرها الطويل ؟ ! .. أن تضبطه فى بيتها مع خادمتها ! (وبصق على الارض) .. جارية سوداء ! ..

بنتى لم تخلق لهذا ، كلا ورب السموات ، انت اعرف النـاس بمنزلتها عندى ، كلا .. ورب السمـاوات ، لا كنت محمـد عفت اذا سكت على هذا ..

قصة معادة ، ولكن ثمة جديدا صدمه حتى زلزله هو قوله أن ياسين « يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا » ! .. اعـرف طريق الحانة ايضا ؟! .. متى ؟ .. كيف ! .. آه ليس فى الوقت متسع للتفكير أو الانزعاج ، ليخف انفعاله كله ، الساعة تتطلب هدوءا وضبطا النفس ، يجب ان يملك الموقف ليتفادى استفحال الشر .. قال بنبرات اسيفة :

ــ أن مايحزنك يحزننى اضعـافا ، ومن سـوء الحظ أن سوأة من السوءات التى حدثتنى عنها لم تتصل لى بعلم أو تجر لى على بال ، اللهم الا الحادثة الاخيرة وقد ادبته عليها تأديبا لايستبيحه لنفسه اب غيرى ، ما عسى ان اصنع ؟ .. لقد اخـذته بالتأديب العنيف مذ كان صـبيا ، ولكن وراء ارادتنا دنيا وشياطين تهزا من تصميمنا وتفسد علينـا نوايانا الطيبة ..

قال محمد عفت وهو يتحاشى عينى السيد بالنظر الى المكتب :

ــ لم اجىء لاوجه اليك لوما او احمـلك تقصـيرا ، انت كأب مثـال يحتذى ولا يجارى .. ولكن هذا لن يغير من الحقيقة المحزنة ، وهى أن ياسين كان غير ما اردت له أن يكون ، وانه بحالته الراهنة لايصلح للحياة الزوجية ..

فقال السيد فى عتاب :

ــ رويدك ياسيد محمد .. !

فقال الرجل مستدركا ولكن مصمما على رايه :

ــ على اى حال لن يصلح زوجا لابنتى ، سيجد من تقبله على عـلاته ولكن غيرها ، لم تخلق ابنتى لهـذا .. انت أدرى الناس بمنزلتها عندى ..

ادنى السيد راسه من راس الرجل وقال بصوت منخفض .. وكأنما دارى ابتسامة :

ــ ليس ياسين بين الأزواج بنـادرة ، فـكم منهـم من يسكر ويعربد ويعمل البدع !

فقطب محمد عفت لينفى عن نفيسه شبهة الاستجابة لهذا الكلام الموحى بالدعابة .. وقال بجفاء :

ــان كنت تشير الى جماعتنا او الى انا خاصـة ، فالحق انى أسكر واعربد واعشق ، ولكنى .. بل نحن جميعا ، لا نوحل فى القاذورات ! ..

جارية سوداء ! .. اهذه التى قضى على ابنى بأن تتخذها ضرة ؟ ! .. كلا .. كلا ورب السماوات .. لن تكون له ولن يكون لها ..

ادرك السيد احمد ان محمد عفت - ربما كابنته سواء بسواء - مستعد لأن يعفو عن أمور كثيرة ، الا ان يخلط ياسين بين كريمته وبين جاريتها السوداء ، انه يعرفه تركيا فى عناد البغل .. ثم ورد على ذهنه قول صديقه ابراهيم الفار يوم كاشفه بنيته فى خطبة زينب لابنه ياسين ، فقد قال له : « أصيلة بنت أصول ، محمد عفت أخونا وحبيبنا ، ابنه ابنتنا، ولكن هل فكرت رويدا فى منزلة الفتاة من نفس أبيها .. هل فكرت فى أن محمد عفت لاينسامح من ذرةغبار اذا مست لها ظفرا ؟ ! » .. لكنه رغم هذا كله تعذر عليه ان يقيس الأمور بغير مقياسه ، وكان يفاخر دائما بأن محمد عفت على فظاعة غضبه اذا غضب ، لم يحتد عليه ولو مرة واحدة طوال معاشرتهما المديدة ! .. قال متسائلا :

- رويدك ، الا ترى ان مبادئنا واحدة وان اختلفت التفاصيل ؟ .. جارية سوداء او عالمة .. أليست كلتاهما امرأة .. ؟ !

فانتفخت أوداج محمد عفت وضرب حافة المكتب بقبضته .. وانفجر قائلا :

- انت لاتعنى ماتقول ! .. الخادمة خادمة والسيدة سيدة ، لماذا لاتعشق الخادمات اذن ؟ ! . ام يشابه ياسين اباه ، انى آسف لكون ابنتى حبلى حبلى ، كم اكره ان يكون لى حفيد تجرى فى دمه القذارة .. !

وخزته الجملة الاخيرة فغضب ، ولكنه استطاع ان يغلق قلبه على غضبه بقوة حلمه الذى يحبو به اصدقاءه واحبابه ، حلم بين الاصدقاء لايعادله فى قوته الا غضبه بين آله .. ثم قال بهدوء :

- أقترح عليك ان نؤجل الحديث الى وقت آخر ..

فقال محمد عفت محتدا :

- ارجو ان تحقق رجائى الساعة .. !

آه .. لقد بلغ به الامتعاض حدا لم يكن الطلاق نفسه معه بالحل المستكره ولكنه كان يشفق على صداقة العمر من ناحية ، وتعز عليه الهزيمة من ناحية اخرى ، أليس هو الرجل الذى يتشفع به الناس ليفض الخصومات وليوصل ما انقطع من الودات والزيجات ؟ ! .. فكيف تحل به الهزيمة وهو يدافع عن ابنه فيرضى بحكم الطلاق ؟! .. أين حلمه ؟ .. أين كياسته ؟ .. أين لباقته ؟

- لقد اصهرت اليك لأوثق اسباب الصداقة بيننا .. فكيف أقبل أن اعرضها للوهن .. ؟

فقال الرجل بانكار :

- صداقتنا فى حرز ! .. لسنا اطفالا ، ولكن كرامتى لايمكن أن تمس ..

فقال السيد برقة :

- ماعسى ان يقول الناس عن زيجة انقطعت ولما تتم عامها الاول ؟

فقال محمد عفت بعجرفة :

- لن يرجع عاقل العيب الى ابنتى ..

آه .. مرة اخرى ! .. ولكنه تلقاها بنفس الحلم ، بدا وكأن استياءه لعجزه عن التوفيق قد غطى استياءه من تهور الرجل الغاضب فلم يهتم بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير اخفاقه .. راح يعزى نفسه بأن الطلاق بيده هو وحده ، اذا شاء منحه واذا شاء منعه ، محمد عفت يعلم ذلك حق العلم ، لذلك جاء يستوهبه اياه باسم الصداقة التى لاشفيع له غيرها ، فاذا قال لا فلا راد لكلمته وسترجع الفتاة الى ابنه طوعا او كرها .. ولكن تمسى الصداقة القديمة فى خبر كان ، أما اذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل ، وليس من العسير أن يتذرع بكل اولئك فى المستقبل لوصل ما انقطع ، واذن فالطلاق وان يكن هزيمة الا أنه هزيمة مؤقتة تتضمن تسامحا ونبلا غير منكورين وقد تنقلب فوزا بعد حين . وما ان اطمأن الى سلامة موقفه ولو بعض الشيء حتى شعر بالرغبة فى معاتبته على مافرط منه فى حقه .. فقال بلهجة ذات معنى :

- لن يكون طلاق الا بموافقتى .. أليس كذلك ؟ .. بيد أننى لن انبذ رجاءك مادمت مصرا عليه ، اكراما لك ، اكراما للصداقة التى لم ترع لها حقا فى مخاطبتى ..

فتنهد محمدعفت .. اما ارتياحا للنهاية المنشودة أو احتجاجا على عتاب صديقه أو للاثنين معا ، ثم قال بلهجة قاطعة خلت من حدة الغضب لأول مرة :

- قلت الف مرة ان صداقتنا فى حرز ! .. انك لم تسىء الى قط ، على العكس من ذلك فانك تكرمنى بتحقيق رجائى وان كرهته ..

فردد السيد قوله محزونا :

- نعم .. وان كرهته ..

ثار حنقه حالما غاب الرجل عن ناظريه . انفجر الغيظ المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وزينب وياسين ، ياسين خاصة ، ثم تساءل . ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة فى حرز حقا فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة ؟ . . آه ، لم يكن ليضن بنفيس فى سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية . . لكنه العناد التركى ، لكنه الشيطان ، بل لكنه ياسين ، أجل ياسين دون غيره . . قال له بغضب وازدراء :

ـ كدرت صفو ود لم تكن الأيام لتكدره ولو اجتمعت له . .

ثم قال له بعد أن أعاد على مسمعيه حديث محمد عفت :

ـ خيبت أملى فيك فحسبى الله ونعم الوكيل ، ربيتك وأدبتك ورعيتك . . ثم انجلى تعبى كله عن ماذا ؟ . . سكير صعلوك تسول له نفسه الاعتداء على أحقر الخادمات فى بيت الزوجية ، لا حول ولا قوة الا بالله ، ماكنت أتصور أن يخرج من حضانتى ابن على هذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد ، ماعسى أن أصنع بك ؟ . . لو كنت قاصرا لكسرت دماغك ، ولكن لتكسرنها الأيام ، ها أنت تنال جزاءك الحق فتتبرأ منك الاسر الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان . . !

لعله وجد نحوه بعض الرثاء ، بيد أن سخطه غلب ثم استحال شعوره كله ازدراء ، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوته وجماله وضخامته ، يوحل فى القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله ، ويعجز عن كبح جماح امرأة . ما أصغره ، سرعان ما لحقت به الهزيمة التى لم ينج هو نفسه من هوانها من جراء طيشه . ما أحقره ، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظل السيد المطاع ، أما أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره ، لم يشابه أباه كما قال أيضا محمد عفت قاتله الله ، انى افعل ما أشاء ولكنى اظل السيد أحمد وكفى ، حكمة رائعة تلك التى الهمتنى ان أنشىء الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة ، فانه لما يشق أن ينهجوا نهجى ويحظوا فى نفس الوقت بالكرامة والاستقرار ، ولكن واأسفاه ضاع جهدى هباء مع ابن هنية !

ـ وهل وافقت يا أبى . . ؟

تردد صوت ياسين كالحشرجة . . فأجابه بخشونة قائلا :

ـ نعم ، ابقاء على صداقة قديمة ولأنه اوفق حل فى الوقت الحاضر على الأقل .

جعلت يد ياسين تنقبض وتنبسط فى حركة آلية عصبية ، كأنما كانت تشفط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب ، شعر بهوان لم يشعر

بمثله الا فيما كابد من سلوك أمه ، حموه يطالب بالطلاق ! .. او بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق او على الأقل توافق عليه ! .. ايهما الرجل وايتهما المرأة ؟ ! .. ليس عجيبا أن ينبذ الانسان حذاء اما ان ينبذ حذاء صاحبه !! . كيف رضى ابوه له بهذا الخزى الذى لم يسمع بمثله من قبل ؟! .. حدج اباه بنظرة حادة وان عكست مايعتلج فى صدره من أنات الاستغاثة ، ثم قال بلهجة حرص الحرص كله على أن ينقيها من اى اثر للاحتجاج او الاعتراض ، كأنما يريد بها ان يذكره بما عسى أن يكون انسب :

ــ ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز ..

شعر السيد بشعور ابنه فأدركه التأثر ، ولذلك لم يبخل عليه ببعض مايدور فى نفسه .. فقال له :

ــ أعلم ذلك .. ولكنى اخترت أن نكون من الكرماء ، محمد عفت عقل تركى حجرى ولكن قلبه من ذهب ، هذه الخطوة ليست الأخيرة ، ليست النهاية ، لم اغفل مصلحتك وان كنت لاتستأهل خيرا ، دعنى أتصرف كما اشاء ..

كما تشاء ! .. منذا يرد لك مشيئة ؟ ! .. تزوجنى وتطلقنى .. تحيينى وتميتنى ، لست هنا ، خديجة عائشة فهمى ياسين .. الكل واحد ، الكل لا شىء ، انت كل شىء .. كلا .. لكل شىء حد ، لم أعد طفلا ، رجل مثلك سواء بسواء ، انا الذى اقرر مصيرى ، اطلق او اودعها بيت الطاعة ، تراب حذائى بمحمد عفت وزينب وصداقتكما ..

ــ مالك لا تتكلم ؟ ..

فقال دون تردد :

ــ أمرك يا أبى ....

اى عيشة واى بيت واى اب ، زجر وتأديب ونصائح ، ازجر نفسك .. ادب نفسك .. انصح نفسك ، انسيت زبيدة ؟ .. وجليلة ؟ .. والغناء والشراب ؟ .. ثم تطالعنا بعمامة شيخ الاسلام وسيف أمير المؤمنين ، ام أعد طفلا ، اعتن بالقصر ودعنى وشأنى ، تزوج .. امرك يافندم ، طلق .. امرك يافندم .. ملعون ابوك ..

- ٦١ -

خفت حدة المظاهرات شيئا ما في حي الحسين بعد احتلال الجنود الانجليز له فأمكن السيد أحمد أن يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطرا الى حين، أمكنه ان يصطحب أبناءه الى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة .. عادة قديمة داب عليها منذ عهد بعيد .. كان يدعو ابنه اليها حالما يبلغ صباه ليوجه قلبه الى العبادة مبكرا ، مستوهبا من ورائها البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعا . ربما كانت امينة وحدها التي لا ترتاح الى تحرك القافلة في نهاية كل اسبوع حاملة رجالها ، ثلاثة رجال كالجمال طولا وعرضا الى فتوتهم واشراقهم ، كانت تتبعهم ناظريها من خصاص المشربية فيخيل اليها أنهم ملتقى الأنظار فتجزع وتدعو الله أن يقيهم شر العين ، وما ملكت يوما ان أفضت بمخاوفها الى السيد فبدا وكأنه تأثر لتحذيرها حينا ، بيد انه لم يستسلم للخوف طويلا وقال لها : « ان بركة الفريضة التي نذهب لتأديتها حقيقة بأن تحفظنا من كل شر »

وكان فهمي يلبي دعوة الجمعة ببشاشة قلب اولع بتأدية الفرائض منذ الصغر ، مطيعا في ذلك — قبل ارادة أبيه — عاطفة دينية صادقة ، تمتاز الى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به ، استمده مما اطلع عليه من آراء محمد عبده وتلاميذه .. لذلك كان الوحيد في الأسرة الذي يقف من ايمانها بالتعاويذ والرقى والأحجبة وكرامات الأولياء موقف المتشكك ، وان ابت عليه دماثة خلقه أن يجهر بتشككه او يعلن استهانته ، بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولي عبد الصمد الذي يجيء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهري . اما ياسين فكان يلبي دعوة أبيه لأنه لم يكن من تلبيتها بد ، لعله لو ترك وشأنه ما فكر يوما في أن يدس جسمه الضخم في زحمة المصلين ، لا عن تزعزع في العقيدة ، ولكن استهانة وتكاسلا .. لذا كان ليوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح ، فاذا حان وقت الذهاب الى الجامع ارتدى بدلته في شيء من التذمر ، ثم يسير وراء أبيه كالأسير ، ولكن كلما اقترب من الجامع خطوة تخفف من تذمره رويدا ، حتى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدي الصلاة ويدعو الله ان يغفر له ويعفو عن ذنوبه ، دون أن يسأله التوبة كأنما يشفق في أعماقه أن يستجاب دعاؤه فينقلب زاهدا في اللذات التي يحبها حبا لا يرى للحياة بدونه معنى .

كان يعلم علم اليقين أن التوبة واجبة ، وان مغفرة لن تكتب له بدونها ، ولكنه كان يرجو ان تجيء فى الوقت « المناسب » حتى لا يخسر الدارين، ولذا كان على تكاسله وتذمره يحمد فى النهاية الظروف التى تدفعه الى تأدية فريضة هامة كفريضة الجمعة يمكن — عند الحساب — أن تمحو بعضا من سيئاته وتخفف من اوزاره ، خصوصا وانه لا يكاد يؤدى غيرها فريضة ..

أما كمال فلم توجه إليه الدعوة الا حديثا . مذ جاوز العاشرة ، فنهض الى تلبيتها فى زهو وخيلاء وفرح ، شعر شعورا غامضا بأنها تتضمن اعترافا بشخصه ، وأنها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمى وياسين وأبيه نفسه ، ثم سره على وجه الخصوص ان يسير فى ركاب أبيه آمنا اى دون أن يتوقع من ناحيته شرا ، وأن يقف فى الجامع الى جانبه على قدم المساواة مؤتمين جميعا بامام واحد ، بيد أنه كان يستغرق فى صلاته اليومية — فى البيت — استغراقا لا يظفر بمثله فى صلاة الجمعة بالنظر الى ما يعتريه من ارتباك إقيامه وسط خلق لايحيط بهم حصر ، ولاشفاقه من أن تند عنه هفوة فتلتقطها احدى حواس ابيه ، الى أن شدة شعوره بالحسين — الذى يحبه اكثر من نفسه — وهو فى مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغى للمصلى ..

هكذا رآهم طريق النحاسين مرة اخرى وهم يحثون الخطى الى بيت القاضى ، السيد فى المقدمة وياسين وفهمى وكمال وراءه صفا ، حتى اتخذوا مجالسهم فى الجامع وراحوا ينصتون الى خطبة الجمعة بين رءوس مشرئبة الى المنبر فى صمت شامل . لم يكن السيد على شدة انصاته يكف عن الدعاء الباطنى ، وتوجه قلبه الى ياسين خاصة ، كأنما رآه بعد مالحق به من عثار الحظ أحق بالرحمة ، فدعا الله طويلا ان يصلح من شأنه ويقوم ما اعوج من امره ويعوضه عما فقد خيرا .. على ان الخطبة جبهته بمعاصيه ، اخلت مابينه وبينها فطالعها وجها لوجه فى هالة مرعدة من صوت الواعظ الجهورى الرنان النافذ حتى خيل اليه أنه يعنيه بالذات ، وأنه يشد على أذنه صارخا فيها بأعلى صوته ، وانه لا يستبعد ان يخاطبه باسمه قائلا : « يا احمد ازدجر .. تطهر من الفسق والخمر وتب الى الله ربك » فألم به قلق وضيق كما الما به يوم ناقشه الشيخ متولى عبد الصمد الحساب ، وهو ما يقع له كثيرا عند سماع الخطبة فيسترسل فى طلب الغفران والعفو والرحمة ، ولكنه — كابنه ياسين — لم يكن يطلب التوبة وان طلبها فبلسانه دون قلبه ، يقول بلسانه « اللهم التوبة » على حين

يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما آلتان موسيقيتان تعزفان معا فى أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان ، لأنه لم يتصور أن يرى الحياة بغير العين التى يراها بها ولا أن تبدو له بغير الوجه الذى تبدو به ، فاذا الح عليه القلق والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه .. ولكنه يلقى دفاعه فى صورة دعاء واستغفار فيقول « اللهم انك اعلم بقلبى وايمانى وحبى ؛ اللهم زدنى استمساكا بتأدية فرائضك وقدرة على صنع الخير ، اللهم ان الحسنة بعشرة أمثالها ، اللهم انك أنت الغفور الرحيم » .. وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة رويدا

لم تكن لياسين مثل هذه القدرة على التوفيق أو انه لم يشعر قط بحاجة اليها ، لم تكن موضع تفكيره يوما ، يهيم بالحياة كما يشتهى ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو ، ثم يستسلم للتيار دون مقاومة أو ممانعة . قرعت اذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطنى سائلا الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفى طمأنينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقية ، أن الله ارحم من أن يحرق مسلما مثله بهفوات عابرة لا تؤذى أحدا من عباده ، ثم هنالك التوبة !.. ستأتى « يوما » فتمحو ما قبلها ، واسترق نظرة الى أبيه وتساءل وهو يعض على شفتيه كأنما يكتم ضحكة نافرة مماعسى ان يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام البادى الى الخطبة ؟.. أهو يعانى العذاب كل صلاة جمعة ام تراه ينافق ويخادع ؟.. كلا .. لا هذا ولا ذاك .. انه مثله — ياسين — يؤمن برحمة الله الواسعة ، او أن الأمر بالخطورة التى يصفه بها الواعظ لاختار ابوه احدى السبيلين ، استرق اليه نظرة أخرى فرآه كالجواد الكريم الجميل بين القاعدين المتطلعين الى المنبر ، شعر نحوه باعجاب وحب خالصين ، لم يعد الحنق اثر فى نفسه ، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق ، حتى بث همه الى فهمى قائلا : « لقد خرب ابوك بيتى وجعلنى اضحوكة بين الناس » الا انه تناسى الآن حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شيء ، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيرا من أبيه .. بل هو على وجه اليقين امعن فى الضلال ، حدثه عنه مرة أحد الاصحاب فى قهوة أحمد عبده فقال : « انه يؤمن بشيئين .. بالله فى السماء وبالغلمان فى الأرض ، انه من طراز حساس ترفعينه وهو فى الحسين اذا تاوه غلام فى القلعة » ، بيد انه لم يحقد عليه لذلك ، وعلى العكس وجد فيه كما وجد فى أبيه ما يجد الجندى فى الخنادق المحفورة فى الخطوط الأمامية التى على العدوان ان يقتحمها قبل أن يصل اليه .

ثم دعا الداعى الى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة ، وقفوا صفوفا

متراصة ملأت صحن الجامع الكبير ، صار المسجد أجسادا ونفوسا ذكر كمال احتشادها مشهد المحمل فى النحاسين ، واتصلت الأزياء فى خطوط طويلة متوازية وحدتها البدل والجبب والجلابيب ، ثم انقلب الجمع جسما واحدا تصدر عنه حركة واحدة مستشرفا قبلة واحـــدة ، وترددت التلاوات الهامسة فى همهمة شاملة حتى اذن بالسلام .. عندذاك انتثر سلك النظام ، استردت الحرية أنفاسها ، نهض كل لوجهته ، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلبث للحديث أو تريث حتى يخف الزحام .. فاختلطت تياراتهم ايما اختلاط كالموجة الكبيرة تندفع نحو الشاطىء وهى آخذة فى النمو والعلو والتكتل ، ثم تهوى كالشلال فتنفجر وتنساب فى شتى الجهات على هيئة موجات صغيرة تمتزج وتفترق وتنتشر أيما انتشار ، أزفت الســاعة السعيدة التى منى كمال نفسه بها .. ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة اصالة عن نفسه وانابة عن أمه كما وعدها ، بدا يتحرك ببطء فى ركاب أبيه .. وما يدرون الا وشاب أزهرى يبرز من الزحمة فجـــاة يعترض سبيلهم فى حركة عنيفة لافتة للأنظار ، ثم بسط ذراعيه اينحى الناس جانبا ومضى يتقهقر امامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثاقبة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نذر الغضب من صفحتــه المكفهرة . عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين ياسين، على حين بدا ياسين اشد عجبا فراح بدوره يردد بصره بينه وبين أبيه متسائلا ، ثم انتبــه الناس الى المشهد فركزوا فيه أنظارهم مترقبين فى دهشة واستطلاع ، وعندذاك لم يتمالك السيد ان خاطبه متسائلا فى استياء :

ـ مالك يا أخى تنظر الينا هكذا ؟..

فأشار الأزهرى الى ياسين وصاح بصوت كالرعد :

ـ جاسوس !..

نفذت الكلمة الى صدر الأسرة كالرصاصة فدار رأسها وحملقت أعينها وجمدت فى أماكنها ، على حين جرت التهمة على الألسن فرددتها فى فزع وحنق واخذ الناس يتجمعون حولهم واذرعهم تشتبك فى جذر لتحصرهم فى دائرة مالها من منفذ ، وكان السيد أول من ثاب الى وعيه ، ومع انه لم يفهم شيئا مما يدور حوله .. الا أنه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشاب غاضبا :

ـ ماذا تقول ياسيدنا الشيخ ؟.. اى جاسوس تعنى ؟

ولكن الشاب لم يأبه للسيد ، فأشار مرة أخرى الى ياسين وصاح :

ـ حذار ايها الناس، هذا الشاب الخائن جاسوس من جواسيس الانجليز اندس بينكم ليتسقط الأنباء ثم ينقلها الى سادته المجرمين

ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به غير متمالك نفســه :

ـ انت تهرف بما لا تعرف ، فاما ان تكون مجرما او مجنونا . هذا الشاب ابنى لا خائن ولا جاسوس ، كلنا وطنيون وهذا الحى يعرفنــا كما نعرف انفسنــا ..

فهز الشيخ منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابى :

ـ جاسوس انجليزى حقير ، رايته بعينى رأسى مرارا وهو يناجى الانجليز عند بين القصرين ، عندى شهود على ذلك ، لن يجرؤ على تكذيبى انى اتحداه .. ليسقط الخائن ..

وتجاوبت فى اركان الجامع دمدمة غاضبة ، تعالى الهتاف هنــا وهناك «ليسقط الجاسوس» .. وصاح غيرهم «فليؤدب الخائن» .. ولاحت فى اعــين القريبين نذر الوعيــد تترصــد بادرة او اشارة كى تنقض على الفريسة ، لعله لم يؤخر اقدامها الا منظر السيد المؤثر الذى وقف لصق ابنه كأنما يتلقى عنه ما يتهدده من أذى ، ودموع كمال الذى اغرق فى الانتحاب . اما ياسين فقــد وقف بين السيــد وفهمى فاقــد الوعى من الاضطراب والوجل ، وجعل يقول بصوت متهدج لم يكد يسمعه احد :

ـ لست جاسوسا .. لست جاسوسا .. الله على صــدق قولى شهيد

ولكن الغضب بلغ بالناس مداه ، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالمناكب ويتوعدون « الجاسوس » شرا ، على ان صوتا من وسط الزحام ارتفع هاتفا:

ـ تمهلوا ياسادة .. هــذا ياسين افندى كاتب مدرسة النحاســين فانطلقت اصوات كالهدير :

ـ مدرسة النحاسين أو الحدادين فليؤدب الخائن ..

وكان رجل يشق طريقه بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر .. فما بلغ الصف الأمامى حتى رفع يديه وهو يزعق: «اسمعوا .. اسمعوا» .. ولما هدات الأصوات قليلا قال وهو يومىء الى السيد أحمد :

ـ هذا السيد احمد عبد الجواد من أهل النحاسين المعروفين .. ولا يمكن أن يضم بيته جاسوسا ، فتريثوا حتى تنجلى الحقيقة

ولكن الأزهرى صرخ حانقا :

ـ لا شأن لي بالسيد احمد او السيد محمد ، هذا الشاب جاسوس مهما يكن من امر إبيه ، رأيته يضاحك الجلادين الذين زحموا القبور بأبنائكم ...

وما عتم ان صاح إناس لا حصر لهم :

ـ ليضرب بالأحذية .

وسرت في المتجمهرين حركة عنيفة ، فاقبل متحمسون من كل صوب ملوحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانهيار واليأس . دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا الا على وجه متحرش يفور بالغضب والبغضاء، والتصق السيد وفهمي بجانبي ياسين بحركة غريزية كأنما ليدفعا عنه الأذى أو ليقاسماه اياه ، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه ، على حين انقلب انتحاب كمال صراخاكاد يغطي على اصوات الثائرين . كان الأزهري اول المهاجمين . فرمى بنفسه على ياسين قابضا على بنيقة قميصه ثم جذبه بعنف لينتزعه من المأوى الذي لاذ به بين ابيه واخيه حتى لاتخطئه الأحذية ، ولكن ياسين قبض على معصميه مقاوما ودخل السيد بينهما ، ورأى فهمي اباه في الموقف المثير لأول مرة في حياته . . فاستفزه غضب شديد اذهله عما يحدق بهم من خطر ، فدفع الأزهري في صدره دفعة قوية ردته الى الوراء فصاح به متوعدا :

ـ حذار ان تتقدم خطوة واحدة !

فصرخ الأزهري وقد جن جنونه :

ـ أدبوهم جميعا ...

عند ذلك علا صوت قوي يقول بلهجة آمرة :

ـ انتظر يا سيدنا الشيخ . . انتظروا جميعا . .

فاتجهت الأنظار الى الصوت ، فاذا بأفندي شاب يبرز من بين الجموع الى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة في مثل سنه وزيه ، تقدموا في خطوات ثابتة توحي بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وبين المتهم وذويه ، تهامس كثيرون متسائلين « بوليس ؟ بوليس ؟ » بيد أن التساؤل انقطع حينما مد الأزهري يده الى يد قائد الجماعة القادمة وشد عليها بحرارة . ثم سأل الأفندي الأزهري بنبرات حاسمة :

ـ اين هذا الجاسوس ؟ . .

فأشار الشيخ الى ياسين بازدراء وتقزز ، فالتفت الشاب اليه وثبت عليه عينيه متفحصا اياه بدقة وقسوة ، وقبل ان ينبس بكلمة تقدم فهمي خطوة الى الأمام كأنما ليسترعي انتباهه فلمحه الآخر . . وسرعان

ما اتسعت عيناه دهشة وانكارا فغمغم قائلا :

ــ أنت ..

فابتسم فهمى ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم :

ــ هذا الجاسوس أخى ..!

فالتفت الشاب الى الأزهرى متسائلا :

ــ الانت متأكد مما تقول ؟..

فبادره فهمى قائلا :

ــ ربما صدق فى قوله .. انه رآه يحادث الانجليز ولكن أساء التفسير ايما اساءة ، ان الانجليز معسكرون أمام بيتنا وهم يتعرضون لنا فى الذهاب والاياب فنتورط أحيانا فى محادثتهم على كره ... هذا كل ما هنالك ..

وهم الأزهرى بالكلام ولكن الشاب أسكته باشارة من يده ، ثم خاطب الجمع قائلا وهو يضع يده على منكب فهمى :

ــ هذا الشاب من الأصدقاء المجاهدين ، كلانا يعمل فى لجنة واحدة فكلامه عندى مصدق .. اخلوا سبيلهم

لم ينبس أحد بكلمة، انسحب الأزهرى بلاتردد ومضى الناس يتفرقون صافح الشاب فهمى ثم ذهب يتبعه رفاقه ، ربت فهمى على رأس كمال حتى كف عن البكاء ، ساد الصمت فأخذ كل يضمد جراحه . انتبه السيد الى وجوه نفر من معارفه قداحاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون اليه عن الخطأ الكبير الذى وقع فيه الأزهرى ومن ضل به من الناس ، ويؤكدون له انهم لم يألوا جهدا فى الدفاع عنه فشكرهم ، وان كان لايدرى متى جاءوا ولا كيف دافعوا عنه ، وعدل عن الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فاتجه صوب الباب مطبق الفم متجهم الوجه وتبعه الأبناء فى صمت ثقيل ...

— ٦٢ —

فى الطريق استرد انفاسه ، فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوا فى « الحادث » ولو بمجرد الرؤية ، كره وقتذاك كل شيء وراءه وقذفه باللعنات ، لم يكد يرى من الطريق الذى يسير فيه شيئــا ، فتبادل التحية مرتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متــكلف لم يعهد فيه من قبل ، تركز شعوره فى ذاته ـــ ذاته الجريحة ـــ وسرعان ما فار بالغضب .. كان أحب الى أن تنتهى الحياة من ان أقف ذلك الموقف المزرى ، كالأسير بين طغمة من اللئام ، وهذا المجاور القمل مدعى الوطنية الجوعان تهجم على بكل وقاحة . لم يرع لى حرمة سن او مهابة ، لم اخلق لهذا ، ليس « أنا » الذى يهان بتلك الكيفية ، وبين ابنائى .. لا تعجب .. ابناؤك هم اصل البلوى ، هذا الثور ابن المرة لن يعفيك من متاعبه ابدا . فقس الفضائح فى بيتى وأوقع بينى وبين أعز الأصدقاء ، ثم توج عامنا بالطلاق .. لم يكفه هذا كله ، كلا . ابن هنية لابد ان يسامر الانجليز جهارا كى أدفع أنا الثمن السفلة المتهجمين ، اذهب بهم اليها كى يكمل متحف عشاقها بالانجليز والاستراليين ..

ـــ يبدو لى اننى لن اخلص العمر من متاعبك ؟..

ندت عنه هذه الجملة بحدة ، بيد انه قاوم رغبته فى تأديبه لأنه رغم غضبه قدر حاله الذى يرثى له ، رآه ذاهلا شاحبا متوعكا فلم تطاوعه نفسه فى الهجــوم عليــه ، حسبه الآن ما حاق به ؛ ليس وحده المذنب، ليس وحده الذى يتحفــه بالمتاعب ، هنالك البغال ، ولكن فلنؤجل همــه حتى نفيق من متاعب التــور ؛ ثور فى البيت ؛ فى الحانة .. ثور امام ام حنفى ونور ، اما فى المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه ولا عائدة ، يا اولاد الكلب !.. الله يقطع الاولاد والخلف والبيــــوت ، آه .. لماذا تســوقنى قدماى الى البيت ؟!.. لم لا اتناول لقمتى بعيدا عن الجــو المسموم ؟!.. ستولول هى الأخرى اذا علمت بالخبر ، لست فى حاجــة الى مزيد من القرف ، الى الدهان .. ســاجد حتما صديقا أقص عليه رزيتى واشكو اليه همى .. كلا .. لدى متاعب اخرى لا تقبل التأجيــل اكثر من هذا ، البغل ، مصيبة جديدة يجب أن نجــد لها علاجا ، الى الغداء المسموم ، ولولى .. ولولى .. ولولى .. ملعون ابوك انت الأخرى ..

لم يكد فهمى يغير ملابسه حتى دعى الى مقابلة والده . فلم يملك ياسين على خموده وكربه الا أن يغمغم قائلا :

— جاء دورك . . .

فتساءل فهمى متجاهلا المعنى الكامن وراء ملاحظه أخيه :

— ماذا تعنى ؟

فضحك ياسين — أجل وسعه اخيرا أن يضحك — وقال :

— انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين . .!

اشد ما تمنى ان تغيب النعوت التى نعته بها صديقه فى الجامع وراء ضجة الثورة وذهول الانفعال ، ولكنها لم تغب ، هاهو ياسين يرددها . ولا شك ان اباه يدعوه من اجل مناقشتها . تنهد فهمى من الأعماق ثم ذهب . وجد السيد متربعا على الكنبة يعبث بحبات سبحته وفى عينيه نظرةتنم عن تفكير كئيب فحياه بأدب جم ووقف على بعد مترين من الكنبة فى خضوع وامتثال ، ورد الرجل تحيته بحركة خفيفة من راسه تدل على الضيق اكثر مما تدل على التحية ، وكانما تقول له : «انى ارد تحيتك مرغما كما تقضى اللياقة ، ولكن ادبك الزائف هذا لم يعد ينطلى على » . . ثم حدجه بنظرة متجهمة ينبعث منها شعاع الارتياب كأنه مصباح كشاف يفتش عن مختبىء بالظلام وقال بحزم :

— دعوتك لأعرف كل شيء ، اريد أن أعرف كل شيء . ماذا قصد صديقك بقوله انك من « الاصدقاء المجاهدين » وانكما تعملان فى لجنة واحدة ؟ .. صارحنى بكل شيء دون تردد . .

ومع ان فهمى اعتاد فى الاسابيع الأخيرة أن يواجه اخطارا شتى . حتى الطلقات النارية الف ازيزها ، الا انه لاقى تحقيق ابيه بقلب ماقبل الثورة ، ركبته الرهبة وشعر بانه لاشيء ، وتركز تفكيره فى تحاشى غضبه وتنشدان النجاة فقال برقة وادب :

— الأمر بسيط جدا يابابا ، لعل صديقى بالغ فى قوله كى ينتشلنا من ورطتنا . .

فقال السيد وقد نفد صبره :

— الأمر بسيط جدا .. عال .. ولكن اى امر هو ؟ .. لاتخف عنى اى شيء .

وكان فهمى يقلب الأمر على مختلف وجوهه فى سرعة خاطفة ليختار مايصح قوله وتؤمن مغبته .. قال :

ـ سماها لجنة وهى لاتعدو ان تكون جماعة من الأصدقاء يتحدثون كلما اجتمعوا فى الشئون الوطنية ..

فهتف السيد مغيظا محنقا :

ـ ألهذا استحققت لقب المجاهد .. ؟ !

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عز عليه ان يحاول ابنه اللعب به .. وارتسم الوعيد فى تجعدات عبوسته . فسارع فهمى ـ دفاعا عن النفس ـ الى الاعتراف بشىء ذى بال ليقنع اباه بأنه امتثل امره كالمتهم الذى يتطوع بالاعتراف طمعا فى الرأفة .. قال فيما يشبه الحياء :

ـ يحدث احيانا ان نقوم بتوزيع بعض النداءات الحاثة على الوطنية ..

فتساءل السيد بانزعاج شديد :

ـ المنشورات ! .. هل تعنى المنشورات ؟ !

ولكن فهمى هز راسه سلبا ، خاف أن يعترف بهذا الاسم الذى يقرن فى البلاغات الرسمية باقسى العقوبات ، وقال بعد ان وجد صيغة مقبولة تخفف من خطورة اعترافه :

ـ ليست الا نداءات تحث على حب الوطن ..

ترك الرجل السبحة تسقط من يده الى حجره ، وراح يضرب كفا على كف ويقول وهو لايتمالك نفسه من الانزعاج .

ـ انت من موزعى المنشورات ! .. انت ! ..

زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب : موزع منشورات ! .. من الأصدقاء المجاهدين ! .. كلانا يعمل فى لجنة واحدة ! .. هل بلغ الطوفان مرقده ؟ ! .. طالما راعه فهمى بادبه وبره وذكائه ، اولا أن الثناء فى نظره مفسدة وان الفظاظة تهذيب وتقويم لأوسعه ثناء ، كيف انجلى هذا كله عن موزع منشورات .. مجاهد .. كلانا يعمل فى لجنة واحدة ؟ ! .. انه لايحتقر المجاهدين ، هو ابعد مايكون عن ذلك ، طالما تابع انباءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق ، طالما ملأته اخبار الاضراب والتخريب والمعارك املا واعجابا ، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف اذا صدر عمل من هذه الاعمال عن ابن من ابنائه ، كأنهم جنس قام بذاته خارج عن نطاق التاريخ ، هو وحده الذى يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس ، الثورة واعمالها فضائل لا شك فيها مادامت بعيدة عن بيته .. فاذا طرقت بابه ، واذا تهددت أمنه وسلامه وحياة ابنائه ، تغير طعمها ولونها ومغزاها ، انقلبت هوسا

وجنونا وعقوقا وقلة أدب ، فلتشتعل الثورة فى الخارج وليشارك فيها هو بقلبه كله ، وليبذل لها ما فى وسعه من مال .. وقد فعل ولكن البيت له وحده دون شريك ، ومن تحدثه نفسه — فيه — بالاشتراك فى الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الانجليز ، انه يترحم ليل نهار على الشهداء ويعجب كل الاعجاب بالشجاعة التى يتذرع بها آلهم فيما يروى الرواة ، ولكنه لن يسمح لابن من أبنائه بأن ينضم الى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التى يتذرع بها آلهم ، فكيف سولت نفس فهمى له بالاقدام على هذه الخطوة الجنونية ؟ .. كيف ارتضى — وهو خير ابنائه — أن يعرض نفسه الى الهلاك المبين ؟ .. انزعج الرجل انزعاجا لم يشعر بمثله من قبل ، فاق انزعاجه فى مأزق الجامع نفسه ، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة ووعيد كأنه أحد مفتشى البوليس الانجليز :

— الا تعلم ماجزاء الذى يضبط وهو يوزع منشورات .. ؟ !

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه ، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه ، ذكرى هذا السؤال نفسه بنصه ومعناه حينما طرحه عليه الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية — بين جملة أسئلة اخرى — وهو بصدد اختياره عضوا فيها ، ثم ذكر بالتالى كيف اجابه وقتذاك بعزم وحماس « كلنا فداء للوطن » وقارن بين الظرفين اللذين القى فيهما السؤال الواحد ، فاعتراه شعور بالسخرية ، بيد أنه اجاب والده برقة وبصوت يوحى بالتهوين :

— انى أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط ، ولا شأن لى بالتوزيع العام .. فليس ثمة مخاطرة أو خطر ..

فهتف السيد بغلظة وكأنه يدارى خوفه على ابنه بحدة الغضب :

— ان الله لايكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك ، وقد امرنا سبحانه بالا نعرض انفسنا للتهلكة ..

ود الرجل أن يستشهد بالآية التى تترجم عن هذا المعنى ، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن الا السور القصيرة التى يتلوها فى صلواته ، فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا لايغتفر ، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه ، ولكنه مايدرى الا وفهمى يقول بلهجته المهذبة :

— ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا ..

ساءل فهمى نفسه فيما بعد متعجبا كيف واتته شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذى فضح ماداراه من استمساك برأيه ! .. لعله

احتمى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه مطمئنا الى أن أباه سيحجم فى تلك الحال عن مهاجمته » وقد بوغت السيد مباغتة شديدة بجرأة أبنه وحجته معا ، ولكنه لم يستسلم الغضب لأن الغضب ربما أسكت فهمى ولكنه لن يسكت حجته ، فتناسى جرأته الى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن ، يجب أن يجد لمأزقه مخرجا من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال ، وله بعد ذلك ان يعود الى محاسبته كيفما شاء ، وفتح الله عليه فقال :

ـ ذاك كان جهادا فى سبيل الله ..

اعتبر فهمى جواب ابيه قبولا المناقشة والمحاجة ، فتشجع مرة اخرى قائلا :

جهادنا فى سبيل الله كذلك ، كل جهاد شريف فهو فى سبيل الله ..

آمن السيد بقوله فى قلبه ، ولكن هذا الايمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف امام محدثه ، هو ماجعله يرتد الى غضبه دون ابطاء .. بيد انه لم يكن غضبا لكبريائه فحسب ، ولكن ايضا لاشفاقه من أن يتمادى الشاب فى غيه حتى يودى بنفسه ، فكف عن الجدل وتساءل مستنكرا :

ـ أحسبتنى قد دعوتك لتناقشنى !

انتبه فهمى الى ماانطوى عليه كلمات ابيه من نذير ، فضاعت احلامه وانعقد لسانه .. اما السيد احمد فعاد يقول بحدة :

ـ لا جهاد فى سبيل الله الا ما اريد به وجه الله وحده ـ اى الجهاد الدينى ـ لاجدال فى هذا !.. والآن أريد أن أعرف ألا يزال أسرى مطاعا ؟

فبادره الشاب قائلا :

ـ بكل تأكيد يا بابا ..

ـ اذن اقطع كل صلة بينك وبين الثورة .. ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصة اصدقائك !

ان قوة فى الوجود لايمكن ان تحول بينه وبين واجبه الوطنى ، ان تتراجع مطلقا ولو خطوة واحدة ، انتهى زمان ذلك الى غير رجعة ، ان هذه الحياة الحارة الباهرة التى تنبثق من اعماق قلبه وتضىء جوانب نفسه لايمكن ان تغيض وهيهات أن يغيضها هو بيده ، كل هذا حق لاشك فيه ، ولكن لماذا لايلتمس وسيلة الى ارضاء ابيه وتحامى غضبه ؟ .. انه لايستطيع أن يتحداه ولا أن يجهر بمخالفة امره ، اجل استطاع ان يثور على الانجليز وان يتحدى رصاصهم كل يوم تقريبا

ولكن الانجليز عدو مخيف وبغيض معا أما أبوه فرجل مخيف ومحبوب، وهو يعبده بقدر مايخافه فلن يهون عليه ان يصدمه بعصيان ، وثمة احساس آخر لاسبيل الى تجاهله هو أن وراء الثورة على الانجليز مثالية نبيلة ، اما وراء التمرد على أبيه فليس الا الخزى والتعاسة ،وماذا يدعو الى هذا كله ؟ ! .. لماذا لايعده بالطاعة ثم يفعل مايشاء ؟ ! .. لم يكن الكذب فى هذا البيت بالرذيلة المخزية ، ولم يكن فى وسع أحد منهم ان يتمتع بالسلامة فى ظل الأب دون حماية من الكذب ، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين انفسهم ، بل ويتفقون عليه فى الموقف الحرج ، وهل كان فى نية الأم يوم تسللت فى غيبة السيد الى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها ؟ .. وهل كان فى وسع ياسين ان يسكر ، وهو أن يحب مريم ؛ وكمال أن يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب ؟ ! .. ليس الكذب مما يتورع عنه احد منهم ، ولو أنهم التزموا الصدق مع أبيهم ماذاقوا للحياة طعما ، لهذا كله قال بهدوء :

ـ امرك مطاع يابابا ...

واعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة ، فظن فهمى أن استجوابه قد انتهى بسلام ، وظن السيد احمد انه انتشل ابنه من الهاوية . وبينما كان فهمى ينتظر أن يؤذن له بالانصراف ، قام الأب فجأة واتجه الى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لاتدركان شيئا ثم عاد الى مجلسه حاملا القرآن ، ونظر الى فهمى مليا ثم مد يده بالكتاب اليه وهو يقول :

ـ اقسم لى على هذا الكتاب ..

وتراجع فهمى بحركة عكسية ندت عنه قبل ان يتدبر امره ، كأنما يفر من لسان لهب امتد اليه فجأة ، وتسمر فى موقفه وهو يحملق فى وجه أبيه مرتبكا مذعورا يائسا ، فلبث السيد مادا يده بالكتاب وهو ينظر اليه فى غرابة وانكار ، ثم احمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف ، وتساءل فى ذهول وكأنه لا يصدق عينيه :

ـ الا تريد أن تقسم ؟ !

ولكن لسان فهمى انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد حراكا ، فتساءل الرجل بصوت هادىء تخللته رعشة متهدجة انذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينذر البرق بقعقعة الرعد :

ـ اكنت تكذب على .. ؟

لم يطرأ على فهمى تغير الا انه غض بصره فرارا من عينى أبيه ، ووضع

السيد الكتاب على الكنبة ثم انفجر صائحا بصوت مدو خاله فهمى كفوفا تهوى على خديه :

ـ أنت تكذب على يابن الكلب ! .. أنا لا أسمح لمخلوق بأن يضحك على ذقنى ، ماذا تظن بى وماذا تظن بنفسك ! .. انت حشرة خبيثة مجرمة بنت كلب خدعت بظاهرها طويلا ، لن أنقلب امرأة على آخر الزمن ، سامع ؟!. لن أنقلب امرأة على آخر الزمن ، حيرتمونى يا أولاد الكلب وجعلتمونى أضحوكة الناس ، أنا أسلمك بنفسى الى البوليس ، فاهم ؟ ! .. بنفسى يابن الكلب ، الكلمة هنا كلمتى أنا ، أنا أنا أنا .. (ثم متناولا الكتاب مرة اخرى) أقسم .. آمرك بأن تقسم ..

بدا فهمى وكأنه فى غيبوبة ، كانت عيناه مثبتتين على بعض الصور الغريبة المنقوشة على السجادة الفارسية دون أن تريا شيئا ، وكأن تلك النقوش قد انطبعت بادامة النظر على صفحة عقله فاستحال شتيتا من الفوضى والخواء ، وكلما مرت ثانية أمعن فى الصمت واليأس ، لم يبق له الا أن يلوذ بهذه المقاومة السلبية اليائسة . ونهض السيد والكتاب فى يده فاقترب خطوة منه ثم زعق :

ـ أتوهمت أنك رجل ؟ .. اتوهمت أنك تستطيع أن تفعل ماتشاء ؟ !.. لو اشاء أضربك حتى أكسر راسك ...

لم يملك فهمى عند ذاك الا ان يبكى ، لا خوفا من التهديد فما كان يبالى فى موقفه وتأثره بأى أذى يصيبه ، ولكن تنفيسا عن قهره وترويحا عن الصراع الناشب فى صدره ، ثم جعل يعض على شفتيه ليكتم البكاء ، ثم اعتراه الخجل لما ركبه من ضعف ، بيد أنه وسعه أخيرا ان يتكلم لشدة تأثره من ناحية ومداراة لخجله من ناحية اخرى ، فاسترسل قائلا فى ضراعة ورجاء :

ـ سامحنى يابابا ، أمرك مطاع فوق العين والراس ولكنى لا استطيع ، لا أستطيع ، اننا نعمل يدا واحدة فلا أرضى ولا ترضى لى أن انكص واتخلف عن اخوانى ، هيهات أن تطيب لى الحياة ان فعلت ، ليس ثمة خطر وراء ما نعمل ، غيرنا يقوم بأعمال أجل كالاشتراك فى المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون ، لست خيرا منهم ، ان الجنازات تشيع بالعشرات معا ولا هتاف فيها الا للوطن ، حتى أهل الضحايا يهتفون ولا يبكون ، فما حياتى ؟ .. وما حياة أى انسان ؟ .. لاتغضب يابابا وفكر فيما أقول .. واكرر على مسمعك بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلمى الصغير .. !

وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففر من الحجرة هاربا . كاد يصطدم وراء الباب بياسين وكمال اللذين وقفا يتصنتان وقد ارتسم على وجهيهما الارتياع ..

- ٦٣ -

كان ياسين ماضيا الى قهوة احمد عبده حينما التقى فى بيت القاضى بأحد اقرباء أمه ، فأقبل الرجل نحوه باهتمام ثم صافحه وهو يقول :

ــ كنت ذاهبا الى البيت لمقابلتك .. حدس ياسين وراء كلامه أنباء عن أمه التى اورثته الهموم ، فأحس ضيقا وتساءل بفتور :

خير ان شاء الله .. ؟

فقال الرجل باهتمام غير عادى :

ــ والدتك مريضة ، مريضة جدا فى الواقع ، اصابها المرض منذ شهر أو اكثر ولكنى لم اعلم به الا فى هذا الأسبوع ، وقد ظنوه بادىء الأمر حالة عصبية فسكتوا عنه حتى استفحل ثم تبين بعد فحص الأطباء انه ملاريا شديدة ..

دهش ياسين للخبر الذى لم يكن يتوقعه ، كانه يتوقع حديثا عن طلاق او زواج او شجار وما شاكل ذلك ، اما المرض فلم يقع له فى حسبان ، تساءل وهو لايكاد يتبين مشاعره من شدة اعتلاجها :

ــ وكيف حالها الآن .. ؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين :

ــ حالها خطيرة ! .. امتد العلاج دون أن يبشر بأدنى تقدم ، وبالأجرى ازدادت الحال سوءا ، وقد ارسلتنى اليك كى أصارحك بأنها تشعر بدنو اجلها ، وانها ترجو أن تراك دون تأخير ..

ثم بلهجة ذات معنى :

ــ يجب ان تذهب اليها بلا تردد ، هذه نصيحة ورجاء ، والله غفور رحيم ...

لعل كلام الرجل لم يخل من مبالغة اراد بها دفعه الى الذهاب ولكنه ليس اختلاقا كله ، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده ، هاهو يخترق مرة جديدة منحنى الطريق المفضى الى الجمالية بين بيت المال وحارة الوطاويط ، الى يمينه عطفة التيه حيث تلبد بائعة الدوم فى ذكريات الظلام المرعشة والى

الأمام طريق الآلام ، سيرى عما قليل دكان الفاكهة فيغض البصر ويتسلل كاللص الهارب ، كلما ظن انه لن يعود اليه عادت به تعاسته ، ما من قوة كانت تستطيع أن تعيده اليها .. الا الموت ! .. الموت ! .. ترى هل حمت النهاية حقا ؟ ! .. قلبى يخفق ، ألما ؟ .. حزنا ؟ .. لأادرى الا انى خائف ، اذا ذهبت فلن اعود الى هذا المكان مرة أخرى .. سيغشى النسيان سالف الذكريات .. ثم ترد الى البقية الباقية من أملاكى ، ولكنى خائف ... وحانق على هذه الأفكار الخبيثة ، اللهم احفظنا ..

حتى اذا حظيت بعيشة ارغد وبال أصفى فلن ينجو قلبى من الآلام ، حين الموت ساودع اما بقلب ابن .. أم وابن اليس كذلك ؟ ... لست الا معذبا لا وحشا ولا حجرا ، بيد ان الموت زائر جديد على لم اشهد محضره من قبل ، وددت او كانت النهاية بغيره ، سنموت جميعا .. حقا ؟ ! يجب الا استسلم للخوف ، ان أنباء الموت لا تنقطع عنا ليل نهار فى هذه الأيام ، فى شارع الدواوين والمدارس والأزهر . وهنالك فى اسيوط كل يوم ضحايا ، حتى المسكين الفولى اللبان فقد ابنه امس ، ماعسى ان يصنع أهل الشهداء ؟ .. أيقضون العمر بكاء ؟ .. انهم يبكون ثم ينسون وهذا هو الموت ، أف .. يخيل الى انه ليس ثمة مفر من المتاعب الآن ، ورائى فى البيت فهمى وعناده وأمامى امى فما أنغص الحياة ، واذا كان الأمر مكيدة ووجدتها فى خير وعافية ؟ ! .. ستدفع الثمن غاليا .. يقينا لتدفعن الثمن .. لست لعبة أو أضحوكة ، لن تجد « الابن » الا حين الموت ، ترى ماذا بقى لى من ثروة ؟ .. واذا دخلت البيت التقى بذلك « الرجل » هنالك ؟ .. لا أدرى كيف أقابله .. ستلتقى عينانا فى لحظة رهيبة ، الويل له ، أتجاهله او اطرده هذا هو الحل ، هنالك الوان من العنف لاتخطر له ببال ، ولكن ستجمعنا الجنازة حتما .. وهذا مضحك ، تصور ان يسير وراء النعش أقدم الأزواج واحدثهم وبينهما الابن دامع العينين .. حتم وقتذاك أن تدمع عيناى .. أليس كذلك ؟ .. لن يكون فى وسعى أن أطرده من الجنازة فتلاحقنى الفضيحة حتى اللحظة الأخيرة .. ثم تدفن ، أجل تدفن وينتهى كل شىء ، ولكنى خائف ومتألم ومحزون ، ان الله وملائكته يصلون على ... هذه هى الدكان المجرمة .. وهذا هو .. لن يعرفنى ، هيهات ، اننا نتنكر بالعمر ، يا عم ... أمى تقول لك ..

فتحت له الخادم الباب — نفس الخادم التى استقبلته منذ عام فانكرته — فتطلعت اليه كالمتسائلة لحظة ، وسرعان ما غابت نظرة التساؤل وراء

لمة كأنما تقول له : « آه .. أنت الذى تنتظر » ثم أفسحت له وهى تومىء الى حجرة عن يمين الداخل قائلة :

ــ تفضل يا سيدى .. لا يوجد أحد ..

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءته جوابا شافيا لبعض حيرته ، فأدرك أن أمه أخلت له الطريق . اتجه الى الحجرة ، وتنحنح ، ثم دخل . وقعت عيناه على عينى أمه وهما ترفعان اليه من فراش على يسار الداخل ، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتهما الواهنة كأنما تتطلع اليه من بعيد ، وبالرغم من ذبولهما وما أوحى به انطفاؤهما من عُدم الاكتراث لشىء فقد ثبتتا على وجهه ثبوت العرفان ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان . لم يكن يبدو منها الا وجهها اذ اشتملت ببطانية حتى الذقن ، وجه أدركه من التغير فوق ما أدرك العينين ، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورد وشف جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صورة للرثاء والفناء . وقف ذاهلا منكرا كأنه لايصدق ان ثمة قوة فى الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسى ، فقبض قلبه فزعا كأنه يرى الموت نفسه ، تخلت عنه رجولته كأنما ارتد طفلا وافتقد أباه أيما افتقاد ، ثم دفعه تأثر لا يقاوم الى الفراش حتى انحنى فوقها مغمغما فى نبرات اسيفة :

ــ لا بأس عليك .. كيف حالك ؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت فى حرارته آلامه المزمنة كما تغيب ــ فى أحوال نادرة ــ ظاهرة مرضية ميئوس منها ، كالشلل ، عند هجوم فزع هائل مفاجىء .. كأنه يلقى أم طفولته التى أحبها قبل أن تواريها عن قلبه الآلام ، فتشبث ــ وعيناه مرسلتان الى الوجه الفانى ــ بهذا الشعور المستجد الذى رده اعواما طويلة الى الوراء ــ الى ماوراء الألم ــ كما يتشبث المريض المتهالك بصحوة طارئة يخاف عليها احساسا باطنيا بوشك الزوال ، تشبث به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التى تتهدده ، وان دل تشبثه نفسه على أن آلامه لم تزل تضطرم فى اعماق الأعماق منذرة اياه بما يترصده من حزن اذا هو تهاون فخلط بشعوره الصافى ما يفسده من مشاعر اخرى . واخرجت المراة من تحت الغطاء يدا ممصوصة معروقة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد محنطة منذ الاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد ، وعند ذاك سمع صوتها الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلا :

ــ كما ترى ، صرت خيالا ..

ففمغم :

ـ ربنا يدركك برحمته ، ويردك الى خير مما كنت . .

فندت عن رأسها المعصوب بخمار أبيض حركة دعائية كأنما تقول : « ربنا يسمع منك » . . وأشارت اليه أن يجلس فجلس على الفراش ، ثم استرسلت ـ بقوة جديدة استمدتها من محضره ـ تقول :

ـ فى أول الأمر كانت تنتابنى رعشة غريبة فحسبتها طارئا عصبيا . نصحونى بالطواف ببيوت الله وبالتبخر فزرت الحسين والسيدة وتبخرت بأنواع شتى من البخور الهندى والسودانى والعربى ، ولكن لم تكن الحال تزداد الا سوءا . . أحيانا كانت تملكنى رجفة متواصلة لاتدعنى حتى اكون قد أشفيت على الهلاك ، وتمر بى أوقات أجد جسمى باردا كالثلج ، وأوقات أخرى تمتد النار فى جسدى حتى أصرخ من شدة الحرارة أخيرا صمم سـ . . . (امسكت عن النطق بالفاعل منتبهة فى اللحظة الأخيرة الى الخطأ الذى كانت ستقع فيه) . . . أخيرا استحضرت الطبيب ، ولكن لم يتقدم بى العلاج خطوة واحدة نحو الصحة أن لم يكن تأخر خطوات ، لم تعد ثمة فائدة ترجى . . . .

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها :

ـ لاتيأسى من رحمة الله ، أن رحمته واسعة . .

فافتر ثغرها المتقع عن ابتسامة ضعيفة وقالت :

ـ يسرنى أن أسمع هذا ، يسرنى أن اسمعه منك أنت قبل الناس جميعا ، أنت عندى أغلى من الدنيا ومن عليها ، صدقت أن رحمة الله واسعة ، طالما ساءنى الحظ ، لا أنكر الهفوات والأخطاء ، العصمة لله وحده . . .

آنس ـ جزعا ـ من حديثها ميلا الى مايشبه الاعتراف ، فانقبض صدره وجفل جفولا حادا من أن تردد على مسمعيه أمورا لايطيقها ولو على سبيل الندم والتكفير . . فتوترت أعصابه حتى أوشك أن تبدل حالا بعد حال ، قال بتوسل :

ـ لاتتعبى نفسك بالكلام . .

رفعت اليه عينيها باسمة وهى تقول :

ـ مجيئك رد الى الروح ، دعنى اقل لك انى لم اقصد فى حياتى سوءا بانسان ، كنت انشد كسائر الخلق راحة البال فيعاندنى الحظ العاثر ، لم أسىء الى أحد ولكن كثيرين أساءوا الى . .

شعر بأن رجاءه أن تمضى الساعة بسلام سيخيب . . وأن عاطفته الصافية تعانى ازمة من التنغيص . . فقال بلهجة التوسل السالفة :

- دعى الناس بخيرهم وشرهم ، صحتك الآن اهم من أى شىء آخر ...
وربتت على يده باستعطاف كأنما تسأله أن يترفق بها ، ثم همست :

- فاتتنى أشياء ، لم أؤد الى الله حقه ، ووددت لو طال عمرى حتى استدرك بعض مافاتنى .. بيد أن قلبى كان دائما مفعما بالايمان والله شهيد
فقال وكأنه يدافع عن نفسه وعنها معا :

- القلب هو كل شىء ، هو عند الله فوق الصوم والصلاة ..
فتندت على يده بامتنان ثم غيرت مجرى الحديث قائلة بترحاب :

- وعدت الى اخيرا! .. لم اجرؤ على دعوتك حتى انتهى بى المرض الى ماترى ، داخلنى شعور بأننى أودع الحياة فلم أطق أن أفارقها قبل أن املأ عينى منك ، فأرسلت اليك وبى من الخوف من رفضك اكثر مما بى من خوف الموت نفسه ، ولكنك رحمت أمك واقبلت تودعها فلك الشكر ودعاء ارجو الله أن يتقبله ..

اشتد به التأثر ولكنه لم يدر كيف يعبر عن شعوره ، تثاقلت الكلمات الحنونة فى فيه متعثرة فيما يشبه الحياء أو الغرابة حالما اراد توجيهها الى المراة التى الف مجافاتها ونبذها ، بيد أنه وجد فى يده أداة تعبير طيعة حساسة ، فضغط على راحتها بيديه مغمغما :

- ربنا يكتب لك السلامة ..

وجعلت تدور حول المعنى الذى افصحت عنه جملتها الأخيرة ، مرددة نفس الألفاظ تارة أو مستبدلة بها غيرها مما يدل على نفس معناها طورا آخر .. وراحت تفصل الحديث بازدراد ريقها بجهد ملحوظ أو بالصمت القصير ريثما تسترد انفاسها ، مما دعاه مرات الى أن يرجوها بالكف عن الحديث ، ولكنها كانت تبسم لمقاطعته ثم تعود الى مواصلة الحديث ، حتى توقفت وقد لاح فى وجهها اهتمام طارىء كأنما تذكرت شيئا ذا بال ... وقالت :

- تزوجت ...!

فرفع حاجبيه فى شىء من الضيق وتورد وجهه ، ولكنها اخطأت فهمه فبادرته كالمعتذرة :

- لاعتاب .. حقا كنت أود أن ارى عروسك وذريتك ، ولكن بحسبى ان تكون سعيدا ..

فما ملك ان قال باقتضاب :

- لست متزوجا ، طلقت منذ شهر تقريبا ..

لأول مرة لاحت آى الانتبـاه فى عينيها ، لو كان فى الامكان أن يلتمعا

لالنمعا .. ولكن انبعث منهما شبه ضوء كالضوء الحالم الذى تنضح به ستارة كثيفة .. وتمتمت :

ـ طلقت يابنى ! .. ماأحزننى .. !

فابتدرها قائلا :

ـ لاتحزنى ، لست حزينا ولا آسفا (ثم باسما) أخذت الشر وراحت ولكنها تساءلت بنفس اللهجة :

ـ من الذى اختارها لك .. هو أم هى ؟ !

فقال بلهجة نمت عن رغبته فى قفل باب هذا الحديث :

ـ اختارها الله ، كل شيء قسمة ونصيب .. !

ـ أعلم هذا ، ولكن من الذى اختارها لك ؟ .. امراة ابيك ؟

ـ كلا ، أبى الذى اختارها ، ولا غبار على اختياره فهى من أسرة كريمة ، ولكنها القسمة والنصيب كما قلت لك ..

فقالت ببرود :

ـ القسمة والنصيب واختيار ابيك .. هذه هى .. !

ثم بعد وقفة قصيرة :

ـ حبـلى ؟

ـ نعم ...

وهى تتنهـد :

ـ الله ينكد عيشة ابيك .. !

تعمد الا يعقب عليها ، كما يمتنع عن حك قرحة تاكله لعلهـا تسكن .. فشملها صمت ، واغمضت المرأة عينيها كانما انهكها التعب ، بيـد انهـا فتحتهما هنيهة فابتسمت اليه وهى تساله بصوت رقيق لا أثر فيـه لانفعال :

ـ ترى هل يمكن أن تنسى الماضى ؟

فغض بصره متغضا وهو يشعر برغبة فى الهرب لاتقاوم ، ثم قال برجاء :

ـ لاتعودى الى ذكراه ، فليذهب الى غير رجعة ..

لعل قلبه لم يعن مايقول ، ولكن لسانه قال ماينبغى أن يقال ... أو لعل ذلك القول كان تعبيرا صادقا عن شعوره لحظتذاك ، تلك اللحظة التى استغرقه فيها بكليته الموقف المحيط به ، ولعل قوله : « فليذهب الى غير رجعة » .. قد وقع من مسمعه ـ ومن قلبه ـ موقعا غريبا خلف وراءه قلقا ، ولكنه أبى أن يجعله موضوعا لتأمله ، فر من ذلك فرارا ، وتشبث بعاطفته الصافية التى عقد العزم على التشبث بها من بادىء الأمر . اما أمه فعادت تساله :

ـ وهل تحب أمك كما كنت تحبها فى الزمن السعيد ؟

فقال وهو يربت على راحتها :

ـ احبها ، وادعو لها بالسلامة ..

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنى فيما انطبع على وجهها الذاوى من روح السلام والارتياح العميق ، ثم شعر براحتها تضغط على يده كانما تبته ما يكنه صدرها من امتنان ، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمة حالمة اشاعت فى الحجرة جوا من الطمأنينة والمودة والحزن ، لم يعد يبدو منها ما يدل على رغبتها فى الحديث أو لعل الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة ، ثم تراخت جفونها رويدا حتى انطبقت ، جعل ينظر اليها كالمتسائل ولكن لم تند عنه حركة ، ثم انفرجت شفتاها قليلا وانبعث منهما شخير خفيف متقطع . اعتدل فى جلسته وهو يتوسم وجهها ثم اغمض عينيه قليلا ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذى طالعته به منذ عام فانقبض صدره وعاوده شعور الخوف الذى طارده طوال الطريق ، ترى هل يتاح له ان يرى ذلك الوجه مرة اخرى ؟.. وبأى قلب يلقاه أن عاد ؟!.. لا يدرى ، لا يحب ان يتصور المضمر فى علم الغيب ، يود ان يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها ، واحاط به شعور الخوف والقلق ، عجبا !.. لقد ركبته رغبة فى الهرب وهو ينصت الى حديثها حتى خيل اليه انه ارتاح الى نومها كل الارتياح ، ولكنه ماكاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف .. خوف لم يدرك له سببا فتمنى او تصحو من سباتها وتعود الى الحديث ، حتام ينتظر .. هبها استغرقت فى النوم حتى الصباح !.. لن يسعه أن يبقى طويلا فريسة الخوف والقلق هكذا ، يجب ان يضع حدا لآلامه ... غدا أو بعد غد تكون تهنئة أو تعزية .. تهنئة او تعزية ؟!.. ايهما أحب الى نفسه ؟!.. يجب ان يقف عقلى عن الحركة ، تهنئة كانت أم تعزية لا ينبغى أن اسبق الحوادث ، غاية ما يمكن قوله لو قدر علينا ان نفترق الان لافترقنا صديقين ، تكون خير نهاية لأسوأ حياة ، أما اذا مد الله فى عمرها ...

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان ـ فى الجهة المقابلة ـ التى تماست صورة الفراش فرأى جسم امه مطروحا تحت البطانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى الا يدها التى أخرجتها عند استقباله فحملها برفق وادخلها تحت الغطاء ثم ثبته حول عنقها بعناية ، عاد ينظر الى المرآة فخطر له هذا الخاطر ! ربما عكست هذه المرآة غدا

فراشا خاليا عاريا !.. ليست حياتها — حياة اى انسان ... لم لا ؟ — بأرسخ دواما من هذه الصور الوهمية !.. فاشتد به شعور الخوف وهمس لنفسه « يجب ان أضع حدا لآلامي .. يجب أن أذهب » ، بيد أن بصره تحرك تاركا المرآة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجيلة التف خرطومها حول عنقها كالثعبان فثبت عليها في دهشة وانكار سرعان ما حل مكانهما شعور هائج بالتقزز والغضب .. ذلك الرجل !.. هو بلا ريب صاحب هذه النارجيلة .. تخيله متربعا على الكنبة القائمة بين الفراش والخوان وقد انداق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذذا وامه تروح له على الجمرات .. آه ترى اين هو الآن ، في مكان بالبيت ام في الخارج ؟.. هل رآه من حيث لم يره ؟.. لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة اكثر مما بقى فالقى نظره على وجه امه التى وجدها مستغرقة في النوم ثم زايل مجلسه بخفة وسار الى الباب ، ولما التقى بالخادمة في الردهة الخارجية قال لها :

— ستك نامت ، ساعود غدا صباحا

والتفت اليها مرة أخرى وهو يغادر الباب الخارجي قائلا :

— غدا صباحا ..

كأنما ينبه الرجل نفسه الى موعد حضوره ليختفى من وجهه ، مضى الى حانة كوستاكى راسا . شرب كعادته ولكنه لم يطلب بالشراب نفسا. انساه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق . ومع ان احلام الثورة وراحة البال لم تغب عن ذهنه الا انها لم تستطع أن تمحو من مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء ولما عاد الى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة ابيه في انتظاره بالدور الأول فنظر اليها متعجبا ثم تساءل خافق القلب :

— امى ..؟!

فأخفت أمينة راسها وقالت بصوت خافت :

— جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة ، العمر الطويل لك يا ابنى ..

- ٦٤ -

تطورت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين الى صداقة متبادلة . وقد حاولت الأسرة أن تتذرع بمأساة ياسين فى جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنه أجابهم بأنه « صغير » ، أصغر من أن يتهم بالجاسوسية ، ولكى يتفادى من منعهم اياه بالقوة كان يمضى الى المعسكر رأسا بعد عودته من المدرسة تاركا حقيبة كتبه مع أم حنفى فلم تكن ثمة وسيلة الى منعه الا باستعمال القوة الأمر الذى لم يروا له موجبا لاسيما وأنه يمرح فى المعسكر تحت أعينهم متقبلا فى كل موضع بالترحيب والتكريم ، حتى فهمى نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأسا فى التسلى بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود « كقرد يلهو فى غابة من الوحوش » ..

قولوا لسيدى الكبير ..

هكذا اقترحت ام حنفى مرة وهى تشكو تجرؤ الجنود عليها - بسبب الصداقة اللعينة - ومحاكاة بعضهم لمشيتها بطريقة « يستحقون عليها قطع رقبتهم » ولكن أحدا لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجد ، لا رحمة بالغلام فحسب ، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجر التحقيق الى معرفة تسترهم الطويل على هذه الصداقة ، فتركوا الغلام وشأنه ، ولعلهم لم يخلوا من رجاء فى أن يقوم الشعور الطيب المتبادل بين الغلام والجنود حائلا بينهم وبين ما يحتمل أن يتعرضوا له من عبث أو أذى فى الذهاب والاياب ! أسعد ساعات يومه كانت تلك التى يدخل فيها المعسكر . لم يكن جميع الجنود « أصدقاء » بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه ، كان يصافح الاصدقاء ويشد على أيديهم بحرارة على حين يكتفى برفع يده ، تحية الآخرين . وربما صادف مجيئه قيام احد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشا باشا وهو يمد يده فما يروعه الا أن يلقى منه جمودا غريبا مثيرا كأنما يتجاهله أو كأنما تحول الى صنم فلا يدرك أن ليس فى الأمر تجاهل او غضب الا من اغراق الآخرين فى الضحك . ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصفير الانذار ، هنالك يهرعون الى الخيام ثم يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم وخوذاتهم وحملوا بنادقهم ، ويتحرك اورى من موقفه وراء سبيل بين القصرين الى وسط الطريق

فيمضون اليـــه سراعا ويقفزون الى داخله حتى يكتظ بهم ، بات يدرك من المنظر الذى امامه ان مظاهرة قامت فى جهة ما وأن الجنود ذاهبون لتفريقها وأن قتالا سينشب بينهم وبين المتظاهرين ، ولكن لم يكن يهمه فى تلك الأوقات الا أن يتفقد الأصدقاء ببصره حتى يعثر عليهم فى زحمة اللورى وأن يملأ منهم عينيه كأنما يودعهم ، وأن يبســـط كفيــه واللورى يبتعد بهم صوب النحاسين داعيا لهم بالسّـــلامة ثم تاليا الفاتحة !..
على انه لم يكن يقضى فى المعسكر أكثر من نصف ساعة كل أصيل وهو أقصى ما وسعه أن يتغيبه عن البيت عقب عودته من المدرسة ، نصـــف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسة من حواسه دقيقة واحدة ، يدور حول الخيام ، يسير بين اللوريات مستطلعا قطعها قطعة قطعة ؛ يقف حيال أهرام البنادق طويلا متفحصا أجزاءها جزءا جزءا خاصة فوهة الماسورة التى يكمن فيها الموت .. يقف على بعد لا يسمح له بتجـاوزه ونفســه ذاهبة حسرات على اللعب بها او على الأقل لمسها ، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاى فكان يمضى مع اصدقائه الى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويأخذ مكانه فى نهاية طابور « الشاى » كما يدعونه ثم يعود وراءهم حاملا قدح شاى باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلســـون على سور السبيل يحتسون شرابهم، وينشد الجنود اغانى جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظرا دوره فى الغناء . تركت حياة المعسكر فى نفسه اثرا عميقا بث فى خياله واحلامه يقظة شاملة ، اثرا نقش على صفحة قلبــه الى جانب الآثار التى نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب والأساطير ، وقصص ياسين الذى جذب روحه الى دنياها الساحرة ، والأطياف والرؤى التى تتخايل له فى أحلام اليقظة وراء اغصان الياسمين واللبلاب واصص الزهور - فوق السطح - عن حياة النمل والعصافير والدجاج . من ثم انشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت مريم معسكرا كامل العــدة والعدد ؛ أقام خيامه بالمناديل والأقلام ، وأسلحته بعيدان الخشـــب ، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى التمر . وعلى كثب من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها فى الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنـــادق غير أربع بينها حصـــاة (تمثله هو) ينتحون جانبـــا » يأخذ فى محاكاة الغناء الانجليزى ثم يجىء دور الحصاة لتغنى « زورونى كل سنة مرة » او « يا عزيز عينى » ، ينتقل الى الحصى فينضده صفوفا ويهتف « يحيا الوطن .. تسقـــط الحماية .. يحيا ســـعد » ، يعود الى المعسكر مصفرا فتنتظم النوى

صفوفا كذلك وعلى رأس كل صف تمرة ، ثم يدفع قبقابا وهـو ينفخ محاكيا ازيز اللورى ، ويضع النوى على سطح القبقاب ثم يدفعه مـرة أخرى صوب الحصى فتنشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين !..
ولم يكن يسمح لعواطفه الشخصية بأن تؤثر فى سير المعركة ، على الأقل فى بدئها ووسطها ، كانت تتحكم فيه رغبة واحدة هى ان يجعلها معركة « صـادقة مشـوقة » يتنازعها الدفع والجذب من الجـانبين وتتعـادل الاصابات فتظل النتيجة مجهولة والاحتمال متأرجحا بين الطرفين على أن المعركة لا تلبث طويلا حتى تستوجب نهاية تنتهى اليها ، هنالك يجـد نفسه فى موقف حائر ، أى جانب ينتصر ؟ .. فى جانب اصدقاؤه الأربعة وعلى رأسهم جوليون ، وفى الجانب الآخر مصريون يخفـق معهم قلب فهمى !.. فى اللحظة الأخيرة يقرر النصر للمتظاهرين فينسحب اللورى بقلة من الجنود بينهم الأصدقاء الأربعة وان كان قد ختم المعركة مرة بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشـاى ومختلف الوان الحلوى !.. وكان جوليون أعز أصدقائه ، امتاز الى جمـاله بدماثة الخلق فضلا عن براعته النسبية فى التكلم بالعربية ، وهو الذى جعل دعوته الى الشـاى حقا ثانيـا كما بدأ أشد الجنود تأثرا بغنائه حتى كان يدعوه كل يوم تقريبا الى غناء « يا عزيز عينى » فيتابعه باهتمام ثم يغمغم فى تشوق وحنين :

ـ اروح بلدى .. أروح بلدى !

وآنس كمال منه هذه الروح فازداد له الفة واطمئنانا حتى قال له مرة جادا وكأنما يدله على مخرج من كربه :

ـ ارجعوا سعد باشا وعودوا الى بلادكم .. !

ولـكن جوليون لم يلق اقتراحه بالارتياح الذى كان ينتظـر وعلى العكس طلب اليـه ـ كما فعـل من قبل فى ظرف مشابه ـ الا يعود الى ذكر سعد باشا قائلا :« سعد باشا .. نو ! » وهكذا فشل ـ على حـد تعبير ياسين ـ أول مفـاوض مصرى !.. وما يدرى يوما الا واحـد « الأصدقاء » يقـدم له صـورة كاريكاتورية رسمها له فنظر كمال اليها بدهشة وانزعاج وهو يقـول لنفسـه « صورتى ؟!.. ليست هـذه صورتى ! » ولكنه شعر فى قرارة نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما ، ثم رفع عينيه للواقفين حوله فألفاهم يضحكون فأدرك أنها نوع من المزاح وأن عليه ان يتقبله بسرور فجاراهم فى ضحكهم مداريا بالضحك خجله ، ولما اطلع عليها فهمى تفرس هذا فيها بدهشة ثم قال :

ـ ربَاه .. لم تترك عيبا الا ابرزته !.. الجسم النحيف الصغير ، الرقبة الطويلة الهزيلة ، الأنف الكبير ، الراس الضخم ، العينان الصغيرتان !

ثم ضاحكا :

ـ الشيء الوحيد الذى يبدو أن « صديقك » يضمر نحوه اعجابا هو بدلتك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك فى ذلك وانما الفضل لنينة التى لا تترك شيئا فى البيت الا هندمته !

ورمى اليه بطرف شامت ثم قال :

ـ بان السر الذى حببك اليهم !.. انهم يتسلون بالضحك على شكلك وأناقتك المفرطة ، يعنى بالعربى لست الا « قره جوز » فى نظرهم .. ماذا كسبت من وراء خيانتك ؟!.. ولكن كلام فهمى لم يحدث اثرا لأن الغلام كان يدرك مدى عداوته للانجليز فظنها مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم !.. وجاء يوما المعسكر كعادته فراى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلع باهتمام الى العطفة التى يفتح عليها بيت المرحوم السيد محمد رضوان فمضى نحوه ولكنه رآه يلوح بيده محدثا اشارات غامضة لم يفقه لها معنى بيد انه توقف عن التقدم ملبيا احساسا غريزيا خفى عنه معناه ، ثم اغراه حب الاستطلاع بأن يدور حول الخيام المنصوبة امام واجهة السبيل متسللا الى ماوراء جوليون وأن يمد بصره الى الهدف الذى يتطلع اليه ، هنالك راى كوة فى جناح بيت آل رضوان الذى يسد العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضحا باسما مستجيبا !. وقف يردد النظر بين الجندى وبين الفتاة فى ذهول كانما يأبى أن يصدق عينيه ، كيف اقترفت مريم الظهور فى الكوة ؟!.. كيف تصدت لجوليون على هذا النحو الفاضح ؟! هو يلوح بيديه وهى تبتسم !.. أجل ها هى الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها !.. وها هما عيناها يستغرقهما النظر اليه حتى انها لم تفطن بعد الى وجوده هو ! وندت عنه حركة لفتت اليه جوليون فما كاد يطلع على موقفه حتى اغرق فى الضحك وهو يرطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة فى ذعر بين . راح يتطلع الى الجندى فى ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وان بدا له الأمر كله غموضا فى غموض ، ساله جوليون متوددا :

ـ تعرفها ؟..

فاحنى راسه بالايجاب ولم ينبس . غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملا لفافة كبيرة قدمها الى كمال قائلا وهو يشير الى بيت مريم :

ـ اذهب بها اليها ..

ولكن كمال تراجع جافلا وهو يهز راسه يمنة ويسرة فى عناد ، لم تبرح تلك الحادثة مخيلته ، ومع أنه شعر بخطورتها من بادىء الأمر الا أنه لم يدرك مدى تلك الخطورة على حقيقتها الا حين قص القصة فى مجلس القهوة مساء . استوت امينة فى جلستها وهى تتباعد وقد ظل فنجان القهوة معلقا بين اصبعيها لا هى تقربه من فيها ولا هى تضعه على الصينية على حين غادر فهمى وياسين الكنبة المواجهة لمجلس الأم مهرولين الى الكنبة التى تجلس عليها هى وكمال وجعلا يحدقان اليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كل ما توقع . قالت امينة وهى تزدرد ريقها :

ـ ارايت هذا حقا !.. الم تخدعك عيناك ؟!

وتأفف فهمى :

ـ مريم ؟!.. مريم نفسها ؟!.. أمتأكد أنت مما تقول ؟!

وتساءل ياسين :

ـ اكان يشير اليها وكانت تبتسم اليه ؟!.. ارايتها تبتسم حقا ؟!

واعادت امينة الفنجان الى الصينية فأسندت رأسها الى راحتها قائلة بلهجة تنم عن الوعيد :

ـ كمال ! الكذب فى مثل هذا الأمر جريمة لا يغفرها الله .. راجع نفسك يا ابنى .. الم تعد الحق فى شىء ؟!

وحلف كمال باغلظ الأيمان فقال فهمى بياس ومرارة :

ـ انه لا يكذب ، ليس فى وسع عاقل أن يتهمه بالكذب فيما قال ، الا تدركون ان اختراع مثل هذه القصة هو ابعد ما يكون عن تصور واحد فى سنه ؟!...

فتساءلت الأم بصوت حزين :

ـ وكيف يسعنى ان أصدقه !

فقال فهمى وكأنه يحدث نفسه :

ـ اجل كيف يمكن تصديقه !.. (ثم بصوت جاد) ولكنه وقع .. وقع .. وقع !

وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الخنجر ، كررها وكأنما يكرر الطعن متعمدا ، حقا شغلته عن مريم الشواغل فلم تعد ذكراها تلوح الا فى حاشية احلام يقظته ، ولكن الطعنة التى اصابت سمعتها نفذت اليها خلال قلبه . انه ذاهل .. ذاهل .. ذاهل ، لا يدرى ان كان نسى أم لم

ينس ، يجب أم يكره يغضب للكرامة أم للغيرة .. ورقة شجر جافة فى مهب زوبعة متناوحة ..

ـ كيف يسعنى أن اصدقه ؟.. طالما كانت ثقتى فى مريم كثقتى فى خديجة أو عائشة ، أمها من الفضليات ، أبوها طيب الله ثراه كان من الأكرمين .. جيران العمر ونعم الجيران ..

قال ياسين ـ الذى بدا طول الوقت مستغرقا بالتفكير ـ بلهجة لم تخل من سخرية :

ـ علام تعجبون ؟.. منذ القدم والله يخلق من صلب الأبرار اشرارا فقالت امينة محتجة كأنما تأبى أن تصدق انها خدعت طوال ذلك الدهر :

ـ يشهد الله أنى لم ألاحظ عليها ما يسوء قط ..

فقال ياسين بحذر :

ـ ولا احد منا ، حتى خديجة العيابة الكبرى ، بل خدع بها من هو افطن منك ومنى !

فهتف فهمى متألما :

ـ من أين لى أن أطلع على الغيب ؟! انه أمر يشق تصوره

وحنق على ياسين لدرجة الغليان ، ثم بدا له الخلق جميعا بغضاء ، الانجليز والمصريون على السواء .. الرجال والنساء ـ والنساء خاصة ـ انه يختنق .. هفت نفسه الى الاختفاء ليتنشق فى وحدته نسمة راحة بيد أنه لم يبرح مكانه كأنما شد اليه بحبال غلاظ

اتجه ياسين الى كمال متسائلا :

ـ متى رأتك ؟

ـ عندما التفت الى جوليون ..

ـ ثم فرت من النافذة ؟

ـ نعم ..

ـ هل رأت انك رأيتها ؟

ـ التقت عينانا لحظة ..

ياسين ساخرا :

ـ مسكينة !.. انها دون شك تتخيل الآن مجلسنا هذا وحديثنا ذا الشجون !

ـ انجليزى !...

هتف فهمى وهو يضرب كفا على كف :

- بنت السيد محمد رضوان ! ..

غمغمت أمينة متنهدة وهى تهز رأسها عجبا ..

فقال ياسين متفكرا :

- مغازلة انجليزى ليست بالمسالة الهينة على فتاة ، هـذه درجة من الفساد لا يمكن أن تظهر طفرة ..

فسأله فهمى :

- ماذا تعنى ؟

- أعنى انه لابد أن تسبقها درجات من الفساد !

فقالت أمينة برجاء :

- استحلفكم بالله أن تمسكوا عن هذا الحديث ..

فواصل ياسين حديثه ، كأنه لم يسمع رجاءها ، قائلا :

- مريم بنت سـيدة لها فى التبرج فنون بشهادتكن انت وخديجة وعائشـة ...!

فهتفت أمينة بصوت ملؤه العتاب والزجر :

- ياسـين !..

فقال ياسين كالمتراجع :

- اريد أن اقول اننا أسرة تعيش فى حق مغلق لا تكاد تعلم شيئا عما يدور حولها ، قصارى جهدنا أن نتصور الناس على مثالنا ، اختلطت بنا مريم أعواما طوالا ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتى كشفها لنا آخر من ينشد عنده كشف الحقائق !..

وربت على راس كمال ضاحكا ، ولكن أمينة عادت تقول بتوسل حار :

- استحلفكم بالله أن تغيروا مجرى الحديث ..

ابتسم ياسين ولم ينبس ، فأطبق الصمت . لم يعد فهمى يتحمل البقاء بينهم فاستجاب الى الصوت الباطنى الذى يستصرخه ملهوفا على الفرار .. بعيدا عن الأنظار والأسماع ، هنالك يستطيع أن يخلو الى نفسه ، أن يعيد عليها الحديث من ألفـه الى يائه ، كلمة كلمة ، عبارة عبارة ؛ جملة جملة . ليفهمه ويتفهمه ثم ينظر أين يكون موضعه ..

- ٦٥ -

كان الليل قد جاوز منتصفه عندما غادر السيد أحمد عبد الجواد بيت أم مريم متلفعا بظلمة العطفة المسدودة . بدا الحى كله ـ كما امسى يبدو مع الهزيع الأول من الليل مذ عسكر الانجليز فيه ـ غارقا فى النوم متدثرا بالظلام ، لامقهى يسمر ولابائع يسرح ولادكان يسهر ولا مار يدب . فلم يكن فيه اثر للحياة أو النور الا ما انبعث من المعسكر ، ومع أن احدا من الجنود لم يتعرض لهبسوء فى الذهاب او الاياب الا انه لم يكن يخلو قط من قلق وتوجس كلما اقترب من المعسكر فى طريقه الى البيت خاصة وانه يعود ـ آخر الليل ـ على حال من الأعياء والاسترخاء والذهول يشق معها مجرد التفكير فى السير الآمن المطمئن . انحدر الى طريق النحاسين ثم انعطف يمنة متجها الى البيت وهو يختلس النظر الى الديدبان حتىدخل أشد مناطق الطريق خطورة .. تلك التى ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر ، هنالك عاوده الاحساس الذى يخامره كلما دخلها وهو انه هدف يسير لأى صائد . فحث خطاه ليخرج منها الى الظلام المفضى الى مدخل بيته ولكنه ما كاد يخطو خطوة حتى صك اذنيه صوت أجش غليظ يزعق وراءه راطنا فادرك على جهله رطانته ـ من عنف اللهجة واقتضابها ـ انه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقف عن المسير والتفت وراءه مرتاعا فراى جنديا ـ غير الديدبان ـ يتجه نحوه بقوة شاكى السلاح . ماذا جد حتى دعا الى هذه المعاملة ؟.. أيكون الرجل ثملا ؟ .. أم لعلهأذعن لنزوة اعتداء طارئة ؟ .. أم هو يبتغى السلب والنهب ؟. جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جاف وقد طار الخمار من راسه . وقف الجندى على بعد خطوة منه ثم وجه اليه بلهجة آمرة كلاما سريعا قصيرا ـ لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة ـ وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملق السيد فى وجهه بيأس واستعطاف وهو يعانى مرارة العجز عن التفاهم معه كى يقنعه ببراءته مما يتهمه به او كى يعرف على الأقل ما يريد ، ثم خطر له انه قصد باشارته الى بين القصرين ان يأمره بالابتعاد ظنا منه انه غريب مريب فراح يشير الى بيته بدوره ليفهمه أنه من سكانه وانه عائد اليه ولكن الجندى تجاهل حركته وهو يدمدم ثم اصر على اشارته وهو يهز

رأسه فى نفس الاتجاه كأنما يحثه على الذهاب ، ثم بدا أنه ضاق به فقبض على منكبه وأداره بقوة فدفعه فى ظهره فوجد السيد نفسه يتحرك متجها نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسلم - ومفاصله تكاد تسيب - الى المقادير ، جاوز فى مسيره المجهول المعسكر ثم سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر اثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض أمواج الظلام الدامس والصمت الثقيل ، لامنظر يرى الا أشباح البيوت ولا صوت يسمع الا وقع القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه فى نظام ميكانيكى رهيب كأنهما يعدان الدقائق الباقية له فى الحياة ، ولعلها ثوان ، أجل كان يتوقع فى أية لحظة أن ينقض عليه بخبطة تهوى به الى النهاية فمضى يترقبها بعينين محملقتين فى الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقوة تتحرك حركة عصبية من آن لآن كلما ازدرد ريقه الجاف الملتهب حتى بوغت بوميض يجذب بصره الى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الهلع وقد تهاوى قلبه ولكن تبينه دارة من الضوء تذهب وتجىء فأدرك أنها شعاع من بطارية أضاءها سائقه ليتعرف على طريقه خلال الظلمات . استرد أنفاسه بعد أن تخفف من الذعر المباغت ولكنه لم يكد يستشعر نسمة راحة حتى تلقفه خوفه الأول ، خوف الموت الذى يساق اليه ، فعاد يترقب حتفه بين لحظة وأخرى كأنه غريق توهم فى تخبطه أنه يرى تمساحا يتوثب لمهاجمته ثم تبين له ان ما رأى أعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمى لم تكد تتنفس حتى اختنقت تحت ضغط الخطر الحقيقى المحيط . الى أين يسوقه ؟ ، لو يستطيع ان يراطنه فيسأله ! ، يبدو أنه سيواصل سوقه حتى يدفع به الى قرافة باب النصر ، لا أثر لانسان ولا لحيوان ؛ أين الغفير ؟ ، وحيد تحت رحمة من لايرحم ، متى كان مثل هذا العذاب .. هل يذكر ؟ الكابوس .. أجل انه الكابوس ، كابده أكثر من مرة خلال نوم مريض ، ان ظلمة الكابوس نفسها لاتخلو أحيانا من بارقة أمل قد يشرق بنفس النائم احساس حنون بأن ما يعانيه حلم لا حقيقة وبأنه سينجو من شره الآن أو بعد حين ، هيهات ، أن يجود الدهر بمثل ذلك الأمل ، أنه صاح لانائم وهذا الجندى الشاكى السلاح حقيقة لا خيال وهذا الطريق الذى يشهد ذله وأسره شىء ملموس مخيف لاوهم ، عذابه حقيقة لاسبيل الى الشك فيها ؛ أن أقل حركة ممانعة تند عنه خليقة بأن تطيح برأسه .. لاسبيل الى الشك فى هذا أيضا ، قالت له أم مريم وهى تودعه « الى الغد » .. الغد ؟! هل يطلع ذلك الغد ؟! ، سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجان الأرض وراء ظهرك .. سل البندقية ذات

السونكي الحاد المدبب ، قالت له أيضا وهي تمازحه « تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك أن تسكرني » .. الآن طارت الخمر وطار عقله ، ولت ساعة الصبوة ، منذ دقائق معدودة .. كانت الصبوة كل شيء في الحياة .. الآن العذاب هو كل شيء .. وليس بين هذا وذاك الا دقائق معدودة .. دقائق معدودة ؟! .. عندما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شعاع يومض في الظلام فلحظ الطريق كرأى بطارية تتحرك في يد جندي آخر يسوق بين يديه اشباحا لم يتبين عددهم !.. تساءل ترى هل صدرت الى الجنود أوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليلا ؟! .. والى أين يسوقونهم ؟.. وأي عقاب سيقضون به عليهم ؟ تســاءل طويلا وهو من الدهش والانزعاج في نهاية بيد أن رؤيته للضحايا الجدد أدخلت على قلبه شيئا من العزاء والارتياح ، لم يعد على الاقل وحيدا كما كان يظن ، وجد في بلواه اندادا يؤنسون وحشته ويشاركونه المصير ، كان يتقدم قافلتهم بمسافة قصيرة فراح ينصت الى وقع اقدامهم مستأنسا اليها كما يستأنس الضال في مفازة الى أصوات آدمية ترامت اليه مع الريح ، ولم تكن أمنيــة أعز على نفســه آنئذ من أن يلحقوا به لينضم الى جماعتهم ، سواء كانوا معارف أو غرباء ، لتخفق قلوبهم معا وهم يحثون الخطى نحو المصير المجهول . هؤلاء الرجال ابرياء وهو بريء ففيم القبض عليهم ؟ ، فيم القبض عليه هو مثلا ؟ ، لاهو من الثوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتى من الشبان فهل يطلعون على الأفئدة ويحاسبون على المشاعر ؟ .. أو تراهم يعتقلون أفراد الشعب بعد أن فرغوا من اعتقال الزعماء ! ، لو كان يعرف الانجليزية فيسأل آسره ؟.. أين فهمي ليحادثه نيابة عنه ؟.. وخزه الألم والحنين ، أين فهمي وياسين وكمال وخديجة وعائشة وأمهم ؟ هل يمكن أن تتصور أسرته ما آل اليه حاله من هوان وهي التي لم تره الا جبارا عزيزا جليلا ؟ ، هل تتصور أن الجندي دفعه بعنف حتى أوشك أن يطرحه أرضا وأنه يسوقه كما تساق السائمة ؟. وجد لذكر آله ألما وحنينا فكادت تدمع عيناه . كان يمر في طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف أصحابها ، ومقاه كان يوما ـــ خاصة على عهد الصبا والشباب ـــ من سمارها ؛ فأحزنه أن يمضي بها أسيرا دون أن تنهض لنجدته أو حتى ترثي لحاله ، شعر حقا بأن أحزن صنوف الهوان ما حاق به في حيه ، ثم رفع عينيه الى السماء باعثا بفكره الى الله المطلع على قلبه ، بعث اليه بفكره دون أن يجري له ذكرا على لسانه ولو همسا مستحييا من أن ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من أنفاس الشراب وعرق الغرام ،

وما لبث أن تضاعف خوفه من أن يباعد دنسه بينه وبين النجاة ، أو أن يلقى مصيرا كفاء لما سلف من استهتاره ، فغشي صدره تطير وكآبة ، وأشفى على اليأس ، حينما شارف سوق الليمون ترامى الى الصمت الذى لايؤنسه الا وقع الأقدام أصوات مبهمة فأرهف السمع محملقا فى الظلام — وهو يتقدم بين الخوف والرجاء — فتناهت الى أذنيه لجة لم يدر ان كان مصدرها انسان أو حيوان ، غير أنه تبين بعد قليل لغطا فلم يتمالك أن قال لنفسه فى لهفة « أصوات آدمية ! » ، ومال مع الطريق فلاحت لعينيه أضواء متحركة حسبها بادىء الأمر بطاريات جديدة ولكنها وضحت مشاعل رأى على نورها جانبا من بوابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيون ، ثم تراءى له جنود من البوليس المصرى رد منظرهم الى صدره الدماء . سأعرف مايراد بى ، لم يبق الا مسير خطوات ، ماذا دعا الى تجمهر الجنود الانجليز والمصريين عند البوابة ؟ ؛ لماذا يسوقون الأهالى من شتى أنحاء الحى ؟ عما قليل أعرف كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ؟ فلأستعذ بالله ولأسلم اليه أمرى ؛ سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر ان كان فى العمر بقية ، الرصاص .. المشنقة .. دنشواى .. أنضم الى سجل الشهداء ؟ أأصبح نبأ من أنباء الثورة يتناقله محمد عفت وعلى عبدالرحيم وابراهيم الفار كماكنا نتناقل الأخبار فى سهرات المساء ؟ تصور السهرة ومكانك شاغر ؟ رحمة الله عليه .. كان وكان .. لشد مايبكونك ، وسيذكرونك طويلا ، ثم تنسى ، ما أشد اضطراب قلبى ؛ سلم أمرك للذى خلقك . اللهم حوالينا ولا علينا . ما ان اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت الأنظار اليه باردة قاسية متوعدة فغاص قلبه فى الأعماق مخلفا وراءه فى الأضلع ألما حادا ، ترى هل آن له ان يتوقف ؟ تثاقلت قدماه ولفه التردد والحيرة .

ادخل ...

هتف بها شرطى وهو يشير الى داخل البوابة فنظر السيد اليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة ، ثم مر بين الجنود لايكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويود لو يغطى رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التى تستصرخه . هنالك تحت قبة البوابة رأى منظرا عرفه بما يراد به بغير حاجة الى سؤال ، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق ، كما رأى جمهورا من الأهالى يعملون بلا توقف وتحت اشراف الشرطة لسد الحفرة بأن يحملوا الاتربة فى مقاطف ويفرغونها فيها ، الكل يعمل بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر فى خوف الى الجنود الانجليز

الذين رابطوا عند مدخل البوابة . اقترب منه شرطى ورمى اليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد :

افعل كما يفعل الآخرون ..

ثم همسا :

ــ اسرع حتى لايصيبك اذى ..

كانت هذه الجملة أول تعبير « انسانى » يلقاه فى رحلته المخيفة فسرت فى صدره سرى النسمة فى حلق المختنق ، انحنى على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطى همسا :

ــ هل يطلق سراحنا اذا تم العمل ؟

فأجابه بنفس الصوت :

ــ ان شاء الله ..

تنهد من الأعماق ، راودته نفسه على البكاء ، شعر بأنه يولد من جديد ، رفع بيسراه الجبة من طرفها ودسه فى حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف الى طوار البوابة حيث تراكمت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها فى المقطف حتى امتلأ ثم حمله بيده وذهب الى الحفرة فأفرغه فيها وعاد الى الطوار ، واصل العمل بين جماعات من الناس ضمت الأفندية والمعممين ، الهرمين والشبان ، يعملون جميعا بهمة عالية مستمدة من رغبتهم فى الحياة ، وانه ليملأ مقطفه اذ لكزه كوع فالتفت الى مصدره فرأى صديقا يدعى غنيم حميدو صاحب معصرة زيوت بالجمالية ممن يلمون بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فرحة عظمى كما فرح به الآخر ، وسرعان ما تهامسا :

ــ أنت وقعت أيضا ..!

ــ قبلك ، وصلت قبيل منتصف الليل ورأيتك وانت تتسلم مقطفك فجعلت فى ذهابى وايابى اتبع طريقا يميل اليك رويدا رويدا حتى جاورتك .

ــ اهلا .. اهلا ، أليس ثمة أحد من اصدقائنا ؟

ــ لم اعثر على غيرك

ــ قال لى الشرطى انهم سيطلقون سراحنا حالما نتم العمل

ــ قيل لى ذلك أيضا ، ربنا يسمع منك ..

ــ سيبوا ركبى الله يخرب بيوتهم ..

ــ لم تعد لى ركب على ما اظن !

وتبادلا ابتسامة مقتضبة

ــ ما أصل هذه الحفرة ؟

- يقال ان فتوات الحسينية حفروها أول الليل ليمنعوا مسير اللوريات ويقال أيضا ان لوريا وقع فيها !

- ان صح هذا فقل علينا السلام !

وعندما تجاورا مرة ثانية عند كوم الأتربة كانا قد الفا الموقف بعض الشيء فعاودتهما الروح حتى انهما لم يتمالكا أن ابتسما وهما يملأن مقطفيهما بالتراب كعمال البناء فهمس غنيم :

- حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب

فهمس السيد باسما :

- ارجو أن يعطونا أجرا مناسبا !

- اين قبض عليك ؟

- امام البيت

- طبعا ! . - وأنت ؟

- كنت بالعا منزولة ، ولكنى أفقت تماما ، الانجليز أقوى من الكوكايين!

- أقوى من القيء نفسه !

مضى الرجال يذهبون ويجيئون عجلين ما بين طوار الأتربة والحفرة على ضوء المشاعل ، اثاروا التراب حتى انتشر فى فراغ القبة خالقا جوا خانقا فملاهم البهر وتصبب العرق من جباههم واغبرت وجوههم وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنهم اشباح انشقت عنهم الحفرة . على أى حال لم يعد وحده ، هذا الصديق وهؤلاء الرجال من حيه ، جنود البوليس المصريون معهم بقلوبهم ؛ آى ذلك أنهم جردوا من سلاحهم .. لم يعد السيف ذو الغمد المعدنى يتدلدل من أحزمتهم ، اصبر .. اصبر لعل هذه الغمة أن تنكشف ، هل كنت تتصور أنك ستعمل حتى مطلع الصبح وربما حتى الضحى ، شد حيلك ؛ ليس ثمة أنك ستحمل التراب وتسخر فى سد الحفرة ؟ لاتريد الحفرة أن تمتلىء ، لا فائدة ترجى من الشكوى ، ولمن تشكو ؟ جسمك قوى صلب العود يستطيع أن يتحمل رغم سكرة الليلة وعبثها ، كم الساعة الآن ؟ ليس من الحيطة أن تنظر فيها ، لو لم يقع لى هذا لكنت الآن مستلقيا على الفراش منعما بلذيذ المنام ، كنت استطيع ان اغسل راسى ووجهى واشرب شربة روية من ماء القلة المعطرة بالزهر ، هنيئا لنا هذه المشاركة فى جحيم الثورة ، لم لا ؟ البلد ثائرة ؛ كل يوم .. كل ساعة ضحايا وشهداء ، بيد أن قراءة الصحف وتناقل الأخبار شيء أما حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر ؛ هنيئا لكم ايها النائمون فى أسرتكم ، اللهم احفظنا ؛ لست لها .. لست لها ،

اللهم اهزم المشركين بقوتك ، نحن ضعفاء .. لست لها ، هل يتصور فهمى أى خطر يتهدده ؟ انه يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحيق بأبيه ، قال لى : « لا » لأول مرة فى حياته ، قالها بدموعه ولكن سيان عندى المعنى واحد ، لم اقل لأمه ، لن أقول لها ، اكشف لها عن عجزى ؟ أأستعين بضعفها بعد ان اخفقت بقوتى ؟ كلا .. لتبق جاهلة بكل شيء ، يقول انه لايعرض نفسه للخطر ، حقا ؟ اللهم استجب ، لولا هذا ما رحمته أبدا ، اللهم احفظه ، اللهم احفظنا جميعا من شر هذه الأيام ، كم الساعة الآن ؟ ان طلع علينا الصباح أمنا القتل ، لن يقتلونا أمام الخلق ، الصباح ؟

ــ بصقت على الأرض كى أتخلص من الغبار اللازق بسقف حلقى فرمانى أحد الأبالسة بنظرة وقف لها شعر رأسى !

ــ لاتبصق ، تشبه بى ، لقد بلعت من التراب قدرا يكفى لسد هذه الحفرة !..

ــ لعل زبيدة دعت عليك ؟

ــ لعلها ...

ــ الم يكن سد حفرتها اطيب من سد هذه الحفرة ؟

ــ بل أشق !

تبادلا ابتسامة سريعة ثم قال غنيم متنهدا :

ــ انقصم ظهرى ياهوه

ــ مثلك ، عزاؤنا أننا نشارك المجاهدين بعض آلامهم

ــ مارأيك فى أن أرمى بالمقطف فى وجه الجنود وأهتف بأعلى صوتى ، « يحيى سعد » ؟!

ــ اشتغلت المنزولة من جديد ؟

ــ يا للخسارة !.. كانت قطعة « قد فص العين » حركتها بالشاى مرة ومرتين وثلاثا ، ثم ذهبت الى الطمبكشية أسمع الشيخ على محمود فى بيت الحمزاوى ، وعدت قبيل منتصف الليل وأنا أقول لنفسى « الولية الآن تنتظرك لا أفلح من خيب لها رجاء » حين طلع على ابن القرد وساقنى من قفاى ...

ــ ربنا يعوض عليك ..

ــ آمين ..

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينية والبعض الآخر من ناحية النحاسين وسرعان ما انضموا الى « العمال » . ألقى على المكان

نظرة فوجده ازدحم بالجمهور او كاد وقد انتشروا حول الحفرة فى جميع الجهات ، يذهبون الى الطوار ويرجعون اليها فى حركة لاتنقطع وأنوار المشاعل تضيء منهم وجوها لاهثة نال منها الاعياء والذل والخوف كل منال الكثرة بركة وأمان ، لن يذبحوا هذا الجمع الغفير من الناس ، لن يأخذوا البرىء بالمذنب ؛ ترى أين المذنبون ؟ اين هؤلاء الفتوات ؟ هل يعلمون الآن أن اخوانا لهم وقعوا فى الحفرة التى حفروا ؟! قاتلهم الله هل حسبوا أن حفر حفرة سيعيد سعد أو يخرج الانجليز من مصر ! لأنقطعن عن السهر ان كتب الله لى عمرا جديدا ، انقطع عن السهر ؟ لم يعد السهر بمأمون ، كيف يكون طعم الحياة ؟ لاطعم للحياة فى ظل الثورة ، الثورة.. أى جندى يقبض عليك .. تحمل التراب بكفيك ، فهمى يقول لك ! لا ، متى تعود الدنيا الى أصلها ؟ صداع ؟.. بل صداع وغثيان ، دقائق من الراحة .. لا أطمع فى مزيد ! بهيجة فى سابع نومة ، امينة تنتظر كما تنتظر « ولية » غنيم ، هيهات ان يخطر لكم ماحاق بأبيكم ، رباه أن التراب يملأ أنفى وعينى ، يا سيدنا الحسين ، امتلئى .. امتلئى .. أما كفاك هذا التراب كله ؟! يابن بنت رسول الله ، غزوة الخندق .. هكذا دعاها سيدنا الواعظ ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه ، كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم !.. فساد الزمن .. فساد الزمن .. فسادى أنا ، هل يعسكرون أمام الست حتى تنتهى الثورة ؟

ـ الم تسمع الديكة ؟

ارهف السيد اذنيه .. ثم غمغم

ـ الديكة تصيح ! الفجر ؟

ـ نعم .. ولكنها لن تمتلىء قبل الصباح ..

ـ الصباح !

ـ المهم أنى محصور ، محصور جدا ..

اتجه ذهن السيد الى أسفل فشعر بانه مخصور أيضا ، وبأن جانبا من آلامه يعود بلا شك الى ذلك ، وسرعان ما اشتد ضغط المثانة عليه كأنما هيجها تفكيره فيها ، قال :

ـ وأنا كذلك ..

ـ والعمل ..؟

ـ ما باليد حيلة ..

ـ انظر هناك الى ابن القرد الذى وقف يبول أمام دكان على الزجاج ؟

ــ آه ..
ــ اخراج شوية بول أهم الآن عندى من اخراج الانجليز من مصر كلها
ــ اخراج الانجليز من مصر كلها ؟! ليخرجوا أولا من النحاسين ..
ــ رباه .. انظر .. لايزال الجنود يأتون بالناس !
راى السيد جماعة جديدة تشق طريقها صوب الحفرة

— ٦٦ —

استيقظ السيد احمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعته قد ذاع فى الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهنئين بالسلامة فراح يقص القصة ويعيدها بأسلوب لم يخل — رغم جدية الأمر — من فكاهة وتهويل حتى اثار شتى التعليقات . كانت أمينة أول من سمع القصة ، القاها عليها وهو مشتت النفس خائر القوى لا يكاد يصدق حقا انه نجا فتلقت وحدها الجانب المفجع خالصا ، وما كادت تغادره نائما حتى استرسلت فى البكاء وجعلت تدعو الله ان يرعى أسرتها بعنايته ورحمته ، ودعت الله طويلا حتى كل لسانها . ولكنه حينما وجد نفسه محوطا بأصدقائه خاصة المقربين منهم امثال ابراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت ، استرد الكثير من روحه المعنوية فتعذر عليه ان يغفل الجانب الفكاهى من الحادث حتى غلب على ماعداه فانتهى الحديث الى نوع من المزاح كانما كان يقص عليهم مغامرة من مغامراته وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتانى فيما عدا الأم التى شغلت مع ام حنفى بتهيئة القهوة/والأشربة . شهدت الصالة من جديد اجتماع ياسين وفهمى وكمال وخديجة وعائشة فى مجلس الأم التقليدى ، وقد انضم اليهم خليل شوكت وابراهيم شوكت سحابة النهار ولكنهما صعدا الى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للأخوة ، وكان الحزن الذى غشيهم طوال النهار على ما اصاب والدهم قد زايلهم بعودة الطمانينة الى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الأخوية وتوثبوا للسمر والمرح كعهدهم فى الأيام الخوالى ، على ان الطمانينة لم تستقر بنفوسهم حتى راوا والدهم بأعينهم ، اقبلوا عليه واحدا فى اثر واحد فقبلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة فى نظام وأدب عسكريين . ومع ان السيد

اكتفى بمد يده لياسين وفهمى وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة الا أنه ابتسم الى خديجة وعائشة وسألهما فى رقة عن الحال والصحة ، رقة لم تحظيا بها الا بعد زواجهما ، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور كأنما هو الذى يحظى بها . والحق أن كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقتيه كلما هلت . كان ينعم فى اثنائها بسعادة عميقة لايعكر عليه صفوها الا تفكيره فى النهاية المتوقعة ، ودائما كان يجىء النذير بهذه النهاية من أحد الرجلين — ابراهيم أو خليل — اذا تمطى أو تثاءب ثم قال « آن لنا أن نذهب » أمر مطاع لا يرد ، لم تتكرم احدى شقيقتيه — ولو مرة واحدة — بأن تجيبه قائلة مثلا « أذهب انت وسألحق بك غدا » ! بيد أنه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التى تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تجىء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع فى مزيد . وبالرغم من هذا فلم يكن يتمالك أحيانا اذا رآهما مقبلتين من أن يقول متمنيا « لو تعودان الى البيت فتقيمان فيه كما كنتما » ! فتبادره أمه قائلة « ربنا يكفيهما شر تمنياتك الطيبة ! » . بيد أن أعجب ما صادفه فى حياتهما الزوجية كان ذلك التغير العجيب الذى طرأ على البطن . . وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطورا غريبة كالأساطير ، وفدت على حافظته الفاظا جديدة كالحبل والوحم وما اكتنف الأخير من قىء وتوعك والتهام لحبات الطين الجافة . . ثم ماشأن بطن عائشة ؟ . . متى يقف عن النمو الذى جعله كالقربة المنفوخة ؟ . . وهذا بطن خديجة بدأ — فيما يبدو — يخطو نفس الخطوات ، واذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبى قد وحمت على الطين فعلى أى شىء توحم خديجة ؟ ! . . غير أن خديجة لم تحقق مخاوفه فتوحمت على المخلل حتى استثارت منه اسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع ! . وتقول امه أن بطن عائشة — وبطن خديجة بالتالى — سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قرة لعينه . . ولكن : اين يقيم هذا الطفل ، وكيف يعيش ، وهل يسمع ويرى ، وماذا يسمع وماذا يرى ، وكيف وجد . ومن اين جاء ؟ ! . . على ان هذه الأسئلة لم تهمل ، ظفر عنها باجوبة جديرة حقا بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريت والرقى والتعاويذ وغير ذلك من المواد التى تزخر بها دئرة معارف امه . . لذلك سأل عائشة مستطلعا باهتمام :

— متى يخرج الطفل ؟

فأجابته ضاحكة :

— اصبر لم يبق الا قليل ..

فتساءل ياسين :

— أظنك فى شهرك التاسع ؟

فأجابته :

— نعم ولو أن حماتى تصر على انى فى الثامن !

فقالت خديجة بحدة :

— أصل حماتك تصر دائما على أن يكون لها رأى مخالف ، هذا كل ما هنالك !

ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيرا بين خديجة وحماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثم ضحكوا ..

وقالت عائشة :

— أود أن أقترح عليكم أن تنتقلوا الى بيتنا فتبقوا معنا حتى يجلو الانجليز عن شارعكم ..

فقالت خديجة بحماس :

— أجل ، لم لا ؟ . ان البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة ، فيقيم بابا ونينه عند عائشة لأنها فى الدور الأوسط ، وتقيمون أنتم عندى ..

رحب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنم عن التحريض :

— من يقول لبابا ؟

ولكن فهمى قال وهو يهز منكبيه :

— انكما تعلمان حق العلم أن بابا لايمكن أن يوافق ..

فقالت خديجة بأسف :

— ولكنه يحب السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود ، يا لهم من مجرمين ! .. ساقوه فى الظلام وحملوه التراب ! .. آه ، رأسى يدور كلما تصورت هذا ..

فقالت عائشة :

— كنت انتظر دورى لتقبيل يده وأنا أتفحص جسمه جزءا جزءا لاطمئن عليه ، كان قلبى يدق .. وعيناى تغالبان الدمع .. لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب ! ..

فابتسم ياسين .. وقال لعائشة محذرا وهو يلحظ كمال غامزا بعينه .

— لا تسبى الانجليز هكذا فان لهم بيننا اصدقاء .. ؟

فقال فهمى متهكما :

ـ لعله مما يسر له بابا ان يعلم أن الجندى الذى قبض عليه ليلا ما هو الا صديق من أصدقاء كمال . .

فابتسمت عائشة الى كمال متسائلة :

ـ الا تزال تحبهم بعد ما كان منهم ؟

فغمغم كمال وقد تورد وجهه حياء وارتباكا :

ـ لو عرفوا أنه أبى ماتعرضوا له بسوء !

فما تمالك ياسين الا أن ضحك ضحكة عالية حتى انه غطى فمه بيده وهو ينظر فى حذر الى السقف كأنما خاف أن يترامى صوت ضحكته الى الدور الاعلى . . ثم قال ساخرا :

الأحرى بك ان تقول : انهم لو عرفوا انك مصرى ماصبوا العذاب على مصر والمصريين ، ولكنهم لا يعرفون !

فقالت له خديجة بلهجة لاذعة :

ـ دع هذا الكلام لغيرك انت ! . . أتنكر أنك من أصدقائهم كذلك ؟!

ثم مخاطبة كمال بلهجة لاذعة :

ـ أتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على أن تصلى الجمعة فى سيدنا الحسين ؟

ففطن ياسين الى مرمى هجومها وقال مظهرا الأسف :

ـ يحق لك أن تتطاولى على مادمت قد تزوجت فاكتسبت بعض حقوق الآدميين . .

ـ ألم يكن لى هذا الحق من قبل ؟!

ـ الله يرحم ايام زمان . . ! ولكنه الزواج يعيد الى البائسات الروح ! . . أسجدى شكرا للاولياء . . ولتعاويذ واقراص أم حنفى .

فقالت خديجة وهى تغالب ضحكة :

ـ يحق لك انت أن تتهجم على الناس بالحق وبالباطل بعد ان ورثت المرحومة وصرت فى عداد الملاك

فقالت عائشة بفرح صبيانى كأنما لم تدر من الأمر شيئا :

ـ أخى فى عداد الملاك ! . . ما أجمل ان اسمع هذا ! . . أانت غنى حقا يا سى ياسين ؟!

فقالت خديجة :

ـ دعينى اعد لك املاكه ، اسمعى ياستى : دكان الحمزاوى وربع الغورية وبيت قصر الشوق . .

فقال ياسين وهو يهز رأسه مغمضا عينيه :

ـ ومن شر حاسد اذا حسد ..

فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته :

ـ وما خفى من الحلى والنقود المخبأة اعظم ..

فهتف ياسين فى أسف صادق :

ـ اختفت كلها وحياتك ، سرقت ، سرقها ابن الكلب . جعلت أبى يسأله عما اذا كانت تركت حليا او نقودا فقال اللص « ابحثوا بانفسكم ، علم الله أنى كنت أنفق عليها فى أثناء مرضها من جيبى الخاص » ... اسمعوا ياهوه .. جيبه الخاص ابن الغسالة ..

فقالت عائشة بتأثر :

ـ يا ولداه !.. مريضة طريحة الفراش تحت رحمة رجع طامع فى مالها !.. لا صديق ولا حبيب ، غادرت الدنيا من دون ان يحزن عليها احد

فتساءل ياسين :

ـ من دون أن يحزن عليها أحد ؟!

فأشارت خديجة من خلال باب موارب الى ملابس ياسين المعلقة بالمشجب وقالت محتجة احتجاجا ساخرا :

ـ وهذا البابيون الأسود ؟!.. أليس آية على الحزن ؟!

فقال ياسين جادا :

ـ لقد حزنت عليها حقا ، ربنا يرحمها ويغفر لها ، ألم نكن تصافينا فى آخر لقاء ؟. الله يرحمها ويغفر لها ولنا ..

فخفضت خديجة رأسها قليلا رافعة حاجبيها ثم نظرت اليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظارته وهى تقول :

ـ احم .. احم .. اسمعوا سيدنا الواعظ (ثم وهى ترميه بنظرة شبك) ولكن لم يبد عليك فيما أظن حزن شديد ؟!

فرماها بنظرة مغيظة قائلا :

ـ ما قصرت فى واجبى نحوها والحمد لله ، أقمت لها مأتما استمر ثلاث ليال ، وكل جمعة أزور القرافة محملا بالرياحين والفواكه .. أم تريدينى أن ألطم وأعول وأحثو التراب على رأسى !.. ان للرجال حزنا غير حزن النساء

فهزت رأسها كأنما تقول « أفدتنى افادك الله » ثم قالت متنهدة :

ـ آه من حزن الرجال !.. ولكن خبرنى وحياتى عندك ألم يخفف الدكان والربع والبيت من لوعة الحزن !!

فقال متأففا :

ـ صدق من قال : ان قبح اللسان من قبح الوجه ..

ـ من قائل هذا ؟..

أجابها باسما :

ـ حماتك !..

فضحكت عائشة ، وضحك فهمي وهو يسأل خديجة :

ـ ألم تتحسن العلاقات بينكما ؟

فأجابته عائشة بالنيابة عنها قائلة :

ـ سوف يتحسن ما بين الانجليز والمصريين قبل أن يتحسن ما بينهما ..

فقالت خديجة بحنق لأول مرة :

ـ امرأة قوية ، ربنا عليها ، والله انا بريئة ومظلومة ..

فقال ياسين متهكما :

ـ نصدقك يا أختي بلا قسم ، هذا شيء نشهد به أمام الله في يوم العذاب !

فعاد فهمي يسأل عائشة :

ـ وأنت كيف حالك معها ؟

فقالت عائشة وهي تلحظ خديجة باشفاق :

ـ على ما يرام ...

فتهتفت خديجة :

ـ آه من أختك عائشة .. تعرف كيف تسوس وتطاطيء الرأس .. اتفوخص ..

فقال ياسين متصنعا الجد :

ـ على أي حال فلحماتك الرحمة ولك صادق التهنئة !

فقالت بسخرية :

ـ التهنئة الحقة لك انت قريبا ان شاء الله حين تزف الى عروسك الثانية !.. أليس كذلك ؟..

فما تمالك الا ان ضحك .. ثم قال :

ـ ربنا يسمع منك ..

فتساءلت عائشة باهتمام :

ـ حقا ؟..

ففكر قليلا .. ثم قال في شيء من الحد :

– المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن من يعلم بما يأتى به الغد ؟! ربما ثانية وثالثة ورابعة ..

فهتفت خديجة :

– هذا ما أتوقعه ، الله يرحم جدك !

فضحكوا جميعا حتى كمال ، ثم عادت عائشة تقول بصوت أسيف :

– مسكينة زينب !.. كانت فتاة لطيفة وطيبة ..

– كانت .. ! وكانت حمقاء أيضا ، أبوها – مثل أبى – لايطاق .. لو رضيت بمعاشرتى كما أحب ما فرطت فيها أبدا

– لا تعرف بهذا ، حافظ على كرامتك ، لا تشمت بك خديجة ..

قال باستهانة :

– نالت الجزاء الذى تستحقه ، فلينقعها أبوها ويشرب ماءها ..

فغمغمت عائشة :

– ولكنها حبلى يا ولداه !.. أترضى لوليدك بأن ينمو بعيدا عن رعايتك حتى تسترده غلاما ؟! ..

آه ، أصابت مقتلا ، ينمو فى حضانة أمه كما نما أبوه من قبل . ربما كابد تعاسة كتعاسته أو أشد . ربما نمت معه كراهية لأمه أو لأبيه ، تعاسة على أى حال . قال عابسا :

– ليكن حظه كحظ أبيه ، ما باليد حيلة

وساد الصمت قليلا حتى سأل كمال خديجة :

– وأنت يا أبله متى يخرج الطفل ..؟

فأجابته ضاحكة وهى تتحسس بطنها :

– انه لا يزال فى سنة أولى

فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرس فى وجهها :

– نحفت جدا يا أبله وصار وجهك قبيحا ..!

ضحكوا جميعا وهم يغطون أفواههم بأيديهم ، ضحكوا حتى شعر كمال بالحياء والارتباك ، أما خديجة التى لم يكن الاستياء من كمال مما تستطيعه فقد مالت الى أن تجارى التيار فقالت ضاحكة :

– أعترف لكم بأنى خسرت فى أيام الوحم كل اللحم الذى تعبت أم حنفى أعواما فى جمعه ولمه ، نحفت وبرز أنفى وغارت عيناى وخيل الى أن « الرجل » يقلب عينيه مفتشا عبثا عن العروس التى زفوها اليه !..

ثم ضحكوا ثانية حين قال ياسين :

– الحق أن زوجك مظلوم لأنه على غباوته البادية وسيم الطلعة وسبحان من جمع الشامى على المغربى ..

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمى قائلة وهى تومىء الى عائشة :

ــ كلاهما ــ زوجى وزوجها ــ فى الغباء سواء ! . لا يكادان يبرحان البيت ليل نهار ، لا هم ولا عمل ، أما زوجها فوقته كله ضائع بين التدخين وعزف العود كأنه شحاذ من الشحاذين الذين يمرون على البيوت فى الأعياد ، وأما زوجى فلا تراه الا مستلقيا يدخن ويثرثر حتى يدوخ دماغى ..

قالت عائشة كالمعتذرة :

ــ الأعيان لا يعملون !

فقالت خديجة هازئة :

ــ العفو ! .. يحق لك ان تدافعى عن هذه الحياة ، الحق أن الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكما ، كلاكما فى الكسل والدعة والخمول شخص واحد ، والنبى يا سى فهمى يمر اليوم كله وهو يدخن ويعزف وهى تزوق نفسها وتذهب وتجىء امام المرآة ..

تساءل ياسين :

ــ لم لا مادامت ترى منظرا حسنا .. ؟ !

وقبل أن تفتح خديجة فاها سألها مستعجلا :

ــ خبرينى يا أختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيها بك ؟

كانت شبعت من مهاجمته فأجابته جادة :

ــ سيجىء باذن الله شبيها بأبيه أو جده أو جدته أو خالته ، أما .. ثم ضاحكة :

ــ اما اذا ابى الا ان يجىء شبيها بأمه فالنفى يكون احق به من سعد باشا ! .

ولكن كمال قال لها بلهجة خبير عليم :

ــ الانجليز لايهمهم الجمال ياآبلا،انهم يعجبون كثيرا براسى وانفى ..

فضربت خديجة صدرها بيدها هاتفة :

ــ يدعون صداقتك وهم يعبثون بك ! .. ربنا يسلط عليهم زبلن من جديد .

ورمت عائشة فهمى بنظرة رقيقة وهى تقول :

ــ كم يسر دعاؤك بعض الناس ..

فابتسم فهمى مغمغما :

ــ كيف أسر والهم فى بيتنا اصدقاء مغفلون !

ــ يا خسارة تربيتك له..

ــ من الناس من لاتنفع فيه التربية .

فتساءل كمال محتجا :

ــ الم أرج جوليون أن يعيد سعد باشا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ــ فى المرة القادمة حانفه براسك الذى يعجب به . .

شعر فهمى اكثر من مرة بأن من حوله يسعون كلما بدت فرصة الى استدراجه الى الحديث والتسلية ، بيد أن ذلك لم يجد شيئا فى التخفيف من الاحساس بالغربة الذى غشيه طوال الوقت . هو احساس كثيرا ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة أو الوحدة رغم زحمة المجلس ، ينفرد بقلبه وحزنه وحماسه بين أناس لاهين ضاحكين ، حتى نفى سعد يتخذون منه دعابة اذا لزم الأمر . اختلس منهم النظرات تباعا فوجدهم راضين،عائشة . . هانئة وان تكن تعبت قليلا بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكل شيء حتى بتعبها ، خديجة . . متوثبة ضاحكة ، ياسين . . صحة وعافية وغبطة ، من من هؤلاء يكترث لحوادث هذه الأيام ! . . من منهم يهمه بقى سعد أم نفى ، جلا الانجليز أم مكثوا ! . انه غريب ، أو غريب على الأقل بين هؤلاء . ومع أن هذا الاحساس كان يلقى منه عادة نفسا مسماحة فانه لم يلق هذه المرة الا حنقا وامتعاضا ، ربما كان ذلك لما عاناه فى الأيام الأخيرة . كثيرا ما توقع ان يسمع عن زواج مريم ، كان ذلك همه وكربه بيد انه سلم به سلفا تسليم اليأس ، وكاد يألفه بكرور الأيام ، الا أن حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذى شغلته الشواغل الكبرى ، حتى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالا . تغازل انجليزيا لا مطمع لها فى الزواج منه فأى معنى تتضمنه هذه المغازلة ؟ . . هل تصدر الا عن متهتكة ؟ . . مريم متهتكة ؟ . . وفيم كانت أحلامه الماضية ؟ . . ولم يكن يخلو بكمال حتى يدعوه الى اعادة القصة من جديد محتما عليه أن يصف التفاصيل بدقة ، كيف لاحظ ما يدور ، وأين كان موقف الجندى ، وأين كان موقفه هو ؛ وهل هو متأكد من ان مريم نفسها التى كانت فى الكوة ؟ وانها كانت تنظر حقا الى الجندى ؟ . وهل رآها تبتسم اليه ، وهل وهل وهل ، ثم يسأله وهو يعض على اسنانه كأنما يهرس الشقاء الذى يعذبه : وهل تراجعت فى خوف حين وقعت عيناها عليك ؟ . ثم يمضى متخيلا المواقف والمناظر ، موقفا موقفا ، ومنظرا منظرا ، ويتخيل الابتسامة طويلا حتى

كأنه يرى الشفتين المفترتين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتهـا تتبع العروس فى فناء بيت آل شوكت .

ـ يبدو أن نينه لن تجالسنا اليوم .

قالته عائشة بصوت يدل على الاسف .

فقالت خديجة :

ـ الزوار يملأون البيت ..

ياسين ضاحكا :

ـ أخاف أن يشتبه الجنود فى كثرة القادمين فيظنـوا أن اجتماعا سياسيا ينعقد فى بيتنا ..

خديجة فى مباهاة :

ـ أن اصدقاء بابا يحجبون عين الشمس ..

فقالت عائشة :

ـ رأيت السيد محمد عفت نفسه على راس القادمين ..

فأمنت خديجة على قولها قائلة :

ـ كان صديقا حميما لبابا من قبل أن نرى نور الدنيا .

فقال ياسين وهو يهز رأسه :

ـ اتهمنى بابا ظلما بأننى قطعت ما بينهما .

ـ الا يفرق الطلاق بين اعز الأصدقاء ؟ !

ياسين باسما :

ـ الا أصدقاء أبيك !

عائشة بفخار :

ـ من ذا تطاوعه نفسـه على مخاصمة بابا ؟ .. والله ما فى الدنيا كلها نظـير له ..

ثم وهى تتنهد :

ـ كلما تصورت ماوقع له أمس شاب شعر رأسى .

اخـيرا ضاقت خديجة بوجوم فهمى فعزمت على أن تعالجه بطريقة مباشرة بعـد ان اخفقت ـ فيما رأت ـ الطرق غير المبـاشرة ، فالتفتت اليه متسـائلة :

ـ ارأيت يا أخى كيف أن ربنـا اكرمك يوم لم يأذن بتحقيق رغبتك نحو ... مريم ؟ !

نظر فهمى اليهـا بين الدهشة والحيـاء ، وسرعان ما تركزت فيـه

الأبصار حتى كمال تطلع اليه باهتمام ، وساد صمت نم عمقه عن شعور مكبوت طال فى الصدور تجاهله أو اخفاؤه حتى أفصحت عنه خديجة بجرأة فتطلعوا الى الشاب فى صمت المنتظر للجواب كأنما هو نفسه الذى طرح السؤال ؛ غير أن ياسين رأى ان ينهى الصمت قبل أن يستفحل فيبعث على الألم فقال متظاهرا بالسرور :

ــ أصل أخيك ولى والله يحب أولياءه ..

وكان فهمى يكابد حرجا وحياء فقال باقتصاب :

ــ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ..

فقالت عائشة بلهجة المعتذر :

ــ لم يكن سى فهمى وحده الذى خدع بها ، كلنا خدعنا بها ..

فقالت خديجة مدافعة عن نفسها ــ بأقصى مافى وسعها ــ تهمة الغفلة :

ــ على أى حال انا لم اقتنع لحظة واحدة فيما مضى ، حتى مع اعتقادى ببراءتها ، بأنها جديرة به ..

فعاد فهمى يقول متظاهرا بالاستهانة :

ــ هذه مسالة قديمة عفاها النسيان ، انجليزى .. مصرى .. سيان ، دعونا من هذا كله ..

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير فى « مسألة » مريم .. مريم ؟ ! .. لم يكن ينظر اليها فيما مضى ــ أن مرت فى مجال بصره ــ الا عابرا ، ثم زاده زهدا فيها تعلق فهمى بها ، حتى ذاعت فضيحتها فى الأسرة .. هناك ثار اهتمامه ، تساءل طويلا : اى فتاة هى ؟ ود لو كان ملا عينيه منها ، تمنى لو كان سبر الفتاة التى استرعت تشوق « انجليزى » .. انجليزى جاء الحى مقاتلا لا مغازلا ، لم يبد سخطه عليها الا مجاراة للحديث كلما تناولها اما فى الباطن فقد اطربه غاية الطرب وجود « مفضوحة » جريئة مثلها على كثب منه فلا يفصله عنها الا جدار ، شاع فى صدره العريض المكتنز ذلك الطرب البهيمى الذى يدعوه الى الصيد وان وقف ــ اكراما لحزن فهمى الذى يحبه ــ عند حد الشعور واللذة السلبية المجردة ، لم يعد فى الحى كله من يستثير اهتمامه كمريم .

ــ آن اوان الذهاب .

قالت خديجة ذلك وهى تنهض على حين ترامى اليهم صوتا ابراهيم وخليل وهما يتحدثان قادمين من الردهة الخارجية . قام الجميع ، من يتمطى ومن يحبك ملابسه ، الا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلع الى باب الصالة بحزن وقلب خافق ..

- ٦٧ -

جلس السيد احمد الى مكتبه ، مكبا على دفاتره ، يزاول عمله اليومى الذى يتناسى به ـ ولو الى حين ـ همومه الشخصية والهموم العامة التى تتطاير بها الأنباء الدامية . غدا يحب الدكان حبه مجالس الأنس والطرب لأنه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر ، الا أن جو الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح وغير ذلك من شئون الحياة العادية ، حياة كلّ يوم ، فلا تخلو من أن تبعث فى نفسه شيئا من الثقة الموحية بامكان عودة كل شىء الى اصله ، الى حالته الأولى من الاستقرار والسلام . السلام ؟ .. أين ذهب ومتى يأذن بالعودة ؟ . حتى فى هذه الدكان تجرى احاديث الدماء همسا مفجعا ، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فما تألو ألسنتهم أن تردد الأنباء وتندب الأحداث ، فوق زكائب الأرز والبن سمع عن معركة بولاق ومذابح أسيوط والجنازات التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والشاب الذى انتزع من العدو مدفعا رشاشا اراد أن يدخل به الأزهر لولا أن سبقته المنية فانفرست فى جسمه عشرات المقذوفات ، هذه الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القانى تقرع اذنيه بين حين وآخر فى المكان الذى يلوذ به ناشدا النسيان . ما أتعس الحياة فى ظل الموت ، هلا عجلت الثورة بتحقيق غاياتها من قبل ان يمتد اذاها اليه او الى احد من ذويه !.. انه لايبخل بمال ولايضن بعاطفة امابذل الحياة فأمر آخر ، اى عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء !. لم تعد الثورة « فرجة » حماسية ، انها تهدد امنه فى الذهاب والاياب ، وتتوعد ابنه « العاصى » ؟ فنر حماسه اها ، لها هى دون غايتها ، يحلم بالاستقلال وبعودة سعد ولكن دون ثورة او دماء او ذعر ، يهتف قلبه مع الهاتفين ويتحمس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلقا بالحياة فمكث وحده فى المجرى كاصل شجرة اقتلعت العواصف اغصانها ، لن يوهن شىء وأن جل من حبه للحياة ، فلتبق له الى آخر العمر ، وليؤمن فهمى ايمانه لتبقى له حياته الى آخر العمر كذلك ، فهمى العاق الذى رمى بنفسه الى التيار بلا حزام نجاة ..

ـ هل السيد احمد موجود ؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكان

كأنه مقذوف آدمي فرفع راسه عن مكتبه فراى الشيخ متولى عبد الصمد يتوسط المكان رامشا بعينيه الملتهبتين مدققا النظر - عبثا - صوب المكتب فهش قلبه وابتسمت اساريره ثم هتف بالقادم :

- تفضل يا شيخ متولى ، حلت البركة ..

فلاح الاطمئنان فى وجه الشيخ وتقدم يهتز اعلاه ما بين الوراء والأمام كأنه راكب جملا ، فمال السيد فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد ارجل وشد عليها متمتما « الكرسى على يمينك ، تفضل بالجلوس » فأسند الشيخ متولى عصاه الى المكتب وجلس على الكرسى ثم اعتمد بيديه على ركبتيه وهو يقول :

- الله يحفظك ويصونك ..

فقال السيد من قلبه :

- ما أطيب دعاءك وما أحوجنى اليه ..

ثم ملتفتا صوب جميل الحمزاوى الذى كان يزن ارزا لزبون :

- لا تنس أن تهيىء لفة سيدنا الشيخ ..

فجاء صوت جميل الحمزاوى قائلا :

- من ذا الذى ينسى سيدنا الشيخ !

فبسط الشيخ راحتيه ورفع رأسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء فى هينمة لم يسمع منها الا وسوسة متقطعة ، ثم عاد الى وضعه الأول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح :

- ابدأ بالصلاة على نور الهدى .

فقال السيد بحرارة :

- عليه أزكى الصلاة والسلام .

- واثنى بالترحم على ابيك طيب الذكر .

- رحمه الله رحمة واسعة .

- ثم اسأل الله أن يقر عينيك بأسرتك وذريتك وذرية ذريتك وذرية ذرية ذريتك .

- آمين .

متنهدا :

- وادعوه أن يعيد الينا افندينا عباس ومحمد فريد وسعد زغلول ..

- اللهم استجب .

- وأن يخرب بيت الانجليز بما أثموا وبما يأثمون ..

- سبحان المنتقم الجبار .

عند ذاك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم قال :

ـ أما بعد فقد رأيتك فى منامى تلوح لى بيديك فما فتحت عينى حتى صح عزمى على زيارتك ..

فابتسم السيد ابتسامه لاتخلو من حزن وقال :

ـ لا أعجب لذلك فانى فى مسيس الحاجة الى بركتك ، زادك الله بركة على بركه ..

فمال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف وتساءل :

ـ احق مابلغنى عن حادث بوابة الفتوح ؟

فاجاب السيد مبتسما :

ـ نعم .. من أبلغك ياترى ؟

ـ كنت مارا بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفنى وقال لى « ألم يبلغك ما فعل الانجليز بحبيبك السيد أحمد وبى » فاستوضحته منزعجا فقص على العجب العجاب .. قص على السيد الحادث بتفاصيله ، لم يكن يمل ترديده ، ولعله قصه فى الأيام القلائل الأخيرة عشرات المرات .

واصغى الشيخ اليه وهو يتلو همسا آيات الكرسى . أفزعت يابنى ؟ .. كيف كان فزعك .. خبرنى .. لاحول ولا قوة الا بالله .. ولكن هل قنعت بالسلامة ؟ .. أنسيت أن الفزع لايمضى الى حال سبيله ؟ . صليت طويلا وسألت الله النجاة ! هذا جميل ولكن يلزمك حجاب ..

ـ كيف لا ! ..

يزيدنا بركة ياشيخ متولى ، والاولاد وامهم ، الم يدركهم الفزع ؟

ـ طبعا .. قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والارهاب ، الحجاب .. الحجاب .. الحجاب وفيه الشفاء ..

ـ انت الخير والبركة يا شيخ متولى .. لقد نجانى الله من شر كبير ولكن ثمة شر لا يزال يتهددنى ويقض مضجعى .

مال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف مرة أخرى وتساءل :

ـ ماذا بك يابنى عفا الله عنك ؟

فرنا السيد اليه بطرف واجم وغمغم فى ضجر :

ـ ابنى فهمى ..

فرفع الشيخ حاجبيه الأشيبين متسائلا او منزعجا ثم قال برجاء :

ـ محفوظ باذن الرحمن ...

فهز السيد رأسه بأسى وقال :

ـ عقنى لأول مرة والأمر لله ..

فبسط الشيخ متولى ذراعيه أمامه كأنما يتقى بهما البلاء وهتف :
ـ معاذ الله ، فهمى ابنى ، وانا أعلم علم اليقين أنه طبع على البر ..
فقال السيد احمد متسخطا :
ـ يأبى حضرته الا أن يفعل كما يفعل الشبان فى هذه الأيام الدامية ..
فقال الشيخ فى دهش واستنكار :
ـ انت أب حازم ما فى ذلك شك ، ماكنت أتصور أن ابنا من ابنائك يجرؤ على أن يرد لك أمرا ..

حز هذا القول فى قلبه حتى ادماه وضاق به صدره ثم وجد من نفسه نزوعا الى التهوين من عصيان ابنه ليدفع عن شخصه تهمة الضعف أمام الشيخ وامام نفسه معا فقال :

ـ لم يجرؤ على هذا صراحة طبعا ولكنى دعوته الى أن يحلف على المصحف بالا يشترك فى اى عمل من أعمال الثورة فبكى ، بكى من دون أن يجسر على قول لا ، ما عسى ان أصنع ؟ .. لا أستطيع أن أحبسه فى البيت ولا يسعنى أن أراقبه فى المدرسة ، وأخاف أن يكون تيار هذه الأيام أقوى من أن يقاومه شاب مثله ، ماذا اصنع ؟ .. أاهدده بالضرب ؟ .. أأضربه ؟ لكن ماعسى أن يجدى التهديد مع شخص لايبالى تعريض نفسه للموت !

فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق :
ـ وهل القى بنفسه فى المظاهرات ؟ !
فقال السيد وهو يهز منكبيه العريضين :
ـ كلا ولكنه يوزع المنشورات ، لما ضيقت عليه زعم انه يكتفى بالتوزيع على خاصة اصدقائه .

ـ ماله ولهذه الأعمال ! .. انه الوديع ابن الوديع ولهذه الأعمال رجال من صنف آخر ، الم يعرف أن الانجليز وحوش لاتتطرق الرحمة الى قلوبهم الغليظة ؟ .. وانهم يتغذون صباح مساء بدماء المصريين المساكين ؟ .. كلمه بالحسنى ، عظه ، بين له النور من الظلام ، قل له أنك ابوه وأنك تحبه وتخاف عليه ، أما أنا فسأعمل من ناحيتى على اعداد حجاب من نوع خاص ولأدعون له فى صلاتى وخاصة صلاة الفجر ، والله المستعان من قبل ومن بعد ..

قال السيد بحزن :
ـ أن أنباء القتلى تتواتر كل ساعة معلنة آى التحذير لمن يعتبر فما الذى أصاب عقله ؟ . لقد ضاع ابن الفولى اللبان فى غمضة عين فشهد

مأتمه معى وعزى والده المسكين ، كان الشاب يوزع سلاطين اللبن الزبادى فصادف فى طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعى وما هى الا ساعة أو نحوها حتى خر صريعا فى ساحة الأزهر ، لا حول و لاقوة الا بالله .. انا لله وانا اليه راجعون ، لما تأخر عن ميعاد عودته قلق أبوه فمضى الى زبائنه يسأل عنه ، قال له بعضهم انه جاءهم بالزبادى وذهب وقال آخرون أنه لم يمر عليهم كعادته ، حتى بلغ حمروشا بائع الكنافة فوجد عنده الصينية وما تبقى من السلاطين التى لم توزع وأخبره الرجل بأنه تركها عنده واشترك فى مظاهرة المساء فجن جنون المسكين وقصد من توه قسم الجمالية فوجهوه الى قصر العينى وهناك عثر على ابنه فى المشرحة ، لقد علم بالقصة بحذافيرها كما قصها علينا الفولى ونحن فى بيته نعزيه ، علم كيف فقد الشاب وكأن لم يوجد ولمس حزن ابيه المبرح وسمع صوات أهله ، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الانجليز ، لو كان حجرا لعقل ولكنه خير ابنائى فلله الحمد والشكر ..

فقال الشيخ متولى بصوت أسيف :

ــ اعرف ذلك الشاب المسكين ، أنه اكبر ابناء الفولى أليس كذلك ؟ .. كان جده مكاريا وكنت اكترى حماره للذهاب الى سيدى ابى السعود ، ان للفولى أربعة أولاد ولكن الفقيد كان أحبهم الى قلبه ..

هنا اشترك جميل الحمزاوى لأول مرة فى الحديث قائلا :

ــ أيامنا هذه مجنونة وقد اتلفت عقول الناس حتى صغارهم ، بالأمس قال ابنى فؤاد لأمه انه يود لو يشترك فى مظاهرة !

فقال السيد بقلق :

ــ يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ! . ابنك فؤاد صديق ابنى كمال وكلاهما فى مدرسة واحدة ، الا تحدثه نفسه .. الا تحدثهما نفسهما مرة بان يسيرا فى مظاهرة ! .. هه ؟ .. مامن عجيبة تعد الآن عجيبة .. !

فقال الحمزاوى وقد ندم على مافرط منه :

ــ ليس الى هذا الحد يا سى السيد ، على انى اديته بلا رحمة على تمنياته الساذجة ، ان سى كمال لا يخرج الا مصحوبا بأم حنفى حفظه الله ورعاه .

ساد الصمت فلم يعد يسمع فى الدكان الا خشخشة الورقة التى يلف فيها الحمزاوى هدية الشيخ متولى عبد الصمد ، ثم تنهد الشيخ وقال :

ــ فهمى ولد عاقل ، لا ينبغى أن يمكن الانجليز من نفسه العزيزة ،

الانجليز ! . . حسبى الله . . ألم نسمع بما فعلوا فى العزيزية والبدرشين . . ؟

كان السيد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة فى التساؤل ، الا انه لم يتوقع جديدا فوق ما يقرع سمعه هذه الأيام ، فاكتفى بأن يرفع حاجبيه متظاهرا بالاهتمام فانشأ الشيخ يقول :

ـ كنت أول أمس فى زيارة الحسيب النسيب شداد بك عبد الحميد بسرايه العامرة بالعباسية ، دعانى الى الغداء والعشاء فأتحفته بأحجبة له ولآل بيته ، وهناك حدثنى بحديث العزيزية والبدرشين . .

سكت الشيخ قليلا فتساءل السيد احمد :

ـ تاجر الأقطان المعروف ؟

ـ شداد بك عبد الحميد اكبر تاجر قطن ، لعلك عرفت ابنه عبد الحميد بك شداد فقد كان يوما على صلة وثيقة بالسيد محمد عفت ؟

فقال السيد ببطء ليملى لنفسه فى التذكر :

ـ اذكر انى رأيته مرة فى مجلس السيد محمد عفت قبل نشوب الحرب ، ثم سمعت عن ابعاده عن القطر عقب عزل افندينا ، أما من جديد عنه . ؟

فقال الشيخ متولى بلهجة سريعة عابرة كأنما يضع كلامه بين قوسين ، ليعود الى حديثه الأول :

ـ لا يزال مبعدا عن البلاد ، وهو يقيم فى بلاد فرنسا ومعه زوجه وأولاده ، لشد مايخاف شداد بك أن يموت قبل أن يرى أبنه فى هذه الدنيا . .

وسكت مرة أخرى ، ثم مضى يهز راسه يمنة ويسرة ويقول بصوت منغوم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوى :

ـ بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاثة والناس نيام حاصر البلدتين بضع مئات من الجنود البريطانيين مدججين بالسلاح . .

انتبه السيد انتباهة قاسية . حاصروا البلدتين والناس نيام ؟ . . أليس أولئك المحاصرون من جنس هؤلاء الذين يعسكرون أمام البيت ؟ . بدءوا بالاعتداء على فأى خطوة تالية يضمرون ؟ ! .

ضرب الشيخ على ركبتيه كأنما انشاده بنوع من الايقاع ثم استطرد قائلا :

ـ واقتحموا على العمدتين داريهما فأمروهما بتسليم السلاح ثم مرقوا الى الحريم فنهبوا الحلى وأهانوا النساء وجروهن من شعورهن

الى الخـارج وهن يولولن ويستغثن وما من مغيث ، عطفك اللهم على المستضعفين من عبادك ..

دار العمدتين ! . العمـدة شخصيـة حكومية اليس كذلك ؟ . لست عمدة ولا دارى بدار عمدية ، ما انا الا رجل كسائر الناس ، ما عسى أن يصنعوا بأمثالنا ؟ . تصور امينة مجرورة من شعرها ، ايقضى على بأن أتمنى الجنون ! . الجنون ؟ ..

واصل الشيخ حديثه وهو يهز رأسه قائلا :

ـ واجبروا العمـدتين على أن يدلوهما على بيوت مشـايخ البلدتين وأعيانهما ثم اقتحموا البيوت محطمين الأبواب ، نهبوا كل ثمين ، اعتدوا على النسـاء أعتداء أجراميا بعـد أن قتلوا اللاتى حاولن الدفاع عـن انفسهن ، وضربوا الرجال ضربا مبرحا ، ثم غادروهما بعـد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض لم يثلم ..

ليذهب كل ثمين الى الجحيم .. « أو عرض لم يثلم ».اين رحمة الله؟ ابن انتقامه ؟ . الطوفان . نوح . مصطفى كامل . تصور .. ! كيـف يمكن أن تبقى معه بعـد ذلك تحت سقف واحد . ! اى ذنب جنت !. وهو بأى وجه ؟ ! ..

ضرب الشيخ بيده ثلاثا على ركبتيه ثم عاد الى الحديث وقد تهـدج صوته فصار بالنواح أشبه ، قال :

ـ واضرموا النار فى البلدتين مستعينين بما على اسقف الدور من حطب وقش وبمـا صبوا عليهـا من بترول ، استيقظت القرى فى فزع رهيب وفر أهلوها عن بيوتهم كالمجانين ، وعلا الصراخ والأنين ، وامتدت السنة اللهيب فى كل مكان حتى استحالت البلدتان شعلة من النيران ..

هتف السيد بلا وعى :

ـ يا رب السماوات والأرض !

فمضى الشيخ قائلا :

ـ وضرب الجنود نطاقا حول البلدتين المشتعلتين من بعيـد يتربصون بالأهالى البؤسـاء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم تتبعهم الأغنـام والكلاب والقطط يرومون سبيلا للنجاة من النار ، فما ان بلغوا مواقف الجنود حتى أنهال هؤلاء على الذكور ضربا وركلا ، ثم حجزوا النسـاء ليسلبوا حليهن ويهتكوا اعراضهن ، فاذا قاومت احـداهن قتلت ، واذا ندت عن زوج أو أب أو اخ حركة دفاع رمى بالرصاص ..

ثم التفت الشيـخ متولى الى السيـد الذاهل وضرب كفا على كف

وهو يهتف ـ وساقوا بقية الضحايا الى معسكر قريب وهنالك اجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمن أعترافهم بجرائم لم يرتكبوها واقرار بأن ماانزله الانجليز بهم جزاء حق على مافعلوا ، هذا ما حصل يا سيد احمد للعزيزية والبدرشين . هذا مثل من أمثلة التنكيل التى نسامها بلا رحمة ولا شفقة ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد ..

وساد صمت كئيب اليم خلا فيه كل الى افكاره وتخيلاته حتى قطعه جميل الحمزاوى وهو يهتف متأوها :

ـ ربنا موجود ..

فهتف السيد مؤمنا على قوله :

ـ نعم ! (ومشيرا الى الجهات الأربع) فى كل مكان ..

وخاطب الشيخ متولى السيد قائلا :

ـ قل لفهمى : ان الشيخ متولى ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة ، قل له سلم الى الله ربك فهو القادر وحده على اهلاك الانجليز كما أهلك الذين من قبلهم ممن شقوا عصا طاعته ..

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيد الى جميل الحمزاوى فجاءه بالهدية ووضعها فى يده ثم ساعده على النهوض . صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول :

ـ « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » .. صدق الله العظيم ..

ـ ٦٨ ـ

عند الغلس ، ونور الصباح يولد رويدا من ظلمة الفجر ، طرقت خادم من السكرية بيت السيد فأخبرت امينة بأن عائشة قد جاءها المخاض . كانت امينة فى حجرة الفرن فعهدت بالعمل الى أم حنفى وهرعت الى باب السلم . بدا على أم حنفى الاستياء ربما لأول مرة فى تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت ، أما كان يحق لها أن تشهد ولادة عائشة ؟ . لها كل الحق .. كأمينة سواء بسواء ، فتحت عائشة عينيها فى حجرها ، كل ابن فى هذا البيت له أمان : امينة وأم حنفى ، كيف يحال بينها وبين ابنتها فى هذه الساعة الرهيبة ! . هل تذكرين ولادتك ؟ . وربع الطمبكشية ، كان المعلم فى الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل ، وجدت فى

ام حسنية صديقة وقابلة معا ! . ترى أين أم حسنية الآن ؟ . . الا زالت على قيد الحياة ؟ . ثم جاء حنفى بين تأوهات الألم ، ذهب بين تأوهات الألم أيضا ، وهو فى المهد ، لو عاش لكان ابن عشرين الآن ! . سيدتى الصغيرة تتألم وانا هنا اهيىء الطعام . امتلأ قلب أمينة بفرح موصول باشفاق ، هو الاحساس الذى خفق به قلبها أول مرة يوم استقبلت التجربة بنفسها . هاهى عائشة تتأهب لاستقبال أول مولود تستهل به امومتها ، كما استهلت هى أمومتها بخديجة ، هكذا تمتد الحياة التى انبثقت منها الى غير نهاية . ومضت الى الأب فزفت اليه البشرى بنبرات رقيقة مهذبة ، مبالغة هذه المرة فى حيائها وتهذيبها ان يستشف وراء صوتها رغبتها الحارة فى الانطلاق الى ابنتها غير أن السيد تلقى الخبر فى هدوء ثم أمرها بالذهاب دون ابطاء ! . . راحت ترتدى ملابسها علىعجل وقد شعرت بأن المزايا التى تكتسبها امرأة ضعيفة مثلها بانجاب الأطفال خليقة بصنع المعجزات احيانا . وعلم الاخوة بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الأم بقليل . علت وجوههم ابتسامة وتبادلوا نظرة متسائلة . عائشة أم ! . . اليس ذلك غريبا ؟ . . ما وجه الغرابة فيه . كانت نينة اصغر منها يوم ولدت خديجة . هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها ؟ . ابتسامتان . هذا نذير لى ، عما قليل تلد بنت الكلب أيضا . . من تعنى ؟! زينب . آه لو سمعك بابا . عائشة ام ، وانا اب . وأنا خال وعم . ستكون أنت أيضا عما وخالا ياسى كمال ، يجب أن اتخلف اليوم عن المدرسة لأذهب الى آبلا عائشة . جميل جدا ، استأذن بابا ان استطعت على المائدة ! . . أوووه . نحن فى حاجة الى مزيد من المواليدلنسد العجزالذى اوقعه الانجليز بنا . لو تخلفت عن المدرسة ماحدث شيء غير عادى ، ثلاثة ارباع التلاميذ مضربون منذ أكثر من شهر . قلهذا لبابا وسيقتنع حتما بحجتك فيضربك بطبق الفول فى وجهك . أوووه . مولود جديد ، بعد ساعة أو ساعتين يصير باباجدا ونينة جدة ونحن اخوالا ، شيء خطير ، كم مولودا ياترى يرى نور الدنيا فى هذه اللحظة ؟ . . وكم انسانا يغيب عنه هذا النور فى هذه اللحظة ؟ . . يجب أن نبلغ جدتى . أستطيع أن اذهب الى الخرنفش لابلاغها اذا تخلفتعن المدرسة ! . . قلنا لك لاشأن لنا بمدرستك ، قل لبابا وسيرحب بفكرتك . أوووه . لعل عائشة تتألم الآن . مسكينة المحبوبة ، ان الطلق لايلين للشعر الذهبى والأعين الزرق ربنا يقومها بالسلامة ، عند ذاك نشرب المغات ونشعل الشموع ، ذكر أم انثى ؟ . . أيهما تفضل ؟ . . الذكر طبعا ، ربما بدات بأنثى كأمها . لم لا

تـدا بذكر كأبيها ؟ . . هاها ، عندمايحين ميعاد انصراف المدرسـة يكون الطفل قد خرج فلن اتمكن من مشاهدة خروجه . أتريد أن تراه وهـو يخرج ؟ . . طبعا . أجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك انت ! . كان كمال اشد الجميع تأثرا بالخبر ، شغل به عقلا وقلبا وخيالا .لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وانه يحصى حركاته وسكناته ليبلغهـا أول فأول الى ابيه لما كان فى وسعه أن يقاوم الاغراء الذى يناديه للذهاب الى السكرية . ومكث فى المدرسة جسدا بلا روح ، هامت روحه فى السكرية تتساءل عن القادم الجديد الذى ترقب مقدمه أشهرا وهـو يمنى النفس بالاطلاع على سره المكنون . شهد مرة ولادة قطة وهو دون السادسة اذ استرعت انتباهه بموائها الحادفهرع اليها تحت عرش اللبلاب فوقالسطح فوجدها تتلوى ألما وقد جحظت عيناها ، ثم رأى جسمها يتصـدع عن فلذة ملتهبة فتراجع متقززا وهـو يصرخ بأعلى صـوته . طافت هـذه الذكرى بمخيلته وألحت عليه حتى عاوده تقززه القديم وانتشرت حـوله مضجرة مقلقة كالضباب . غير أنه لم يستسلم للخوف ، أبى أن يتصور أن ثمة علاقة بين القطة وعائشة الا مايكون بين الحيوان والانسان وهو ــ فى ايمانه ــ ابعد مما بين الأرض والسماء ، ولكن ماذا يحدث فى السكرية اذن ؟ . . ماذا طرأ على عائشة من غرائب الامور ؟ . . ثمة أسئلة حيارى لاتنعم بجواب . . ماكاد يغادر المدرسة عصرا حتى اندفع يقطع الطريق عدوا الى السكرية .

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث ، ومضىالى باب الحريم فلاحت منه التفاتة الى المنظرة فما يدرى الا وعيناه تلتقيـان بعينى والده الذى جلس شابكا راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجليه. تسمر فىمكانه جامدا محملقا كأنما نوم تنويما مغناطيسيا ، لم يطرف ولم يبد حـراكا ، ركبه شعور بالذنب لايدريه فلبث يترقب انقضاض العقاب عليه وبرودة الخوف تسرى فى أطرافه حتى اشتبك السيد أحمد فى حديث معشخص يجلس الى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينيه وهو يزدرد ريقه ، عند ذاك لمح فى داخل المنظرة إبراهيم شوكت وياسين وفهمى قبل ان يفر الى الداخل ، رقى فى السلم وثبا حتى انتهى الى دور عائشة فدفع بابا مواربا ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفا فى الصالة ، ورأى باب حجرة النوم مغلقا وقد ترامى من ورائه الى سمعه اصوات تتحادث ميز منها أمه وحرم المرحوم شوكت وصوتا ثالثا لايعرفه ، سلم على زوج أخته ثم سأله وهو يتطلع اليه بطرف باسم :

ــ آبلا عائشة ولدت ؟

فرفع الرجل سبابته الى شفتيه محذرا وهو يقول :

ــ هس ...

أدرك كمال أنه لم يرحب بالسؤال ، بل انه لم يرحب بمقدمه كسالف عادته فخجل وعانى قلقا لم يدر له سببا ، وأراد أن يتقدم من الباب المغلق ولكن صوت خليل أوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر :

ــ لا ...

فتحول نحوه متسائلا ولكن الرجل قال له فى عجلة ولهوجة :

ــ انزل ياشاطر والعب تحت ...

انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثاقلا بائخا وقد عز عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزاء البخس ، ولما بلغ عتبة الصالة صك أذنيه صوت غريب آت من الحجرة المغلقة ، بدأ رفيعا حادا عاليا ، ثم غلظ وترهل حتى بح ، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية ، ثم غاب لحظة مقدارها تردد النفس المقطوع ، ثم بعث آهة عميقة شاكية ، بدا له غريبا أول الأمر كأنه لم يعرف صاحبه ؛ ولكن نبرة من نبراته المعذبة تميزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشت بهوية مصدره ، صوت عائشة بلا ريب ، أو هو عائشة مذابة منصهرة ، ثم تأكد من ظنه عند تردد الآهة العميقة الشاكية ، فارتعشت جوارحه ، وخيل اليه أنه يراها تتلوى على حال من الألم دعت الى مخيلته بصورة القطة القديمة ؛ وعطف رأسه صوب خليل فألفاه يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم « يالطيف يارب » فخيل اليه مرة أخرى أن جسم عائشة ينقبض وينبسط مثل راحة الرجل ، لم يعد يملك من نفسه شيئا فركض الى الخارج مفحما فى البكاء . وعندما انتهى الى باب الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به دون أن تنتبه اليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم نادت سيدها إبراهيم فجاء الرجل مسرعا فقالت له « الحمد لله ياسيدى » ، لم تزد على ذلك شيئا ولم تنتظر حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقبيها وهرعت الى السلم فرقيت فيه دون تردد ، رجع ابراهيم الى المنظرة متهلل الوجه فلبث كمال وحده لايدرى مايفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد ابراهيم يتبعه السيد أحمد فياسين ثم فهمى فتنحى الغلام جانبا حتى مروا ثم صعد فى أعقابهم خافق القلب ، وقابل خليل الآتين امام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له :

ــ الحمد لله على السلامة ..

فغمغم خليل فى وجوم :
ـ الحمد لله على كافة الأحوال ..
فسأله السيد أحمد باهتمام :
ـ مالك ... ؟
فقال بصوت منخفض :
ـ انى ذاهب لاستدعاء الطبيب ..
فتساءل السيد قلقا :
ـ المولود ... ؟
فأجابه وهو يهز رأسه سلبا :
ـ عائشة ! .. ليست على مايرام ، سأجى بالطبيب حالا ..
وذهب مخلفا وراءه وجوما وقلقا واضحين ، ثم دعاهم ابراهيم شوكت الى حجرة الاستقبال فمضوا اليها صامتين . وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل فسلمت وهى تبتسم لتدخل الطمأنينة الى قلوبهم ثم جلست وهى تقول :
ـ قاست المسكينة طويلا حتى انهكت قواها ، ولكنها حال عارضة وستزول وشيكا ، انى واثقة مما اقول ولكن ابنى بدا اليوم خوافا على غير عادته ، على أنه لاضرر البتة من مجىء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب ..
لم يعد السيد يطبق مايلتزم عادة من وقار وبرود أمام أبنائه فسألها فى قلق غير خاف :
ـ ماذا بها ؟ .. الا أستطيع أن اراها ؟
فابتسمت المرأة وقالت :
ـ ستراها عما قريب وهى بخير وعافية ، الحق على ابنى المجنون هو الذى ازعجكم بغير موجب ..
كان وراء الصدر العريض القوى والوقار الحازم المهيب قلب يتعذب أشد العذاب ، كان وراء العينين الواجمتين الرزينتين دمع متجمد .. ماذا دهم الصغيرة ؟ .. الطبيب ؟ ! ، لماذا تحول العجوز بينى وبينها ؟ ! ، ابتسامة رقيقة أو كلمة حنونة منى انا ، منى انا خاصة ، حقيقة بان تخفف من آلامها ، زواج وزوج وألم ، لم تذق فى بيتى مرارة الألم قط ؛ العزيزة الجميلة الصغيرة رحمتك اللهم ، فسد طعم الحياة ، انه ليفسد لأهون أذى يتهددهم ؛ فهمى .. أراه واجما متألما .. هل ادرك معنى الألم ؟ .. من أين له أن يعرف قلب الأب ! ، العجوز مطمئنة وواثقة مما

تقول ، ابنها أزعجنا بغير موجب ،اللهم استجب ؛ انت أعلم بحالي بأن تنجيها كما نجيتني من الانجليز ، قلبي لايطيق هذا العذاب ، عند الله الرحمة ؛ وهو قادر على حفظ ابنائي من كل سوء ، لا طعم للحياة بغير ذلك ، لا طعم للسرور والطرب واللهو اذا انغرست في جنبي شوكة حادة ، قلبي يدعو لهم بالسلامة ، لانه قلب اب ؛ ولأنه لاتطيب المسرات الا لخلي ، هل الفي سمار الليل بقلب سعيد ؟ .. أحب اذا ضحكت ان تنطلق الضحكة من أعماق قلبي صافية ، القلب القلق كالوتر المختل ، حسبي فهمي ؛ انه يلح على كوجع الأسنان ، ما أبغض الألم ، دنيا بلا الم ؛ لا شيء على الله بكثير ، دنيا بلا الم ولو تكون قصيرة ، دنيا تقر فيها عيني بهم جميعا . هنالك أضحك وأغني والهو ؛ ياارحم الراحمين ، عائشة ياأرحم الراحمين!

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبا بالطبيب فدخلا الحجرة من فورهما ثم أغلق الباب وراءهما . وعلم السيد بمقدمهما فقام واتجه الى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليلا وهو يمد البصر الى الباب المغلق ثم عاد الى مجلسه فجلس . قالت حرم المرحوم شوكت :

— لتعلمن صدق رايي حالما يتكلم الطبيب ..

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه الى أعلى :

— عنده العفو ...

عما قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشك مهما تكن العواقب . ان قلبه يخفق خفقانا سريعا متواصلا ، فليصبر ، لم يبق الا قليل . ان ايمانه بالله قوي عميق لا يتزعزع فليسلم اليه أمره ، سيخرج الطبيب طال مكوثه في الداخل أم قصر وعند ذاك يسأله عما وراءه ، الطبيب ؟... لم يفكر في ذلك من قبل ، طبيب عند نفساء !.. مع الرحم وجها لوجه ، اليس كذلك ؟ ولكنه طبيب !...ما الحيلة ؟! اللهم ان ربنا يأخذ بيدها فلنسأله السلامة ، وجد السيد الى قلقه حياء وامتعاضا . واستمر الفحص زهاء ثلث ساعة ثم فتح الباب فنهض السيد ومضى من توه الى الصالة ، وتبعه الأبناء حتى تجمعوا حول الطبيب . كان الطبيب من معارف السيد فصافحه باسما ثم قال :

— بخير وعافية ..

ثم في شيء من الجد :

— جاءوا بي للوالدة ولكني وجدت ان التي في حاجة الى العناية حقا هي المولودة ...

تنفس السيد بارتياح لأول مرة منذ حوالى الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة :

ـ أأطمئن اذن على عهدتك ؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش :

ـ نعم ، ولكن الا تهمك حفيدتك ؟ !

فقال السيد باسما :

ـ لا عهد لى بعد بواجبات الجد ...

وتساءل خليل :

ـ أليس ثمة أمل فى حياتها ؟

فقال الرجل وهو يزوى مابين حاجبيه :

ـ الأعمار بيد الله ، ولكنى وجدت قلبها ضعيفا ، من المحتمل أن تموت الليلة ؛ واذا مرت الليلة بسلام جازت الخطر الماثل ولكنى لاأظن أنها تعمر طويلا ، فى تقديرى أنه لايمكن أن يمتد بها العمر الى مابعد العشرين ،ولكن من يعلم ؟ .. الأعمار بيد الله وحده ..

ولما ذهب الطبيب الى طيته التفت خليل نحو أمه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن أسف وقال :

ـ كان فى نيتى أن أسميها نعيمة باسمك ..

فقالت المرأة وهى تلوح بيدها مؤنبة :

ـ الطبيب نفسه قال : ان الأعمار بيد الله أفتكون انت اضعف ايمانا منه ! سمها نعيمة ، يجب ان تسميها نعيمة اكراما لى ، وسيكون عمرها باذن الله مديدا كعمر جدتها !

كان السيد يحادث نفسه : دعا الأحمق الطبيب ليطلع على زوجه بغير موجب ، بغير موجب ! .. ياله من أحمق . ولم يستطع ان يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة :

ـ حقا ان الخوف يفقد الرجال حسن الروية ، أما كان يجمل بك ان تفكر قليلا قبل أن تبادر الى احضار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه؟!

لم يجب خليل ، ولكنه نظر فيمن حوله وقال بجد :

ـ لايجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب ..

- ٦٩ -

ـ ماذا فى الطريق ... ؟!

تساءل السيد أحمد وهو ينهض فى عجلة من وراء مكتبه ، فذهب صوب باب الدكان يتبعه جميل الحمزاوى وبعض الزبائن . لم يكن طريق النحاسين طريقا هادئا ، كان أبعد مايكون عن الهدوء ، صوته الجهير لا يخفت من الفجر الى ماقبيل الفجر ، حناجره عالية هتافة بنداءات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة ، يتحادثون وكأنهم يخطبون ، حتى أخص الشئون تترامى الى جوانبه وتطير حتى مآذنه ، الى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حينا وطقطقة الكارو حينا آخر ، لم يكن طريقا هادئا بحال ولكن تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد بادىء الأمر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لفت الحى كله قريبه وبعيده ، بدت غريبة شاذة حتى فى هذا الطريق الصاخب ، ظنها السيد أحمد مظاهرة ثائرة كما ينبغى لرجل عاش فى تلك الأيام ولكن جلجلت فى طياتها زغاريد مبشرة بالأفراح ، فمضى الرجل متسائلا الى الباب ، ولم يكد يبلغه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذى أقبل مندفعا وهو يهتف بوجه طفر منه البشر :

ـ أبلغك الخبر ؟

فقال السيد وعيناه تلمعان تفاؤلا من قبل أن يسمع شيئا :

ـ كلا ، ماذا وراءك ؟

قال الرجل بحماس :

ـ سعد باشا أفرج عنه ..

فما تمالك السيد أن تساءل صائحا :

ـ حقا ؟؟ ..

فقال شيخ الحارة بيقين :

ـ اذاع اللنبى الساعة بيانا بهذه البشرى ...

فى اللحظة التالية كانا يتعانقان ، واشتد التأثر بالسيد أحمد فاغرورقت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره :

ـ كان العهد به دائما ان يذيع الانذارات لا البشريات فماذا غيره ابن الهرمة ؟ ! ..

فقال شيخ الحارة :

ــ سبحان الذى لايتغير ..

وصافح السيد ثم غادر الدكان وهو يصـــيح « الله أكبر ، الله أكبر ، النصر للمؤمنين ! »

وقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيه فى أنحاء الطريق بقلب ارتد الى براءة الطفولة وبهجتها ، طالع أثر الخبر السعيد فى كل مكان ... فى الدكاكين التى سدت مداخلها بأصحابها وزبائنها وهم يتبادلون التهانى ، فى النـــوافذ التى تزاحمت فيهـــا الأحـــداث وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها ، فى المظاهرات التى تألفت ارتجالا مابين النحاســين والصاغة وبيت القاضى هاتفة قلوبها لسعد ، وسعدوسعد ثم سعد ، فى المآذن التى اعتلى المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون ، فى العـــربات الكارو التى تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالمـلاءات اللف وهـــن يرقصن ويرددن الأغانى الوطنيـــة ، لم يعـــد يرى الا آدميين أو بالأحرى هاتفين ، اختفت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الهتاف لسعد فى كل مكان كأنما الجو قد انقلب اســـطوانة هائلة تدور بلا توقف مرددة اسمه . وجرى نبأ فوقالرءوس الحاشدة أنالانجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهبا للرحيل الى العباسية .فاستمر الحماس وحمست النشوات . لم يرالسيد أحمد منظرا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألقتين وفؤاده يخفق وثبا وباطنه يردد مع النســـوة الراقصات « ياحسين .. حملة وانشالت ! » حتى أدنى جميل الحمزاوى رأسه من أذنه قائلا :

ــ الدكاكين توزع الشربات وترفع الأعلام ..

فقال له بحماس :

ــ اصنع كما يصنعون واكثر ، أرنى همتك .. !

ثم بصوت متهدج :

ــ علق صورة سعد تحت البسملة ..

فنظر اليه جميل الحمزاوى كالمتردد ثم قال محذرا :

ــ هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج الا يحسن بنا أن نتريث حتى تستتب الأمور ؟

فقال السيد باستهانة :

ــ مضى عهد الخوف والدماء الى غير رجعة ، الا ترى أن المظاهرات تمر

تحت أعين الانجليز دون أن يتعرضوا لها بسوء ؟ .. علق الصورة وتوكل على الله ..

غار عهد الخوف والدماء ، أليس كذلك ؟ . سعد حر طليق ولعله فى طريقه الآن الى أوروبا ، لم يعد بيننا وبين الاستقلال الا خطوة أو كلمة ، مظاهرات الزغاريد بدلا من مظاهرات الرصاص ، الأحياء منا قوم سعداء ، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين ، رحمة الله على الشهداء ؛ فهمى ؟ ! . نجا من خطر لم يقدره ، نجا والحمد والشكر لله ، أجل نجا فهمى ، ماذا تنتظر ؟ . صل الى الله ربك . لما اجتمعت الأسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة بيوم ملىء بالهتاف . كان مساء سعيدا ، نمت عن سعادته الأعين والثغور والحركة والكلام حتى أمينة نهل قلبها من نخب السعادة المبذول مشاركة للأبناء واستبشارا بعودة السلام وفرحا بالافراج عن سعد .

— من المشربية رأيت مالم ترعين من قبل ، هل قامت القيامة ونصب الميزان ؟ ! . وأولئك النساء هل جنن ! ؟ . لايزال صدى ترديدهن يرن فى أذنى « ياحسين .. حملة وانشالت » .

قال ياسين ضاحكا وهو يعبث بشعر كمال :

— تحية شيعوا بها الانجليز الراحلين كما يشيع الضيف الثقيل بكسر القلة وراءه .. !

نظر اليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت أمينة تتساءل :

— أرضى الله عنا أخيرا .. ؟

فأجابها ياسين قائلا :

— بلا ريب (ثم مخاطبا فهمى) ماذا تظن ؟

قال فهمي الذى بدا فى فرح الأطفال :

— لو لم يسلم الانجليز بمطالبنا لما افرجوا عن سعد ، سوف يسافر الى أوروبا ثم يعود بالاستقلال ، هذا مايؤكده الجميع ، ومهما يكن من أمر فسيبقى يوم ٧ ابريل سنة ١٩١٩ رمزا لانتصار الثورة .

فعاد ياسين يقول :

— ياله من يوم ! . اشترك الموظفون فى المظاهرات علانية ، ماكنت اظن أن بى هذه القدرة العظيمة على السير المتواصل والهتاف العالى .

فضحك فهمى قائلا :

— وددت لو رأيتك وأنت تهتف متحمسا ، ياسين يتظاهر ويتحمس ويهتف ! .. يا له من منظر فريد !

يوم عجيب فى الأيام حقا . اكتسحه سيله الزاخر فحمله بين امواجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتى طار به كل مطار ، لايكاد يصدق أنه ثاب الى رشده وانه آوى الى برج المراقبة الهادىء يشاهد من منظاره الحوادث فى هدوء وعدم اكتراث ! . جعل يستحضر الحال التى تلبسته فى المظاهرة على ضوء ملاحظة فهمى حتى قال بغرابة :

ــ الواحد منا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانا غريبا فكانه يبعث شخصا جديدا ..

سأله فهمى باهتمام :

ــ أكنت تشعر بحماس صادق ؟

ــ هتفت لسعد حتى بح صوتى واغرورقت عيناى مرة أو مرتين ..

ــ كيف اشتركت فى المظاهرة ؟

ــ بلغنا نبأ الافراج عن سعد ونحن فى المدرسة ففرحت فرحا عظيما حقا ، أكنت تتوقع غير هذا ؟ . واذا بالمدرسين يقترحون الانضمام الى المظاهرة الكبيرة فى الخارج فلم أجد من نفسى ميلا الى مجاراتهم وفكرت فى التسلل الى البيت ، غير أنى اضطررت الى السير معهم حتى تسنح لى فرصة للزيغان ، ماذا حصل بعد ذلك ؟ . وجدت نفسى فى بحر متلاطم من الناس وجو مكهرب من الحماس فما ملكت أن ذهلت عن نفسى واندمجت فى التيار كأشد مايكون المرء ــ صدقنى فى هذا ــ حماسا وبهجة واملا .. !

فهز فهمى رأسه وهو يغمغم :

ــ شىء عجيب ...

ضحك ياسين عاليا ثم قال :

ــ أحسبتنى فاقد الوطنية ؟ ! المسألة انى لاأحب الزياط والعنف ، ولا أجد حرجا فى التوفيق بين حب الوطن وحب السلامة ..

ــ واذا شق التوفيق بينهما .. ؟

فقال مبتسما ولكن دون تردد :

ــ قدمت حب السلامة ! . نفسى أولا ، الا يستطيع الوطن أن يسعد الا بالتهام حياتى ؟ ! . يفتح الله ، أنا لا أفرط فى حياتى ولكنى سأحب الوطن مادمت « حيا » ..

قالت أمينة :

ــ هذا عين العقل (ثم متطلعة الى فهمى) هل عند سيدى رأى آخر .. ؟

قال فهمى بهدوء :

ـ كلا طبعا ، انه عين العقل كما قلت ..

ولم يرض كمال أن يبقى بمعزل عن الحديث لاسيما انه كان مقتنعا بأنه لعب فى يومه دورا خطيرا حقا فقال :

ـ واضربنا نحن كذلك ولكن الناظر قال لنا : اننا مازلنا صغارا .. واننا اذا خرجنا من المدرسة داستنا الأقدام . ثم سمح لنا بالتظاهر فى فناء المدرسة فتجمعنا فيه وهتفنا (هنا هتف عاليا : يحيا سعد) طويلا جدا، ثم لم نعد الى الفصول لأن المدرسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمين الى المتظاهرين فى الخارج ... !

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال : .

ـ ولكن أصدقاءك ذهبوا .. !

ـ فى داهية ..

ندت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهى أبعد ماتكون عن حقيقة شعوره، لأن الحال تقتضيها من ناحية ، ولأنه اراد ان يدارى، بها هزيمته أمام سخرية ياسين من ناحية أخرى ، أما قلبه فكان يكابد دهشة وغمزا ، لم ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة فى المكان المهجور الذى كان يحتله المعسكر يقلب عينيه فى ارجائه فى صمت أليم وعيناه مغرورقتان. سوف يمضى وقت طويل قبل ان ينسى مجلس الشاى على طوار سبيل بين القصرين ، والاعجاب الذى كان يحظى به غناؤه ، والمودة التى كان يلقاها من الجنود خاصة جوليون ، والصداقة التى ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلون فى اعتقاده على سائر البشر ! . قالت أمينة :

ـ سعد باشا رجل سعيد الحظ ، الدنيا كلها تهتف باسمه ، ولا افندينا فى زمانه ، رجل مؤمن بلا ريب لأن الله لاينصر الا المؤمنين ، نصره على الانجليز الذين غلبوا زبلن نفسه ، اى فوز وراء هذا ؟!.. لقد ولد الرجل فى ليلة القدر .

سألها فهمى باسما :

ـ أتحبينه .. ؟

ـ أحبه ما دمت تحبه ..

بسط فهمى راحتيه ورفع حاجبيه مستنكرا ثم قال :

ـ لا يعنى هذا شيئا .. !

فتنهدت فيما يشبه الارتباك ثم قالت :

ـ كنت كلما بلغنى نبأ أسيف تقطع قلبى حزنا وقلت لنفسى « ترى

اكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومته ؟!.. على أن رجلا يجمع الكل على حبه لابد أن الله يحبه كذلك ..

ثم متنهدة بصوت مسموع :

ـ أسفى على الهالكين ، كم أما تبكى الآن بحرارة ؟.. كم أما لم تزدها فرحة اليوم الا حسرة على حسرة ..

قال لها فهمى وهو يغمز ياسين بطرفه :

ـ الأم الوطنية حقا تزغرد لاستشهاد ابنها ..

فوضعت اصبعيها فى أذنيها وهتفت :

ـ اللهم انى اشهدك على ما يقول سيدى الصغير !.. أم تزغرد لاستشهاد ابنها !. أين ؟! على هذه الأرض ؟.. ولا تحت الأرض فى عالم الشياطين !..

قهقه فهمى عاليا ، ومضى يفكر مليا ، ثم قال وعيناه تلمعان باسمتين :

ـ نينه ..! سأبوح لك بسر خطير آن له أن يذيع ، لقد اشتركت فى المظاهرات وقابلت الموت وجها لوجه ..!

سهمت اليه غير مصدقة ثم قالت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة :

ـ أنت ؟!.. محال .. انك من لحمى ودمى وقلبك من قلبى ، لست كالآخرين ..

فقال بيقين وهو يبتسم اليها :

ـ أقسم لك على ذلك بالله العظيم ..

اختفت الابتسامة واتسعت العينان فى ذهول ، ثم رددت بصرها بينه وبين ياسين الذى حدجه بدوره بنظرة متسائلة ، ثم غمغمت وهى تزدرد ريقها :

ـ رباه !.. كيف أصدق أذنى !

ثم بعد أن هزت رأسها فى حيرة اليمة :

ـ أنت !..

كان يتوقع انزعاجها ولكن ليس ـ بالنظر لمجىء اعترافه بعد زوال الخطر ـ الى الحد الذى بدا عليها ، فبادرها قائلا :

ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، لاداعى الآن للانزعاج ..

فقالت باصرار ونرفزة :

ـ صه ، أنت لاتحب أمك ، سامحك الله ..

فضحك فهمى فى شىء من الارتباك . قال كمال لأمه وهو يبتسم بمكر :

ـ أتذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار ؟.. رأيته وانا عائد فى

الطريق المقفر فنبه على بالا اخبر احدا بانى رايته ..

ثم نظر الى فهمى وسأله باهتمام وتشوق :

ــ قص علينا يا سى فهمى ما لقيت فى المظاهرات ، كيف كانت تقع المعارك ؟ وكيف يصرع القتلى ؟ ألم تطلق النار قط .. ؟

فتدخل ياسين فى الحديث قائلا للأم :

ــ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، أشكرى الله على نجاته ، هذا أولى بك من الانزعاج :

سألته بجفاء :

ــ اكنت تعلم بذلك .. ؟

فبادرها قائلا :

ــ لا وحياة تربة أمى (ثم مستدركا) ودينى وايمانى وربى ..

ثم نهض من مجلسه ، منتقلا الى جوارها فوضع يده على منكبها وقال برقة :

ــ اتطمئنين حين كان ينبغى الانزعاج وتنزعجين حين ينبغى الاطمئنان ! وحدى الله ، زال الخطر وعاد السلام ، ها هو فهمى بين يديك .. (وضاحكا) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولا وعرضا ، ليلا ونهارا ، بلا خوف أو قلق ..

وقال فهمى جادا :

ــ نينه ، رجائى اليك الا تكدرى صفونا بحزن لاموجب له ..

تنهدت .. فتحت فاها لتتكلم ولكنها حركت شفتيها دون أن تنبس . ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه ، ثم نكست وجهها لتخفى عينيها المغرورقتين ..

- ٧٠ -

بات فهمى تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء أبيه مهما كلفه الأمر ، وفى صباح اليوم التالى صمم على تنفيذ عزمه دون تردد . ومع انه لم يضمر لأبيه ــ طول فترة العصيان ــ اى احساس بالغضب أو التحدى فان ضميره كابد شعورا بالذنب ناء به قلبه الحساس المشرب بالطاعة والولاء حقا لم يتحده بلسانه ولكنه خالف ارادته بالفعل ، بل خالفها مرارا وتكرارا ، فضلا عن امتناعه عن القسم يوم دعاه اليه فى

حجرته واعلانه بالبكاء تمسكه برأيه رغم ارادة الرجل ، كل اولئك احله — على حسن نيته — موقفا عاقا شريرا لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله . ولم يكن سعى الى استرضائه من قبل خشية ان ينكأ الجرح دون ان يسعه أن يلأمه ، لأنه قدر أن يدعوه السيد الى القسم تكفيرا عما بدر منه فيضطر مرة أخرى الى الامتناع مؤكدا عصيانه من حيث اراد أن يعتذر عنه . الحال اليوم غيرها بالأمس ، انتشى قلبه بالسرور والظفر ، الوطن كله ثمل بخمر السعادة والفوز ؛ فلا يطيق ان يقوم بينه وبين ابيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة ، الاسترضاء ، فالعفو الذى يهفو اليه ، ثم السعادة الحقة التى لا تشوبها شائبة . . دخل حجرة ابيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوى سجادة الصلاة مغمغما بالدعاء ، لمحه الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى الى الكنبة دون أن يلتفت صوبه وجلس . عند ذلك تراءى فهمى بموقفه عند الباب ملفوفا بالارتباك والحياء فحدجه بنظرة جافة مستنكرة كأنما تتساءل « من هذا الواقف وماذا جاء به ؟! » فتغلب فهمى على ارتباكه وتقدم من مجلس ابيه فى خطى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها ولثمها باحترام لا حد له ، وصمت مليا ثم قال بصوت لا يكاد يسمع :

— صباح الخير يابابا .

واصل التحديق فيه صامتا كأنه لم يسمع تحيته حتى غض الشاب بصره ارتباكا وغمغم فى نبرات نمت عن اليأس :

— انى آسف . .

صمت واصرار على الصمت . .

— آسف جدا ، لم أذق طعم السكينة منذ . . .

وجد أن الكلام كان يستدرجه الى ذكر ما ود من كل قلبه أن يتحاشاه فأمسك ، وما يدرى الا والسيد يسأله بجفاء وتبرم :

— ماذا تريد . . ؟

رحب باقلاعه عن الصمت ايما ترحيب فتنهد بارتياح كأنه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء : اريد أن تكون راضيا عنى . .

قال السيد بضجر :

— غر من وجهى .

فقال فهمى وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخى قليلا عن عنقه :

— عندما أنال رضاك . .

تساءل السيد متحولا فجأة الى التهكم :

ــ رضاى ! .. لم لا ؟ .. هــل فعلت لا سمح الله ما يستــوجب السخط ؟ !

رحب بالتهكم اضعاف ترحيبه بالاقلاع عن الصمت ، التهكم عنــد ابيه اول خطوة نحو الصفح . غضبه الحقيقى صفع او لكم او ركل او سب أو كل اولئك جميعا ، التهكم أو بشير بالتحول ، انتهز الفرصة وتكلم ؛ تكلم كما ينبغى لرجل قد يعمل فى المحاماة غدا أو بعد غد ، هذه فرصتك ! وتكلم ، الاستجابة لنداء الوطن لاتعد عصيانا لارادة حضرتك ، لم أفعــل شيئا يحسب بين الأعمال الوطنية حقا ، توزيع منشورات على الاصــدقاء .. وما توزيع المنشورات على الأصــدقاء ؟ اين أنا ممن بذلوا الحيــاة رخيصة ؟ فهمت من كلام حضرتك انك تخاف على حياتى لا لأنك تستنكر حقا الواجبات الوطنية ، فقمت بشىء من الواجب وانا مطمئن الى انى ــ فى الواقع ــ لا اخالف لك ارادة ، الخ الخ ..

ــ علم الله أنه لم يخطر ببالى قط أن اعصى لك أمرا .

قال السيد بحدة :

ــ كلام فارغ ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنه لم يعد ثمة داع الى العصيان ، لم لم تطلب رضاى قبل اليوم .. ؟

قال فهمى بحزن :

ــ كانت الدنيا فى دم وكرب وكنت من الحزن فى شغل شاغل ..

ــ شغلك عن طلب رضاى ؟ !

قال بحرارة :

ــ شغلنى عن نفسى لا عن طلب رضاك ..

ثم بصوت منخفض :

ــ لن استطيع أن أعيش بغير رضاك ..

قطب السيد ، لاغضبا كما تظــاهر ، ولكن ليخفى الأثر اللطيف الذى بعثه كلام الشاب فى نفسه . هكذا يكون الكلام والا فلا ، يجيــد صناعــة الكلام حقا ، هذه هى البلاغة أليس كذلك ؟ سأعيــد اقواله على مسامــع الأصدقاء الليلة لأمتحن أثره فى نفوسهم ، ترى ماعسى أن يقولوا ؟ ، الولد سر أبيه .. هذا ما ينبغى أن يقال ، قديما قيل لى اننى لو اتممت مراحــل التعليم لكنت أبلغ المحــامين ، انى أبلغ النــاس بغير التعليم والمحــاماة ، الحديث اليومى كالقانون سواء بسواء فى الكشف عن موهبة البلاغة ، كم من محام أو موظف كبير ينكمش فى المجلس أمامى كالعصفور ! ولا فهمى نفسه بمستطيع أن يسد مكانى يوما ما ، سيقولون لى وهم يضحــكون

حقا الولد سر ابيه ، امتناعه عن القسم لا يزال يحز فى نفسى ، لكن اليس من دواعى الفخر لى انه اشترك فى الثورة ولو من بعيد ؟ ليته اشترك فى الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم ، سأقول من الآن فصاعدا أنه خاض غمار الثورة ، اتظنون انه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان يؤكد لى ؟ .. لقد رمى ابن الكلب بنفسه فى التيار الدامى ، ياسيد احمد ينبغى أن نشهد لابنك بالوطنية والشجاعة .. لم نشأ أن نقول لك هذا فى ابان الخطر اما وقد استقر السلام فلا حرج من قوله .. اتنكر انت شعورك الوطنى ؟ .. الم يثن عليك جامعو التبرعات من مندوبى الوفد .. والله لو كنت شابا لفعلت مالم يفعل ابنك ولكنه عصانى ! عصى لسانك واطاع قلبك ! الآن ماعسى ان افعل ؟ يريد قلبى ان يهبه العفو ولكنى اخاف ان يستهين بمخالفتى !

ـ وانا لن استطيع ان انسى أنك خالفت ارادتى ، احسبت ان الخطبة الفارغة التى صبحتنى بها على غيار الريق يمكن ان تؤثر فى ؟!

هم فهمى بالكلام ولكن امه دخلت فى تلك اللحظة وهى تقول :

ـ الفطور جاهز ياسيدى ..

وقد دهشت لوجود فهمى على غير انتظار فرددت عينيها بينهما ، وتلكات قليلا لعلها تسمع شيئا مما يدور ولكنها رات فى الصمت ـ الذى خافت ان يكون مجيئها باعثه ـ مادعاها الى مغادرة الحجرة على عجل . نهض السيد للانتقال الى حجرة المائدة فتنحى فهمى جانبا وقد علاه حزن شديد لم يخف اثره عن عينى الرجل فتردد لحظات ثم قال اخيرا بصوت سلمى :

ـ اريد مستقبلا الا تصر على حماقتك وانت تخاطبنى ..

وسار فتبعه الشاب ممتنا باسم الأسارير ، ثم سمعه يقول متهكما وهما يقطعان الصالة :

ـ اظنك حاسب نفسك على راس الذين افرجوا عن سعد !

غادر فهمى البيت قرير العين فمضى من توه الى الأزهر حيث اجتمع بزملائه اعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر فى تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التى سمحت السلطة بقيامها للاعراب عن ابتهاج الشعب والتى تقرر ان يشترك فيها ممثلو الأمة بكافة طبقاتها ، دام الاجتماع وقتا غير قصير ، ثم تفرق المجتمعون كل الى وجهته فركب الشاب الى ميدان المحطة بعد ان عرف الدور الذى عهد به اليه وهو الاشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية ، لئن كان بعد ما يعهد عادة اليه ـ بالقياس الى غيره ـ من الأدوار

الثانوية الا أنه كان يقوم به بدقة وعناية وغبطة كأنما هو اسعد ما يحظى به فى حياته غير أنه لم يكن يخلو فى جهاده من تعاسة خفية لم يعلم بها احد سواه ، منشؤها ما اقتنع به من انه دون الكثيرين من اقرانه جراءة واقداما. أجل لم ينكص عن مظاهرة من المظاهرات التى دعت اليها اللجنة ولكنه كان يفقد جنانه عند ظهور اللوريات المحملة بالجنود وخاصة عند انطلاق الرصاص وتساقط الضحايا .. فمرة لاذ بمقهى وهو يرتعد ، ومرة أخرى جرى على وجهه شوطا بعيدا حتى وجد نفسه فى قرافة المجاورين ، أين هو من حامل اللواء فى مظاهرة بولاق ، أو مذبحة بولاق كما غدت تسمى ، الذى استشهد ويداه قابضتان على اللواء وقدماه ثابتتان فى الطليعة وحنجرته تهتف بالثبات ؟ ! ، اين هو من أقران ذلك الشهيد الذين تبادروا الى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدورهم نياشين الرصاص ؟ ! اين هو من ذلك الشهيد الذى انتزع المدفع الرشاش من ايدى الجنود فى الأزهر ؟ ! أين هو من هؤلاء جميعا وغيرهم ممن تطير الأنباء بآى بطولتهم واستشهادهم ؟ ! . كانت اعمال البطولة تتراءى لعينيه رائعة باهرة تخطف الأبصار ، وطالما أنصت الى نداء باطنى يهيب به الى الاقدام والتأسى بالأبطال ، ولكن كانت تخذله أعصابه فى اللحظة الحاسمة فما أن تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه فى المؤخرة ان لم يكن مختبئا أو هاربا ؛ ثم يعود الى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتماسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة فى الكمال لاتحد ، متعزيا أحيانا بقوله « ما أنا الا محارب أعزل ، ولئن فاتنى الرائع من اعمال البطولة فحسبى اننى لم اتردد مرة واحدة عن الالقاء بنفسى فى أتون المعركة » . فى طريقه الى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات ، كان الجميع يتوجهون — فيما بدا — وجهته ، طلبة وعمالا وموظفين واهلين راكبين وراجلين ؛ تظلهم جميعا طمأنينة خليقة بقوم ذاهبين الى مظاهرة سلمية مصرح بها ، انه مثلهم ، يشعر بشعورهم ، لا كعهده القديم حين كان يلتمس طريقه الى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب قلق تثقل ضرباته كلما تخايل لعينيه شبح الهلاك . ذاك عهد مضى ، اليوم يمضى مطمئن الجانب باسم الثغر .. انتهى الجهاد ؟ خرج منه سليما لا عليه ولا له .. ولا له ؟ ! ليته عانى شيئا مما تعرض له الآلاف كالسجن أو الضرب أو اصابة غير مميتة ! أليس من المحزن ان تكون السلامة المطلقة جزاء من اوتى قلبا كقلبه وحماسا كحماسه ! كطالب مجتهد لم يتح له أن يظفر بأية شهادة ... أتنكر سرورك بالنجاة ؟ ... اكنت تفضل أن تكون من الشهداء ؟ كلا ،

اكنت تتمنى لو كنت من المصابين غير الهالكين ؟ نعم ، كان ذلك فى وسعك فلم نكصت ؟ لم تكن تضمن ان تقع الاصابة غير مميتة او ان يكون السجن عابرا ، انت لا تكره النجاة الراهنة ولكنك تتمنى او كان اصابك شيء دون ان يغير من هذه النهاية الجميلة ، ينبغى اذا جاهدت مرة أخرى أن أطلع على الغيب ! امضى الى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق — بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر ، قبل الميعاد المحدد لقيام المظاهرة بساعتين فاتخذ مكانه فى الموضع الذى حدد له ! . . باب المحطة . لم يكن بالميدان الا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف ، وكان الجو معتدلا الا ان شمس ابريل صبت على من تعرض لأشعتها لظى ، ولم يطل الانتظار فاخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية اليه ، ومضت كل جماعة صوب علمها ، بذلك شرع فهمى فى عمله بلذة وفخار ، بالرغم من بساطة العمل الذى لم يعد ان يكون ترتيبا للمدارس كل وراء علمها الا انه ملأ نفسه زهوا وخيلاء سيما وانه كان يشرف على طلبة كثيرين ممن يكبرونه سنا حتى بدت التسعة عشر عاما التى يجرها وراءه ذيلا قصيرا فى زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتلت شواربهم ولاحظ اعينا ترمقه باهتمام وشفاها تتهامس عليه كما سمع اسمه — مقرونا بصفته الشعبية — يجرى على بعض الألسن « فهمى أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا » فحرك أوتار قلبه حتى اطبق شفتيه أن تند عنهما بسمة حياء او ارتباك من « مهابته » أجل ينبغى ان يحافظ منظر مندوب اللجنة العليا على الجد والصرامة الخليقتين بالرعيل الأول من شباب المجاهدين كى ينفسح المجال لأخيلة المتطلعين احدس ما يخفى وراءه من اعمال البطولة والكفاح ، فلتتحقق تلك الأعمال الخارقة — التى عجز عن تحقيقها فى الواقع — فى اخيلتهم ، لن تفتر له رغبة فى المزيد منها وان وخز قلبه احساسه الحاد بالحقيقة العارية . موزع منشورات وجندى من جنود المؤخرة ! هذا هو بلا زيادة . اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة ؛ ترى هل يقدر الآخرون عمله اكثر مما يقدره هو ؟ ! لشد مايحبونه بالاحترام والمحبة ، لم يعقد اجتماع الا وكان له فيه راى مسموع ، والخطابة ؟ . . ليس من الضرورى ان تكون خطيبا . . اليس كذلك ؟ ليس محالاً أن تكون عظيما وانت غير خطيب ولكن اى خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدى الزعيم فيستبق الخطباء وتلوذ انت بالصمت . كلا لن الوذ بالصمت . سوف اتكلم ، سأطلق القلبى العنان اجاد ام لم يجد ، متى تقف بين يدى

سعد ؟ متى تراه لأول مرة فتملأ منه عينيك ؟ ان قلبى يخفق وعيناى تحنان للدموع ، سيكون يوما عظيما ستخرج مصر كلها لاستقباله ، لن يكون يومنا هذا الى ذلك اليوم الا كالقطرة الى البحر ، رباه !.. امتلأ الميدان بل امتلأت الشوارع المفضية اليه ، عباس نوبار الفجالة ، لم تسبق كهذه مظاهرة ، مائة ألف ؟ طرابيش عمائم ، طرابيش عمائم ، طلبة .. عمال . .موظفون .. الشيوخ والقساوسة ، القضاة .. من كان يتصور هذا ، لا يبالون الشمس .. هذه مصر ، لم لم أدع بابا ؟ صدق ياسين .. الواحد منا ينسى بين الناس نفسه ، يعلو على نفسه ، أين همومى الشخصية ؟.. لا شيء ، لشد ما يخفق قلبى ، سأتحدث عن هذا طويلا الليلة وما بعدها . ترى هل ترتعد نينه مرة أخرى ؟ منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئن ، أريد أن ألمس أثره فى وجوه الشياطين ! هاهى ثكناتهم تشرف على الميدان ، الراية اللعينة ترفرف ، هناك رءوس فى النوافذ ... فيم تتهامس ؟! الديدبان تمثال لا يرى شيئا ، لم تقض رشاشاتكم على الثورة ، افقهوا هذا ، سترون عما قريب سعد فى هذا الميدان عائدا مظفرا تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح ، سوف ترون ، سوف ترون قبل الجلاء . تحرك الموكب العظيم فتدفقت موجاته تباعا مرددة الهتافات الوطنية ، بدت مصر مظاهرة واحدة ، بل رجلا واحدا ، بل هتافا واحدا تتابعت طوابير الطوائف طويلا ، طويلا جدا ، حتى خيل اليه أن الطلائع ستشارف عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته عن موضعهم أمام باب المخطة ، أول مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها ، لا رصاص من ناحية ولا زلط من الناحية الأخرى ، وافتر ثغره عن ابتسامة . رأى الجماعة التى تعسكر أمامه مباشرة تتحرك فدار على عقبيه كى يواجه مظاهرته « الخاصة » ورفع يديه فسرت فى الصفوف حركة تأهب وتوثب ، ثم هتف بأعلى صوته وهو يسير متقهقرا . وواصل مهمة القيادة والهتاف حتى مدخل شارع نوبار ثم تخلى عن الثانية لغيره ممن أحاطوا به مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافاتها ، دار على عقبيه مرة أخرى سائرا بوجهه ، يشرئب بعنقه تارة ليشاهد ما تقدم من جسم المظاهرة التى لم يعد يرى لها أولا ويتلفت يمنة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتظت بهم الأرصفة والنوافذ والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يرددون الهتافات امتلأت بمنظر الألوف الحاشدة قوة الى قوة وطمأنينة على طمأنينة ، كأنها دروع منصوبة حواليه ، قوة متماسكة لا ينفذ منها

الرصاص ، ان قوات البوليس تتعهد النظام بعد ان اعياها الطعان والهجوم. ار منظر هؤلاء الرجال الذاهبين الجائين على صهوات جيادهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها ، لأبلغ دليل على انتصار الثورة ، الحكمدار ؟!.. أليس هـذا هو رسـل بك . بلى هو انه يعرفه حق المعرفة ، وهذا وكيل الحكمدار يخب وراءه ملقيا على الأفق نظرة جامدة منرفعة كأنما تحتج احتجاجا صامتا على السلام الذى احتضن المظاهرة ، ما اسمه ؟ هـل يمكن أن ينسى الاسم الذى ملأ الأسماع فى الأيام السود الداميـة ؟! أوله جيم أليس كذلك ؟ جا .. جـو .. جى .. يأبى ان يستجيب الى الذاكرة ، جوليون ! أوه كيف تسلل هذا الاسم البغيض الى وعيه ؟! هوى عليه كالتراب فأطفأ حماسه ، كيف لنا ان نلبى نداء الحماس والظفر مادام القلب ميتـا ! قلب ميت ؟! لم يكن ميتا منـذ دقيقة ، لا تستسلم للحزن ، لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة ، ألم تعاهد نفسك على النسيان ؟ بل انك نسيت بالفعل ، مريم .. من هى ؟ ! ذلك التاريخ القديم ؟ ! نحن نعيش للمستقبل لا للماضى .. جيز .. مستر جيز .. مستر جيز .. هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليـه ، عد الى الهتاف كى تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارىء . مضت « مظاهرته » تقترب رويدا من حديقة الازبكية التى لاحت اشجارها الباسـقة فوق الأعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رءوسا متلاصقة كأنها تنبت من جسـد واحد ملأ الأرض طولا وعرضا. كان يهتف بقوة وحماس والجمهور يردد هتافه بصوت ملأ الجو كهزيم الرعد . ولما شارفوا سور الحديقة دوت ـ على حين بغتة ـ فرقعـة حادة فشلت حنجرته وتلفت فيما حواليه متسائلا فى انزعاج ، صوت معهود كثيرا ما سك اذنيه فى الشهر المنصرم وكثيرا ما تردد صداه فى ذاكرته فى هـداة الليل بيد انه لم يستطع ان يألفه فما يكاد يدوى حتى يخطف دمه ويوقف قلبه عن الخفقان ..

ـ رصاص .. ؟ !

ـ غير معقول ، ألم يصرحوا بالمظاهرة ؟..

ـ اسقطت من حسابك الغدر ؟

ـ ولكن لا أرى جنودا ..؟!

ـ حديقة الازبكية معسكر هائل مكتظ بهم ..

ـ لعلها فرقعة عجلة سيارة ...

ـ لعلها ..!

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب الى السكينة . وماهى الا لحظات حتى دوت فرقعة ثانية .. آه .. لم يعد ثمة شك ، رصاصة كسابقتها ، اين ياترى استقرت ؟ أليس يوم سلام ؟! شعر بحركة اضطراب تسرى بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة التى تدفعها الى الشاطىء باخرة تمخر وسط النهر ، ثم تراجع الألوف وانتثروا باعثين فى كل ناحية دفعات جامحة جنونية من الاضطراب والارتباك والارتطام ، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف ، وسرعان ماانتثرت الصفوف المتناسقة وانهد البنيان المشيد تلاحقت جملة من الطلقات الحادة فتعالى صراخ الغضب وانين الألم . ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته الى جميع المنافذ لا تبقى على شىء فى طريقها ولا تذر . أهرب ، مامن الهرب بد ، ان لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام . هم بالهرب او بالتراجع أو حتى التحول عن موقفه ولكنه لم يفعل شيئا ، ما وقوفك وقد تشتت الجمع ؟! فى خلاء انت ، اهرب صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية . ما أشد الضوضاء ؛ ولكن بم علا صراخها ؟ هل تذكر ؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات . ماذا تريد ؟ أن تهتف ؟ اي هتاف ؟ أو هو نداء فحسب .. من ؟ ما ؟ فى باطنك يتكلم ، هل تسمع هل ترى ؟ ولكن أين ؟ لاشىء ، لاشىء ، ظلام فى ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب .. تصاحبها وشوشة ، باب الحديقة .. أليس كذلك ؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ، يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص فى هوادة ، السماء .. السماء ؟ منبسطة عالية . لا شىء الا السماء هادئة باسمة يقطر منها السلام ..

— ٧١ —

سمع السيد احمد عبد الجواد وقع اقدام على مدخل الدكان فرفع راسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبان يتقدمون نحوه تعلوهم سيماء الجد والرزانة حتى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون ـ السلام عليكم ورحمة الله فنهض السيد قائلا بادبه المعهود :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثم مشيرا الى الكراسى) تفضلوا

ولكنهم لم يلبوا الاشارة شاكرين وقال اوسطهم :

ـ حضرتك السيد أحمد عبد الجواد ؟

فقال السيد باسما وان لاح فى نظرة عينيه التساؤل :

ـ نعم يا سيدى ...

ماذا يريدون ياترى ؟ الشراء مستبعد.. ما للشراء والمشية العسكرية التى جاءوا عليها ! ما للشراء واللهجة الجدية التى يتكلمون بها ! ثم ان الساعة جاوزت السابعة مساء . الايرون الحمزاوى وهو يرفع الركائب الى الرفوف ايذانا باغلاق الدكان ؟ ايكونون من جامعى التبرعات ؟ لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة ، وانا لم أعد صالحا الآن الا للسهرة ! ياهؤلاء اعلموا انى لم اغسل راسى ووجهى بالكولونيا وامشط شعرى وشاربى واحبك جبتى وقفطانى كى ألقى وجوهكم ! ماذا تريدون ؟ غير انه خيل اليه وهو يرنو الى محدثه ان وجهه ليس غريبا عليه . رآه من قبل ؟ أين ؟ متى ؟ تذكر ، من المؤكد انه لا يراه لأول مرة ، آه ... قال باسما وقد شاع الارتياح فى وجهه :

ـ أليس حضرتك الشاب النبيل الذى تقدم لانقاذنا فى الوقت المناسب يوم حمل الناس علينا فى مسجد الحسين رضى الله عنه ؟

فقال الشاب بصوت خفيض :

ـ بلى يا سيدى ..

صدق ظنى ، يقول البلهاء ان الخمر تضعف الذاكرة ؟ لكن ما بالهم ينظرون الى هكذا ؟ انظر ، انظر ! هذه النظرات لا تنبيء عن خير ، اللهم اجعله خيرا ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبى ينقبض لأمر ما جاءوا لامر يتعلق بـ ...

ـ فهمى ؟!.. جئتم تريدونه .. لعلكم الا..

نكس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدج :

ـ مهمتنا شاقة يا سيدى ولكنها فرض واجب ، ربنا يلهمك الصبر !

مال السيد فجأة الى الأمام معتمدا على حافة المكتب وهتف :

ـ الصبر ؟! علام ! .. فهمى ؟! ..

قال الشاب بحزن بالغ :

ـ يؤسفنا أن ننعى اليك اخانا المجاهد فهمى احمد ..

صاح بلهجة منكرة وان لاحت فى عينيه نظرة قاطعة بالتصديق واليأس:

ـ فهمى ؟..

ـ استشهد فى مظاهرة اليوم ..

وقال الذى الى يمينه :

ـ انتقل الى جوار الأبرار وطنيا نبيلا وشهيدا كريما ..

تلقى كلماتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم الصمت شفتيه واسترسلت عيناه فى نظرة شاردة غائبة. مضت هنيهة خيم الصمت فيها عليهم اجمعين حتى جميل الحمزاوى تسمر تحت الرفوف ذاهلا يمد الى الرجل بصرا ملؤه الجزع ، اخيرا عاد الشاب يغمغم :

ـ لشد ما احزننا فقده ولكن ليس لنا الا ان نتلقى قضاء الله بصبر المؤمنين ، وانك لمن المؤمنين يا سيدى ..

انهم يعزونك ، لا يعلم هذا الشاب انك أول من يحسن القاء التعازى فى مثل هذا الموقف !.. ماذا تعنى هى للقلب المصاب ؟ لا شيء ! من أين للكلام أن يطفىء النار ؟ مهلا .. الم تخطر الرزية بقلبك قبل أن يتكلم قائلهم ؟ بلى .. تخايل لعينى شبح الموت ، الآن والموت حقيقة تلقى الى سمعك تأبى أن تصدق ، أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدق ، كيف اصدق أن فهمى مات حقا ، أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدق ، كيف ساعات فتثاقلت عنه،فهمى الذى تركنا هذا الصباح ممتلئا صحة وعافية وأملا وسرورا ، مات .. مات ! لن اراه بعد اليوم ! لا فى البيت ولا فى أى مكان من ظهر الأرض ؟.. كيف يكون البيت من غيره ؟ كيف أكون أبا بعده ؟ أين تذهب الآمال المعقودة عليه ؟ لم يعد ثمة أمل الا فى الصبر الصبر ؟ آه ... هل تشعر بوخز الألم الحاد ؟ هذا هو الألم حقا .. كنت تخدع أحيانا فتزعم انك متألم ، كلا ، لم تتألم قبل اليوم ، هذا هو الألم حقا ..

ــ سيدى ، شد حيلك وسلم أمرك الى الله ..
رفع السيد رأسه الى الشاب ، ثم قال بصوت مريض :
ــ ظننت عهد القتل قد انتهى ..
فقال الشاب بنبرات غاضبة :
ــ كانت مظاهرة اليوم مظاهرة سلمية ، وقد اذنت بها السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى الهيئات ، وسارت أول الأمر فى أمان حتى بلغ منتصفها حديقة الأزبكية ، وما ندرى الا والرصاص ينهال علينا من وراء السور بلا سبب ، لم يتعرض أحد للجنود لابخير ولابشر حتى الهتاف بالانجليزية امتنعنا عنه تفاديا من الاستفزاز . ولكن مسهم جنون القتل فجأة فعمدوا الى بنادقهم وأطلقوا النار . وقد انعقد الاجماع على توجيه احتجاج شديد الى دار الحماية ، بل قيل : ان اللنبى سيعلن أسفه عما بدر من الجنود ..
قال السيد بنفس اللهجة المريضة :
ــ ولكنه لن يرد حياة الى ميت ..
ــ واأسفاه ...
قال السيد بتفجع :
ــ لم يشترك فى المظاهرات الخطرة ، هذه أول مظاهرة ينضم اليها :
تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس أحدهم بكلمة .. وكأنما ضاق السيد بالحصار المضروب حوله فقال وهو يزفر :
ــ الأمر لصاحب الأمر ، أين أجده الآن ؟
قال الشاب :
ــ فى قصر العينى « ثم وهو يشير الى السيد متمهلا لما رآه يتعجل الذهاب » ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر شهيدا من اخواننا فى تمام الساعة الثالثة من مساء الغد ...
هتف السيد فى جزع :
ــ الا يترك لى تشييع جنازته من بيته !..
فقال الشاب بقوة :
ــ بل تشييع جنازته مع اخوانه فى احتفال شعبى ..
ثم برجاء :
ــ القصر محاصر الآن بقوات من البوليس ، ولاباس من الانتظار مادمنا نحرص على تمكين أهالى الشهداء من توديعهم قبل تشييع الجنازة ، لايليق

ان يشيع فهمى فى جنازة عادية كمن قضوا فى بيوتهم ..

ثم مد له يده مودعا وهو يقول :

- اصبر وما صبرك الا بالله ...

وصافحه الآخران مكررين له العزاء ، ثم ذهبوا جميعا .. أسند رأسه الى راحته وهو يغمض عينيه فجاءه صوت جميل الحمزاوى وهو يعزيه بنبرات باكية ولكنه بدا ضيق الصدر بالتعزية ، ولم يعد يحتمل البقاء فزايل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر الدكان ، ينبغى ان يخرج من حيرته ، فانه لايدرى حتى كيف يحزن ، يود لو يخلو الى نفسه ولكن أين ؟ سينقلب البيت جحيما بعد دقيقة أو دقيقتين ، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير .. متى يتأمل الخسارة التى منى بها متى يتهيأ له أن يغيب فيها عن الدنيا جميعا ؟ يبدو هذا بعيدا .. ولكنه آت لاريب فيه ، وهذا قصارى ما يجد من عزاء فى راهنه .. أجل سيأتى وقت يخلو فيه الى نفسه ويفرغ الى حزنه بكل كيانه ،هنالك ينعم النظر فى موقفه على ضوء الماضى والحاضر والمستقبل، أطوار حياته كلها من طفولته وصباه الى ريق شبابه، ماأثار من آمال وما خلف من ذكريات مطلقا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن آخرها، حقا ان أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعى للجزع ، انظر الى ذكرى الملاحاة التى نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة أو ذكرى مادار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب ، كم يستغرقان من وقته تأملا وتذكرا وشجنا ؟ كم يستهلكان من قلبه ؟ كم يهيجان دموعه ؟.. كيف يجزع والأيام تدخر له كل هذه السعادة ؟ رفع رأسه المثقل بالفكر فلاحت لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر أمينة لأول مرة حتى اوشكت أن تخونه قدماه .. ما عسى ان يقول لها ؟ كيف تتلقى الخبر ؟ ... الضعيفة الرقيقة التى تبكى لمصرع عصفور !... اتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولى اللبان ؟! ماذا تصنع لمقتل فهمى ؟ .. مقتل فهمى !.. أهذه هى نهايتك حقا يابنى ؟... يابنى العزيز التعيس !.. امينة .. ابننا قتل ، فهمى قتل .. ياله .. أتأمر بمنع الصوات كما أمرت بمنع الزغاريد من قبل ؟.. أم تصوت بنفسك ؟.. أم تدعو النائحات ؟ ! ... لعلها تتوسط الآن مجلس القهوة بين ياسين وكمال متسائلة عما أخر فهمى ، سوف يتأخر طويلا ، لن تريه أبدا .. ولاجثته.

ولا نعشه ، يا للقسوة ، سأراه انا فى القصر اما أنت فلن تريه ، لن اسمح بهذا .. قسوة أم رحمة ؟ ما الفائدة ؟.. وجد نفسه أمام الباب فامتدت يده الى المطرقة ثم تذكر أن المفتاح فى جيبه فأخرجه وفتح الباب ثم دخل .. ترامى عند ذاك الى سمعه صوت كمال وهو يغنى بعذوبة :

زورونى كل سنة مرة　　　حرام الهجر بالمرة

تمت

((نجيب محفوظ))

للمؤلف

((قصر الشوق))

((السكرية))

وهى تصور فترة اخرى من حياة هذه الأسرة ...

للمؤلف

		الطبعة الأولى	الطبعة الثانية
مصر القديمة	(مترجم من الإنجليزية)	١٩٣٢	
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	
رادوبيس	» »	١٩٤٣	١٩٤٦
كفاح طيبة	» »	١٩٤٤	١٩٤٧
القاهرة الجديدة (فضيحة فى القاهرة)		١٩٤٥	١٩٥٣
خان الخليلى		١٩٤٦	١٩٥٤
زقاق المدق		١٩٤٧	١٩٥٥
السراب		١٩٤٨	
بداية ونهاية		١٩٤٩	١٩٥٦
بين القصرين	رواية من ثلاثة أجزاء	١٩٥٦	
قصر الشوق		١٩٥٧	
السكرية		١٩٥٧	